

# مفهوم العقيدة

عند الإمام مالك

تأليف  
أ/ سالم فرج صالح رحيد



2011



# مفهوم العقيدة عند الإمام مالك

( 93 . 179 هـ )

تأليف

أ. سالم فرج صالح رحيل



عنوان الكتاب : مفهوم العقيدة عند الإمام مالك (93 - 179هـ).  
المؤلف : الأستاذ سالم فرج صالح رحيل.  
سنة الطبع : 2010 - الطبعة الأولى.

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب  
دار الكتب الوطنية  
بنغازي - ليبيا

ردمك 0 - 00 - 000 - 000 - 000

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير للمؤلف وهي بعنوان:  
(العقيدة الإسلامية بين الفهم والممارسة عند الإمام مالك بن أنس رحمه الله)  
بإشراف الأستاذ الدكتور: ياسين محمد  
جامعة الوسترن كيب / كيبتاون جمهورية جنوب أفريقيا  
العام الجامعي 2008-2009م

**Republic: South Africa**  
**University of the Western Cape**  
**Arts Faculty**  
**Title of the thesis :**  
**Islamic Belief : Imam Malik's Doctrine of Faith and Practice**  
**Name of candidate: Salim Faraj Salih Rhil**  
**Student Number: 2657082**  
**Proposed Degree: Masters Degree (M.A.)**  
**Department: Foreign Languages (Arabic and Islamic Section)**  
**Supervisors: Professor Yasin Mohamed.**





عن حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مريداً، كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه .

صدق رسول الله ﷺ

رواه مسلم.

ورقة بيضاء

## الإهداء

إلى المقتضين لسنن السابقين بإحسان إلى يوم الدين..  
إلى الباحثين عن طريقة السلف الصالح..  
إلى طلاب العلم الشرعي..  
إلى كل محب لأهل العلم..  
إلى النائين عن الجدال والمتحلين بخير الخصال لنيل  
المعارف واكتساب اللطائف بتؤدة العالمين وأخلاق الأئمة  
العاملين..

### أهدي هذا العمل.

وأسأل الله تعالى بمنه وكرمه  
أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

ورقة بيضاء

ظهر الإهداء

## Abstract

Imam Malik b. Anas (d.179 A.H.) is an important intellectual figure in Islam. He is the author of the first hadith collection, the Muwatta, and is the founder of one of the four major Sunni schools of law. His contribution towards formulating a distinct legal school allows millions of Muslims daily to perform their daily rituals of worship. Previous research, however, has not given enough attention to a systematic study of his beliefs. This study intends to address this shortcoming.

My thesis examines the belief of imam Malik, particularly his concept of faith and the external expression thereof. It examines the first two eras of Islam, that of the Companions and Followers, which preceded him and their influence on his methodology of formulating his theological and legal views. It further looks at his approach to the textual evidences and his attitude towards speculative reasoning (*kalam*) regarding theological issues.

This study further aims to verify the statements attributed to imam Malik regarding what constitutes correct faith and whether it increases or decreases. It also looks at the conflicting statements attributed to him regarding the increase and decrease of faith and tries to resolve them. Furthermore, it sources reliable biographical information on imam Malik to determine his attitude towards the diverse theological trends such as the Qadarites and Murji'ites prevalent during his time. In addition, the study compares the views of imam Malik with that of the other three founders of the Sunni legal schools.



## الخلاصة

إن الإمام مالك رحمه الله كان أحد أهم علماء الإسلام في القرن الثاني الهجري، ويعتبر أول من ألف في علم الحديث، كما ويعتبر كتابه الموطأ من أول ما كتب في هذا الشأن، ويعد كثير من العلماء الإمام مالك في طليعة المؤسسين لمدرسة أهل الأثر في المدينة المنورة، ومذهبه منتشر في كثير من بلدان العالم الإسلامي اليوم.

وعلى الرغم من هذه المكانة العالية لهذا الإمام، وما له من آراء برّاقة لها تأثير إيجابي في الفكر الإسلامي، إلا أن غالبية الدراسات التي تناولت آراءه بالعرض والتحليل، كانت في أكثر الأحيان تتناول الجوانب الفقهية المتعلقة بالعبادات وأحكامها، ولم تركز على منهجه في العقيدة، وفي بحثنا هذا سنحاول أن نركز على الآراء العقيدية للإمام مالك، وخصوصاً ما يتعلق بمفهومه للعقيدة الإسلامية (ممارسة وتطبيقاً)، وسيكون بحثنا هذا مناقشاً لعصر الصحابة والتابعين، وكيف أثر هذا العصر في آرائه العقيدية والفقهية.

وتتناول هذه الدراسة كذلك - منهجية الإمام مالك في التعامل مع الأدلة الشرعية، ورأيه في علم الكلام ومناقشة الأدلة النقلية في مسائل العقيدة المختلفة.

وتهدف هذه الدراسة أيضاً إلى الوقوف على أقواله في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ومناقشة الآراء الواردة عنه في هذا الصدد،

ومحاولة الجمع بينها .  
وتترجم الدراسة أيضاً لشخصيته من المصادر الموثوقة، وآرائه في  
الطوائف الكلامية المختلفة كالمعتزلة، والقدرية، والمرجئة، وغيرها .  
كما سيكون البحث فرصة للمقارنة بين أقوال الإمام مالك  
وغيره من أئمة المذاهب .

## المقدمة

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بالنعمة، صاحب العظمة، الذي جعل الأعمال الصالحة علامة القلوب الطاهرة، والأعمال الدنيئة دلالة على الأنفس الرزية، من زكى نفسه وارتفع بها، كانت له النجاة منها، ومن غاص في قعرها وانخس، خرج منها مفلساً، والعبرة بالخاتمة .

ونشهد أنه الواحد، لا ولد له ولا والد، شهادة نرجو بها الثبات في الدنيا، وجوازاً على الصراط في العُليا، ونشهد أنه لعبد محمد أرسل، وأمره بالبلاغ فتحمل، وأمره بالبشارة فبشّر، وبالتحذير فحذّر، فعليه منا الصلاة والتسليم، وهو الموصوف في الكتاب بقوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فاللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

## وبعد:

إن موضوع هذا البحث: (مفهوم العقيدة عند الإمام مالك)، عنوان الدراسة في عقيدة الإمام مالك إمام دار الهجرة، وأصل هذا الموضوع رسالتنا للماجستير بعنوان (العقيدة الإسلامية بين الفهم والممارسة عند الإمام مالك بن أنس)، ومما دعاني للكتابة في هذا الموضوع؛ مكانة الإمام مالك بين علماء السلف، التي يعرفها العام والخاص والكبير والصغير، فهو ليس إماماً من أئمة المذاهب الفقهية المشهورة فحسب، بل كان عالماً من علماء الأمة الذين سخرهم الله

لخدمة هذا الدين، فأمات به البدعة، وأحيا به السنة، ولقد كان لعلم الإمام مالك دورٌ كبيرٌ في ظهور علمٍ جديدٍ من علوم الدين، حيث وضع الإمام مالك لبنةً أصيلةً من لبناته، ألا وهو علم الحديث وروايته، والتحرّي في طلبه واختيار رجاله، حتى أنه أثر عنه قوله: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو أئتمن على بيت مال المؤمنين لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن"<sup>(1)</sup>.

الميل للآراء وتفشي آفة الجدل بين أوساط المثقفين الإسلاميين في مسائل العقيدة، وتخطئة كل فريق للآخر، وسقوط المتمنّهجين الذين يعتقدون التزام الطُّرق شرطاً في صحة الإيمان، بما لم يكن للسلف الأول عهد بمثله، مما يجعل الحاجة ملحة للكتابة في مفهوم السلف لمسائل الاعتقاد .

قناعتنا بأن المتأخرين مهما بلغوا من العلم، وأوتوا من وسائل المعرفة الحديثة، فإنهم لن يسعهم إلا التقليد في قضايا الاعتقاد، لأن السلامة في الاتباع، وما وصلنا الدين إلا على أكتاف هؤلاء الذين

1 - القاضي عياض بن موسى، ترتيب المدارك، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف، المغرب، 1982، ج1 ص33. وانظر: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت، 1988م، ج5 ص351 .

أخذوا على كواهلهم أعباء تبليغه وتنقيته من وضع الأفاكين وبدع الغالين، كما جاء في الحديث "يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين"<sup>(1)</sup>.

فأردنا من خلال دراسة عقيدة هذا العالم الجليل تصحيح الأفهام، والعودة إلى الجذور والأصول، حتى لا يظن كل من هب ودب أن له الأمر، وإليه الخيار في أن يقول ما يقول، في مسائل أمسك عنها الأولون، وحذر من الخوض فيها والتكلم عنها جهابذة النقاد، وأعلام العلماء، ليُعلم أن السلامة في سلوك منهجهم، والنجاة في السير على سنتهم، والله من وراء القصد، ونسأله تعالى الإخلاص في النية، والتوفيق في العمل، فهو بكل جميل كفييل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

سالم رحيل  
2010 / 7 / 30م

1 . السنن الكبرى للبيهقي، ج 10 ص 209 .

## بين يدي البحث :

لقد كان لعصر النبوة وما بعده تأثير في تكوين شخصية مالك، ولقد أسهمت الحياة الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، التي عاشها المسلمون في الطور المدني، وما كان في القرن الأول زمن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مواقف أثرت التاريخ الإسلامي، وأنتجت نوابغ وعلماء، كان لهم عظيم الأثر في تكوين العلوم الإسلامية .

ثم إن الثقافات المختلفة التي كانت في المجتمع المسلم، عهد الصحابة والتابعين، وما تبع ذلك من مدارس تربوية، اتخذت من النُصرة للدين، والقيام بأعباء الدعوة، ونشر لإسلام في مختلف بقاع الأرض، والفتوحات الإسلامية التي قامت في العهد الرشيد، وما أعقبه من خلافة إسلامية نتج عنها قيام دولتين فتيّتين، هما: الدولة الأموية في الشام (132/72هـ)، ثم الدولة العباسية في العراق (232/132هـ) ووصول المد الإسلامي إلى بلاد الهند وبلوغة الأندلس غرباً . ومع كل هذه الفتوحات، ورغم دخول الناس في دين الله أفواجا، وتزايد عدد الثقافات - فلم يجد الداخلون في الدين الجديد أن هذا الدين غريب عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وذلك لما حبا الله به هذه الأمة من أناسٍ اتخذوا العلم طريقاً لنصرة الدين، والذود عن حياض الإسلام، وكان من خيرة هؤلاء الناس وأعلمهم، وأفقههم إمام دار الهجرة، وعالم المدينة .(مالك بن أنس

## الأصبحي اليمني).

ولد مالك بالمدينة المنورة - سنة 93 هـ - من والدين عربيين، وكانت ولادته في المدينة المنورة حاضنة العلم في ذلك الزمان، ومهبط الوحي من قبل، ثم نشأ وترعرع في بيت علم وفضل، مما هيأ له حياة حافلة بالعلم، في أحضان بلد العلم والإيمان، وترقى في العلوم ببراعة وذكاء وسخر الله له من أهل العلم والفضل ما كان سبباً فيما وصل إليه، وحببه إلى طلبة العلم فكانوا يأتون المدينة للتعلم من علمه، وكان أهل العلم يقصدونه كذلك ليستفتوه فيما يستجد من أحداث ومسائل، وعاش طيلة عمره مكافحاً في سبيل إحياء السنة وإماتة البدعة، ولقد كان له شأن عظيم عند العام والخاص، والأمرء والعلماء، حتى صار لا يقطع أمر من دونه، ولا يستفتى في مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غيره، ولقد عاش عمراً مديداً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى توفاه الله سنة 179 هـ عن عمر ناهز الستة والثمانين عاماً.

وطيلة هذا العمر عرف عنه توقيره للعلماء، وتوقير العلماء له، واحترامه للخلفاء، واحترام الخلفاء له، والمشهور عنه - رحمه الله - أنه كان يرى أن الإيمان والإسلام هما الدين، ولا يصح الإسلام الذي هو عمل الجوارح، من دون الإيمان الذي هو اعتقاد القلب، وكان يقول: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص" ولقد كان هذا مبدؤه في الفتوى، وهكذا كان تعامله مع النصوص من كتاب وسنة، وكان يرى أنه لا



يجوز التفريق بين الكتاب والسنة، فالإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالسنة فهما لا يفترقان، والنبى - صلى الله عليه وسلم - قد أوتي القرآن ومثله معه، فما أُجمل في القرآن فصل في السنّة، وما لم يذكر مفصلاً في كتاب الله، جاء مفصلاً في أحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وكان أبغض الأمور عنده البدع في الدين، حيث كان يرى أن فيما بلغنا من سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الغنى والنجاة، وأن الابتداع في الدين يضر ولا ينفع، وأبغض أول ما أبغض - بدعة سب الصحابة التي ظهرت في زمن الفتنة، ورأى أن أهلها لاحظاً لهم في فيء المسلمين وأنهم زنادقة مارقون من الدين .

ومما اشتهر عند مالك، أن الفهم مقترن بما له أصل شرعي، وأن الفهم مرتبط بالممارسة، فالممارسة فهم للدين، والفهم ممارسته، بمعنى أن الدين إنما وصل إلينا عن طريق الصحابة الذين فهموا أصول الدين وقواعده، وطبقوها واقعاً عملياً، ثم إنهم عرفوا ما تقتضيه النصوص الشرعية التي أمر الله بها لإصلاح العباد والبلاد، وأن العقيدة كما هي مقترنة بالعمل، فإن العمل كذلك مقترن بها، وأن الله تعالى من سنته أنه حجب عنّا ما للعبادة من معانٍ خاصة، وأنه قد يتجلى شيء من هذه المعاني تدركه العقول، ولكن مشيئته سبحانه قضت بعدم إدراك الحكمة لهذه العبادات، مع ما قد يدركه بعض العارفين من حكم، تتمثل في طمأنينة القلب، وراحة النفس

وسكينتها، وأن الفهم الصحيح لمقتضى النصوص يستلزم أن لا نأخذ من الدين ما نريد، ونترك ما لا نريد، أو نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، بل الدين كلُّ لا يتجزأ .

إن فهم مالك للنصوص وما تقتضيه، حمله - رحمه الله - على الدقة في تلقي السنَّة أولاً، ثم فهم النصوص وفق ما فهمها السلف الصالح، وأنه رحمه الله لم يكن يتعداها إلى غيرها، وكان غاية اجتهاده مع وجود النص، هو تتبع مصدره، وراويه، وترجيحه على غيره، أو مقارنته مع عمل صحابي من فقهاء الصحابة، أو من فقهاء التابعين، لتكتمل له الحسنيين، الجمع بين النص، وعمل أهل المدينة، وكان اختياره لعملهم دليلاً في مذهبه، وذلك لأنهم عاينوا المشاهد، وخبروا المواقف، ووقفوا على ما لم يقف عليه غيرهم .

ومع ظهور الفرق وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً، كان لابد لعالم مثل مالك، أن يكون له سيفٌ بتار يجمع به الفتنة، ويزيل به الغمة عن أمة الإسلام وسنة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، السنة التي نذر نفسه للذود عنها والدفاع عن حياضها، ولذا فقد أتبع عدة طرق في محاربة هذه الفرق والطوائف وأربابها من مدعي الفلسفة والتكلم في الدين، فبالهجر والإعراض عن جهلهم تارة، وبالتحذير منهم، ومن خطرهم تارة أخرى، وبالمجاهرة بعداوتهم وفضحهم عند العامة إذا لم يجد معهم أسلوب الهجر، وبالنصح للولاة بالقضاء عليهم وتصفييتهم نهائياً - لتتخلص الأمة من شرهم، وليصحوا هم من غيبوبتهم، وقد

كان هذا مذهبه، ومذهب تلامذته وأقرانه، بل ولم يرد عن واحدٍ من السلف مخالفة مالك في رأيه في الفرق الضالة من القدرية والجهمية وغيرهم، ولقد كان له دورٌ كبيرٌ في القضاء على أصحاب هذه الآراء الضالة والفرق المنحرفة، ثم إن المذهب المالكي وأعلامه وجهابذته بريئون كل البراءة من الابتداع في الدين، أو الإحداث فيه بغير ما شرع الله، ولقد عُرف المالكية على مرّ التاريخ بمحاربة البدعة وإحياء السنة، بل و نجد في كتب المالكية المعول عليها - كالموطأ والمدونة والرسالة وغيرها - أن البدع والأهواء عندهم ممقوتةٌ ليس في شأن المعتقدات فحسب، بل وحتى في الأمور التعبدية التي هي من قبيل المستحبات، ولا يخلو كتابٌ واحدٌ من كتب السادة المالكية إلا وفيه التحذير من البدعة، والحثُّ على السنة .

ولقد كان للمدرسة القيروانية، وتلاميذ المذهب في المغرب خاصةً وشمال أفريقيا عامةً، كبيرُ الفضل في إحياء المذهب المالكي، بل نكاد نعتقد أن المذهب المالكي يدين للمغرب بالفضل في انتشاره وتوسعه في العالم الإسلامي حتى اليوم، ولقد تأثر المغاربة بالمذهب المالكي، حتى إنك لتكاد تلمس ذلك في أدبيات المغاربة، بحيث أُعطي المذهب طابعاً خاصاً، واكتسب علمه وتراثه مكانةً رفيعةً، جعلته من أثرى مذاهب أهل السنة والجماعة رأياً وتأليفاً، وذلك لكثرة مريديه والمؤلفين في فقه مالك وسيرته، ولقد اعتمد المغاربة الأوائل أسلوب نظم القوافي والأشعار للمحافظة على أصول المذهب في

منظومات مقفيات، جعلت المصنفات في المذهب المالكي من أكثر المؤلفات محافظةً على النص، ومن أجملها عبارة، ومن أعظمها استحساناً .

## تمهيد

إن العقيدة من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالإنسان مجبول على الاحتياج إلى العقيدة والإيمان بالغيب، فإما أن يعتقد حقاً ويؤمن حقاً ويعرف طريقه للنجاة عن حق وصدق، ويمتلئ قلبه بالإيمان الصادق، واليقين والحق، وإلا فإنه سيمتلئ بالباطل والزور والكذب، وهو مع هذا كله يحس أن العقيدة ملاذه وخلصه الذي يحتاج إليه في الملمات، ويطلبه في المهمات، هذه العقيدة التي تكتسب كل هذه الأهمية، جديرة بأن تأخذ حظاً وافياً من البحث والتحليل، والدراسة المبنية على الوعي والإدراك والإقناع .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن كثيراً من المسلمين في زماننا اليوم لا يعلمون حقيقة التشريع الإسلامي، ولا يدركون ماهية العقيدة بحق، وما ينبغي أن يكون عليه المسلم، ليكون ممن تنطبق عليهم الآية الكريمة حيث يقول الله عز وجل فيهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (1).

ولقد كانت المدينة مهبط وحي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقبله السالكين ومنازة القاصدين، لما لها من مكانة عالية في نفوس المؤمنين، فالعلم علم أهل المدينة "والإيمان يَأرَزُ" إلى المدينة كما جاء في الحديث الشريف، ولقد برز كثير من الصحابة للعلم، كأمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي، وعائشة، وأبي هريرة، وابن عمرو وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وجاء من بعدهم من استلهم آثارهم واستن بسنتهم وسار على طريقهم من التابعين، مثل: نافع وابن هرمز وابن شهاب وغيرهم، ثم تتابع العلم كإبراً عن كابر، ووارثاً عن وارث، وتصدر من هؤلاء فقهاء وعلماء من أمثال الأوزاعي، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، ومالك، وغيرهم رحمهم الله جميعاً .

واشتهر من هؤلاء عالمٌ جليلٌ وفقيةٌ فحلٌ - ألا وهو إمام دار الهجرة "مالك ابن أنس الأصبحي" لقد كان لظهور هذا النجم أثرٌ بالغٌ في التراث الإسلامي برمته، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن الإمام مالك بن أنس، كان علماً بارزاً في زمانه، ونجم عصره على حد قول تلميذه الشافعي، فقد كان يقول: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم"<sup>(1)</sup>،

• أرز، يَأرَزُ: ثبت وتجمع ( القاموس المحيط، للفيروزابادي، تحقيق الطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1980.

1 - القاضي عياض بن موسى، ترتيب المدارك، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف، المغرب، 1982، ج 1 ص 26.

فهو الإمام العلم الذي صحَّح كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي أراد أهلها أن يلصقوها بدين الإسلام، كما أنه أزال كثيراً من الشبهات التي حاول البعض أن يلحقها بعلماء ذلك العصر ظلماً وعدواناً، مما كانت العلماء منه براء، وكثيراً ما كان يُتَّهم العلماء في ذلك العصر بالتملق للسلطين على حساب دينهم ومروءتهم.

لقد أسقط الإمام - رحمه الله - هذه المفاهيم الخاطئة، وأبان بعبق نفسه وشجاعته وإيمانه أن للعالم كرامته وهيئته التي لا تهتز، وأن عنده من الهمة والشجاعة إذا جد الجد ما لا يوجد عند غيره، ومن ذاك ما حدث له من محنة بسبب وشاية وشاها به من لا خلاق له، ابتلي على إثرها الإمام مالك، واقتيد مكبلاً وجُلد وعُدب، ليرجع عن فتواه بعدم وقوع طلاق المُكره، ولكن الإمام رحمه الله ثبت على المبدأ، وتمسك بما يعتقد أنه الحق، واقتيد على بغلة في وسط شوارع المدينة فصار ينادي في ثبات: "أيها الناس أنا مالك بن أنس، من لم يعرفني فليعرفني، ها أنا أجلد وأعدب على أن أقول بوقوع طلاق المكره، ولا أقول به فاحفظوا عني هذا"<sup>(1)</sup>.

ومن أهم ما كان يُعتبر أصلاً من أصوله - رحمه الله - أنه كان يعتبر أن "الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص"، مما يدل على ما كان

1. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن محمد الحنبلي، الدار العربية، القاهرة،



مُوطاً في مُوطئه ومذهبه، فهو يعتبر الأعمال جزءاً من مفهوم الإيمان، والإيمان جزءاً من الأعمال، وأعمال القلوب متداخلة مع أعمال الجوارح والعكس، فلا تكاد تجده يفرق بين الإيمان والإسلام - إلا من حيث دلالة كل من معانيهما على معنى مخصوص بعينه - فنجده يتكلم عن الجميع بمسمى الدين.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية هي العقيدة الصحيحة، المتمشية مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، الآخذة بعين الاعتبار احترام آدمية الإنسان وكرامته، وتقدير عقله وتفكيره، حائئة أتباعها على التفكير والتدبر في آيات الله الكونية، فقد كان للإمام مالك ومذهبه أثرٌ كبيرٌ في إبراز هذه العقيدة، وما كان لها من معاني عظيمة، ولقد أسهم - رحمه الله - في تصفيتها وتنقيتها من الخرافات والشوائب التي ألصقتها بها بعض الجهلة، إما قولاً في الإسلام بغير علم، أو إرضاءً لهوى، أو تملقاً لصاحب سلطان أو جاهٍ أو منصب .

ومن هنا كان دور العلماء كبيراً، والمسؤولية الملقاة على عواتقهم عظيمة، فهم من أحسن الناس وأفضلهم إذا هم بلغوا رسالة الله، ونصحوا وأرشدوا، عن ثباتٍ ويقين وإخلاصٍ لله تعالى للفوز بحسنتي الدنيا والآخرة، ولقد كان أيضاً للعلماء والأئمة في القرن الأول فضلٌ كبيرٌ وجهودٌ عالية، تُقطف ثمارها على مرّ الأجيال، ويُستظل في ظلها المنيف من لظى الفتن وتقلبات الزمان، وإن أجل هذه العلوم التي عني بها الأولون - علم العقيدة وتوحيد الله تبارك وتعالى،

ومدى ارتباطهما بالأعمال الصالحة، ومدى فهم هذا المعنى وتأصله في عقيدة المسلمين، لينالوا الفوز برضوان الله من خلال الامتثال لأوامره، وتطبيق هذه العقيدة واقعاً عملياً، حتى يُعطى لهذا الدين قدره، وترتفع بممارسته درجة أهله ومعتقيه، ولقد كان للإمام مالك - رحمه الله - الدور الكبير في إيصال هذه المعاني السامية، وهداية الناس إلى طريق الحق والهدى والخير.

ولهذا يعدُّ الإمام مالك - إمام دار الهجرة -، من المبرزين الأوائل في تاريخ علماء الإسلام، للذود عن الدين والدفاع عن السنة، وتأصيل العقيدة وتقوية ارتباطها بالعبادات، وأن الدين كلُّ لا يتجزأ، فالعقائد تصدقها الأعمال، ولقد كان كذلك لتلاميذه وأقرانه الدور الكبير في تصحيح كثير من المفاهيم التي طرأت على المجتمع المسلم، ولم يكن الإمام مالك وحده متصدياً لكل الخرافات والفتن في عصره، بل قيض الله - تبارك وتعالى - علماء أجلاء وأئمةً أعلاماً، كأمثال أبي حنيفة النعمان في الكوفة، والشافعي في مكة ثم مصر، وأحمد بن حنبل في الحجاز، وغيرهم من علماء التابعين.

لقد كان للإمام مالك - رحمه الله - مراسلات واتصالات مع أقرانه من العلماء، لتأصيل الفتاوى والحزم مع المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة، ولم يقتصر الأمر على اتصاله بالعلماء فقط بل كان له - رحمه الله - جراً في الحق بإيصاله للسلطين والخلفاء بحكمة العالم، وحزم المجاهد القائم على ثغور الإسلام، ومن أمثلة ذلك ما

قاله رحمه الله للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وابنه المهدي وغيرهما في حكم الله تعالى في القدرية، وأنهم وأشباههم ممن يقولون بخلق القرآن، أو يكفرون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعطون من الشيء شيئاً، وقال بكفرهم ولم تأخذه فيهم لومة لائم.

وسيتبين لك أخي القارئ الكريم - إن شاء الله - من خلال ما اخترناه من تقسيم لفصول هذا البحث، ما لهذا الإمام من قدر، وما لهذا الموضوع من أهمية .

والله نسأل أن يعيننا، ويوفقنا إلى ما نصبو إليه، إنه خير مسؤول، وأرجى مأمول.

## الفصل الأول

### مالك بين عصر النبوة وبعده

المبحث الأول . الحياة الثقافية والاجتماعية

والسياسية في عصر النبوة :

المطلب الأول : الحياة الثقافية .

المطلب الثاني : الحياة الاجتماعية .

المطلب الثالث : الحياة السياسية .

المطلب الرابع : الحياة السياسية والثقافية قبيل

وأثناء عصر الإمام مالك .

المبحث الثاني . الحالة الثقافية والاجتماعية والسياسية

قبيل وأثناء عصر مالك :

المطلب الأول : الطبيعة العلمية بعد وفاة الرسول ﷺ .

المطلب الثاني : الطبيعة العلمية في عصر مالك .

المبحث الثالث . تعريف بالإمام مالك وسيرته :

المطلب الأول : مالك وطلبه للعلم وانتقاؤه للأشياخ .

المطلب الثاني : منهج الإمام مالك .

المطلب الثالث : مكانة الإمام مالك العلمية .

المطلب الرابع : سمته وأخلاقه .

المطلب الخامس : وفاته ومآثره .

ورقة بيضاء  
( ظهر عنوان الفصل الأول )

## الفصل الأول

### مالك بين عصر النبوة وبعده

#### المبحث الأول - الحياة الثقافية والاجتماعية

#### والسياسية في عصر النبوة :

##### المطلب الأول - الحياة الثقافية :

كان المجتمع المدني قبل مجيء الإسلام تسوده الحروب والمطاحنات بين القبيلتين العربيتين الأوس والخزرج، وكان يغذي الفتنة ويوقد نارها في ذلك العصر - اليهود، من بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، وكانوا يتوعدون العرب بقدوم النبي الجديد، نبي آخر الزمان، وكان هذا من بين الأسباب التي شرح الله بها صدور الأنصار من الأوس والخزرج إلى الإسلام، حيث شهد بصدقه - صلى الله عليه وسلم -، العدو قبل الصديق، وقد قال له الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾<sup>(1)</sup> حيث صرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة، بأنه يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحزنه ما يقوله الكفار من التكذيب والأذى، وقد نهاه الله تعالى عن هذا الحزن المفرط عليهم في مواضع أخرى من كتاب الله منها قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

1 - سورة الأنعام الآية 33 .

2 - سورة فاطر الآية 8 .

ومع هذا فهم في قرارة أنفسهم يعلمون صدقه، ولكن دفعهم العناد والكبر إلى تكذيبه، عليه الصلاة والسلام .

و مما يشهد بذلك، قصة إسلام عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - وقد كان حبراً من أحناب اليهود، وأعظمهم شأنًا، وأكرمهم خلقاً، فلما سمع بمقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة في بني النجار، جاءه مستعجلاً، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي، ولما سمع ردوده - صلى الله عليه وسلم - عليها آمن به ساعته ومكانه، ثم قال له: إن اليهود قوم بُهتٌ، إن علموا بإسلامي قيل أن تسألهم بهتوني عندك، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءت اليهود، ودخل عبد الله بن سلام البيت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أفرايتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاده الله من ذلك، مرتين أو ثلاثاً، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: شرُّنا وابن شرُّنا، ووقعوا فيه، وفي لفظ: فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت<sup>(1)</sup>، فانظر إلى صدق عبد الله ابن سلام - رضي الله عنه - وإلى زيغ قومه وضلالهم .

ويقال أن فيه نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ

1 - صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ج3 ص250. وانظر: صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الجامعة السلفية، الهند، طباعة المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ص 175.



وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

ومع هذا فقد كان المجتمع الإسلامي في المدينة مجتمع دعوة، كلُّ يحاول أن يخدم الإسلام بما يستطيع، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - حريصاً على تعليمهم الدين والعلم، ومن ذلك قبوله عليه الصلاة والسلام أن تكون الفدية لأسرى المشركين يوم بدر، تعليم عشرة من المسلمين لقاء إطلاق سراح أسير واحد من المشركين، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداءً دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداءً له (٢).

#### المظاهر الثقافية :

تعددت المظاهر الثقافية في المجتمع الإسلامي زمن الوحي، ومنها أن الصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم فنون، وآداب، وشعرٌ وطب وعمارة، وعلى الرغم من محدودية ذلك إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم، كان جل اهتمامهم بالعلوم التي تخدم الدين، وعلى رغم كونهم أمة أمية، فكان منهم من يوصف بالعلم والحكمة، كما وصف النبي - صلى الله عليه وسلم -، علياً - رضي الله عنه -، وكان قد زوجه ابنته فاطمة - رضي الله عنها -، فقالت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : (لقد زوجتُكهُ وإنه لأول البطن!) فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (لقد زوجتُكهُ وإنه لأول

1 - سورة الأحقاف الآية 10 .

2 - عيون الأثر، ج1 ص373، سبل الهدى والرشاد، ص469 . وانظر : صفى الدين

المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 221 .

أصحابي سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حِلماً<sup>(1)</sup>.

الطبيعة العلمية للمجتمع الإسلامي أثناء نزول الوحي :

أنزل الله عز وجل على نبيه محمدٍ - صلى الله عليه وسلم -، القرآن، وكان هو مصدر التشريع والنبي عليه الصلاة والسلام، يقضي بالوحي، والصحابة رضوان الله عليهم، يستقون من النبع الصافي، ومن المعلم الأول مباشرةً من دون واسطةٍ، يعلمهم القرآن والسنة، وينصتون إلى تعاليمه بكل انتباه، همهم مرضاة الله ورسوله، وإذا أشكل عليهم شيءٌ، أو التبتت عليهم مسألةٌ، فإنهم يذهبون إلى الحبيب مباشرةً، يشكون إليه مشاكلهم، ويستفتونه في شؤونهم، ومع هذا فهم يقومون بأعباء الدعوة خير قيام، من جهادٍ، وتبليغٍ، ودعوة بالموعظة الحسنة .

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نُفِرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

قال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجيوش، أمرهم الله أن يغزوا بنبيه - صلى الله عليه وسلم -، وتقيم

1 - هذه رواية الطبراني في الكبير، ج1ص66، رقم الحديث/154، وللحديث روايات في مسند الإمام أحمد، مسند معقل بن يسار، حديث رقم/19420، ومصنف ابن أبي شيبة، ج7ص550، حديث رقم/68. وانظر: يوسف الكاندهلوي، تحقيق: محمد شحاته إبراهيم، ومحمد زق، حياة الصحابة، دار المنار، الطبعة الأولى 1997م، ج3ص219.

2 - سورة التوبة الآية 122.

طائفةٌ مع رسول تتفقه في الدين، وتتطلق طائفةٌ تدعو قومها، وتذكرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم، وقال الضحاك: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا غزا بنفسه لم يحل لأحدٍ من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعدار، وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا استرى ونزل قرآن، وتلاه نبي الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية، قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا، فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين<sup>(1)</sup>.

ومع قيام الصحابة بأعمال النُّصرة، وأعباء الدعوة والجهاد فإن منهم من كان له اهتمامات بالتفقه في أمور الدين، وتلقي العلم وتتبعه من المصدر الرئيسي، وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. لأنه المخبر عن رب العزة جل شأنه، كأمثال عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وغيرهم.

في الوقت الذي كان فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيهم، والوحي ينزل عليه من ربه، كان هذا هو المصدر الوحيد للتشريع، ومع ذلك كان للصحابة رضوان الله عليهم اجتهادات في عدة مسائل وقضايا مختلفة، كانت تهم المسلمين آنذاك، وكان عليه الصلاة والسلام يؤيد بعضها، ويرد بعضها، ويسكت عن بعضها، والقول الفصل له، وهو الذي يمثل السلطة العليا في ذلك المجتمع الفتى.

وقد وقع الاجتهاد زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -. يقول الإمام بن القيم رحمه الله: "وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -".

1 - تفسير ابن كثير، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى 1965م، ج2 ص 429 .

في كثيرٍ من الأحكام، ولم يعنفهم الرسول - صلى الله عليه وسلم -، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا في بني قريظة، فاجتهد بعضهم وصلاتها في الطريق، وقالوا: لم يرد منا التأخير، وإنما أراد سرعة النهوض، حيث نظروا إلى المعنى، واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة، فصلوها ليلاً، إذ نظروا إلى اللفظ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر، وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس"<sup>(1)</sup>، وهذا لا يعني أن هذه هي مظاهر الثقافة فحسب بل كان هناك عدة ثقافات في مجتمع الصحابة، تمثلت في الدعوة، والشعر، وغيرها من أدبيات الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر، وتبوأ الصحابة المكانة العالية الرفيعة فيها .

### المطلب الثاني . الحياة الاجتماعية :

بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمةٍ تعظم الأنساب، وتحترم الأسرة والقبيلة، على الرغم من بعض مظاهر الجاهلية التي كانت سائدة، قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام، كوأد البنات، وبعض الأنكحة الفاسدة، كنكاح الاستبضاع<sup>(\*)</sup>، وبعض مظاهر الدعارة التي قضى عليها

1 - الإمام ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العلمين، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، أمام جامعة الأزهر، مصر، (بدون تاريخ طباعة)، ص 45 وانظر: سيد محمد موسى توانا، رسالة دكتوراه، الاجتهاد ومدى حاجة الناس إليه في هذا العصر، دار الكتب الحديثة، مصر 1972، ص 30 .

• - نكاح الاستبضاع، من الأنكحة الفاسدة التي كانت سائدة في الجاهلية، فقد كان الرجل في الجاهلية يقول لامرأته أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه حتى يتبين حملها من ذلك الرجل .

الإسلام<sup>(1)</sup>، ومع هذا فقد كانت في أشرافهم من مظاهر العفة والشرف ما يفوق الوصف، وقد جاء الإسلام وعزز هذه المظاهر الاجتماعية القوية، ونظّمها فنظّم الزواج وحكّمه ووضع له شروطه، وبين أن العلاقة مع الرجل وزوجته علاقة مودة ورحمة، وعلاقة ألفة وعطف، قال تعالى ممتناً على عباده بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

وبيّن أن النساء شقائق الرجال لهن مالهم، وعليهن ما عليهم، كل حسب ما هياه الله تعالى له من خصائص، بحيث لا تأخذ المرأة وظيفة الرجل، ولا العكس، وجدير بالذكر أن نذكر هنا - أن الإسلام وجد المرأة محرومة، مضطهدة مهانة، سلعة تباع وتشترى، يستعملها الرجل لمتعته وإشباع غرائزه، ففضى على كل ذلك وبين أن لها حقوقاً تصان في هذا الدين، وأنها كائنٌ محترم وعنصرٌ بناء، وأن لها حقوقاً في الميراث، ولها الحق في اختيار الزوج الذي ترضاه، وازدان المجتمع الإسلامي بمبادئه التي صيرت المرأة الموهودة في الجاهلية - فخراً للمجتمع بالعلم والفضل - حيث نالت حظاً وافراً من العلم والمعرفة، وشريكة مساوية في الحقوق مع الرجل، وأصبحت لها قيمة إنسانية عالية، وصار من أزواجه عليه الصلاة والسلام، المعلمات اللواتي لا يشقّ لهن غباراً، واللّاتي يرجع إليهن أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية، وغيرهم.

وكان عليه الصلاة والسلام يعقد حلقة الدرس للرجال والنساء، ثم

1 - الرحيق المختوم ، ص 42 .

2 - سورة الروم الآية 20 .

طلبت النساء لهن يوماً غير يوم الرجال، فكان لهن يومهن، وفي يوم الحديبية لم ينحر الناس، ولم يهدوا، ولم يحلقوا رؤوسهم، فأفضى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أم سلمة بما صنعوا، فأشارت عليه بأن ينحر، ويهدي، ويحل، واتبع مشورتها، فهدى الله الناس فصنعوا مثل ما صنع، وما كان رجوعه إليها إلا احتراماً لرأيها، وكانت سنته المشورة عليه الصلاة والسلام<sup>(1)</sup>.

### الأسرة وأحكامها :

كانت الحياة الاجتماعية في المدينة تبعاً للحياة الثقافية، فبعد مقدمه عليه الصلاة والسلام المدينة، صارت بيوتات المدينة، وعوائل المدينة - الرجال والنساء - الكل يتابع محمداً عليه الصلاة والسلام ويتطلع إلى أخباره، النساء في المدينة يتعلمن على أيدي أمهات المؤمنين، ويسألنهن عن أدق التفاصيل في الحياة الزوجية، وكيف تكون المعاملة المثلى للزوج، وما هي حقوق الزوجة على زوجها، وحقوق الزوج على زوجته، فقد نظم الإسلام الأسرة ووضع لها دستور حياة كفيل بأن يجعل الزوجين في غاية السعادة لو تمسكا به حق التمسك، وقاما به حق قيام، وقد بين القرآن الكريم حق كل من الزوجين على الآخر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(2)</sup>.

بين أحكام الطلاق، وكانت المسألة في الطلاق، أو في الظهار

1 - عبد الحلیم الجندي، مالك بن أنس إمام دار الهجرة - دار المعارف المصرية، 1969م

ص15

2 - سورة البقرة الآية 228

تطرح بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويضع لها الحل المناسب، بما يوحى إليه من ربه، في وسط هذا المجتمع المدني المتواضع، الذي بناه النبي - صلى الله عليه وسلم - على الألفة والمحبة، تطرح قضية مثل قضية الظهار أو الطلاق عليه، فيضع لها الحل الناجع من غير تعقيد ولا عداوات، ولا اعتداءات، والكل راضٍ بحكم الله ورسوله.

### المطلب الثالث . الحياة السياسية :

لقد كان للحياة السياسية في فجر الإسلام الأول تأثير كبير على نشأة العلوم والثقافات الإسلامية، وأثرت كذلك على الأجيال المتعاقبة من الصحابة والتابعين، من حيث نظرتهم للدين وشرائعه، وفهمهم لمقتضيات العقيدة الإسلامية، ويمكن تقسيم تطور المناهج السياسية في العهد الأول من الدولة الإسلامية الكبرى إلى النحو الآتي:

### الطبيعة السياسية للعهد النبوي :

وفق الله عز وجل نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم -، إلى خطوات كان لها الأثر الكبير في صيانة الدين، وقيام الدعوة، ونصرة التوحيد، كيف لا يكون كذلك، وهي الحكمة التي يهدي إليها الحق تبارك وتعالى من اصطفى من عباده، وقد قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَّاجاً مُنِيراً﴾<sup>(1)</sup>، وقد كان عليه الصلاة والسلام، بما يوحى إليه من الله تبارك

1 - سورة الأحزاب الآيتان 45 - 46

وتعالى هو المصدر الوحيد للتشريع، وكل أدلة القرآن تدل - كما قال الشاطبي - على أن ما جاء به الرسول، وكل أمرٍ أمر به ونهى عنه، فهو لاحقٌ في الحكم بما جاء به في القرآن<sup>(1)</sup>.

وقد اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، سياسات حكيمة، كان من شأنها تثبيت الأوضاع داخل المدينة، وإيجاد مجتمع متماسك داخل هذا البناء الجديد، ويمكن أن نلخص أهم السياسات التي اتبعها النبي - صلى الله عليه وسلم - طيلة أيام بعثته فيما يلي :

- الإسراع بالدعوة في أول بعثته عليه الصلاة والسلام .
- أمره للمستضعفين من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة .
- الدعوة للإسلام خارج مكة .
- مبايعة الأوس والخزرج للنبي - صلى الله عليه وسلم - على النصره والمنعة، على عامين، وهو ما يسميه أهل السير ببيعتي العقبة .
- الهجرة إلى المدينة ومبايعة الأنصار له على النصره والمنعة لنشر رسالة الله .
- المعاهدات التي أجراها - صلى الله عليه وسلم - مع القبائل لمتاخمة للمدينة وموادعته لليهود .
- مؤاخاته - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج في المدينة المنورة .
- الغزوات والسرايا التي قام بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من إعلاء كلمة الله، والذود عن

1 - صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980م، ص 232 .



حياض الإسلام .

- معاهدة صلح الحديبية، والحكمة النبوية التي تجلت في ذلك الموقف العصيب الذي مر به المسلمون، وقبوله - صلى الله عليه وسلم - بشروط المشركين، والتي كان في ظاهرها مكسب للكفار، لكن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدرك بما أوحى إليه ربه من القرآن والحكمة، أن هذا بداية الفتح، حيث أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (1) .
- إرسال الرسل والدعاة، إلى الملوك والقادة والأمراء في بقاع الأرض في ذلك الزمان، ودعوتهم للإسلام .
- القضاء على اليهود الذين غدروا بالمسلمين ونقضوا العهود، وإبعادهم عن المدينة (2) .

ولا يخفى أن للرسول - صلى الله عليه وسلم - سياسات ونظماً أخرى مارسها وبخاصة في العصر المدني، من حياته عليه الصلاة والسلام، حين أنشأ ما يمكن أن يسمى بالحكومة المركزية، التي كان لا يقطع أمرٌ فيما يخص شؤون المسلمين إلا بالرجوع إليها، والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحاكم بما يوحى إليه، وبما يراه من أحكام في مختلف القضايا، وإذا صح التعبير فقد كان وزيراً العميران أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق - رضي الله عنهما - فقد كان يستشيرهما، ويأخذ برأيهما.

1 - سورة الفتح الآية 1 .

2 - الرحيق المختوم ، ص 112 .

ولم يهمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأخذ برأي أصحاب الرأي من باقي الصحابة رضوان الله عليهم، كعلي، وعثمان، وسعد بن معاذ، وغيرهم، كما أخذ بمشورة الحباب بن المنذر في موقع المسلمين في غزوة بدر، وبرأي سلمان الفارسي - رضي الله عنه - في حفر الخندق، وأخذه عليه السلام بمشورة أم سلمة يوم الحديبية .

فلم يكن مستبدًا عليه الصلاة والسلام، وحاشاه أن يكون كذلك، وقد علمه ربه فأحسن تعليمه، وأدبه فأحسن تأديبه، وزكاه وطهره تطهيراً، وذلك ليرسي مبدأ الشورى في المدينة المنورة، منبع الدعوة والهدى، وليتأسى به من يأتي من بعد من سائر الأمة من فقهاء وعلماء، وهو المتمثل بقول الحق تبارك وتعالى حيث قال عز من قائل: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(1)</sup>.

طبيعة الحياة السياسية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :

• العهد الراشدي: (11 هـ/632م - 40 هـ/661م) :

في عهد الخليفين أبي بكر، وعمر، وصدر خلافة عثمان، فتحت الشام والعراق ومصر وفارس، وقد حمل العرب إلى تلك الأقطار مبادئ دينهم الحنيف فاتحين بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة، وأقبل أهلها على اعتناقه لسمو مبادئه، وذلك طواعيةً واختياراً، ودون إكراهٍ، عملاً بقول

1 - سورة آل عمران الآية 59.

الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾<sup>(1)</sup> .  
 وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ  
 وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ  
 بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(2)</sup> .

وكانت المدينة المنورة، ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبلة  
 القاصدين، والجامعة العلمية، والمؤسسة التربوية، إليها يفد المسلمون من  
 مختلف بلاد الإسلام لتعلم الدين، والتعرف على صحابة رسول الله  
 المقربين، الذين كانوا يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون  
 أبناءهم، وعلى الرغم من تتابع الفتوحات واتساع رقعة الإسلام، إلا أن  
 كبار الصحابة وفقهاءهم، وأصحاب الرأي والمشورة منهم، لم يرحلوا  
 المدينة إلى غيرها، بل فضلوا الإقامة فيها بجوار الحبيب المصطفى عليه  
 الصلاة والسلام، وفضلوا أن يختم لهم بخير، فيدفنون في البقيع في خير  
 جوارٍ، وكيف لا؟ وقد سمعوا مقال الرسول في المدينة والحث على البقاء  
 فيها، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "صلاة في مسجد المدينة بعشرة  
 آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة، وصلاة في المسجد  
 الحرام بمائة ألف صلاة"<sup>(3)</sup>، وقال عليه الصلاة والسلام: "من استطاع أن

1 - سورة البقرة الآية 256.

2 - سورة النحل الآية 125 .

3 - سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في فضل الصلاة في  
 المسجد الحرام، ج 1 ص 202، راجع: إحياء علوم الدين، للغزالي، دار المعرفة،  
 بيروت، ج 1 ص 244 .

يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحداً إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة"<sup>(1)</sup>، ومع هذا كله لما تابعت الفتوحات، وأقبل كثير من أهل البلاد المفتوحة على الإسلام، نشأت الطبقة المعروفة "بطبقة الموالي" في تلك البلاد .

ولا شك أن نجاح العرب في فتوحاتهم في هذا الطور الأول يرجع إلى قوة إيمانهم واتحادهم، وإلى نظرتهم العادلة إلى أهل البلاد المفتوحة، فكانوا يكتفون بالجزية من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حتى عندما فتحوا بلاد فارس أنزلوا المجوس (الزرادشتية) منزلة أهل الكتاب، واكتفوا منهم بالجزية.

---

1 . سنن الترمذي من حديث ابن عمر، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وانظر: إحياء علوم الدين للغزالي، ص244 .

المطلب الرابع: الحياة السياسية والثقافية قبيل وأثناء عصر  
مَالِك، وفي عهد الخلافة الأموية (72 - 132)  
والعباسية (132 . 232):

توحدت الدولة الإسلامية، وقوي شأنها في عهد الأمويين، بعد ما  
مرت به من محن وفتنٍ، ثم شاء الله - عز وجل - أن يجمعهم على كلمةٍ  
سواءٍ في هذه الحقبة من الزمان، لتتسع الفتوحات في هذا العصر حتى  
تشمل الهند والسند شرقاً، وبلاد المغرب والأندلس غرباً، وكانت الكلمة  
مجتمعةً في عهد عبد الملك بن مروان، بعد مقتل ابن الزبير - رضي الله  
عنه<sup>(1)</sup>، على يد الحجاج بن يوسف الثقفي .

1 - عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، ويكنى أبو بكر: ويقال أبوخيبي،  
أمير المؤمنين وفارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، (1هـ -  
73هـ)، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ذات النطاقين، شهد فتح إفريقية زمن  
عثمان، وبويع له بالخلافة سنة 64هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر  
والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه في المدينة،  
وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سيروا إليه الحجاج الثقفي، في أيام عبد  
الملك بن مروان، فانتقل إلى مكة، وعسكر الحجاج في الطائف، ونشبت بينهما  
حروب أتى المؤرخون على تفصيلها انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة، بعد أن خذله  
عامه أصحابه وقاتل قتال الأبطال، وهو في عشر الثمانين. وكان من خطباء قريش  
المعدودين، يشبه في ذلك بأبي بكر، مدة خلافته تسع سنين، وكان نقش الدراهم  
في أيامه: بأحد الوجهين: "محمد رسول الله" وبالأخر "أمر الله بالوفاء والعدل"  
وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، له في كتب الحديث 33 حديثاً، وكانت في  
الأعمال البهنساوية (بمصر) طائفة من بنيه، هم: بنو بدر، وبنو مصلح، وبنو =

وحينما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، قام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمالية، منطلقاً بذلك من أسس شرعية إسلامية، لأنه هو الخليفة الأموي الذي يعتبر أكثر تمسكاً بالدين، وإحياءاً للشريعة الإسلامية، وجعلها الموجه العام لسياسة الدولة، ومن أعمال عمر بن عبد العزيز، على سبيل المثال، قيامه بتوزيع العطاء على العرب، وغير العرب ممن كانوا يحاربون مع العرب في العديد من البلدان، كخراسان، والمغرب، والأندلس .

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز، عاد الأمويون إلى سابق عهدهم، كما حدث في خلافة هشام بن عبد الملك، الذي لم يكن كسابقه من حيث الاهتمامات الدينية، واعتبرها من اختصاص المشايخ والفقهاء<sup>(1)</sup>. ولقد كان لبعض الأمراء الأمويين فضلاً في ازدهار بعض العلوم الإسلامية، فقد قربوا بعض رجال الدين، وجعلوا لهم مكانةً وقدرًا . وفي هذا العصر أيضاً اشتهر مالك والأوزاعي<sup>(2)</sup>، وكذلك قربوا

= نصارة، انظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى : 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشر، 2002 م، ج4ص87 .

ولد سنة 2هـ، وتوفي سنة 73هـ فرحمه الله ورضي عنه، ( البداية والنهاية لابن كثير ج 8 ص 281).

1 - تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1985 ج 66 ص 057 وج 7 ص 36 .

2 - هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى، فقيه الشام، قال عبد الرحمن بن مهدي: ما كان أحد بالشام أعلم من الأوزاعي، (طبقات الفقهاء للشيرازي ص 83).

الإمام العلم رجاء بن حيوة<sup>(1)</sup>، وبالرغم مما قيل عن بعض الأمراء الأمويين، فإن هذا لا يمنع أنهم كانوا رجالاً عظاماً، وضعوا للمسلمين عامة نظرية خالدة، هي أن بلوغ المجد والرقي، لا تتأتى إلا من خلال التعاون الصادق في كل ميادين الحياة، وقد جاءت أهميتها في المقام الأول من التوحد على هذا الدين، والأخذ بالعزيمة، ومعاملة الفتنة بالحزم، وعدم التساهل في أمور الدولة، ومن يدرس الحالة السياسية في عصر مالك، يجد أنها كانت بين مدٍّ وجزرٍ، ولم تكن على وتيرة واحدة، بل كانت تهدأ أحياناً وتعصف أحياناً، تلعو مرة وتهبط أخرى، حيث ظهر الخوارج، فأقضوا مضاجع الدولة الأموية، والشيعية في العصر العباسي الذهبي، ومع ذلك لم يُعدم الأمن، ونجد هيبة الدولة وحماية الثغور، وإقامة العدل في هذه الفترة إلى حد نسبي، منذ الخلافة الراشدة لعمر بن عبد العزيز، الذي كان أول ما تفتحت عليه عيننا مالك، إلى آخر خلافة الرشيد<sup>(2)</sup>.

### علاقة الإمام مالك بالخلفاء:

لقد عاش مالك في عصرين مختلفين من عصور الخلافة الإسلامية، ولقد رأى وسمع ما أحدثته الخوارج من الفتن والقتل، وكما يذكر العلامة

1 - هو رجاء بن حيوة الكندي، قال مطر: ما لقيت شامياً أفقه من رجاء بن حيوة، عاصر رجاء بن حيوة ثلاثة من الخلفاء الأمويين هم، الوليد بن عبد الملك وأخوه سليمان وعمر بن عبدالعزيز، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك أن يعين عمر بن عبد العزيز للخلافة من بعده (طبقات الفقهاء للشيرازي ص75).

2 - رسالة دكتوراه، بعنوان، مالك بن أنس وأثره في علم الحديث، مقدمة من الطالب محمود نادي عبيدات، الأستاذ المشرف: السيد عبد الحكيم، أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، الأزهر الشريف، 1972م، ص 7.

أبوزهرة، فإن مَالِكاً رأى هجوم الخوارج على المدينة وأهلها، لذلك كان مَبْغُضاً إليه الخروج، والقائلين بالخروج على الولاة، لما فيه من الفتنة، ولا يرضى بالخروج على الحكام<sup>(1)</sup>.

كان مَالِكٌ معاصراً لولائتين إسلاميتين، هما من أقوى الولايات في العالم في ذلك الوقت، وعاش عصرين مختلفين من أبهى العصور في ذلك الزمان، (الأموي - العباسي) ولم يحظ عالمٌ بالاحترام والتقدير من الخلفاء في هاتين الدولتين كما حظي مَالِكٌ .

وكانت زيارته للخلفاء تهدف إلى تذكيرهم بالله، ونصر سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال خلف بن عمر: "قلت لمَالِك: الناس يكثرون أنك تأتي الأمراء - فقال: إن ذلك الحمل من نفسي، وذلك أنه ربما استشير من لا ينبغي، وقال لآخر لولا أنني رأيتهم ما رأيت للنبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه المدينة سنة معمولاً بها"<sup>(2)</sup>، وكانت هذه الزيارات للأمراء على غير مهادنة، أو تملق بل بقدر علمه وتوقيره لشعائر الله، فقد روي عن عبد الله بن وهب قال: "سمعت مَالِكاً يقول: دخلت على أبي جعفر - الخليفة العباسي - فرأيت غير واحدٍ يقبل يده المرتين والثلاث، وورزقني الله العافية من ذلك، فلم أقبل له يداً"<sup>(3)</sup>.

1 - مَالِكٌ حياته وعصره، لابن زهرة، ص 144 .

2 - القاضي عياض بن موسى، ترتيب المدارك، ج 2 ص 96، وانظر - الانتقاء لابن عبد البر ص 65 .

3 - ابن عبد البر أبي عمر يوسف، الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء عناية: عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، الطبعة الأولى 1997م ص 83 .



ومع هذا فكان يحظى باحترام الخليفة العباسي أبي جعفر، ولقد عرض عليه أن ينشر كتابه الموطأ في الأمصار . ولكن مالكاً أبى، محتجاً بتفريق أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في البلدان، وكل منهم نقل آراءه واجتهاداته معه، فامتنع مالك أن يحمل أبو جعفر الناس على اتباع كتبه، وسيأتي بيان ذلك في الحديث عن اجتهاد مالك في فهم النص، في الفصل الثالث إن شاء الله .

وغير أبي جعفر من الخلفاء كذلك كان يجلُّ مالكاً ويحترمه، فهذا الأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بـ(عبد الرحمن الداخل)، أو صقر قريش<sup>(1)</sup>، تجده يجلُّ الإمام ويحترمه، ولا يرتضي بعلمه بديلاً مما نشر علم الإمام في الأندلس، وبلاد المغرب الأقصى، وفي مدينة القيروان<sup>(2)</sup> وفي تونس التي كانت إمارة إسلامية في ذلك الزمان، تجد القبول لمالك وعلمه في هذه البقعة من البلاد الإسلامية .

وعلى الرغم من هذا كله، وما كان له - رحمه الله - من هذه المكانة عند الخلفاء والأمراء، فإنه لم يكن يجاملهم، أو يتملقهم، بل

1 - هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، مؤسس الدولة الأموية الثانية في الأندلس غرب أوروبا، بعد أن خرج هارياً وحيداً فأسس مملكة مترامية الأطراف أعاد فيها مجد بيته فكانت تناصي في العلو والاحترام خلافة بني العباس في المشرق على صغر رقعتها وكان هروبه في عهد المنصور الذي كان يعجب به وبقدرته وعزيمته التي جعلته حيث أسس وهو شريد طريد، ملكاً عظيماً في هذه البلاد البعيدة القاصية. ويقال أن أبا جعفر هو من أطلق عليه لقب (صقر قريش) [www.islamway.com](http://www.islamway.com)

2 - أبوزهرة، مالك حياته وعصره، دار الثقافة العربية للطباعة بمصر، 1947 م، ص 147.

كان يعظهم، وينصحهم حسبةً لله تعالى، قال القاضي عيَّاض<sup>(١)</sup>: كتب مالك إلى بعض الخلفاء كتاباً يعظه فيه - بموعظة جليلة طويلة يقول فيها : أما بعد، فإني كتبت إليك كتاباً لم أأل<sup>(١)</sup> فيه رُشداً، ولم أدخر فيه نصحاً - تحميد الله وأدب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فتدبر ذلك بعقلك، ورد فيه بصرك، وأوعه سمعك، واعقله بعقلك، واحضره فهمك، ولا تُغيِّبَنَّ عنه ذهنك، فإن فيه الفضل في الدنيا، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة .

ذكر نفسك غمرات الموت، وما هو نازل بك منه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله تعالى، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب إما إلى الجنة، وإما إلى النار، وأعد له ما تسهَّل به عليك أهوال تلك المشاهد وكربها، فإنك لو رأيت أهل سخط الله وما صاروا إليه من أنواع العذاب، وشدة نقمة الله، وسمعت زفيرهم في النار، وتتهيقهم مع كلوح وجوههم، وطول غمتهم، وتقلبهم في إدراكها على وجوههم، لا يسمعون ولا يبصرون، يدعون بالثبور، وأعظم من ذلك حسرة إعراض الله تعالى بوجهه عنهم، وانقطاع رجائهم من روحه، وإجابته إياهم بعد طول الغم أن اخسئوا فيها ولا تكلمون، لم يتعاظمك<sup>(2)</sup> شيء من الدنيا أردت به

- 
- هو أبو الفضل عيَّاض بن موسى بن عيَّاض اليحصبي المالكي، شيخ الإسلام في عصره من مؤلفاته، ترتيب المدارك، كمال المعلم شرح مسلم، الشفا للتعريف بحقوق المصطفى، وغيرها من الكتب المفيدة التي لا يستغني عنها طالب العلم ولد سنة 476، توفي سنة 544هـ. (شجرة النور الزكية ص 140).
  - 1. المعنى أنه بذل فيه النصيحة، وأجمل فيه التذكرة بالمعروف.
  - 2. أي لا يكون شيء في نظرك عظيم من أمور الدنيا لا تقتدي به نفسك في الآخرة، فما عند الله خير وأبقى.

النجاة من ذلك، ولا آمنك من هوله، ولو قدمت في طلب النجاة جميع ما لأهل الدنيا، كان ذلك صغيراً، ولو رأيت أهل طاعة الله، وما صاروا إليه من كرامة الله، ومنزلتهم، مع قربهم من الله تعالى، ونضرة وجوههم، ونور ألوانهم، وسرورهم بالنظر إليه، والمكانة منه، والأجاء عنده، مع قربهم منهم لتقلل في عينك عظيم ما طلبت به الدنيا .

فاحذر على نفسك حذراً غير تقرير، وبادر إلى نفسك قبل أن تسبق إليها، وما تخاف الحسرة فيه عند نزول الموت، وخاصم نفسك لله تعالى على مهل وأنت تقدر بإذن الله تعالى على جر المنفعة، وصرف الحجّة عنها قبل أن يوليئك الله حسابها، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها، ولا جر المنفعة إليها.

ثم قال له: اجعل الله من نفسك نصيبها بالليل والنهار، إن عمرك ينقص مع ساعات الليل، وأنت قائم على الأرض وهو يسارك<sup>(١)</sup>، فكلما مضت ساعة من أجلك، والحفظة لا يغلون عن الدق والجل من عملك، حتى تملأ صحيفتك التي كتب الله عليك، فعليك بخلص نفسك إن كنت لها محبباً، فاحذر . وما قد حذرك الله منه تعالى فإنه يقول: ويحذركم الله نفسه، ولا تحقر الدنّب الصغير، مع ما علمت من قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(١)</sup> وقال أيضاً: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup> وحافظ على فرائض الله واجتنب سخط الله واحذر دعوة المظلوم واتق يوماً ترجع فيه إلى

• . السارب الذاهب في الأرض، مختار القاموس، 226، والمعنى أن العمر يمضي وأنت لا تشعر به.

1 . سورة الزلزلة الآيتان 7 - 8.

2 . سورة ق الآية 18.

اللَّهِ، والسلام<sup>(1)</sup>.

ومن هنا يتبين لنا ما كان عليه مَالِك . رحمه الله . من الورع والتقوى، وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، ولم تأخذه في دين الله مهادنةً لأميرٍ، أو موادعةً لوزيرٍ، ولم يمنعه تقرب الأمراء له أن ينصح لهم، وأن يذكرهم بالله، وأن يستحثهم على اتقاء الله في الرعية.

وقد صدر هذا الكتاب أول ما صدره بقوله: " كتاباً لم أأل فيه رُشداً، ولم أدخر فيه نصحاً" فكان همُّه النصيحة، وأن يصل صوته إلى الولاة، عسى أن يكون هذا وازعاً يردهم عن ظلم العباد، واتقاء الله في الرعية، وهكذا يجب أن يكون العالم، بحيث لا يقتصر نصحه في مواطن الدرس، حيث يأتيه الطلاب، ويتزاحم عليه المریدون، بل لابد أن يوصل صوته إلى من احتجب عنه، أو حُجب عنه .

ثم إن مالكاً ذكره أول ما ذكره بالموت فقال له: " ذكر نفسك غمرات الموت، وما هو نازل بك منه... " لأن الموت لا يحجبه الحجاب، ولا توقفه الأبواب، فهو أبلغ نصيحة، وأعظم موعظة للخلفاء والأمراء والملوك والرؤساء، فيذعنون إلى ما يأتي بعده من مواعظ وتذكير، وقد أورد ابن عبد البر، وغيره أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان نقش خاتمه: " كفى بالموت واعظاً يا عمر"<sup>(2)</sup>.

1 - ترتيب المدارك، القاضي عيَّاض، ج2 (106 - 107).

2 - أبو عمرو بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج1 ص354، ورواية أبي نعيم " وكان نقش خاتمه رضي الله عنه كفى بالموت واعظاً يا عمر، وكان اسم حاجبه: يرفاً، مولاه" انظر: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ) معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1998م، ج1 ص54.

ثم ذكره بآيات الله "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.. الآية" وهذا ينبأ أن مالكاً كان يعظُ الأمراء ويتحینهم بالنصيحة، ومن الأساليب التي كان يستخدمها في ذلك، بعد تذكيرهم، وإخلاص الموعظة لهم، أن يُضمّن هذه التذكرة الاحتجاج بالنصوص من كتاب وسنة، فبهما تثبت الحجة، وتعظم الموعظة، ولم يكن يتردد في ذكر آيات الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب .

وهكذا كانت أخلاق العلماء الربانيين، وعلاقتهم بالأمراء، علاقة نصح وإرشاد، وتذكير وتوجيه، وهذا مثلٌ من أمثال أولئك الأعلام، ولو أن علماء عصرنا، اقتدوا بمالك وأشباهه في هذا، لو أنهم أجملوا النصيحة للرؤساء، والقادة، وصدقوا في نصحتهم، وجعلوا الحق نصب أعينهم، ولم يجاملوهم ويهادنوهم، لو أنهم فعلوا ذلك لما رأينا طغاةً يملكون رقاب العباد، ويستخفون بمصالحهم، وهل يصلح الأمراء إلا بصلاح العلماء؟ وبهذا يتبين لنا علاقة الإمام مالك بالخلفاء والأمراء، ولقد ذكر بعض أقران مالك أن المهابة لمالك، كانت أعظم من المهابة للسلطين<sup>(1)</sup>.

1 . انظر: ترتيب المدارك ، القاضي عياض ، ج1 ( 50 - 125).

## المبحث الثاني . الحالة الثقافية والاجتماعية والسياسية، قبيل وأثناء عصر مالك في مجتمع المدينة المنورة :

كان للحياة الثقافية والاجتماعية في المدينة أثناء وقبيل عصر الإمام مالك . تأثير بالغ في علم الإمام ورسوخه فيه ، والموازنة بين الأدلة وما يحتاج إليه الناس من فتاوى وآراء في مختلف القضايا التي تحتاج إلى اطلاع عميق على أحوال الناس وظروفهم ، لأن مالكاً . رحمه الله . يعلم من مقاصد الشريعة ما لا يعلمه غيره ، ويدرك من الأدلة الشرعية ما لا يدرك غيره ، ومع علمه ودرايته بالأدلة الشرعية من كتاب وسنة ، إلا أنه لم يهمل الأخذ بالرأي فيما لم ينص عليه دليل شرعي .

وقد علمنا أنه قد أخذ هذا الفن في مبادئ عمره عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الذي كان يسمى ربيعة الرأي ، لما اشتهر به من الرأي والحجة بالعقل ، فكان للإمام مالك مدرسة في الاجتهاد أيضاً ، فهو لم يهمل الاجتهاد بالرأي ، إذا دعت الحاجة إليه ، رغم ما أثار عنه من تورع وحذر في هذا الجانب .

مما لاشك فيه أن هذا المجتمع أثار في شخصية الإمام مالك العلمية والثقافية ، لاسيما وأن هذا المجتمع قد ارتبط بنزول الوحي ، وبداية التشريع ، وهو أصلاً مكون من أحفاد الصحابة ، وأبناء التابعين ، وهم بلا ريب فقهاء أبناء فقهاء ، فمما لاشك فيه أن الذي ينبغ ويُسهد له بالنبوغ في هذا الجو المفعم بالعلم وأهله ، وحيوية الإيمان والتقى . لجدير بأن يكون بحق فقيه عصره ، وريحانة دهره ، وهذا يستلزم منا أن نتحدث عن عدة مطالب نوجزها فيما يلي:

## المطلب الأول . الطبيعة العلمية بعد وفاة

## النبي صلى الله عليه وسلم :

مضى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم تدوّن السنة ولم تأخذ طابعها الموجود اليوم كعلم مستقل، ويرجع هذا إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن كتابة شيء غير القرآن حتى لا يختلط القرآن بغيره، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله - عنه أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني سوى القرآن فليمحاه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"<sup>(1)</sup>.

ويمكن القول إن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان قد منع من تدوين السنة تدوينا رسمياً، حتى لا تختلط بالقرآن<sup>(2)</sup>.

وقد أذن لبعض الصحابة في الكتابة عنه في ظروف معينة، كما حدث لأبي شاه اليمني، حينما قال للرسول، وقد سمع منه حديثاً عام فتح مكة: اكتب لي يا رسول الله، فقال - صلى الله عليه وسلم - : اكتبوا لأبي شاه<sup>(3)</sup>.

1 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق ، باب التثبت في الحديث ، وحكم كتابة العلم ، (صحيح مسلم بشرح النووي ، ج18 ص3004/425 ، وانظر تاريخ التشريع الإسلامي ص157 عبد العظيم شرف الدين ، منشورات جامعة قار يونس بنغازي 1989م .

2 - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، ج2 ص65. وانظر : محمد بن إبراهيم بن جماعة ، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي ، تحقيق : د.محيي الدين عبدالرحمن رمضان ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 ، 1406هـ ، ص92.

3 - صحيح البخاري ، باب كيف تعرف لقطاة أهل مكة ، حديث رقم / 2434.

كما أذن لبعض الصحابة أن يدونوا لأنفسهم بعض الأحاديث تدويناً خاصاً، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص، قال أبو هريرة: ما كان أحدٌ أعلم بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مني، إلا عبد الله بن عمرو ابن العاص، فقد كان يكتب ولا أكتب، فكان عبد الله يكتب عن رسول الله ما يسمع حتى قال بعض الصحابة: إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول، ورسول الله قد يغضب، فسأل ابن عمرو الرسول عن ذلك فقال له: "أكتب عني، فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي إلا حق"<sup>(1)</sup>.

فلم تدون السنة إلا نزرًا، وفي أحوالٍ يسيرة، وتوفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والصحابة يحفظون السنة، وحفظهم لها متفاوتٌ فمنهم من يحفظ منها القليل، ومنهم من يحفظ منها الكثير، ومنهم من يحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومنهم المقل ومنهم المكثر في التحديث عنه عليه الصلاة والسلام، فمن المقلين زيد ابن أرقم، وعمران بن حصين، والزبير بن العوام، ومن المكثرين أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وغيرهم. وفي خلافة سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لم تدون السنة ولم يفكر في تدوينها، لأنه رضي الله عنه كان منشغلاً في حرب المرتدين ومناعي الزكاة.

وفي خلافة عمر الفاروق - رضي الله عنه - تم التفكير في تدوين السنة، واستشار عمر أهل العلم والرأي من الصحابة، فأشاروا عليه بذلك ولكنه رضي الله عنه عدل عن رأيه لخشيته أن تختلط بالقرآن، فقد روي

1 - مسند الإمام أحمد، ونصه ( عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيءٍ أسمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: تكتب ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في الغضب والرضا! فأمسكت حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اكتب هو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق ( أحمد بن حنبل، المسند، دار الحديث القاهرة، مصر، 1999م، ج6ص69/6510 ) وانظر تاريخ التشريع الإسلامي ص157 .



عن عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنة، واستشار أصحاب رسول الله، فأشاروا عليه بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك، ثم أصبح يوماً، وقد عزم الله له، فقال: "إني قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا أناسٌ من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء" (1).

وجاء بعده عثمان ثم علي - رضي الله عنهما - والوضع على ما هو عليه، لم يتغير من تدوين السنة، والأمويين من بعدهم كذلك .

حتى سنة مائة هجرية، حين فكر عمر بن عبد العزيز في تدوين السنّة، فلم تعد هناك خشيةٌ من أن تختلط بالقرآن، وقد تدارس الناس القرآن، وفهموا، وحفظوا عدّ سورة وآياته، ولم يعد يخشى من اختلاط السنة به، فقد أوصى رضي الله عنه بتدوين السنة، ويروى أنه كتب إلى الأمصار وإلى عماله في مختلف بلاد الإسلام بذلك، ولهذا يعد القرن الثاني الهجري بداية عهد تدوين السنة، فبدأ الناس في تدوين السنة، غير أنه لم يصلنا مما دون في ذلك العصر، سوى موطأ الإمام مالك - رحمه الله - .

وذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور، لقي مالكاً في موسم الحج، وأمره أن يجمع له ما يثبت عنده من آثارٍ وسننٍ، وأن يتجنب رخص بن عباسٍ، وشدائد بن عمر، فألف مالك الموطأ سنة 140هـ، وقد دون فيه أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وآثار الصحابة، وفتاواهم وفتاوى التابعين، كما دون فيه آراءه فيما عرضه من موضوعات، ولهذا يعد

1 - الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار صادر - بيروت، ج2 ص287. وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص158 .

كتابه كتاب حديث وفقه معاً، وقد أراد المنصور أن يجمع الناس على ما في الموطأ من الأحكام توحيداً للناس في الأحكام الشرعية، وبصفة خاصة في القضاء، ولكن مالكاً أبي، وقال له: "يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث وروايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودالوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم وإن ردهم عما اعتقدوا شديد، فذع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم" فعدل المنصور عما أراد<sup>(1)</sup>.

وبعد ذلك انطلقت الصحوة في جمع السنن - فجاء الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة 241هـ فجمع السنّة على طريق المسانيد، ثم توالى من بعده الكتب الصحاح.

ويعتبر القرن الثالث الهجري العصر الذهبي لتدوين السنة، حيث تالأت فيه نجوم، أمثال البخاري المتوفى سنة 251هـ، ومسلم المتوفى سنة 261هـ، وغيرهما، كابن ماجة المتوفى سنة 273هـ، وأبي داود المتوفى سنة 275هـ وتعد هذه الكتب الستة صحاح السنة، أو الكتب الصحاح، وهي من أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل، وأصحها وأقواها رتبة صحيح البخاري ثم مسلم ثم ما كان على شرطهما، وهكذا.

وتعتبر السنة في هذا القرن، قد أخذت طريقها كعلم مستقل، وقد كان أول من وفقه الله لجمعها والكتابة فيها، وظهر كتابه للناس هو الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وكتابه المعروف المسمى الموطأ من أصح الكتب.

1 - الطبقات الكبرى لابن سعد ج 1 ص 447، والانتقاء لابن عبد البر ص 41، وترتيب المدارك للقاضي عياض ج 1 ص 60، وانظر: تاريخ التشريع الإسلامي ص 159.

ولقد كان للصحابة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، اجتهادات كذلك، جاء في رسالة عمر - رضي الله عنه - لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: "الفهم الفهم فيما أدلي إليك، و مما وُرد عليك، مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايِس الأمور عند ذلك واعرِف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق....." (1).

ثم توالَت الاجتهادات في عهد التابعين وأبناءهم من أهل العلم، تتبعاً لمصالح المسلمين، مع مراعاة أسس الشريعة ومقتضيات الدين ولوازمه .

### المطلب الثاني . الطبيعة العلمية في عصر الإمام مالك:

لقد عاش الإمام مالك - رحمه الله - في العصرين، أوأخر العصر الأموي وحقباً من العهد العباسي، ولقد أُنر كلٌ من العهدين في الإمام مالك، أما العهد الأموي، فقد كان مالك معجباً فيه بآراء الخليفة عمر بن العزيز، وكثيراً ما كان يستشهد بها .

وفي العصر العباسي ألف الإمام مالك - رحمه الله - كتابه المعروف بـ(الموطأ)، والذي يعد أول كُتُب الحديث في ذلك العصر، بل أولها على الإطلاق، وكان ذلك بناءً على توصية من الأمير أبي جعفر المنصور سنة 140هـ .

ويجدر بنا أن نتكلم على حركة التصنيف في ذلك العصر، وعن بعض العلماء الذين برزوا في تلك الحقبة من تاريخ الإسلام، وقد قسمنا

1 - السنن الكبرى للبيهقي ، ج 10 ص 15 ، و سنن الدارقطني ج 4 ص 206 ، وانظر : رسالة دكتوراه، بعنوان: الاجتهاد ومدى حاجة الناس إليه في هذا العصر، يد محمد موسى "توانا"، دار الكتب الحديثة، مصر 1972، ص 34 .

الحديث عنها لعدة جوانب، وهي على النحو التالي :

### أولاً . حركة التصنيف:

ومن أشهر المصنفين في هذا العصر الإمام مالك، الذي ألف كتاب الموطأ، وابن إسحاق صاحب كتاب السيرة، وأبو حنيفة الذي صنف الفقه والرأي، ويرجع إلى الخليفة العباسي - أبي جعفر المنصور - الفضل في توجيه العلماء إلى هذا الاتجاه .

وقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور كما يقول السيوطي، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيها تلقى العلم عن أبيه، وعن عطاء بن ياسر.

هذا، ويلاحظ أن العلوم قد تطورت في العصر العباسي الأول، وانتقلت من مرحلة التلقين الشفوي إلى مرحلة التدوين، والتوثيق، في كتب ومخطوطات .

ومن أبرز علماء ذلك العصر الإمام الذي بلغ صيته الآفاق أبو حنيفة النعمان بن ثابت - المتوفى سنة 150هـ، وله كتاب الفقه الأكبر، وإمام دار الهجرة وعالم المدينة، مالك بن انس الأصبحي - المتوفى سنة 176هـ، وله كتاب الموطأ، وقد روي بروايات عديدة أكثر من أن تحصى<sup>(1)</sup>.

وكذلك ابن هشام البصري محمد بن إسحاق - المتوفى سنة 151هـ وكتب في السيرة النبوية، وله كتاب الخلفاء، وابن حيان - جابر بن حيان -

1 - العبر في أخبار من غير، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 258، وانظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار الجيل بيروت، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة عشر، 1991م، ج 2 ص 122 .

المتوفى سنة 160هـ، وله مهج النفوس وكتاب الشمس والاستيفاء، وابن برد - بشار بن برد العقيلي - المتوفى سنة 167هـ، وله مخطوطة شعرية في المكتبة الآصفية بالهند<sup>(1)</sup>.

ومنهم كذلك الفراهيدي الخليل بن أحمد - المتوفى سنة 180هـ، وله كتاب العروض، وكتاب الشواهد والإيقاع، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - المتوفى سنة 182هـ، وله كتاب الخراج، وعالم النحو المعروف سيبويه عمرو ابن عثمان - المتوفى سنة 183هـ، وله كتابه المسمى كتاب سيبويه<sup>(2)</sup>.

### ثانياً . تنظيم العلوم الإسلامية :

وصلت العلوم الإسلامية درجة عالية من الدقة والتنظيم، والاهتمام والمتابعة، في العصر العباسي الأول، حيث ظهرت فيه علوم متنوعة ومميزة، فقد شهد هذا العصر ميلاد علم جديد هو علم تفسير القرآن الكريم، وفصله عن علم الحديث، حتى صار كلُّ منهما علماً مستقلاً بقواعده وأصوله، ومن مميزات هذا العصر ما يلي:

- عاش في هذا العصر أئمة الفقه الأربعة: أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة (150هـ) ومالك بن أنس الأصمعي المتوفى سنة (179هـ) ومحمد بن

1 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 1991م، ج 2 ص 123 .

2 - تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبدالرحمن المزي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980م، ج 8 ص 326، ووفيات الأعيان، أحمد خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 2 ص 244، وانظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2 ص 128.

إدريس الشافعي المتوفى سنة (204 هـ) وأحمد بن حنبل المتوفى سنة (241 هـ)<sup>(1)</sup>.

- ظهرت في الفقه الإسلامي مدرستان علميتان كبيرتان، هما مدرسة أهل الرأي في العراق في الكوفة والبصرة، ومدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة.
- اشتهر كذلك في هذا العصر أئمة النحو، وظهرت من علوم اللغة مدرستان مشهورتان عرفتا في ذلك العصر وحتى زماننا هذا هما: مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة في العراق، وكان في هذا العصر من أئمة النحاة البصريين: عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة (149 هـ)، والخليل بن أحمد المتوفى سنة (175 هـ)، والأخفش المتوفى سنة (177 هـ)، وسيبويه المتوفى سنة (180 هـ)<sup>(2)</sup>.

1 - الانتقاء لابن عبد البر، ص40، 75، 130، وانظر: محمد نادي عبيدات، مالك وأثره في علم الحديث، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، الأزهر الشريف، 1972م، ص6.

2 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 1991م، ج2ص131.

## المبحث الثالث. تعريف بالإمام مالك وسيرته:

## نسبه ومولده :

هو أبو عبد الله المدني، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر ابن الحارث بن غيمان بن خثل بن عمر بن الحارث، وهو من عائلة عربية عريقة، تسمى ذي إصبع، من قبيلة حمير بن سبأ، فهو من العرب الأصليين.

ونسبه الذي اشتهر به، هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي اليمني، نسبة إلى قبيلة ذي إصبع، ومن الجدير بالذكر أن أصحاب هذه التسمية كانوا من ملوك اليمن<sup>(1)</sup>.

وأمه هي العالية بنت شريك الأزدي<sup>(2)</sup>، وعلى هذا فإن أباه وأمه عربيان يمنيان، ولقد أوضح العلامة محمد أبو زهرة فقال رحمه الله: في المسألة التي أثيرت حول والدي مالك، أنهما كانا مملوكين، وليس من العرب الأقحاح، ما يلي :

**الرواية الأولى:** يذكر القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك: أن أم مالك كانت مولاة، وأن اسمها طليحة، وكانت مولاة لعبد الله بن معمر، وأجاب عن هذا، أن هذه الرواية قد ذكرت من طريق ضعيف يدل على أن المشهور غيرها، وهي الرواية الأولى، وهي أصح من هذه الرواية أي أنها يمنية أزدية، وهذا ما رجحه، فكيف نترك ما هو مشهور وصحيح ونأخذ بالرواية الضعيفة، ولم يقم دليل على رجحانها؟

1 - الديباج المذهب لابن فرحون ، ج 1 ص 6، وترتيب المدارك ج 1 ص 27، وانظر:

عبدالحليم الجندي ، مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ص 51 .

2 - الثقات لابن حبان، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، 1975م، ج 7 ص 459، الديباج المذهب ، ج 1 ص 6.

الرواية الثانية: ما ذكره البعض من أن مَالِكاً وأسرتَه كانوا من الموالى، ويذكرون أن جده الأعلى أبا عامر كان من موالى بني تميم، وهم العائلة التي ينتمي إليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فهو على هذا الادعاء قرشي بالولاء<sup>(1)</sup> وقد ورد ذكر عمه أبي سهيل على أنه من الموالى وأجيب عن هذا بأن مَالِكاً - رحمه الله - قد أنكر ذلك، وبين أن نسبه عربي قحّ ليس فيه ولاء .

وذكر كذلك أن من الأسباب التي ساعدت في ترويح هذه الشائعات أو الادعاءات إذا صح التعبير، أنه كان بين جدّ مَالِكٍ وبين عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله، حلفاً، وليس ولاءً، والحلف يكون بين العرب الأحرار، والولاء لا يكون إلا بين عربي ومولى، ولقد قال أبو سهيل عم مَالِكٍ في بيان نسبهم، نحن قوم من بني إصباح، قدم جدنا المدينة، فتزوج من التميميين، فكان معهم ونسبنا إليهم.

ومهما يكن الأمر فغاية ما هنالك، أن الحلف الذي عقد كان نتيجةً طبيعيةً للعلاقة التي ربطت العائلتين بعلاقة المصاهرة التي أثمرت ذلك التناصر الذي توثقت عروته<sup>(2)</sup> .

1 - الولاء عند العرب يكون بين العبد المعتق ومن أعتقه، قال أبو الهيثم المولى على ستة أوجه: المولى ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم، والمولى الناصر، والمولى الولي الذي يلي عليك أمرك قال: ورجل ولاء، وقوم ولاء، في معنى ولي، وأولياء، لأن الولاء مصدر، والمولى مولى الموالاتة، وهو الذي يسلم على يدك و يواليك و المولى مولى النعمة وهو المعتق أنعم على عبده بعتقه والمولى المعتق لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليك أن تنصره، وترثه إن مات، ولا وارث له فهذه ستة أوجه، انظر - لسان العرب لابن منظور، باب ولي، ج 15 ص 405 .

2 - محمد أبوزهرة ، مَالِكٌ حياته وعصره، ص 27 .



ويُذكر كذلك أن مَالِكاً بن أبي عامرٍ جاء من اليمن، وقيل إن عامراً هو الذي قدم إلى المدينة من اليمن يشكو من الوالي، فلقي عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فصار بينهما حلفاً أو ولاءً وعبد الرحمن هو ابن أخي طلحة بن عبيد الله التيمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقبيلة بنو تيم هي القبيلة التي ينتمي إليها الصحابي الجليل صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر الصديق رضي الله عنه (1).

وتذكر الروايات أن جد الإمام مَالِك هو التابعي مَالِك بن عمر، الذي كان يروي الحديث عن عائشة وعمر وطلحة وأبي هريرة وعثمان رضي الله عنهم أجمعين.

ويذكر بعض المؤرخين أنه من بين الكُتَّاب الذين كانوا يكتبون المصاحف للخليفة عثمان رضي الله عنه (2)، وكان شاباً في ذلك الوقت، بحيث كان له جلد وصبر على تلقي العلم من فقهاء الصحابة، ومن له بسطة في العلم منهم، وطال عمر جد الإمام مَالِك حتى بعد وفاة الخليفة عثمان رضي الله عنه سنة 35هـ، وامتدت حياته إلى عام 112هـ، حيث إنه حضر ولادة مَالِك وترعرع في أحضانه، ورأى بأم عينيه نشأته وهو شاب، ونبوغه في العلم، وهو حدث في السن، وتميزه على أقرانه.

1 - الطبقات الكبرى لابن سعد، ج 1 ص 316، الهداية والرشاد (رجال صحيح البخاري)، أحمد بن محمد أبونصر البخاري الكلاباذي، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1407هـ، ج 2 ص 692، وانظر: عبد الحليم الجندي، مَالِك بن أنس إمام دار الهجرة، ص 51.

2 - الديباج المذهب، ج 1 ص 7، وانظر: عبد الحليم الجندي، مَالِك بن أنس إمام دار الهجرة، ص 50.

**مولده:**

ولد مَالِك - رحمه الله - سنة "93 هـ" بالمدينة المنورة، ولقد روي أن مَالِكاً ذكر أنه ولد سنة ثلاث وتسعين، كما جاء عن يحيى بن بكير حيث قال سمعته يقول: - يعني مَالِكاً - : "ولدت سنة ثلاث وتسعين"، قال صاحب تذكرة الحفاظ: هذا أصح الأقوال<sup>(1)</sup>، ولقد جاءت عدة روايات في ذكر تاريخ ولادته - فمن قول أنه ولد سنة 95 هـ، وقيل سنة 96 هـ، ومن قال إنه ولد سنة 98 هـ، ولكن المشهور والصحيح وهو ما اختاره العلامة محمد أبوزهرة - رحمه الله - أن مَالِكاً ولد في المدينة سنة 93 هـ الموافق 715م، وهي الرواية المنسوبة للإمام نفسه، وأكثر الروايات على ذلك، ويذكر أن الإمام مَالِكاً قال: ولدت في العام الذي عزل فيه عمر بن عبدالعزيز عن ولاية المدينة<sup>(2)</sup>.

وقد كانت ولادته بالمدينة، وبها ترعرع ونشأ، ومن معينها الصافي شرب، وبها تعلم الفقه والعلم، وعلى يد شيوخها وجهابذتها صقلت عبقريته، ونمت وترعرعت، وتفتحت بصيرته للعلم .

**نشأته:**

نشأ مَالِك في بيت اشتهر بالعناية بعلم السلف والاهتمام بحفظ الآثار، والأحاديث النبوية الشريفة، فجدُّ مَالِك بن أبي عامر كان من كبار التابعين وعلمائهم، روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة أم المؤمنين، وقد روى عنه بنوه - أنس أبو

1 - الإمام الذهبي، تذكرة الحفاظ، مكتبة المدينة، السعودية، 2007م، ج 1 ص 212 .

2 - عبد الحليم الجندي، مَالِك بن أنس إمام دار الهجرة ، ص 47.

مَالِك، وربيعة، ونافع المكنى بأبي سهيل<sup>(1)</sup>.  
ومما ينبغي الإشارة إليه هنا - أن من الأشياء التي أثرت في الإمام مَالِك وأثرت علمه، البيئة التي عاش فيها وأظلتها سماؤها، والجو الذي كان يتقلب فيه، فهي مهبط الوحي، ودوحة الإيمان، وموطن المهاجرين والأنصار من الصحابة، والمواقف التي مرّت بالإسلام والمسلمين في عهد النبوة وفي عهد الخلافة الراشدة وما بعدها، حتى كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنّة والفقه، ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عمّا مضى، ويعمل بما عندهم، وقد ساهمت هذه الأمور مجتمعة في صقل شخصية الإمام مَالِك، وجعلتها مستعدة لخوض غمار ميادين الفقه والفتوى، وهي والله لخير أرض لخير نبتة ترعرعت في بيت الإيمان والتقوى<sup>(2)</sup>.

### المطلب الأول : مَالِك وطلبه للعلم وانتقاؤه للأشياخ:

بدأ الإمام مَالِك يطلب العلم صغيراً، وقد أثرت فيه البيئة التي نشأ فيها، وتبعاً لتوجيه أمه له، فقد حُكي أنه كان يريد أن يتعلم الغناء، فوجهته أمه إلى طلب العلم، يقول الإمام مَالِك: حينما بلغت سنّ التعليم جاءت أمي فعمّمتني وقالت: اذهب فاكتب - تريد الحديث . فكان ينطلق، يلتمس العلم، وقد حرص على جمعه، و تفرغ له، ولازم العديد من كبار العلماء، لعل أشدهم أثراً في تكوين عقليته العلمية التي عرف بها - أبو بكر بن عبد الله بن يزيد، المعروف بابن هرمز - المتوفى

1 - عبد الحلیم الجندي، مَالِك بن أنس إمام دار الهجرة ، ص29.

2 - المرجع السابق ، ص31.

سنة 148هـ، فقد روي عن مالك أنه قال: كنت آتي ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته إلا ليلاً، وكذلك يعد مالك أكثر وأشهر الفقهاء والمحدثين الذين لازموا التابعي الكبير، والعالم الجليل، نافع مولى ابن عمر، وحفظ عنه راويته، وذلك أنه كان يقضي معه اليوم كله، من الصباح حتى المساء يتدارس معه العلم، والحديث، لمدة تزيد عن سبع سنوات، ومن المعروف أن نافعاً يعتبر العمدة في نقل تراث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد خدم نافع عبد الله بن عمر ثلاثين عاماً، ومات سنة 117هـ، وكان يروي الحديث، والعلم عن أمهات المؤمنين كأمثال عائشة، وأم سلمة - رضي الله عنهما - وكذلك عن كبار الرواة من الصحابة كأبي هريرة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومما يشهد لفقته وعلمه - أن عمر بن عبد العزيز كان قد أرسله إلى مصر ليعلم المصريين السنن (1) .

ومما يدل على تميزه، وحرصه على العلم، وما كان يتمتع به من حافظه قل نظيرها، ما حكاه ابن عبد البر في ترتيب المدارك، ناقلاً الرواية التي أضافها إلى مالك بقوله:

قال مالك: شهدت العيد فقلت هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على باب فسمعته يقول لجارته انظري من على الباب.

فنظرت فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.

قال: أدخله فدخلت فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟! قلت: لا، قال: هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا، قال: فاطعم، قلت: لا حاجة لي

1 - عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس، ص 55 .

فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني، فحدثني سبعة عشر حديثاً، ثم قال: وما ينفعلك إن حدثتك ولا تحفظها؟ قلت إن شئت رددتها عليك؟ فرددتها عليه، وفي رواية قال: هات فأخرجت ألواح فحدثني بأربعين حديثاً. فقلت زدني، قال حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ، قلت قد رويتها فحبذا الألواح من يدي ثم قال: حدث فحدثته بها فردها إلي وقال قم فأنت من أوعية العلم. أو قال "إنك لنعم المستودع للعلم"<sup>(1)</sup>.

ومع هذا فلم يكن لينقل عن كل من هبَّ ودبَّ، بل كان لمالك ميزانٌ يزن به العلماء الذين يأخذ عنهم العلم، فلا يأخذ العلم من كل من يسمع منه، ولكنه وضع ضوابط شاملة للفضل والمكانة، والتقوى والكمال، لمن يؤخذ عنهم العلم فقد روي عن معن ومحمد بن صدقة، أو أحدهما قال: كان مالك يقول لا يؤخذ العلم من أربعة، رجل معلن بالسفه وان كان أروى الناس، ورجل يكذب في أحاديث الناس إذا حدث بذلك، وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وصاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، وشيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به<sup>(2)</sup>.

ونقل الرواية ابن عبد البر، حيث قال: روي عن مالك قوله: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس،

1. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 22.

2. أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، الجرح والتعديل، المكتبة الوقفية، 2007م، ج 2 ص 22، وانظر: الكامل لابن عدي، ج 1 ص 92، والضعفاء للعقيلي، ج 1 ص 13.

وإن كان لا يُتَّهَم على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولا من شيخ له فضلٌ وصلاخٌ وعبادةٌ، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدثُ به<sup>(1)</sup>.  
 إن هذه الشروط التي وضعها مالك - لمن يؤخذ عنهم العلم - توضح لنا حقيقة الرجل العلمية، وما هي ضوابط الشيوخ الذين يُروى عنهم حسب رأيه ووجهة نظره، ولو تمعَّنَّا في هذه الضوابط لرأيناها تشتمل على ما يلي:  
 ضرورة أن يتصف الشيخ والمعلم وراوي الحديث، بالحلم الذي ينافي السَّفَاهة، قال صاحب مختار القاموس: والسفاهة خفةُ الحلم والجهل<sup>(2)</sup>، والحلم خلقٌ يطالب به العالم والإمام والمفتي، وكذلك مطلوبٌ من عامة الناس، ولكنه يتأكد عند العالم والفقهاء أكثر من غيرهما، إذ أن العالم لو كان غضوباً سفيهاً، لما عرف كيف يتصرف في المسائل الصعبة، والأوقات الحرجة، التي قد يتجرأ فيها الجاهل، ويتعدى فيها الأحمق، وكذلك قد تصدر من العالم زلَّةٌ أثناء غضبه، تكون بها الطامة الكبرى، فيقتدي به الناس ظانِّين موافقتها للحق وهي ليست كذلك، وإنما هي زلَّةٌ من العالم لإرضاء نفسه وإمضاء غضبه، فلذلك كان الإمام مالك حريصاً في تلقي العلم بالبحث في أوصاف أهله وأخلاقهم .  
 الأمر الآخر الذي حذر منه مالك، ونهى عنه ألا يؤخذ العلم، من صاحب بدعةٍ يدعو إلى بدعته، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة، لأن المبتدع لا عهد له ولا أمانة، ولا همَّ له إلا نشر بدعته والانتصار لهواه، فصاحب البدعة المصرُّ على بدعته، لا إخلاص له، فهو لا يبحث عن الحق، وليس غريباً أن يضع أحاديث، تناصرُ بدعته، ويضيفها زوراً وبهتاناً إلى رسول

1 . الانتقاء لابن عبد البر، ص 46 .

2 . الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، ص 302 .

الله - صلى الله عليه وسلم - أو إلى واحدٍ من صحابته، لينصر بدعته، ويقيم حجته بالباطل.

ولقد اشتهر أكثر الوضاعين بالبدع، ومنهم من يردُّ النُّصوص المجمع عليها، والواجب الإيمان بها، وذلك اتباعاً لهواه ونصراً لبدعته، كالمنكرين لعذاب القبر، والصراط، والميزان، ورؤية الله عز وجل (1).

كذلك من الصفات التي لا يؤتمن صاحبها على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفةُ الكذب إذ مجرد الاتصاف بهذه الصفة يسقط العدالة، والإمام مالك - رحمه الله - ذكر ذلك بقوله " وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله " فكونه يكذب على عباد الله، ووصفه أنه " كذاب " هذا يجعله ساقط العدالة، منعدم المروءة، فكيف يؤخذ حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شخص كذاب! .

تنبية: لا يفهم من تعليل الإمام مالك بقوله: " وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله " لا يفهم منه أنه يؤمن على حديث رسول الله، ولكن الإمام أوماً إلى أن هذا لا يؤتمن على حديث المصطفى، وإن ادعى ذلك، فهو من قبيل، التنفير من الصفة بذكر ضدها، كما يقال، للتلميذ البليد الذي لا يرجى نجاحه: " هو راسبٌ وإن ذاكر " فهو أولاً لا يرتجى منه المذاكرة، لأنه بليدٌ لا يفهم شيئاً، وعلى فرض أنه ذاكر فإنه لن ينجح، لعدم إدراكه ما يذاكره ويدرسه، فكذلك الكذاب لا تقبل روايته، وإن أمن عدم كذبه، فإن مجرد اتصافه به لا يُضمَّنُ جانبه - فالمقصود إذاً أنه لا يؤمن كذبه .

1 - أبو إسحاق الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي المالكي، الاعتصام، تحقيق:

هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ج1 ص231.

## أبرز شيوخه:

ومن أبرز شيوخ الإمام مالك، والمؤثرين في شخصيته، شيخه ربعة ابن أبي عبد الرحمن فروخ المتوفى سنة 136هـ، وهو فارسي الأصل، وكان مولياً للثيميين، وكانت أم مالك قد بعثت به إليه وقالت له: تعلم أدبه قبل علمه، وقد اشتهر ربعة بسعة علمه، وذيوع صيته بين العلماء، وشهدوا له بذلك قال سوار بن عبد الله المتوفى سنة 157هـ، ما رأيت أحداً أعلم من ربعة، قيل ولا الحسن البصري؟ قال: ولا الحسن ولا ابن سيرين، وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر: "لو تمنيت أحداً تلده أُمِّي لتمنيت ربعة"<sup>(1)</sup>.

ولهذا يقول عبد الحليم الجندي: لقد سُمي فقهاء العصر، "ربعة" ربعة الرأي، لاجتهاده بالرأي، فأخذ عنه مالك هذا الاتجاه في بداية حياته<sup>(2)</sup>.

وكان ابن هرمرز يجلُّ مالكاً، ويخصُّه بما لا يخصُّ به غيره لكثرة ملازمته له، ولما ربط بينهما من حب وتآلف وود، وأخذ الإمام مالك عن الإمام ابن شهاب الزهري وهو أول من دون الحديث، ومن أشهر شيوخ المدينة المنورة، وقد روى عنه الإمام مالك في موطنه 132 حديثاً، بعضها مرسل، كما أخذ عن الإمام جعفر الصادق، من آل البيت، وأخرج له في موطنه تسعة أحاديث، منها خمسة متصلة مسندة، أصلها حديث واحد

1 - أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، المتوفى سنة 676هـ، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مكتبة دار العلم، بيروت، 1980م، ج1 ص255. وانظر: عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس، ص53.

2 - عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس، ص52.



طويل هو حديث جابر في الحج، والأربعة منقطعة .  
وكذلك روى عن هشام بن عروة، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وغيرهم، وتذكر بعض الروايات أن شيوخ مالك قد بلغ عددهم - ثلاثمائة من التابعين - وستمائة من أتباع التابعين<sup>(1)</sup> .

### طلبه للعلم :

بدأ الإمام مالك طلب العلم من حداثة سنه، قال الزبيري: رأيت مالكاً في حلقة ربيعة، وفي إذنه شنف - وهو قرط<sup>(2)</sup> -، قال السبتي: وهذا يدل على ملازمته الطلب من صغره .

قال مطرف: قال مالك: قلت لأمي أذهب فاكتب العلم؟

فقالت: تعال فالبس ثياب العلم.

فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها.

ثم قالت: اذهب فاكتب الآن<sup>(3)</sup> .

وقال رحمه الله: كانت أمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة

1 - <http://ar.wikipedia.org/wiki> ، نقلاً عن كتاب أئمة الحديث للدكتور عبد المجيد الحسيني 2006/2/25 .

2 - قرط: يقال للدرة تعلق في الأذن قرط، وللتومة من الفضة قرط، وللمعاليق من الذهب قرط، وفي هذا إشارة إلى صغر سنه آن ذاك، حيث لا يعقل أن يعلق القرط في إذن الإمام وهو كبير، ولم ترد الرواية عنه بذلك . انظر: لسان العرب لابن منظور، باب قرط، ج 7 ص 374 .

3 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 31 .

فتعلم من أدبه قبل علمه<sup>(1)</sup>.

وهذا يوضح مدى ما كانت تتمتع به أمه من فقه، وما كانت عليه من حكمة وبصيرة، فالعلم ثمرة الأخلاق والآداب، فإذا فقد أرباب العلم الأدب، ضاع علمهم مع سوء أدبهم، ومن هنا يمكن أن نقول: أن العلم كالمالح في الطعام، وهو لا ينفع صاحبه إذا عدم الأدب، فالعلم بيت قوامه الأخلاق والآداب.

وما أحسن قول الشاعر:

لا تحسبن العلم ينفع وحده

ما لم يتوج ربه بخلاق

العلم كالغيث والأخلاق تربته

إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر

إبليس أعلم أهل الأرض قاطبةً

والناس تلغنه في البدو الحضر

فإذا رزقت خليقة محمودةً

فقد اصطفاك مقسم الأرزاق<sup>(2)</sup>

وقد كان الإمام مالك حريصاً على العلم، يقدمه على ما سواه، لهذا كان يؤثر طلب العلم والمجاهدة في سبيله، ويجعله مقدماً على حظوظ النفس، وقد كان هذا منهجه حتى في أول طلبه له، وهو فقير ومحتاج، قال ابن القاسم: أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع

1 - المصدر السابق، ج 1 ص 33 ، وانظر: الديباج المذهب، ج 1 ص 9 .

2 - موسوعة الشعر الإسلامي، باب حسن الخلق، ج 1 ص 180 .

خشبه، ثم مالت عليه الدنيا<sup>(1)</sup>.  
وقد كان صبوراً متصبراً، محتملاً شدة الشيوخ وجدتهم،  
وانشغالهم عنه، وقد كان حسن الأسلوب في ذلك، وقد حكى عن هذا  
بقوله: كنت آتي نافعاً نصف النهار، وما تظلني الشجرة من الشمس،  
أتحيين خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له، فأسلم  
عليه، وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له، كيف قال ابن عمر في كذا  
وكذا؟ فيجيبني ثم أحبس عنه، وكان فيه حدة، وكنت آتي ابن هرمرز  
بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل<sup>(2)</sup>.

وقال: كنت آتي نافعاً نصف النهار، وما تظلني الشجر من الشمس،  
إلى خروجه، فإذا خرج؟ أدعه ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له، فأسلم  
عليه وأدعه حتى إذا دخل البلاط، أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا  
وكذا؟ فيجيبني، ثم أجلس عنه، وكان فيه حدة<sup>(3)</sup>.

### المطلب الثاني : منهج الإمام مالك :

إن الأصول التي بنى عليها الإمام مالك منهجه هي: كتاب الله جلّ  
وعزّ، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمل أهل المدينة الفضلاء،  
وكان يحرص على الاتباع، ويشنع من الابتداع، وكان شديد الرجوع إلى

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 31 .

2 - المصدر السابق، (ج 1 ص 130 - ص 131) .

3 - المصدر السابق، ج 1 ص 32، وانظر: الديباج المذهب، باب في ابتداء طلبه العلم، ج 1

كتاب الله تعالى، قال خالد بن نزار الأيلي: ما رأيت أحداً أنزع<sup>(٩)</sup> بكتاب الله عز وجل من مالك بن أنس<sup>(١)</sup>، وقال عبد الله بن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: ألزم ما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع: "أمران تركتهما فيكم، لن تضلوا ما تمسكن بهما؛ كتاب الله، وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم".

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: سئل مالك بن أنس عن السنة؛ فقال: ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن حميد الأسود بن الأشقر البصري قال: قال رجل لمالك بن أنس: أأحرم من مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - أو من ذي الحليفة؟ فقال له: بل من ذي الحليفة، فقال الرجل: فإن أحرمت من مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ قال: فقال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> (٤).

### الأصول التي بنى عليها مالك مذهبه:

لقد عدَّ بعض العلماء الأدلة والأصول التي بنى عليها مالك مذهبه عشرين وهي كما يلي:

الأول - نص الكتاب العزيز، الثاني - ظاهره وهو عموم دلالة اللفظ

• المراد: يستدل به ويرد الحجة إليه .

1 - الجرح والتعديل للرازي ، ج 1 ص 18.

2 - سورة الأنعام الآية 153 .

3 - سورة النور الآية 63 .

4 - الاعتصام للشاطبي ، ج 1 ص 100.

القرآني، الثالث - دليله وهو مفهوم المخالفة، الرابع - مفهوم الموافقة، الخامس: التبييه على العلة، ومن السنة - أيضاً - مثل هذه الخمسة؛ فهذه عشرة، الحادي عشر - الإجماع، الثاني عشر - القياس، الثالث عشر - عمل أهل المدينة، الرابع عشر - العرف، الخامس عشر - الاستحسان، السادس عشر - الحكم بسدّ الذرائع، السابع عشر - المصالح المرسلة، الثامن عشر - قول الصحابي، التاسع عشر - شرع من قبلنا شرعاً لنا، العشرون: مراعاة الخلاف<sup>(1)</sup>.

وقال الإمام السبكي في الطبقات: إن أصول مذهب مالك تزيد على الخمسمائة، وهو بهذا يشير إلى القواعد التي استخرجت من فروعه المذهبية، فقد أنهاها القرآني في فروقه إلى خمسمائة وثمانية وأربعين، وغيره أنهاها إلى الألف والمائتين كالمقرّي وغيره، لكنها في واقع الأمر تفرّعت عن هذه الأصول، والإمام مالك - رحمه الله - لم ينصّ عليها قاعدةً قاعدةً، وإنما أخذ ذلك من طريقته وطريقة أصحابه في الاستنباط<sup>(2)</sup>.

وقد عد العلامة أحمد بن أبي كف، في منظومته أصول المذهب المالكي ستة عشر حيث قال :

أدلة المذهب مذهب الأغر      مالك الإمام ستة عشر  
نص الكتاب ثم نص السنة      سنّة من له أتم المنة

وقد جمع فيها الأصول مع الفروع، بحيث أنه عدّ دليل الخطاب من الكتاب والسنة، وهو ما يسميه العلماء بمفهوم المخالفة، وهو حجة عند

1 - محمد بن الحسن الفاسي، الفكر السامي، مطابع الدار البيضاء، المغرب، 1999،

ج1، ص387.

2 - الديباج المذهب، ج1 ص133.

مَالِك والشافعي، وأنكره أبو حنيفة، وهو يجري في الشرط والغاية والحصر والعدد والعلة والوصف والظرف.

وعد أيضاً منها تنبيه الخطاب، من كتاب وسنة، وهو ما يسميه العلماء مفهوم الموافقة، وإنما سُمِّيَ مفهوم الموافقة لكون المعنى المسكوت عنه موافقاً للمعنى المنطوق به في الحكم<sup>(1)</sup>.

ويجمل الشيخ عليش أصول مالك في أربعة، حيث يقول: "وقد بنى مالك رضي الله تعالى عنه مذهبه على أربعة أشياء:

الأول - آية قرآنية .

الثاني - حديث صحيح سالم من المعارضة .

الثالث - إجماع أهل المدينة .

الرابع - اتفاق جمهورهم"<sup>(2)</sup> .

ويمكن ترتيب أهم الأصول التي بنى عليها مَالِك مذهبه بِشَكْلِ مجملٍ دون التفريعات التي ذكرها أبو كَفِّ والشيخ عليش وغيرهما، على النحو الآتي :

1. القرآن الكريم .

2. السنة النبوية المطهرة .

1 - محمد يحيى بن عمر بن مختار الولاتي الشنقيطي، إيصال السالك في أصول مَالِك، تونس، المطبعة التونسية، 1928م، ص 7 .

2 - محمد بن أحمد بن محمد عليش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، (فتاوى ابن عليش رحمه الله 1217 - 1299هـ)، جمعها ونسقها وفهرسها، علي ابن نايف الشحود، المكتبة الشاملة، ج1ص219 .

3. قول الصحابي وعمله يعتبر حجة عند مالك لا سيما كبار الصحابة وفقهائهم كأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وعبد الله بن عمر وابن عباس، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين، جاء في الوجيز الميسر: "وكان إمامنا يأخذ بفتاوى الصحابة وأقضيتهم، وقد أثبت كثيراً منها في موطنه مع الأحاديث المرفوعة، لأنه يرى أنهم إما أن يكونوا قد سمعوها أو شاهدوها من النبي - صلى الله عليه وسلم - أو فهموها من كتاب الله عز وجل" (1).

وقال الإمام علي بن المديني شيخ البخاري: "كان مالك يذهب إلى قول سليمان بن يسار، وسليمان بن يسار يذهب إلى قول عمر ابن الخطاب" (2).

4. عمل أهل المدينة، وإجماع أهلها وذلك في القرون المفضلة يعتبر حجة عند مالك، قال شيخ الإسلام بن تيمية: واشتهر عن مالك وأصحابه أن إجماع أهل المدينة حجة، وإن كان بقية الأئمة ينازعونهم في ذلك (3) ويقال إن المسائل التي بناها مالك على عمل أهل المدينة، ثلاثمائة وثلاث مسائل، وأوصلها بعضهم إلى

1 - محمد عبد الغني الباجقني، الوجيز الميسر في أصول الفقه المالكي، الطبعة الأولى، مكتبة الآثار القاهرة، 1968م، ص14 .

2 - عادل المطيريات، الأئمة الأربعة وأصول مذهبهم، دار الاعتصام، الرياض، الطبعة الأولى، 1422، هـ، ص19 .

3 - صحة أصول مذهب أهل المدينة، شيخ الإسلام بن تيمية، مطبعة الإمام، مصر، ص20 .

ثلاثمائة وأربع وثلاثين مسألة<sup>(1)</sup>.

5. القياس، وقد كان مالك يقول به، وتبعه أصحابه في هذا .
6. يذكر أن مالكاً كان يأخذ بالاستحسان والاستصحاب وبالمصالح المرسلة، كما ذكر هذا غير واحد من العلماء المعاصرين، منهم الدكتور المطيرات، حيث قال: "وجماع أصول مذهب مالك الكتاب، والسنة، والإجماع، وإجماع أهل المدينة، والقياس، وقول الصحابي، والمصلحة المرسلة، والعرف والعادات، وسد الذرائع، والاستحسان، والاستصحاب"<sup>(2)</sup>.

#### المطلب الثالث : مكانة الإمام مالك العلمية :

لقد تجلت مكانة الإمام مالك العلمية في انتقاء الشيوخ، وقد كان رحمه الله حريصاً في توحيد المشرب في الطلب، فلا يأخذ العلم إلا ممن عرف بالعدالة والضبط والديانة، وهو من أفقه علماء عصره، وأعلمهم بكتاب الله، وأدراهم بالحديث والسنة وشهد له بذلك العامة والخاصة، والفقهاء والأئمة - قال الشافعي - رحمه الله -: قال لي ابن الحسن<sup>(\*)</sup> أيهما

1 - ياسر بن عجيل النشمي، رسالة ماجستير في أصول الفقه، تحقيق - لشرح إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك، لسيد أحمد الولاتي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، 2002م ص214 .

2 - المرجع السابق، ص19 .

• هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، من أجل علماء الحنفية، وممن نشروا علم أبي حنيفة، قال عنه الشافعي: ما رأيت أحداً سئل في مسألة فيها رأي إلا عرف في وجهه الكراهة إلا محمد بن الحسن، توفي رحمه الله عام 187هـ، وعنده 58 عاماً (طبقات الفقهاء للشيرازي، ص135) .



أعلم: صاحبكم أو صاحبنا، يعني أبو حنيفة صاحبه، ومالك شيخ الشافعي وصاحبه، قال الشافعي قلت: على الإنصاف؟ قال نعم، قلت: فأنشدك الله من أعلم بالقرآن: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال: فأنشدك الله من أعلم بالسنة: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال فأنشدك الله من أعلم بأقوال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المتقدمين: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال الشافعي: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فعلى أي شيء يقيس؟! (يعني أبا حنيفة) <sup>(1)</sup>.

ومن هنا يتبين لنا مكانة مالك العلمية، حتى بين الفقهاء والأئمة المبرزين، كأمثال أبي حنيفة النعمان إمام المذهب الحنفي، والشافعي بن إدريس صاحب المذهب المشهور، وهذا الخبر قد اشتهر عند الفقهاء، كالقاضي عياض، وابن عبد البر<sup>(\*)</sup> وهما من فقهاء وعلماء المالكية في زمانهما، وأورده أبو نعيم في الحلية، وابن تيمية وغيرهم وهما - أعني الشافعي وابن الحسن - رحمهما الله - لم يقصدا المقارنة بين الرجلين، كما

1 - أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1981م ص68، وانظر: الانتقاء لابن عبد البر ص57.

• هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، شيخ علماء الأندلس والمغرب في زمانه، ومن أكابر المحدثين، وله مؤلفات وكتب لا تحصى على أهل العلم، وله في شرح الموطأ خاصة كتب مفيد، ككتاب التمهيد، وكتاب الاستذكار، ولد سنة 368 هـ وتوفي بشاطبة سنة 463، انظر: (محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص119).

يفعل من أراد أن يبرز المفاخرة بين عالمٍ وآخر في زماننا هذا، وإنما قصداً رحمهما الله تبيان المدارس التي كان ينتمي إليها كلُّ منهما فالشافعي رحمه الله كان ينتمي إلى مدرسة أهل الأثر في الحجاز، أما ابن الحسن فكان يأخذ علمه عن أبي حنيفة، والذي يعتبر رحمه الله أستاذ مدرسة الرأي، وكلاهما رحمهما الله من أجل علماء السلف وكلُّ منهما له علمه وفضله .

وكلُّ من أئمة المذاهب يعرف للآخر قدره ومكانته، نقل القاضي عياض الرواية عن الليث بن سعد: أنه لقي مالكاً في المدينة يمسح العرق من جبينه، فقال له: "إني أراك تمسح العرق عن جبينك، قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيهٌ يا مصري، قال ثم لقيت أبا حنيفة وقلت له: ما أحسن قول ذلك الرجل فيك، فقال أبو حنيفة: والله ما رأيت أسرع منه بجوابٍ صادق، ونقدٍ تامٍ يعني مالكاً" (1).

فهذا هو أدب العلماء الرفيع، ومجادلتهم بالحسنى، وحسن الظنِّ في أخيه العالم، ومعرفة الحق لأهله، والاهتداء على الرجال بالحق، فإنما يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحقُّ بهم، فلم يكونوا رحمهم الله ليتشَفَّوا من بعضهم، أو ليتصيد كلُّ منهم سقطات أخيه، وإنما كان همهم الوحيد هو العلم ونشر السنة، والاهتداء للحقِّ .

1 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ج 1 ص 152

## سيرته العلمية:

هو عالم المدينة ومؤسس المذهب المالكي، قال عنه سفيان بن عيينة: "مَالِكُ عَالِمُ أَهْلِ الْحِجَازِ"، وقال الشافعي: "إذا ذكر العلماء فمَالِكُ النجم".

وكان - رحمه الله - حافظاً للحديث الشريف، وعالمًا به، إماماً في نقد الرجال، لا يروي إلا عن موثقةٍ عنده، وكان بارعاً في الفقه، حيث لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبهه .

وقد كان للبيئة التي عاش فيها مَالِكُ أثر في تكوينه العلمي؛ فالمدينة المنورة موطن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومجتمع الصحابة والتابعين من بعده الذين اهتموا بما سن الله لرسوله من سنن الإسلام وشرائعه وأحكامه، وإليها كانت الهجرة إلى الله، وبها كان كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرين، وهم أكثرهم عدداً، وأوسعهم علماً، وأعلم بسلوك نبيهم، فتأثر مَالِكُ بأرائهم وأفكارهم، وحفظ فتاويهم ومسائلهم، وتعرف أفضيتهم وأحكامهم، ويعتبر أول شيخ تلقى عنه العلم هو: ربيعة<sup>(\*)</sup> الرأي، الفقيه المدني المعروف، الذي سبق وتكلمنا عنه، ثم لزم ابن هرمرز<sup>(\*\*)</sup> سبع سنين أو ثمان، لم يخلطه بغيره، فأخذ عنه علم

• - هو أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن، ويعرف بريبعة الرأي، قال عنه سؤار بن عبد الله العنبري: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي، قيل له: ولا الحسن، وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين، توفى سنة 136هـ (طبقات الفقهاء للشيرازي ص65).

•• - هو عبد الله بن يزيد بن هرمرز، عنه أخذ مَالِكُ العلم، والفقه، وقال عنه مَالِكُ: (كان أعلم الناس بما اختلف فيه الناس من هذه الأهواء) (طبقات الفقهاء ص66).

الحديث، ثم أحب علم ابن شهاب الزهري<sup>(١)</sup>، كما أخذ أيضاً عن نافع مولى بن عمر، لما له من علمٍ واسعٍ، وابن المنكدر، وعبد الله بن دينار، وصالح بن كيسان، وسعيد المقبري، وغيرهم كثير ممن أخذ عنهم مالك، حتى قيل إن عدد شيوخه فاق تسعمائة شيخ، منهم ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعي التابعين.

وقد كان حريصاً ورعاً - رحمه الله - غير متجربٍ على الفتوى فلم يجلس مالك لتدريس العلم حتى شهد له شيوخه بأنه أهل لذلك، وهو نفسه يحدث بذلك فيقول: ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلاً جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك<sup>(١)</sup>.

وكان يقول: "ما أجبته في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة، ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك"<sup>(٢)</sup>. ومما يذكر عن منهجه في التدريس، أنه كان يهتم بالمسائل

• هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري القرشي، وكان من كبار فقهاء المدينة، روى عنه مالك، السفينان، وكتب عمر بن عبد العزيز في الأمصار عليكم بابن بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم منه بالسنة، له في الموطأ مائة وثلاثون حديثاً، وسئل بن عيينة أيهما أعلم إبراهيم النخعي أو الزهري؟ قال لا أبا لك، الزهري، وتوفي سنة 125 هـ (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص 46 / طبقات الفقهاء للشيرازي<sup>(٦٤)</sup>).

1. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 34.

2. الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 62.

الواقعة، ويتجنب الافتراضيات والمتوقعات، ولا يحب أن يسأل عنها، على خلاف أهل العراق الذين شغفوا بالفقه التقديري<sup>(1)</sup>، لهذا صار مالكٌ - رحمه الله - عالماً فذاً وعلماً بارزاً، يأتيه من مشارق الأرض ومغاربها طلبه العلم والعلماء المتقنون، من أجل تأصيل علمهم، والتقوى برأي الإمام عليه رحمة الله .

ومما ورد في هذا الشأن، حديث أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "يوشك أن يضرب الرجل أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجد عالماً أعلم من عالم المدينة" قال إسحاق بن موسى: فبلغني عن ابن جريج أنه كان يقول: نرى أنه مالك بن انس<sup>(2)</sup>، وقد قال الأسيوطي - رحمه الله - آياتاً تتناول معنى هذا الحديث:

قال نبي الهدى حديثاً	من حفّه الله بالسكينة
يخرج من شرقها وغرباً	من طالبي الحكمة المبينة <sup>(3)</sup>
فلا يرون عالماً إماماً	أعلم من عالم المدينة <sup>(4)</sup>

ونقل عن القاضي عبد الوهاب قوله: أما أنه لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة

1 - [www.habous.gov.ma/ar/detail.asp](http://www.habous.gov.ma/ar/detail.asp)، تتلاً عن مقالة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 18. 9. 2006م .

2 - صحيح ابن حبان، ج 9 ص 52، وانظر: الانتقاء لابن عبد البر ص 51.

3 - البينة الواضحة، والمعنى أنهم يطلبون العلم على أصوله وقواعده، فلا يجدونه كأبين ما يكون وأوضح ما يريدون إلا عند الإمام مالك رحمه الله تعالى .

4 - جلال الدين السيوطي، تزيين الممالك بمناقب مالك، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1426 هـ، ص 8 .

فكان يقول إنه المراد بقوله إمام المدينة، ومن هذا يتبين أنه مالك بلا خلاف، وقد تعارف السلف الصالح في ذلك العصر إذا أطلق بين أهل العلم عالم المدينة وإمام دار الهجرة، فالمراد به مالك دون غيره من علماء المدينة، كما إذا قيل قال الكوفي فالمراد به أبو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة<sup>(1)</sup> والصحيح أن هذا الحديث يترجح حمله على الإمام مالك، ويتأكد من عدة أوجه، وهذا قول كثير من العلماء، كما ذكر القاضي عياض، أن احتجاجنا بهذا الحديث على أن المقصود به الإمام مالك من ثلاثة أوجه:

#### الوجه الأول:

- أولاً: قول كثير من أئمة السلف بأن - المراد بالحديث هو مالك حسبما نقل عنهم، ولا يمكن أن يقولوا ذلك إلا عن تحقق ودراية، ولا لينشروه ويتكلموا به، عن اتباع هوى، أو انتصار لمذهب أو إغذاء لعصبية، وهم المبرعون من هذه الصفات، مع تنافس العلماء والطلاب في ذلك، وما جبلت عليه قلوب الناس من قلة الإنصاف، لمن يفضلهم في العلم والفضل.

- ثانياً: إنا لو اعتبرنا ما جاء من شهادة السلف الصالح بأنه أعلم من على ظهر الأرض، وأعلم من بقي، وأعلم الناس، وإمام الناس، وعالم المدينة، وإمام دار الهجرة، وأمير المؤمنين في الحديث، وأعلم علماء المدينة، وتعويلهم على روايته، واقتدائهم به وإجماعهم على تقديمه.

- ثالثاً: ما نبه عليه بعض العلماء، والمشائخ، بأن طلبية العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشارق الأرض ومغاربها، ولا رحلوا إليه في ذلك الزمان مع وجود أئمة وعلماء يشهد لهم بالفضل والدين، وهو كما يقول

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 22. وانظر: الديباج لابن فرحون، ج 1 ص 4.

صاحب كتاب "الجواهر الإكليلية": ( ولم يرحلوا إليه إلا لما اعتقدوا فيه من تقدُّمه على سائر علماء عصره، ولو اعتقدوا ذلك في غيره لما رحلوا إليه فالناس أكيس من أن يحمدا رجلاً من غير أن يجدوا آثار إحصانه ونبوغه<sup>(1)</sup> .

### الوجه الثاني:

أن المعتمد فيه تقليد السلف وأئمة المسلمين وعلمائهم في هذه المسألة، من الاعتراف لمالك بأنه أعلم أعلام عصره وإمامهم، وأنه أعلم علماء المدينة، وأشباه هذا من شهادتهم له بذلك، واعترافهم به، وتقليدهم إياه، واقتدائهم به مع رسوخ كثير منهم في العلم.

ومناقبه كما قال سحنون<sup>(\*)</sup> أكثر من أن تحصى، وسنورد بعض الآثار عن هذا المعنى الواضح الذي لا مجال للتشكيك فيه، ومنها: ما قاله ابن هرمز شيخ مالك وأستاذه، قال: هو - يعني مالكاً - عالم الناس، وقال سفيان بن عيينة<sup>(\*\*)</sup> لما بلغه وفاته: "ما ترك على الأرض مثله"، وقال: مالك إمام، ومالك عالم أهل الحجاز، ومالك حجة في زمانه ومالك سراج الأمة،

1 - ناصر الدين محمد الشريف، الجواهر الإكليلية في ذكر أعيان ليبيا من المألكية، دار البيارق، بيروت، لبنان، 1991م، ص (16-15).

• هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التتوخي القيرواني، من علماء المألكية الأوائل، وهو الذي نشر علم مالك في شمال أفريقيا، وهو صاحب المدونة المشهورة وراويها عن ابن القاسم، ولد سنة 160هـ - توفى بالقيروان سنة 240هـ ( شجرة النور الزكية في طبقات المألكية، ص 70 ).

• هو الإمام العالم، المعروف، سفيان بن عيينة، توفى سنة 198هـ قال الشافعي مالك وابن عيينة القرينان، ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، انظر: (طبقات الفقهاء للشيرازي ص98) .

وما نحن ومالك إنما كنا نتبع آثار مالك<sup>(1)</sup>.

وقال الشافعي<sup>(2)</sup>: مالكٌ أستاذي، وعنه أخذنا العلم، وما أحد أمنٌ عليّ من مالك، وجعلت مالكاً حجة بيني وبين الله تعالى، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، ولم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم لحفظه وإتقانه<sup>(2)</sup>، وقال الشافعي أيضاً: العلم يدور على ثلاثة مالك والليث<sup>(3)</sup>،

1 - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ج1ص7، وانظر - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج1ص25.

• محمد بن إدريس بن العباس بن شافع - قيل إن نسبه يرجع على بن هشام بن المطلب، القرشي ولد سنة 150، بعد إكمال مالك موطنه بعشر سنين، وهو صاحب المذهب المشهور، وبلغ من العلم قدراً عظيماً؛ حتى صار يضرب به المثل في حفظه، وفهمه، قال عن نفسه لقيني مسلم بن خالد الزنجي، فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت من أهل مكة، قال أين منزلك بها؟ قلت شعب الخيف، قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت من ولد عبد مناف، قال بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة، وقال قدمت على مالك، وقد حفظت الموطأ فقال لي: أحضر من يقرأ لك، فقلت: أنا قارئ، فقرأت عليه الموطأ حفظاً، فقال: إن يك أحدٌ يفلح فهذا الغلام، وقال يحيى بن معين: كان أحمد بن حنبل ينهانا عن الشافعي ثم استقبلته يوماً والشافعي راكبٌ بغلته وهو يمشي خلفه فقلت: يا أبا عبد الله تنهانا عنه وتتبعه؟ فقال اسكت، لو لزمتم البغلة لانتفعت، توفي رحمه الله في آخر رجب سنة 204هـ عن 54 سنة (طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص104).

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1ص20.

•• هو: أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن، ولد سنة 94هـ قال عنه الشافعي الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، توفي سنة 175هـ ودفن يوم الجمعة، قال عنه ابن وهب والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث، انظر - (طبقات الفقهاء للشيرازي ص78).



وسفيان بن عيينة<sup>(1)</sup>، وحكي عن الأوزاعي<sup>(\*)</sup> أنه كان إذا ذكره قال: عالم العلماء وعالم أهل المدينة ومفتي الحرمين، وقال أبو يوسف<sup>(\*\*)</sup>: ما رأيت أعلم من ثلاثة، وذكر مالكاً، وأبا حنيفة، وابن أبي ليلى، وقال ابن مهدي: وقد سئل عن مالك، وأبي حنيفة: مالك أعلم من أستاذه أبي حنيفة<sup>(2)</sup>.

عرف عن الإمام مالك أنه كان قوي الحافظة، وجيد التحري في رواية الحديث مدققاً في ذلك كل التدقيق، لا ينقل إلا عن مثبت من حاله، عارف بسيرته، فهو لا يغتر بمظهر الراوي أو هيئته، وقال له شيخه وأستاذه ابن شهاب الزهري: "أنت من أوعية العلم أو إنك لنعم مستودع العلم"<sup>(3)</sup>. قال الإمام مالك: "لقد أدركت في هذا المسجد - مسجد المدينة

- 
- 1 - ابن فرحون الديباج المذهب، ج1ص7، وانظر - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج1ص20، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8ص94.
  - هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ولد سنة 121 هـ وكان يسأل في الفقه وعمره 13 سنة، قال عبد الرحمن بن مهدي: ما كان أحد بالشام أعلم من الأوزاعي ومات سنة 187 هـ وعمره 60 سنة، انظر: (طبقات الفقهاء للشيرازي ص76).
  - هو القاضي أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، ولد سنة 110 هـ، ومات سنة 158 هـ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة، وهو من جهايزة المذهب، وكان من أصحاب الحديث، ثم غلب عليه الرأي، ويقال له "قياس أصحاب أبي حنيفة" انظر: (طبقات الفقهاء للشيرازي ص134).
  - 2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج1ص24. 25.
  - 3 - المصدر السابق، ج1 ص148.

المنورة - سبعين ممن يقول: قال فلان<sup>(1)</sup> قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال المسلمين لكان أميناً عليه، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن"<sup>(2)</sup>.

لم يرحل الإمام مالك في طلب الحديث، مع أن الرحلة في ذلك الوقت كانت من سمت طلبه العلم والمشائخ، ولكنه ظل ملازماً المدينة، لأنه كان يرى أن - مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، هي أفضل مكان يمكن أن يجد فيه ضالته، من أثر صحيح، أو سنة ماضية، كانت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقوال الصحابة كأبي بكر وعمر وعلي، وأبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، رضي الله عنهم أجمعين، ومن سلف من شيوخ التابعين وعلمائهم كابن شهاب الزهري، وهرمز، ونافع مولى بن عمر، وابن المنكدر، وعبد الله بن دينار، وصالح بن كيسان، وسعيد المقبري، وغيرهم.

### جلوسه للتدريس والإفتاء :

جاءت الروايات أن مالكاً جلس للتدريس وهو في السابعة عشر من العمر، وقد كانت المدينة زهرة الإسلام، ودوحة الدين، ونبع السنة الصافية، ومعين العلم الشرعي المستند إلى النقل الصحيح، عن الصحابة

1 - يعني أنهم من التابعين، فليس بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا طبقة واحدة .

2 - ابن فرحون، الديباج المذهب، ج1ص9، وانظر - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1ص22، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5ص343.

وانظر <http://ar.wikipedia.org/wiki/> نقلاً عن كتاب أئمة الحديث للدكتور

عبدالمجيد الحسيني، 8. 5. 2005م .

ومن جاء بعدهم من التابعين<sup>(1)</sup> ولم يجلس للإفتاء حتى شهد له سبعون من فقهاء المدينة أنه أهل لذلك .

وهو مع ذلك كان في تدريسه وإفتائه شديد الإخلاص للكتاب والسنة ، يتحرز من أن يقول هذا حلال وهذا حرام من غير نصٍ منهما ، وأما ما يراه من غير الكتاب والسنة ، فيذكر رأيه من غير أن يقطع بحرمة ، وكثيرا ما كان يعقب كلامه بقوله : إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين . ولقد روي عنه أنه قال في اقتفاء خط السلف ، واستتكار صنيع فقهاء عصره : ما شيء أشد عليّ من أن أسأل عن مسألة في الحلال والحرام ، فإن هذا هو القطع حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقهاء ببلدنا ، وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة فكان الموت أشرف عليه ، ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا ، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً لقللوا من هذا ، وإن عمر بن الخطاب وعلياً وخيار الصحابة كانت تتردد عليهم المسائل ، وهم خير القرون الذين بعث فيهم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأهل زماننا هذا قد صار همهم الفتيا ، فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم ، ولم يكن من أمر الناس ، ولا من مضى من سلفنا الذين يقتدى بهم ، ويعول أهل الإسلام عليهم أن يقولوا هذا حلالٌ وهذا حرامٌ ، ولكن يقال أنا أكره كذا ، وأما حلالٌ وحرام فهذا افتراء على الله ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾<sup>(2)</sup> لأن الحلال ما أحله الله ورسوله<sup>(3)</sup> .

1 - عبد الحليم الجندي ، مالك بن أنس ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، 1999م ، ص 60 .

2 - سورة يونس الآية 59 .

3 - الانتقاء لابن عبد البر ، ص 57 .

ومن شدة إخلاص وورع الإمام - رحمه الله - في الفتوى، أنه كان يقول: لا أحسن ولا أدري - إذا أعمل فكره ولم يصل إلى شيء، وقد اشتهر ذلك عنه، وقد سئل عن اثنين وعشرين مسألة، فأجاب عن اثنين فقط، وأعلن في الباقي أنه لا يحسنها، وما أحسن ما يصفه به بعض تلاميذه في امتناعه عن الفتوى أحياناً وهو الفقيه، العالم حيث كان يقول: "إن الفقه ممالأة"<sup>(1)</sup> وما رفعه الله إلا بالتقوى"<sup>(1)</sup>.

ومما يذكر في هذا الباب، ما نُقل في مواهب الجليل على مختصر خليل، عن ورعه وعدم الاستهانة بأمور الفتوى، أنه قال: إن المسألة إذا سئل عنها الرجل فلم يجب واندفعت عنه فإنما هي بليةٌ صرفها الله عنه<sup>(2)</sup>. ومما ينبغي أن نشير إليه في هذا الصدد، تلقي مجتمع المدينة في ذلك العصر لآراء الإمام مالك وفتاويه بالقبول، حتى أنه اشتهر بينهم في ذلك الوقت قولهم: "لا يفتى ومالك في المدينة"<sup>(3)</sup>، بل نكاد نجزم أن الأمة بأسرها في ذلك العهد قد تلقت آراءه وفتاواه بالقبول، بل صاروا يقصدونه من مختلف الأمصار، ويشدون الرحال إليه للاستفادة منه ومن علمه.

• والمقصود ثقله وعظم أمره، وأن السلامة فيه تكون بتقوى الله عز وجل، ثم بالثبوت في الفتوى، وعدم التسرع وتفويض العلم لله سبحانه فيما يشكل من مسأله.

1 - محمد أبوزهرة، مالك حياته وعصره، ص 95.

2 - أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن المغربي المعروف بالحطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه - الشيخ زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج 1 ص 41.

3 - موطأ مالك، تحقيق - حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، مصر،

2005م، ص 3.

## المطلب الرابع : سمته وأخلاقه :

إن عالماً بارزاً كالإمام مالك - رحمه الله - لم يبلغ ما بلغ من قدر وإجلال في أعين الناس، ولم يتبوأ هذه المكانة العلمية الرفيعة، إلا بخلق حسن وسمت كريم، وتواضع، وورع وتقوى، وحرص على طلب العلم، واحترام لشيوخه وترؤف بتلامذته، وإخلاص في تبليغ العلم، والذود عن حياض الدين، ودوحة الإسلام، ومعين السنة الصائفة، فقد أخلص - رحمه الله - في طلب العلم إذ طلبه لذات الله تعالى، لا يريد به علواً ولا استكباراً كما يفعل بعض المنتسبين للعلم الذين يريدون بعلمهم الدنيا، وأن يصرفوا وجوه الناس إليهم، فلم يكن الإمام مالك كذلك، بل كان يريد بعلمه إلا وجه الله - عز وجل - وهو في هذا يتقرب بعلمه إلى ربه، وقد أثار هذا الإخلاص في نفسيته حيث إنه لم يأخذ هذا العلم عن كل من هبَّ ودبَّ، بل كان يقول: "إن هذا العلم دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم" (1).

1 - محمد أبوا زهرة، مالك حياته وعصره، ص 93. أقول: تتسب أكثر الروايات هذا القول لمحمد بن سيرين، فقد جاء قي صحيح مسلم، باب بيان أن الإسناد من الدين، وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، حدثنا حسن ابن الربيع حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد وحدثنا فضيل عن هشام قال وحدثنا مخلد بن حسين عن هشام عن محمد بن سيرين قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ج 1 ص 22، وكذلك نسب الرواية لابن سيرين ابن شيبه في مصنفه، ج 6 ص 256، وفي سنن الدارمي، كذلك، باب الحديث عن الثقات، ج 1 ص 465، وفي معرفة السنن والآثار للبيهقي، باب حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ج 1 ص 26، وذكر الرواية العقيلي في كتابه الضعفاء، ج 1 ص 7، ونسبها ابن عدي في الكامل لابن سيرين أيضاً، في أكثر من رواية وبأكثر من سند، =

وكان صبوراً - رحمه الله - ومثابراً في طلب العلم حتى يروى أنه احتاج مرة فباع سقف بيته في سبيل العلم، وكان يغالب الصعاب ويكافح الفقر، وكان رحمه الله يجلس على باب شيوخه في شدة البرد، ويتقي برد المجلس بوسادة يجلس عليها، وكان يصبر على ما يبدر من حدة الشيوخ، ويتلقاها بصدر رحب، وكأنه يرى أن المجاهدة في طلب العلم مما يثبته ويمكنه في النفس، لذلك كان يقول: "لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم، حتى يضربه الفقر ويؤثر على حاله" (1).

= انظر: الكامل لابن عدي، (ج1 ص148-151، ج4 ص157) أما الرواية التي نسبت لمالك، فقد نقلها القاضي عياض في ترتيب المدارك، في باب ابتداء طلبه وسيرته في ذلك وصبره عليه، وتحريه فيمن يأخذ عنه، حيث نقل الرواية عن ابن أبي أويس قال: سمعت مالكا يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه" ج1 ص22، ونقل الرواية أيضاً صاحب الديباج، ج1 ص9، وبعضهم ينسبها لأبي هريرة - رضي الله عنه - وآخرين للحسن البصري، انظر: كتاب المجروحين ج1 ص22، وقد نسبها الذهبي في سيره تارة لابن سيرين وأخرى لمالك، وأسند الأولى عن حماد بن زيد عن أيوب قال محمد، والثانية عن ابن أبي يونس قال سمعت مالكا يقول.. انظر - سير أعلام النبلاء للذهبي، (ج4 ص611، ج5 ص343)، ومع هذا فإنه لا تعارض بين نسب الرواية لكل هؤلاء، فلعل كلاً منهم استحسنته فقله، ليدلل على منهجه في تلقي العلم، فإن كلاً من هؤلاء وغيرهم من العلماء الربانيين الأعلام، قد كان هذا ديدنه، ومذهبه في تلقي العلم من مصادره الصحيحة، ومن مناهله الصافية، وخصوا العلم بالذكر، لأنه لا ديانة من دون علم، ولا علم بدون حق، ولا حق إلا بصدق المخبره والمخبر عنه، لذلك كانوا يقولون هذا القول، ومن لم ينقل عنه بلسانه، فقد نقل عنه بفعاله، والله أعلم .

1 - محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص 92 .

وهذا الإخلاص هو الذي دفعه إلى التزام ما كان عليه سلف هذه الأمة، وأيضاً جعله ينأى بنفسه عما لا يليق بالعلم وأهله، وكان يطلب العلم لذاته، ولله وفي الله، وقد ابتعد كل البعد عن الجدال، لأن المجادلة نوع من المنازلة، ودين الله أعلى من أن يكون موضعاً لنزال المسلمين، ولأن الجدل يدفع في كثير من الأحيان إلى التعصب لفكرة أو لقضية ما، قد تكون خاطئة! فالمجادل مندفع في الغالب للانتصار لرأيه، والمتعصب لا يرى إلا بعين واحدة .

وكان يرى رحمه الله: أن العلم لا يكون موضع جدال ولا مسابفة، لأنه في هذه الحال قد يكون الغرض منه أن ينال إعجاب السامعين .  
ومما لاشك فيه أن من يدفعه إلى القول في العلم، والتجرؤ على الفتوى الرغبة في الإعجاب ومدح الناس، يقول الحق والباطل، والصدق والكذب، ثم إن مالكاً - رحمه الله - كان يرى أن الجدل لا يليق بكرامة العلماء، لأن السامعين ينظرون إليهم وهم يتغالبن في القول، كما ينظرون إلى الديكة وهي تتشابه مع بعضها، وتتصايح على حد وصف مالك، ولقد أجاب بهذه الحقيقة الخليفة هارون الرشيد وأبا يوسف، عندما قال له الرشيد ناظر أبا يوسف، فرد عليه بحجة قوية مضممة - إن دلت على شيء - فإنما تدل على مكانة العالم ومهافته وشخصيته حيث قال - رحمه الله -: "يا أمير المؤمنين، إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة"<sup>(1)</sup>  
ولقد دفعه إخلاصه للعلم والفقهاء كذلك إلى - أن يبتعد عن الإكثار من التحديث، فقد كان لا يحدث بكل ما يعلم، وكان يعد من يكثر

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك والمدارك ج2 ص119، وانظر: محمد أبو زهره، مالك حياته وعصره، ص96 .

من التَّحْدِيثِ ، ومن يحدِّث بكل ما يعلم أحق (1) .

تنبيه:

حتماً إن الإمام - رحمه الله - لم يكن يقصد بذلك كتمان العلم ، أو تسفيه من يحدث بما يعلم ، من أمثال العلماء ومصنفين في عصره ، أو من يأتون من بعده ، وإنما قصد - رحمه الله - التحذير والتنفير من الفتوى بغير علم ، والمقصود بالعلم هو التحقق من المسألة ومعرفة فروع أدلتها ، ومناقشتها مناقشة ضافية ، بحيث تنتفي الجهالة بمعرفة الأصول التي بني عليها الحكم ، وليس مقصوداً بكلامه نفي الاجتهاد عن العالم ، فذلك منصوص عليه شرعاً بأن المجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجرٌ ، كما جاء في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن قاضياً ، بم تحكّم؟

قال : بكتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : فبسنة رسول الله .

قال : فإن لم تجد؟

قال : أجتهد لها رأيي .

فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : الحمد لله الذي وفق رسول

رسول الله لما يحبه الله ورسوله (2) .

1 - القاضي عيَّاض ، ترتيب المدارك ج2 ص 119 ، ومحمد أبو زهره ، مالك حياته وعصره ، ص72 .

2 - سنن أبي داود ، باب اجتهاد الرأي في القضاء ، حديث رقم/3119 . وسنن الترمذي باب ما جاء في القاضي كيف يقضي ، حديث رقم /1249 . ومسنن الإمام أحمد حديث معاذ بن جبل ، حديث رقم /12000 وحديث رقم /12049 ، وحديث رقم /12084 .



فقول العالم المبني على دليلٍ صحيحٍ، أو اجتهاد له أصل شرعيٌّ، يعتبر قولاً له وزنه، وحتماً إن الإمام مالك لم يكن يقصد العلماء الريانيين الذين يفتنون على بصيرةٍ وعلمٍ ودرايةٍ .

وكان من إخلاصه أيضاً أنه كان لا يتعرض لأحكام القضاة و يقول: هذا من متاع السلطان لأن - التعرض لأحكام القضاة بالنقد على ملاء من التلامذة والأصحاب، يجرئ الناس على عصيانها، أو على الأقل يذهب بما تستحقه من مهابةٍ وإجلالٍ، وكان يرى عدم منازعة القضاة، وذلك - لتجتث المنازعات من جذورها، ولكيلا تفتح على الناس باب المنازعات بالحق وبالباطل<sup>(1)</sup> .

وكان رحمه الله بعيداً عن العجب، يسأل عن المسألة؛ فلا يتحرج من قول لا أدري إذا لم يترجع عنده رأيٌ، يستدلُّ عليه ويتبينه عن ثقةٍ ويقين، قال ابن أبي حسان: سئل مالك عن اثنتين وعشرين مسألة، فما أجاب إلا في اثنتين، بعد أن أكثر من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وكان الرجل يسأله عن المسألة فيقول: العلم أوسع من هذا، فقال بعضهم إذا قلت أنت يا أبا عبد الله لا أدري، فمن يدري؟

قال: ويحك ما عرفتنى؟ ومن أنا؟

وأي شيء منزلتي حتى أدري ما لا تدرون؟

ثم أخذ يحتج بحديث ابن عمر، حيث يقول: لا أدري فمن أنا؟ وإنما أهلك الناس العجب<sup>(2)</sup> .

ومن المزايا التي حباها الله عز وجل بها الإمام مالك، تلك المهابة في

1 - محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص 100 .

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ص 79 .

قلوب الخلق، فقد تواترت الروايات وكثرت عن مهابته، فقد كان تلامذته يهابونها، حتى إن الرجل يأتي إلى درس مالك، ويدخل على تلاميذه وهم في حلقة الدرس مع الإمام فيلقي عليهم السلام، فلا يردون عليه إلا هممة أو إشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلم مهابة وإجلالاً، فيستكر عليهم أن يكونوا كذلك، ولكنه ما إن يملأ عينيه من مالك ويرى سمته، وإلقائه الدرس، وطريقته في الكلام، وقوة ألفاظه، ونظراته الثاقبة، حتى يأخذه ما أخذهم، ويجلس معهم كأن على رأسه الطير<sup>(1)</sup>.

وأخرج أبو نعيم عن ابن أبي أويس قال: كان مالك إذا أراد أن يحدث توضاً، وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة ثم حدث، فقليل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا أحدث به إلا على طهارة متمكنا، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو مستعجل، فقال: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(2)</sup>.

ويذكر عبد الرحمن بن مهدي عن عقله وهيبته فيقول: لقيت أربعة: مالكاً، وسفيان، وشعبة، وابن المبارك، فكان مالك أشدهم عقلاً، وقال أيضاً: ما رأيت عيناى أحداً أهيب من هيبة مالك، ولا أتم عقلاً، ولا أشد تقوى، ولا أوفر دماغاً، من مالك.

وقال عنه أمير المؤمنين هارون الرشيد ما رأيت أعقل منه، وقال ابن وهب: الذي تعلمنا من أدب مالك، أكثر مما تعلمنا من علمه، وفي فضله ووقاره يقول الإمام أحمد بن حنبل محدثاً عنه: قال مالك ما جالست سفيهاً

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 101.

2 - السيوطي، تزيين الممالك بمناقب مالك، ص 24.

قط، وهذا أمر لم يسلم منه غيره، قال أحمد: ليس في فضائل العلماء أجل من هذا<sup>(1)</sup>.

وبلغ قدراً عظيماً في قلوب الناس، وكبرت مهابته في النفوس حتى صار الناس يجلسونه ويهابونه كهيبتهم للملوك أو أكثر، قال سعيد بن هند الأندلسي: "ما هبت أحداً هييتي عبد الرحمن بن معاوية - يقصد عبد الرحمن الداخل - قال: فدخلت على مالك فهبته هيبته شديدة، صغرت معها هيبة ابن معاوية"<sup>(2)</sup>.

ويقول يحيى بن يحيى، سمعت أن أبي هند يقول: "ما هبت أحداً هيبة عبد الرحمان بن معاوية، حتى حججت فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة فصغرت هيبة ابن معاوية"<sup>(3)</sup>.

#### المطلب الخامس : وفاته ومآثره رحمه الله :

بعد أكثر من سبع وثمانين سنة، قضاه الإمام - رحمه الله - في طلب العلم، وتدرسه وتبيين الحق، والذود عن حياض الإسلام، والدعوة إلى الله على بصيرة توفى - رحمه الله - في ربيع الأول سنة "179هـ" الموافق "796م"، حيث صلى عليه أمير المدينة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسي، وشيع جنازته، واشترك في حمل نعشه ودفن، في البقيع - رضي الله عنه وأرضاه - وأسكنه فسيح جناته، آمين.

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك ج2 ص43 .

2 - المصدر السابق ، ج1 ص103 .

3 - المصدر السابق ، ج1 ص125 .

## ذكر بعض آثاره:

أهم مؤلفاته وأجل آثاره كتابه الشهير الموطأ . وهو الكتاب الذي طبقت شهرته الآفاق، واعترف الأئمة له بالسبق على كل كتب الحديث في عهده، وبعد عهده إلى عهد الإمام البخاري .

قال الإمام الشافعي: ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك، وفي رواية أكثر صواباً، وفي رواية أنفع، وهذا القول قبل ظهور صحيح البخاري .

قال البخاري " أصح الأسانيد كلها . مالك عن نافع عن ابن عمر" وكثيراً ما ورد هذا الإسناد في الموطأ، قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي . الموطأ هو الأصل واللُّبَاب، وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي<sup>(1)</sup> .

وللإمام كتبٌ أخرى لم ترق لدرجة الموطأ منها: كتاب في "القدر" رواه عنه ابن وهب وإسناده صحيح، وللإمام رسالةٌ في "الأقضية" وهو - مجلد رواه عنه محمد بن يوسف بن وطروح، ورسالته إلى الليث بن سعد: (في إجماع أهل المدينة)، وله أيضاً كتاب "المجالس" نقله عنه ابن وهب أيضاً، وهو كتابٌ قل مثيله، مشتملٌ على آدابٍ وآثارٍ وفيه فوائدٌ جمّةٌ، وله عدة كتبٍ ولكنها لم تنقل ولم يعتن بها كما عني بالموطأ<sup>(2)</sup> .

وهو كما قال القاضي عياض: "أعلموا - وفقكم الله تعالى - أنّ لمالك أوضاعاً شريفة مرويّة عنه، أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فنٍّ من

1 - ar.wikipedia.org/wiki/ مالك بن أنس نقلاً عن كتاب أئمة الحديث للدكتور

عبدالمجيد الحسيني - 7. 15. 2006 .

2 - المدونة الكبرى، ج 1 ص 12، وانظر: محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص 215.

العلم، لكنه لم يشتهر عنه منها، ولا واظب على إسماعه وروايته غير "الموطأ"، مع حذفه منه وتلخيصه له شيئاً بعد شيء، وسائر تأليفه إنما رواها عنه من كتب بها إليه، أو سأله إياها أحد من أصحابه، ولم تروها الكافة<sup>(1)</sup>.

ومن هنا تبين لنا ما لهذا الإمام من مكانة عالية رفيعة، جعلت منه مدرسة من مدارس أهل السنة والجماعة، وسيتبين لنا في مبحث العقيدة ومدلولاتها، ومدلولات الأعمال الصالحة، وعلاقتها بأعمال الإيمان، ومباحث الفرق والطوائف وموقف الإمام مالك منها، أننا أمام صرح علمي من صروح العلم، ومدرسة من مظاهر الثقافة الإسلامية يعزُّ وجوده، لاسيما وقد عرفنا من الحديث عن نشأته وعلمه وورعه وتقواه، ما جعلنا نوقن أننا إن شاء الله سنجني من خلال دراستنا لهذا العالم الجليل وسيرته وعقيدته ثماراً سترجع بالأمة إلى جذورها، عقيدة السلف، بعيداً عن التطرف والغلو، والتتبع والتبدع، وإنما شرعنا شرع من اتبع، والله نسأل أن يقينا شرَّ كلِّ غالٍ ومبتدع.

1 - انظر: ترتيب المدارك ، ج 1 ص 204، والديباج المذهب ، ج 1 ص 124.

ورقة بيضاء  
( نهاية الفصل الأول )

## الفصل الثاني

### العقيدة الإسلامية ومدلولاتها

المبحث الأول . مفهوم العقيدة الإسلامية :

المطلب الأول : الفرق بين العقيدة والدين .

المطلب الثاني : خصائص العقيدة الإسلامية .

المطلب الثالث : التوحيد .

المبحث الثاني . شمولية الدين الإسلامي عند الإمام مالك :

المطلب الأول : العلاقة بين الإيمان والإسلام .

المطلب الثاني : الشرائع والعقائد في الإسلام .

المبحث الثالث . البدعة وموقف الشريعة الإسلامية منها :

المطلب الأول : حكم البدعة .

المطلب الثاني : أنواع البدعة .

المطلب الثالث : أسباب البدعة .

المطلب الرابع : فضل التمسك بالسنة وترك البدعة .

المطلب الخامس : موقف مالك من البدع وأهلها .

ورقة بيضاء  
( ظهر عنوان الفصل الثاني )



## الفصل الثاني

### العقيدة الإسلامية ومدلولاتها

تمهيد :

العقيدة: لغة: مشتقة من العقد، وهو الربط المحكم، يقال "عقد العهد واليمين - أكدهما" (1) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (2)، يعقد عقداً، إذا باشر الربط بنفسه، وجاءت مادة عقد في لسان العرب وأفادت حالات وهيآت متنوعة، وكلها تدور حول معنى "الربط، والإلصاق، والإلحاق".

ومنه قول: أبو خراش الهذلي :

كم من عقيدٍ وجارٍ حلٌّ عندهم

ومن مجارٍ بعهد الله قد قتلوا (3)

واصطلاحاً: يدور معناها حول الإيمان بالغيبيات، والتسليم بالأخبار الصادقة من دون المشاهدة والحس، ولقد كان الإمام مالك يطلق عليها مسمى الدين لعظم مكانتها وما تمثله من قدرٍ في رسالة الإسلام فقد صح عنه - رحمه الله - قوله: "الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر ورأي جهم وكل ما أشبه ذلك" (4)، فالشاهد قوله:

1 - لسان العرب ، لابن منظور الإفريقي، دار صادر بيروت ، 2000م، ج10 ص221.

2 - سورة النساء الآية 33.

3 - لسان العرب ، ج10 ص221 . وانظر: فاتح محمد زقلام، العقيدة للسنة الثانية بمعاهد

العلوم الشرعية، طرابلس، ليبيا ، 2000م ص17 .

4 - الانتقاء لابن عبد البر ، ص 69 .

"الكلام في الدين"، فقد كان مالك يقصد العقيدة والإيمانيات، بدليل قوله: "يكرهون القدر ورأي جهم"، وهذه الفرق الضالة كانت تتكلم في العقائد .

وأثر عن مالك أيضاً أنه كان يتمثل بقول القائل :

وخير أمور الدين ما كان سنة

وشر الأمور المحدثات البدائع (1)

وكلام مالك هذا يدل على أن مصطلح العقيدة لم يكن قد ظهر كعلمٍ مستقلٍّ، بل كان يطلق عليها مسمى الدين، والمقصود الإيمان بالغيبيات، وما يتبع ذلك من الأوامر والنواهي، فقد كان الإمام مالك ينظر للإيمان جملةً واحدةً وقد أثر عنه قوله: "الإيمان قولٌ وعملٌ" (2).

وجرى عليه العمل عند المالكية في استعمال لفظ العقيدة للدلالة على معنى التوحيد، جاء في حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب: "العقائد، جمع عقيدة بمعنى معتقدة إلا أنها تطلق على ذات القضية، كقوله: الله واحد" (3).

ومن العلماء من عرفها بأنها: "الإقرار بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عنده، وما رواه الثقات عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا نرد من ذلك شيئاً" (4).

1 . الانتقاء لابن عبد البر ، ص 46 .

2 . المصدر السابق ، ص 69، مالك حياته وعصر لأبي زهرة ، ص 195 .

3 . علي الصعيدي العدوي المالكي، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرياني، حقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1412هـ، ج 1 ص 41 .

4 . الإبانة عن أصول الدين، لأبي الحسن الأشعري، ص 43 .

ويطلق لفظ العقيدة بالمعنى العام على مجموعة من الأفكار، والقضايا، التي يسلم بها الناس بحيث تصبح من البديهيات المعروفة فطرةً، بحيث يصبح العقل مجبوراً على التسليم بها والاعتقاد بها، حتى وإن كانت غائبةً عن بعض الحواس، ولكن يستدل عليها بالتجربة، والخبرة، والإخبار، بحيث يعقد الإنسان عليها قلبه جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها، وذلك كاعتقاده بوجود خالقه عز وجل، وقدرته، والموت، والبعث بعد الموت، والحساب، والعقاب، والثواب، ووجود الملائكة، والجن، وإرسال المرسلين<sup>(1)</sup>.

ويدخل تحت مفهوم العقيدة والبديهيات أيضاً: علم الإنسان بوجود التيار في أسلاك الكهرباء دون أن يراه، وكعلمه بحصول الجوع عند عدم الأكل، والظمأ عند عدم الشرب، والألم بسبب المرض، والعافية بسبب الصحة، إلى غير ذلك من القضايا التي لا يمكن إنكارها. وقد تكون العقائد الاقتصادية، واجتماعية، وأخلاقية، ودينية، فهي تختلف باختلاف موضوعها، وباختلاف الشخص الذي يؤمن بها<sup>(2)</sup>.

### شروط صحة الاعتقاد:

يشترط لصحة المعتقد شرطان أساسيان:

1 - العلم التام، والمعرفة بالشيء الذي نعتقده علماً جازماً ينفي الجهالة عنه، والمعرفة هي الجزم المطابق للواقع عن دليل، ويسمى اليقين، وهو إما علمٌ كـمعرفة العلماء، أو اعتقاد صحيح، كاعتقاد عامة المؤمنين

1 - أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، ص18، دار المنار، 1990م .

2 - فاتح محمد زقلام، العقيدة للسنة الثانية بمعاهد العلوم الشرعية، ص18 .

المقلدين للعلماء<sup>(1)</sup>، ويفسد الاعتقاد المبني على الجهل أو الشك، وذلك كما أخبر الله عز وجل عن الكافرين وحالهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

2 - قناعة النفس بهذه العقيدة، واطمئنان القلب لها، والإقرار بهذه العقيدة والتسليم بها، فلا تكفي المعرفة وحدها، من دون التسليم والرضا، فاعتقاد الإنسان أن الله واحد، وأنه سيحاسبنا على ما عملنا من خير أو شر، وبناءً على هذا الاعتقاد فلا يصدر منّا إلا ما يرضي الله تبارك وتعالى، لأننا نجزم بأن الله تعالى مطلع علينا، أما إذا كانت عقيدتنا مبنية على قناعة غير تامة، ولم تقتنع النفس بها، ولم يطمئن القلب إليها - فهي عقيدة باطلة.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله خالصاً من نفسه، أو من قلبه"<sup>(3)</sup>.

1 - عبد الهادي إدريس أبو إصبع، الشرح المبين، شرح متن ابن عاشر في الفقه المالكي، ليبيا، بنغازي، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى 1999م ص19.

2 - سورة الجاثية الآيتان 30-31.

3 - صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري، طبعة جديدة منقحة، موافقة لترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، عناية محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة، ج 3 ص259، رقم الحديث، 6570.

فلا بد إذا لصحة الاعتقاد من الإخلاص، ولا تكون العقيدة عقيدة إلا إذا كانت عن يقين، وقناعة، وقبول .

قال ابن مسعود<sup>(\*)</sup> رضي الله عنه: (اليقين الإيمان كله )، ومراده رضي الله عنه أن اليقين هو أصل الإيمان، فإذا أيقن القلب انبعثت الجوارح كلها للقاء الله بالأعمال الصالحة، حتى إن سفيان الثوري يقول: لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطار اشتياقاً إلى الجنة وهرباً من النار<sup>(1)</sup>، ويمكن أن نجمل الحديث عن العقيدة الإسلامية، ومقتضياتها، وخصائصها، والإيمان بصوره المتعددة، وآراء مآلك وغيره من علماء السلف، ومن سار على نهجهم في مسائل الاعتقاد المختلفة، في المباحث الآتية:

• هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، فقيه الأمة، لازم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثيراً، قال فيه المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: (من سره أن يقرأ القرآن غصاً طرياً كما أنزل، فليسمع من ابن مسعود، روى 840 حديثاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، بعضها في الصحيحين، توفي بالمدينة سنة 32هـ .

1 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز رقم الإيداع 20570 / 2000 / مصر المكتبة الإسلامية، ج1 ص56 .

### المبحث الأول . مفهوم العقيدة الإسلامية :

عرفنا أن لفظ العقيدة واستعمالها للدلالة على مسمى الإيمان، مصطلح عرف بعد عصر الإمام مالك، لذلك لم يرد ذكرها في أشهر مصنفات الإمام مالك، بل وفيما نقل عنه من آثار، وعرفنا أنه كان يسميها بمسمى الدين، وللعقيدة الإسلامية، أسماء أخرى عند أهل السنة والجماعة ترادفها وتدل عليها، منها: "التوحيد"، "السنة"، "أصول الدين"، "الفقه الأكبر"، "الشريعة"، "الإيمان".

هذه أشهر إطلاقات أهل السنة على علم العقيدة .

والعلماء المعاصرون لم يختلفوا حول هذا المفهوم للعقيدة الإسلامية: فهم يعرفونها بأنها: التصديق بالقضايا والأخبار الحقيقية الصادقة التي أخبر بها المعصوم - صلى الله عليه وسلم، عن الله تبارك وتعالى، وتشمل: (التوحيد، وعالم الغيب، واليوم الآخر، وكذلك أخباره عن الأمم السابقة، والأنبياء والمرسلين، وكل ما أوحى إليه من القرآن والحكمة، وما يتبع ذلك من الأوامر والنواهي، والثواب والعقاب والجنة والنار)<sup>(1)</sup>، ومصطلح العقيدة الإسلامية يتكون من كلمتين (صفة، وموصوف) والمعروف أن الصفة ملازمة للموصوف في جميع أحواله، من تعريفٍ وتكبيرٍ، وتذكيرٍ وتأنيثٍ، وإفرادٍ وتثنيةٍ وجمع، وفي المعنى كذلك، لأن الصفة مبيّنةٌ لهذا الموصوف .

فإذا قلنا مثلاً العقيدة الوثنية - فهذا يفيد معنىً في نفس المستمع،

1 - عبد السلام التونجي، العقيدة في القرآن، طرابلس، ليبيا، جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى 1986م، ص87.

يفيد مفهوم الوثنيين للاعتقاد ، وإذا قلنا العقيدة المسيحية . فهي أيضاً تفيد المفهوم العام للمعتقد عن المسيحيين، وهكذا فكلمة العقيدة تعطي معناها بحسب ما تضاف إليه، وهذا المعنى ينسحب على العقيدة الإسلامية كذلك .

والإيمان بالله تعالى هو أصل العقيدة، وقد أوضح ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والإيمان بالله تعالى يتضمن بالضرورة الإيمان بوجوده تبارك وتعالى، والإيمان بوحدانيته سبحانه، في ربوبيته، وألوهيته، والإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العلاء<sup>(1)</sup>، قال تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(2)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾<sup>(3)</sup> .

فلا عقيدة صحيحة إلا عقيدة الإسلام، ولا دين بحق ارتضاه الله لعباده إلا دين الإسلام، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾<sup>(4)</sup> . وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(5)</sup> .

1 - مصطفى عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة الإسلامية ، ليبيا، سبها، منشورات جامعة سبها، الطبعة الأولى 2001م، ص17.

2 - سورة البقرة الآية 285.

3 - سورة آل عمران الآية 19.

4 - سورة آل عمران الآية 83 .

5 - سورة آل عمران الآية 85 .

وهكذا كانت نظرة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين لمفهوم العقيدة الإسلامية، وهكذا فهموا مراد الله عز وجل، فالدين عندهم هو العقيدة، والعقيدة مردّها إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وهي مسائل غير قابلة للاجتهادات والاستنباطات والتحليلات، ولهذا قال الحق تبارك وتعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُمُ﴾ (1).

إذا فالدين ومسائل الاعتقاد توقيفية، نعم قد يحتاج الإنسان إلى أدلة على الاعتقاد تهدي قلبه، وتزيد بصيرته، وذلك كضرب الأمثال للناس في القرآن الكريم، كما قال الحق تبارك وتعالى في الدليل على وحدانيته في الخلق والتدبير: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (2).

وكضرب الأمثال في إحياء الله عز وجل الأموات بعد انتهاء الحياة، وقيام الناس لرب العالمين، بإحياء الأرض بعد موتها قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَا لَهُ لِبَدًا مِّمَّنْ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (3).

ومع هذا، فإن مذهب السلف أن الإنسان المسلم إذا اعتقد وآمن بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً ورسولاً، فإنه لا بد

1 - سورة محمد الآية 19 .

2 - سورة الأنبياء الآية 22 .

3 - سورة الأعراف الآية 57 .



أن يؤمن أن مسائل العقيدة، مسائل توقيفية، مردها لله ورسوله، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وقد فهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، حتى حديثو العهد بالإسلام منهم، بل وحتى من كان أول عهده بشهادة التوحيد، وأول مناسبة له يعلن فيها إسلامه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخرج البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه بسنده، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قوله: "بينما نحن جلوس مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه<sup>(\*)</sup> في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي - صلى الله عليه وسلم - متكئ بين ظهرانيهم فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أجبتك، فقال: إني سأئك، فمشد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك، فقال: سل ما بدا لك، فقال: أسألك بربك، ورب من قبلك - آله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم، قال: أنشدك<sup>(\*\*)</sup> بالله، آله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: اللهم نعم، فقال الرجل، آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي

• المراد بركه، وأنخت الجمل فاستناخ أي بركته فبرك، أنظر - محمد بن أبي بكر

الرازي، مختار الصحاح، مصر، مطبعة دار المعارف، 1973م ص684.

•• ناشدتك، أنشدتك: أي بمعنى سألتك بالله، (مختار القاموس ص604).

من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر" (1).  
 وفي رواية مسلم قال: "والذي بعثك بالحق، لا أزيدُ عليهن ولا أنقصُ،  
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لئن صدق ليدخلن الجنة" (2).  
 وهذا الحديث من الآثار العظيمة التي تبين بساطة الدين وسهولته،  
 وأن عقيدته محكمة وشرائعه تامة لا لبس فيها ولا موارد، بل الصدقُ  
 كل الصدق مع الله تعالى ومع رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وأيضاً في  
 هذا الحديث أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الله ويؤمنون بوجوده  
 وقدرته، بدليل قول ضمام للنبي - صلى الله عليه وسلم -: (أسألك بربك،  
 ورب من قبلك ..).

ثم ماذا كانت النتيجة لما سأل ضمام ما سأل! وأجابه النبي - صلى  
 الله عليه وسلم، على تساؤلاته، بجواب المعلم، وتبيين المرشد، وماذا كان  
 من ضمام، وهو الذي كان هذا أول عهده بالإسلام - ماذا كانت أسئلته؟  
 هل سأل عن ذات الله تعالى؟ وكيفية صفاته وأسمائه؟ هل صار يناقش  
 ويجادل في مسائل التوحيد التي هي عقائد مسلم بها؟ ليست مسائل  
 للتأويلات والتحليلات؟ إن ضماماً: عرف بفطرته ماذا عليه أن يقول، وما  
 هي الأمور التي تهمة ويحتاج إلى السؤال عنها، واستيضاحها، وهو لا يمثل  
 رأيه فقط بل جاء وزيراً ومبعوثاً من قومه للسؤال عن هذا الدين، والوقوف  
 على حقيقته .

لذلك جاء عند أبي داوود من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنه

1 - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم "وقل رب زدني علماً" ج 1 ص 26،

رقم الحديث 63، وانظر: مختصر صحيح البخاري للزيدي، ص 38 .

2 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري للبخاري، ص 168 .

قال: "فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل من ضمام" وكان عمر بن الخطاب يقول: "ما رأيت أحسن مسألةً ولا أوجز من ضمام"<sup>(1)</sup>.  
 هذه هي العقيدة الإسلامية دون تعقيد أو تكلفٍ ما لم يكلفنا الله تعالى به، فالله عزَّ وجل لم يكلفنا أن نبحث عن ذاته، ولا عن كنه صفاته، لأنه سبحانه خلق الإنسان ويعلم قدراته، ومحدودية إدراكه، فهو سبحانه لم يكلفنا ما لا تطيقه عقولنا، وحيث إن إدراك حقيقة صفاته غير متاحٍ لنا في الدنيا، والإحاطة به سبحانه مستحيلةٌ، فلم يكلفنا معرفتها، ولم يوجب علينا إدراكها، وهذا من رحمته سبحانه، فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولتوضيح مسائل العقيدة المختلفة، والوقوف على كلام السلف الصالح حول مقتضياتها، ومدلولات النصوص العقدية، والوقوف على رأي الإمام مالكٍ بشكْلِ خاص، سأتكلم عن عدة مطالب وهي كما يلي:

### المطلب الأول . الفرق بين العقيدة والدين :

عرفنا فيما سبق أن مصطلح (العقيدة) لم يكن متداولاً عند السلف الصالح، بل كانوا يطلقون عليها مسمى (الدين) بشكْلِ عام، كما مرَّ علينا من كلام الإمام مالك، وقوله: (الكلام في الدين أكرهه..)<sup>(2)</sup>، فالدين يشمل العقيدة، والعبادات، والمعاملات، فلو أراد أي عالمٍ من علماء السلف أن يتحدث عن العقيدة، فإنه يسمِّي هذا المصطلح باسم الدين أو الإيمان، وهناك شواهد على ذلك من أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم -،

1 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري للبخاري، ص 186 .

2 - سبق تخريجه، الانتقاء لابن عبد البر، ص 69 .

ومن كلام صحابته الأطهار، وكذلك من الأقوال المأثورة عن الإمام مالك وغيره من الأئمة الأعلام، فنجد مثلاً في أحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، جاء ذكر شعب الإيمان، والذي هو العقيدة الإسلامية، وعليها قوام الدين، ودعاماته، وقد سماها النبي - صلى الله عليه وسلم - الإيمان، فعند البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: "الإيمان بضع وستون شعبة<sup>(\*)</sup>، والحياء شعبة من الإيمان" وفي رواية مسلم بزيادة: "أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق"<sup>(1)</sup>.

وتارة يطلق لفظ الدين على العمل الذي هو من أخص أعمال الدين كالصلاة، فقد جاء في البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل عليها وعندها امرأة قال: "من هذه؟" قالت: فلانة تذكر من صلاتها فقال: مة<sup>(\*\*)</sup> عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملُ الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه"<sup>(2)</sup>.

كما أخرج ابن عبد البر عن مصعب بن عبد الله الزبير قال: "كان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا

• - قطعة أو جزءاً و المراد خصلة .

1 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الدين، ج 1 ص 13، رقم الحديث 9، وانظر: مختصر البخاري للزيبي، ص 27.

•• - أصلها: ما هذا وهي تستعمل للزجر والمراد أكفف، وتوقف .

2 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق - عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم الإيداع 20570 / 2000 / مصر - المكتبة الإسلامية عين شمس ج 1 ص 122.

يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا يحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحبُّ إليَّ لأنني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل" (1).

فالشاهد في كلام مالك قوله: (الكلام في الدين) والمعلوم أنه يقصد العقائد والإيمانيات، ممَّا خاض فيه الجهمية والقدرية والمعتزلة وغيرهم .

وقد كان الإمام مالك، ومن عاصره من علماء السلف، يطلقون على العقيدة مسمى الدين، فلم يكونوا يفرِّقون بين الأعمال التعبدية، واعتقاد القلب، لذلك لما جاء نعي مالك إلى حماد بن زيد (٥) بكى حتى جعل يمسح عينيه بخرقة ويقول: يرحم الله مالكاً لقد كان من الدين بمكان، وعنى - رحمه الله - بقوله: الدين - جميع ما شرع الله وأمر، وأيضاً كان يقصد ما كان للإمام مالك من مكانة بين علماء عصره، بالذود عن السنة، وقمع البدعة، وتنقية العقيدة من الشوائب .

تتبيه: سنعرض بعض أقوال أهل العلم، في مسائل وقضايا العقيدة المختلفة، وحديثنا عنهم ونقل أقوالهم في هذا الصدد، إنما هو للاستشهاد

1 - ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى، 2002م، ص415 .

• هو الإمام العالم، حماد بن زيد من أقران مالك، وهو فقيه عالم، له قدره، روى عن مالك وأبي حنيفة أحاديث كثيرة، قال عبد الرحمان بن مهدي: الأئمة أربعة: سفيان الثوري، ومالك، وحماد بن زيد، وابن المبارك، توفي سنة 197، وانظر: (الانتقاء ص66، الطبقات للشيرازي ص169) .

على أقوال مالك في قضايا العقيدة بشكّل خاص، فهم قد تأثروا بآرائه العقديّة وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً - لأن الإمام مالك، متقدّم عليهم، وقد جاءوا بعده بعدة قرون، وهم في هذا تبع له، وإنما الفضل لمن سبق .

ثانياً - لأنهم تأثروا بآراء الإمام مالك، واعتبروها تمثل عمدة آراء علماء السلف، فقد كان - رحمه الله - بمثابة المرجع، وكانت أقواله وحججه في مسائل العقيدة، دليلاً لهم يهتدون به، وأصلاً يحتكمون إليه، كما في مسألة الاستواء، وقوله المشهور: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، فقد تناقل هذا الأثر علماء السلف على مختلف طبقاتهم، وقلّ أن تجد كتاباً من كتب العقيدة والتفسير - المعتبرة والمعتمدة - لا يذكر هذا الأثر، فقد ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره، وابن كثير في كتابه المسمّى تفسير القرآن العظيم، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والنووي في شرحه على صحيح مسلم، وابن تيمية في العقيدة الواسطية، وابن القيم في زاد المعاد، والصنعاني في تطهير الاعتقاد، ناهيك عن فقهاء المالكية كابن أبي زيد القيرواني في الرسالة، وابن عبد البر في التمهيد، والقاضي عياض في ترتيب المدارك، وفي مواهب الجليل على مختصر خليل، وغيرهم من علماء الأثر .

ثالثاً - الاستشهاد على هذه الأقوال وترجيحها، بالكتاب والسنة، لكونهما المنهج الذي كان يعتمد عليه الإمام مالك في إثبات العقيدة، فلم يكن يترك النصّ المتمثل في: (القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة)، فما جاء فيهما فهو مذهبه، وهو قوله الذي يختاره، فقد كان مالك يعتقد

أن: القرآن اشتمل على الشريعة اشتمالاً كلياً، وأن السنة المشرقةً بيانه، تفصّل مجمله، وتقيّد مطلقه<sup>(1)</sup>، وقد كان مذهبه، ومذهب تلامذته الوقوف عند النصوص، وكما جاء في الفواكه الدواني - شرح رسالة أبي زيد القيرواني، إمام المالكية في عصره: فإن الأصول التي بنى عليها مالك مذهبه: الكتاب والسنة<sup>(2)</sup>، ولأنه كان لا يرى بالخوض في المشابهة، من الآيات، ومذهبه في ذلك الرجوع إلى رأي الصحابة والتابعين في تفسير الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وقد كان الصحابة يُمرّرونها كما جاءت، وقد كان مذهبه في التفسير مذهب شيخه، التابعي الجليل - زيد ابن أسلم<sup>(3)</sup>، لذلك كان لزاماً علينا أن نستشهد على آرائه بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تفصّل في مسائل الاعتقاد، وتفسير الصحابة والتابعين لهذه النصوص، وإن لم تكن قد نقلت عنه، ولكنها رأيه، ومذهبه الذي يختاره في مسائل العقيدة المختلفة .

**رابعاً -** لم يكن الإمام مالك محباً للخوض في مسائل العقائد، وقد مرّ علينا قوله: (الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا - يقصد التابعين الكبار في المدينة المنورة - يكرهون القدر ورأي جهم وكل ما أشبه ذلك)<sup>(4)</sup>، فلم يصنّف كتاباً خاصاً في هذا الباب، سوى ما نقل عنه من أقوال مأثورة جمعها تلامذته، وحكيته في معرض ردوده على بعض السائلين عن هذه القضايا، أو نقلت عنه كردود على بعض الذين انحرفوا

1 - المذهب المالكي، محمد سكال الجزائري، ص 385 .

2 - الفواكه الدواني، ج 1 ص 22 .

3 - مالك حياته وعصره، لأبي زهرة، ص 293 .

4 - سبق تخريجه، الانتقاء، ص 69 .

عقائدياً، مما يستوجب علينا الإشارة إلى هذه الأقوال، وإن لم ينقلها تلامذته، فالمقصود هو استقصاء آرائه، ومعرفة وجهة نظره، ومفهومه للعقيدة، وإن لم نصل إلى هذا الهدف إلا عن طريق استعراض أقوال متأثرة للإمام مالك، تناقلها علماء السلف ممن لم يكونوا على المذهب المالكي في الفقه، ولكنهم تأثروا بآراء مالك في مسائل العقيدة، واعتقدوا صوابها، لموافقها لصريح النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة .

**خامساً** - تناول العلماء الذين جاؤوا بعد الإمام مالك، مصطلحات لم تكن معروفة زمن الإمام مالك، كمصطلح (العقيدة)، فلم يكن متداولاً في زمانه، وكذلك تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، (الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات)، فقد كان الإمام مالك يعبر عن كل ذلك، بمسمى الدين، أو الإيمان، فلم يكن متعارفاً عليه في القرن الأول، وسمّاها الإمام أبو حنيفة (الفقه الأكبر) لأهميتها، لذلك فلا غنى عن ذكر أقوال هؤلاء الأئمة المجتهدين الذين جمعوا لنا أقوال مالك في هذه المسائل، واستطعنا من خلالهم أن نتعرف على عقيدة الإمام مالك، فقد كانوا متتبعين لعقيدته، وسائرهم على منهجه في قضايا الإيمان المختلفة، وما ذلك إلا لُزومِهِ - رحمه الله - الكتاب والسنة، ومن الأمثلة على ذلك، ما نسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه أول من تكلم بمصطلح العقيدة، فقد عبّر شيخ الإسلام بن تيمية - رحمه الله - عن مصطلح العقيدة بالإيمان، فقد قال رحمه الله: "أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره" (1) .

1 - العقيدة الواسطية، ج 1 ص 16 .



لذلك اعتبر بعض أهل العلم - شيخ الإسلام بن تيمية، من أوائل الذين عبّروا عن الإيمان بمسمى الاعتقاد، فقال - رحمه الله -: (فهذا اعتقادُ) يعني إيمان وإقرار أهل السنة والجماعة، وبعضهم ينسبها للعلامة المالكى - ابن أبي زيد القيروانى - حيث سَطَّرَ قسم العقائد في رسالته بقوله: وقد فرض سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات (1).

فالشاهد في قوله: (الاعتقادات)، وهي جمع اعتقاد، وعقيدة، وعلى هذا فيمكن أن نقول إن هذا المصطلح قد ظهر قبل ابن تيمية بكثير، وقد عاش ابن أبي زيد القيروانى في القرن الرابع الهجري، فقد توفى سنة 386هـ، فإذا نسب أول ظهور لمسمى الإيمان بالاعتقاد للقيروانى، فيكون ظهور هذا المصطلح في القرن الرابع الهجري، وقد أكد على هذا الاصطلاح - القاضي عبد الوهاب المالكى، في شرحه على عقيدة ابن أبي زيد القيروانى فقال: فما يختص به القلوب، هو اعتقاد توحيده تعالى، والإيمان والإقرار بالهَيْتِه، وأنه على ما هو عليه من صفاته الواجبة لذاته، من حياته، وعلمه، وقدرته، وسائر صفاته، والتصديق بأنبيائه ورسله، وكتبه وشرائعه، واعتقاد وجوب أوامره، ولزوم طاعته، والتعبد له إلى ما يتصل بذلك مما يجري مجراه (2)، ومن هنا ظهر مصطلح العقيدة، أما الأولون فإنهم يسمونها بمسمى الدين، أو الإيمان .

1 - القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكى، شرح عقيدة ابن أبي زيد القيروانى، تحقيق - أ.د. أحمد محمد نور سيف، دار البحوث، الإمارات، 2004م ص 153 .

2 - شرح عقيدة ابن أبي زيد للقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكى، ص 154 .

وواقع الأمر بعد البحث والتمعن، فإننا نعتقد أنه ليس ثمة فرقاً كبيراً بين المصطلحين، غير أن كلمة الدين في حال إطلاقها دون تخصيص بالحديث عن العقيدة، تكون أعم من لفظ العقيدة، فكلمة الدين في هذه الحال تعني العقائد وما يتبعها من عبادات ومعاملات، ولفظ العقيدة عند إطلاقها يراد بها الإيمانيات، والمعتقدات مثل التوحيد، والإيمان بالغيب، وغيرها، وإذا جاءت في معرض الحديث عن الدين بشكْلٍ عام، فتشمل المعتقدات وما يتبعها من عبادات ومعاملات وأوامر ونواهي. والله أعلم.

وقد كانت آراء الإمام مالك - رحمه الله -، في قضايا العقيدة وما يتعلق بذات الله عز وجل وأسمائه وصفاته، ملازمةً للكتاب والسنة، وما صح نقله من آثار عن السلف الصالح، من الصحابة والتابعين.

وكان مالك - رحمه الله - يروي قول عمر بن عبد العزيز، ويحفظه، ويذكره في كثير من المناسبات - في فضل السنة وحثه على الوقوف على أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - واتباعه في ما أمر، والاقتصار على ما شرع، وعدم الابتداع في دين الله، وقد كان الإمام مالك متأثراً بأقواله وآرائه، وكما هو معلوم فإن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة، قبيل مولد الإمام مالك، وهذا قبل أن يصير أميراً للمؤمنين بعد مرور قرن، على هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، حيث روي أن الإمام مالك - رحمه الله - قال: "ولدتُ في العام الذي عزل فيه عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة"<sup>(1)</sup>.

وقد قال هذا الإمام العادل: "سنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وولاية الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة

1 - عبد الحليم الجندي، مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ص 47.

الله، وقوة على دين الله، وليس لأحد بعد تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهدي، ومن استتصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيراً<sup>(1)</sup>.

كان مالك يحدث بهذا الكلام المأثور، وإذا حدث به ارتج سروراً وتصديقاً له، وأثر عن الإمام مالك قوله: "لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها"<sup>(2)</sup>.

فقد كان - رحمه الله - متمسكاً بالمنهج الأول، والطريق الأمثل الذي رسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه، فهم أول الأمة، وأدراها وأعلمها بالله تبارك وتعالى، وبما يجب له، وبما أمر الله وشرع، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: .... وفيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن أتاكم وأعلمكم بالله أنا"<sup>(3)</sup> فالتبني - صلى الله عليه وسلم -، أعلم الناس بالله تعالى ولا ريب، وهو أتقى الخلق لله، وأكثرهم له خشيةً.

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1 ص 123 .

2 - المصدر السابق، ج 1 ص 123، وانظر: مالك لأبي زهرة، ص 192.

3 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - "أنا أعلمكم بالله" وأن المعرفة فعل القلب لقول الله تعالى: ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم" ج 1 ص 15 حديث رقم 20، وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم الإيداع 20570 / 2000 / مصر، المكتبة الإسلامية، عين شمس، ج 1 ص 83 .

## المطلب الثاني . خصائص العقيدة الإسلامية :

مما لاشك فيه أن للعقيدة الإسلامية، خصائص ومميزات، جعلتها مميزةً ومختلفةً عن غيرها من العقائد السماوية السابقة، وهي كما يلي:

1 - الدين الذي دعا له جميع رسل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(1)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

2 - دعوة للناس أجمعين، أسودهم، وأبيضهم، عربهم، وعجمهم، قال تعالى: ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )<sup>(3)</sup>.

3 - العقيدة الخاتمة والدين الذي تفرد بالكمال والتمام والحفظ<sup>(4)</sup> قال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(5)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(6)</sup>.

4 - المنهج الذي يشمل العقائد، والعبادات، والمعاملات، وينظم فيما بينها، بحيث يعرف المسلم ما عليه من واجباتٍ تجاه خالقه، وتجاه أخيه

1 - سورة الأنبياء الآية 25.

2 - سورة النحل الآية 36 .

3 - سورة سبأ الآية 28 .

4 - عبد السلام التونجي، العقيدة في القرآن، ص 44 .

5 - سورة المائدة الآية 4 .

6 - سورة الحجر الآية 9 .

المسلم، وأيضاً مجتمعه الذي يعيش فيه، فالدين الإسلامي كما هو دين توحيد وصلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها من الطاعات التي أمر الله بها، فهو - كذلك دين معاملات وأخلاق وآداب، فتُذكر الزكاة والإنفاق في سبيل الله، مع العفو والصفح وكظم الغيظ، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (1).

يُروى أن جاريةً لعلّي بن الحسين بن علي رضي الله عنهما، جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة: فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه فقالت: إن الله يقول: (والكاظمين الغيظ) فقال: كظمت غيظي، فقالت: (والعافين عن الناس) قال: قد عفوت عنك، فقالت: (والله يحب المحسنين) قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله (2).

وفي القرآن الكريم سورة كاملة تتحدث عن الآداب والأخلاق هي سورة الحجرات، وتسمى أيضاً سورة الآداب (3).

5 - دين يخاطب العقل والفطرة السليمة، وخالٍ من الخرافات

1 - سورة آل عمران الآية 133 .

2 - شعب الإيمان للبيهقي ، حديث رقم / 7964 ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، ج7 ص387 ، والبداية والنهاية لابن كثير ، ج9 ص125 ، وانظر: محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، الطبعة السادسة، دار النصر للطباعة، مصر، القاهرة 1972م ج4 ص28 .

3 - دروس ومذكرات، للشيخ عيسى بن بلقاسم الفاخري، جمع وترتيب: مفتاح الفاخري، 2001، لم تنشر، وانظر: سالم رحيل، الشيخ عيسى الفاخري حياته ومنهجه، ص133 .

والأساطير، وبهذا فهو لا يلغي حكم العقل، بل على العكس قد أمر الإسلام باحترام العقل وحث على التفكير في آيات الله الكونية، واستخدم البراهين العقلية، بضرب الأمثال للناس على وجود الله ووحدانيته، وربوبيته قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(1)</sup> وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾<sup>(2)</sup>.

قال الإمام اللقاني صاحب الجوهرة :

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي  
تجد به صنعاً بديع الحكيم لكن به قام دليل العدم<sup>(3)</sup>

وفي شرح هذه الآيات يقول العلامة الصاوي المالكي: من عرف نفسه بالحدوث والفقر، عرف ربه بالقدم والغنى، أي من تفكر في بدائعها استدل بها، وجاء في - مفاتيح الكنوز وحل الرموز - حيث قال الشريف المقدسي: هو إشارة للتعجيز، أي أنت لا تعرف نفسك، فلا تطمع في كنه ربك<sup>(4)</sup>.

6 - أنها عقيدة علم وعمل، فهي العقيدة التي تحث أتباعها على العلم والعمل، وتراعي المصالح الحياتية، التي يجب مراعاتها، فهي ليست ديناً

1 - سورة الحج الآية 46

2 - سورة العنكبوت الآية 19

3 - أحمد بن محمد المالكي الصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تحقيق: عبدالفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، ص 125.

4 - شرح الصاوي المالكي على جوهرة التوحيد، ص 124.

مجرداً عن العمل، وليست عبادات وأوامر ونواهي فحسب، بل جاءت لإصلاح الدين والدنيا معاً، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(1)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

7 - أنها عقيدة سماوية، ودين إلهي، قوامه القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين بوحي من الله، على قلب عبده ورسوله ومصطفاه، محمد صلى الله عليه وسلم - كامل بكمال الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيراً من حكيم حميد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾<sup>(3)</sup>.

8 - هي العقيدة التي راعت الطاقات البشرية وتحمل الإنسان وقدراته، فلم تحمل أتباعها أكثر مما يقدر، ولم تكلفهم أكثر مما يطيقون قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(4)</sup>.

1 - سورة النحل الآية 98.

2 - سورة التوبة الآية 105.

3 - سورة الشعراء الآية 192 - 195.

4 - سورة البقرة الآية 286.

## العقيدة عند مالك:

عرف عن مالك - رحمه الله - التزامه منهج السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، وهو ما كان عليه الجيل الأول من لدن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وصحابته الأطهار، وهو من علماء الحديث وأئمة، بل ومن أول المتصدرين في هذا الفن، قال عبد الرحمن بن مهدي<sup>(١)</sup>: "أئمة الحديث الذين يقتدى بهم أربعة، سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحamad بن زيد بالبصرة"<sup>(١)</sup>، وفي رواية أخرى له، الأئمة أربعة: "سفيان الثوري، ومالك، وحamad بن زيد، وابن المبارك"<sup>(٢)</sup> وعرف عن أئمة الحديث شدة التزامهم، باتباع سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والسير على هديه .

ومنهاج السنة واضح لا لبس فيه، هو اتباع ما جاء به القرآن الكريم، وما صح نقله عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويرون وجوب إجراء نصوص الكتاب والسنة في قضايا الاعتقاد، وفي مسألة أسماء الله عز وجل وصفاته على ظاهرها، وحملها على حقيقتها اللاتقة به تبارك وتعالى .

ومسائل الاعتقاد مما أجمع عليه سلف هذه الأمة، فهي قضايا ثابتة

• هو أبو سعيد عبد الرحمان بن مهدي بن حسان العنبري من فقهاء التابعين بالبصرة توفى سنة 198هـ، علامة في الحديث، وأسماء الرجال، ولقد كان الشافعي يرجع إليه في الحديث، انظر: شجرة النور الزكية، ص 58 .

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ص37، محمد أبو زهرة مالك حياته وعصره، ص87

2 - أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ص94 .



عند جميعهم، ولم ينقل المخالفة عنهم في ذلك، كتوحيد الله تبارك وتعالى في خلقه، وأنه لا شريك له في ملكه وتدبيره، وأنه سبحانه وتعالى غني عن خلقه والخلق فقراء إليه .

وقد ظهرت فرق، وطوائف مختلفة زمن الإمام مالك، لها أقوال وآراء في قضية الأسماء والصفات سنورها إن شاء الله بالتفصيل في حديثنا عن الفرق والطوائف، وسنورد كذلك ردود الإمام على هذه الفرق، وما هي وجهة نظره فيها، وكيف كانت منهجيته في التعامل مع هذه الفرق، وما هو الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم تجاه الخوض في قضايا ذات الله عز وجل، وأسمائه وصفاته .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - "..... ولكن من رحمة الله بعباده أن الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق كالأئمة الأربعة وغيرهم، كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن، والإيمان، وصفات الرب، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله جل وعلا غير مخلوق، وأن الإيمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان.." (1).

وهو في هذا إنما ينقل عن الأئمة المتبوعين الأوائل، الذين تلقت الأمة علمهم بالقبول، وصار لهم شأن عظيم في الشريعة، بحيث إذا ذكروا وذكرت أقولهم واجتهاداتهم، فإن لها الاعتبار في مذهب أهل السنة والجماعة، كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم .

1 - كتاب الإيمان لابن تيمية، تعليق الهراس، دار الطباعة المحمدية، ص 350، 351 .

## المطلب الثالث. التوحيد:

التوحيد لغةً: الإفراد، يقال: وَحَّدَهُ تَوْحِيداً جَعَلَهُ واحِداً، واللَّهِ الأَوْحَدُ، والمتَّوَحَّدُ ذو الوحدانية، والتَّوْحِيدُ: الإيمان بالله وحده<sup>(1)</sup>.  
وشرعاً: تنزيه الله عز وجل عن الشبيه والمثيل في ذاته وأسمائه وصفاته، وإفراجه سبحانه وتعالى بالروبية، والألوهية، ونفي الشريك عنه<sup>(2)</sup>.

ويعرف العلامة اللقاني التوحيد بقوله: هو إفراد المعبود بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالاً، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه، ولا تشبه ذاته الذوات، ولا تشبه صفاته الصفات<sup>(3)</sup>، فالله تعالى كما أخبر عن نفسه في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(4)</sup>.  
وهو معنى (لا إله إلا الله) أي لا إله يعبد بحق إلا الله سبحانه وتعالى، فهي نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوى الله، وإثبات الألوهية له وحده وتعني كذلك الإخلاص في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية<sup>(5)</sup>.

- 1 - الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1984م، ص 650.
- 2 - مصطفى عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة الإسلامية، ليبيا، سبها، منشورات جامعة سبها، الطبعة الأولى 2001م، ص 75.
- 3 - عبد السلام بن إبراهيم اللقاني، شرح جوهرة التوحيد، المُسمَّى "إتحاف المرید بشرح جوهرة التوحيد"، دار القلم العربي، سورية، حلب، الطبعة الأولى، 1990م، ص 15.
- 4 - سورة الشورى الآية 9.
- 5 - صالح بن فوزان الفوزان، شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة دار السلام، الرياض، 1997م، ص 9.

قال الشيخ عبدالهادي أبو أصيب، وهو من علماء المالكية المعاصرين: أما معنى هذه الكلمة فلا شك أنها محتوية على نفي وإثبات، فالمنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جلّ وعلا، ثم نقل الرواية عن الشيخ السنوسي المالكي - رحمه الله تعالى - حيث قال: معنى الألوهية استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه، فمعنى لا إله إلا الله، لا مستغني عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى<sup>(1)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهذه السورة قد اشتملت على التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، واشتملت على تنزيهه عن النقص، وأنه تبارك وتعالى ليس له شبيه أو مثيلٌ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ويقول ابن القيم رحمه الله في شأنها: "سورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية النافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه والصدمية، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، ونفي الكفاء المتضمن لنفي الشبيه، والمثيل، والنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي كل شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي"<sup>(2)</sup>.

جاء في حاشية الأمير: وقد صار التوحيد، علماً واجباً شرعاً، لا

1 - عبد الهادي إدريس أبو صيب، الجوهر الفريد في علم التوحيد، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى، 1998م، ص 38 .

2 - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج1، ص(81 - 82) الطبعة الأولى، مصر، 1325هـ .

ترخيص في تركه، وذلك لعموم قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)<sup>(1)</sup>، فهو علم يبحث عن ذات الله وصفاته، وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد، على قانون الإسلام، وكذلك يتوصل بواسطته إلى تثبت العقائد الدينية على الغير، وإلزامها إياه، بإيراد الحجج، ودفع الشبه<sup>(2)</sup>.

وأدلة التوحيد نقلية، وعقلية، النقلية في الكتاب والسنة كثيرة منها: قول الحق تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(3)</sup>.  
وأيضاً قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾<sup>(4)</sup>.

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(5)</sup>.

ومن السنة ما أخرجه البخاري في صحيحه، بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة

1 - سورة محمد الآية 20 .

2 - محمد بن محمد الأمير، تقييد على شرح عبد السلام على جوهرة اللقاني في علم التوحيد، مطبعة حجازي، القاهرة، (بدون تاريخ طباعة) ص 24 .

3 - سورة آل عمران الآية 18 .

4 - سورة الزخرف الآية 44 .

5 - سورة الحشر الآية 22 .

الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان<sup>(1)</sup>.

والأدلة العقلية على وحدانية الله كثيرة، ولا أدل من كونه سبحانه وتعالى واحداً في ذاته وصفاته، من أنه تعالى لو لم يكن واحداً لما أوجد المخلوقات أصلاً، لأن الذي يحتاج إلى شريك فهو عاجز، والعجز محال على الله سبحانه، وكذلك يقع التنازع بينهما، فهي آلهة متعددة، فهذا يريد إيجاد شيء، والآخر يريد إيجاد شيء آخر، وهذا يريد الإيجاد، وذلك يريد الإعدام، وهذا يريد الإعطاء، وآخر يريد الحرمان وهكذا.. الخ<sup>(2)</sup>.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأدلة العقلية المسلم بها، حيث قال ربنا جل وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(3)</sup>.

وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

1 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - " بني الإسلام على خمس" حديث رقم/8، وانظر - أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، مختصر صحيح البخاري التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ص27 - دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1989م .

2 - فاتح محمد زقلام، العقيدة للسنة الثانية بمعاهد العلوم الشرعية، ص 34 .

3 - سورة الأنبياء الآيات 21- 25 . ينشرون: أي يحيون الأموات ؛ لأنه لا يكون إله إلا إذا أحيا الموتى .

يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَكْدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

### أقسام التوحيد:

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات (2).

ويجدر بنا أن نذكر هنا، أن هذا التقسيم بهذا التفصيل وهذه المسميات، لم يكن متعارفاً عليه في عصر الإمام مالك - رحمه الله -، كما سبق وأشرت في مطلع الحديث عن مصطلح العقيدة، فهم يسمونها إجمالاً بمسمى الإيمان، مع علمهم بطبيعة الحال بما لهذه الكلمة من معنى مشتمل على التوحيد بجميع جوانبه، ولكن، ومع ظهور الطوائف والفرق والمتكلمين، باتت الحاجة ملحةً إلى التفصيل في أمور العقائد، حتى لا يضلَّ الناس عن المنهج الصحيح، منهج أئمة المسلمين وعامتهم، الذين صفت عقيدتهم، وخلص إيمانهم وتوحيدهم لله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

1 - سورة المؤمنون الآيات 86 - 92.

2 - محمود صالح البغدادي، إرشاد الأنام في عقيدة الإسلام، دار البراء، الطبعة الأولى، 1985، ص12، وانظر فاتح محمد زقلام، العقيدة، ص76.

## أولاً . توحيد الربوبية:

يقصد بتوحيد الربوبية: إفراده عز وجل، وتفويض الأمر له في الخلق والملك والتدبير، بحيث يؤمن المرء أن الله تعالى وحده القادر على تصريف شؤون الكون، وهو وحده الخالق الرازق، والمعطي والمانع .

ولقد كان المشركون، زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -، رغم كونهم مشركين مع الله آلهةً وأوثاناً تعبد من دونه، إلا أنهم يعتقدون أن - أمور الخلق والملك، وتدبير شؤون الكون، مما يختص به الله وحده، قال تعالى واصفاً حالهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

وقال أيضاً: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(2)</sup> وقوله كذلك: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾<sup>(3)</sup>.

ومما يجدر التنبية إليه، أنه قد يقع أناس في وقتنا الحاضر في بعض الشبهات التي قد تؤدي إلى الشرك في توحيد الربوبية، وهذا قد ينتج عن جهل، أو تعصبٍ دون تثبتٍ وتروٍّ، وتدبرٍ في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصريحة التي تحذر من الوقوع في مثل هذا النوع من الشرك، وهذا مما لا شك فيه يتنافى مع ما تقتضيه الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، والسلوك الصحيح للمؤمن الحقيقي الذي يوحد الله في ربوبيته، لأن الإيمان بتوحيد الربوبية معناه ألا نلتجئ إلا لله وحده في جميع أمورنا، وألاً

1 - سورة العنكبوت الآية 61 .

2 - سورة لقمان الآية 25 .

3 - سورة يونس الآية 13 .

نقصد أحداً سواه، ومن أجل هذا يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (1).

وتجدر الإشارة هنا إلى مسألة الزيارة البدعية للقبور للتبرك بأصحابها ودعائهم والاستغاثة بهم ، فقد نقل الإمام الطبري عن أصحاب الإمام مالك، أن مالكاً - رحمه الله - كره أن يقول: زرت قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلل ذلك بقوله - صلى الله عليه وسلم -: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد" الحديث، وكره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لتلايق التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة (2) (3).

وقال القاضي عياض: وكره مالك أن يقال: زُرنا قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف في معنى ذلك فقيل: كراهته الاسم الوارد من قوله عليه الصلاة والسلام: "لعن الله زوَّارات القبور" (4)، والمعنى أن مالكاً

1 - سورة النمل الآية 62

2 - فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد، عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ، ص 178 .

3 - موطأ مالك، باب جامع الصلاة، وهو عن عطاء بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" حديث رقم/376، مسند الإمام أحمد، باب حديث أبي هريرة، وهو عن أبيه عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل قبري وثناً لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد حديث رقم/7054.

4 - سنن الترمذي، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور، حديث رقم/976، سنن ابن ماجة باب ما جاء في النهي عن زيارة القبور، حديث رقم/1563، مسند الإمام أحمد، باب حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم/8095، وحديث رقم/8098، وحديث رقم/8316، وباب حديث حسان بن ثابت، حديث رقم/8316.



- رحمه الله - كره ذلك لخشيته أن يقع في التسمية بزيارة القبر، ويؤكد هذا ما قاله ابن عمران - رحمه الله تعالى - إنما كره مالك أن يقال: "طواف الزيارة" و"زرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم"، لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، فكره مالك تسوية النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الناس، بهذا اللفظ، وأحب أن يُخصَّ بأن يقال: "سلمنا على النبي صلى الله عليه وسلم".<sup>(1)</sup> قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والإمام مالك - رحمه الله - قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن قال: وقد ذكروا أسباب كراهته لأن يقول: زُرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا اللفظ قد صار كثيراً من الناس يستحلون به الزيارة البدعية، والتي قد يصاحبها ما يناه في العقيدة، مثل قصد الميت لسؤاله، والاستغاثة به، والتوجه إليه في الملمات والحوائج ونحو ذلك، مما يفعله كثير من الناس، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به . أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منه مثل هذا المعنى، وهذا ما يفهم من قوله: فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة، مع زيارته لقبر أمه عليه الصلاة والسلام، فإن هذا يتناول قبور الكفار أيضاً، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المذموم معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية

1 - القاضي عياض اليحصبي، الشفا، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا،

القاهرة، 2002م، ج2 ص63 .

الشركية، فهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة (1).

وقال القاضي عياض في كتابه المسمى (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) ما نصه: "والأولى عندي أن منع وكره مالك له لإضافته إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لو قال: زرنا النبي لم يكرهه، لقوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (2)، وقد روى هذا الحديث الإمام مالك في موطنه، من رواية أسلم، عن عطاء بن يسار - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (3).

لهذا قال القاضي عياض: فحتمى - أي الإمام مالك - إضافة هذا اللفظ إلى القبر، والتشبه بفعل أولئك قطعاً للذريعة، وحسماً للباب، والله أعلم أهـ (4).

وهذا لا يفهم منه كراهية مالك لفعل الزيارة لقبره عليه الصلاة والسلام، فهذا لا قائل به، ولكنه يحذر من شد الرحال لقصد زيارة

1 - فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد، عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ، ص 179 .

2 - الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومصنف عبد الرزاق عن زيد بن أسلم رضي الله عنه، ولفظ أحمد: (اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أنظر - مسند الإمام أحمد، حديث رقم/7054 .

3 - موطناً للإمام مالك، باب جامع الصلاة، حديث رقم/376 .

4 - الشفاء للقاضي عياض، ج 2، ص 63 .

القبور وتعظيمها، وما في ذلك من سوء الأدب، وإلى هذا أشار الشنقيطي في أضواء البيان، حيث قال: "ومما استدل به على عدم شد الرحال لمجرد الزيارة، ما روي عن مالك كراهية أن يقال زرت قبر النبي - صلى الله عليه وسلم" وأجيب عن ذلك: بأن كراهية مالك للفظ - فقط - تأدباً، لا أنه كره أصل الزيارة، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصل إلى ذي الجلال، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع، والله الهادي إلى الصواب<sup>(1)</sup>.

#### ومن أنواع شرك الربوبية الذي قد يقع فيه بعض العامة ما يلي:

- اعتقاد أنه يوجد من بيده النفع والضّر عدا الله سبحانه وتعالى، فمن يعتقد أن هناك من الأحياء أو الأموات أو الجن، أو ملك من الملائكة، أو رسول من الرسل، أو ولي من الأولياء، أو قبر، أو شجر، أو حجر، من يضر أو ينفع، أو يمرض، ويبرئ ويشفي<sup>(2)</sup>.

أو اعتقاد أنه يوجد من عنده من التصرفات في شؤون الحياة، بحيث أنه يعطي، أو يمنع، أو يشفع له عند الله في حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة، فهذا كله يدخل صاحبه في دائرة الشرك، والانحراف عن جادة الصواب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

1 - محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان، ج 8 ص 468 .

2 - الصنعاني، تطهير الاعتقاد، من أدران الإلحاد، تحقيق - السيد محمد سيد، مكتبة الزهراء، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992، ص 18 .

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١﴾.

- تقديس المشعوذين، وفعل ما يأمر به من البدع، وتصديقهم والإيمان بأساطيرهم وأوهامهم، والانتهاه بنهيهم، ومن الناس من يعتقد اطلاعهم على الغيب، ومعرفة الطالع، وقراءة الكف، وغير ذلك من الأمور التي لا يعلمها إلا الله، كل هذا من مظاهر الشرك في توحيد الربوبية<sup>(2)</sup>، ومناف لثوابت وأسس العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ سَّمَاءٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>(3)</sup>.

وفي الحديث: "من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد" وفي صحيح مسلم من حديث صفية رضي الله عنها، عن بعض أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"<sup>(4)</sup>.

وعن ابن عباس، قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ

1 - سورة فاطر الآياتان 13، 14.

2 - مصطفى عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة الإسلامية، ص 88.

3 - سورة الأنعام الآية 59.

4 - صحيح مسلم، كتاب الطب، باب تحريم الكهانة، حديث رقم/4137.

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا<sup>(1)</sup>، وهذا كله حديث عن هذه الطائفة الضالة، التي جاءت إلى أناس يدعون علم الغيب، وقد قال تعالى بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا "هذا الضرب من الناس هم المنافقون"﴾<sup>(2)</sup> (3).

- الخوف، والرغبة من الجن، والاستعانة والاستغاثة بهم، وطلبهم من دون الله، ومن الشرك تقديم القرابين لهم، ومن مظاهر الشرك أيضاً ما يذبح من الأضاحي على أعتاب، المنازل أو على عتبة الباب، عند دخول العروس إرضاءً للجن كما يعتقد بعض الجهلة بأن للجن المقدرة على الضر والنفع، وأنهم يشاركون الله في التدبير والتصرف<sup>(4)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾<sup>(5)</sup>.

## ثانياً. توحيد الألوهية:

المراد من توحيد الألوهية إفراده تبارك وتعالى بالعبادة، بحيث لا تصرف العبادات من صلوات، ونذور، ومحبة ورجاء، وطمع، وسائر

1 - سورة النساء الآيات 60، 61، 62.

2 - سورة النساء الآية 63.

3 - ابن كثير، الطبعة الأولى، ج 1 ص 551.

4 - مصطفى عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة 2001م، ص 89.

5 - سورة سبأ الآيتان 40-41.

العبادات لا تكون إلا لله وحده، وهذا النوع من التوحيد هو ثمرة توحيد الربوبية، والأسماء والصفات، وهو جناه الطيب، وبدونه يفقد توحيد الربوبية والأسماء والصفات معناه وتتعدم فائدته .

وتوحيد الألوهية مشتق من معنى: (الإله والإلهية) قال العلامة ابن العربي الإشبيلي المالكي: الإله هو المعبود، وهي الفائدة التي لأجلها خلق الله سبحانه وتعالى الخلق<sup>(1)</sup> قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾<sup>(2)</sup> .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾<sup>(3)</sup>، وهذا القسم من أقسام التوحيد قسمٌ عظيم، وله شأنٌ وخطرٌ<sup>(4)</sup> ودليل ذلك أن الأنبياء والمرسلين كافةً دعوا إليه، وحذروا من الإشراك مع الله آلهةً أخرى تصرف لهم العبادة من دونه سبحانه وتعالى، كما قال: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)<sup>(5)</sup>.

وهذا التوحيد هو الذي أخلَّ به كفار قريش، زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

1 - القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المالكي الإشبيلي، قانون التأويل،

دراسة وتحقيق - محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية،

1990م، ص 300 .

2 - سورة الذاريات الآية 56 .

3 - سورة الأنعام الآيتان 162-163 .

4 - أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، دار المنار 1990م، ص 82 .،

5 - سورة الأنبياء الآية 25 .

أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۗ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿١﴾.

يذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات ما نصه: "أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك)، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا الشيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به بل أبغضه، ونهى عنه" (2) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (3).

### فائدة شهادة التوحيد:

إن النطق بشهادة التوحيد المقترن بالاعتراف لرسول الله - صلى الله

1 - سورة الزمر الآية 3 .

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7ص57، وانظر - مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار الحديث، القاهرة، رقم الإيداع ، 88/2112 ج3ص212 .

3 - سورة النحل الآية 36 .

عليه وسلم - بالرسالة تنفع صاحبها ، وتكون سبباً في الوقاية من النار ، إذا كانت عند الموت من المشرك الذي لم تبلغه دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا عند الموت ، أو بلغته ، ولكن لم ينشرح صدره لها إلا عند الموت ، أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه قال : كان غلام يهودي يخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فمرض فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم - يعوده فقعده عند رأسه ، فقال له : "أسلم" ، فنظر إلى أبيه ، وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم - صلى الله عليه وسلم - ، فأسلم - أي الصبي اليهودي - فخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : "الحمد لله الذي أنقذه من النار" (1) .

إن شهادة التوحيد لها أثرٌ عظيمٌ في الدنيا وفي الآخرة ، ومن أجلها خلق الله الثقلين ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (2) . وللقيام بها ، والوقوف على لوازمها ومقتضياتها ، خلق الله الجنة والنار ، وحمل عباده أمانتها ، والعمل بمقتضاها قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (3) ، لذلك فهي صلب التوحيد ،

1 - صحيح البخاري ، كتب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، حديث رقم / 1268 ، وفيه أيضاً باب عيادة المشرك ، من رواية أنس رضي الله عنه أن غلاماً يهودي كان يخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فمرض فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم - يعوده فقال : ( أسلم ) فأسلم ، حديث رقم / 5225 ، وفي صحيح ابن حبان ، باب الذمي والجزية ، 4975 .

2 - سورة الذاريات الآية 56 .

3 - سورة الأحزاب الآية 72 .



وعماده، وتشتمل على كلِّ من: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات .

ولا يخفى أن شهادة التوحيد لها ما بعدها، ويترتب عليها من الاعتقاد والعمل ما يترتب، وما أحسن ما رد به وهب بن منبه<sup>(\*)</sup> عندما سئل: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك،<sup>(1)</sup> وما أسنان المفتاح إلا العمل مع الإيمان<sup>(2)</sup> .

وفي فضل النطق بشهادة التوحيد، والثبات عليه إلى الممات، ينقل عن الإمام مالك - رحمه الله - قوله: "إن العبد إذا ارتكب الكبائر كلها عدا ألا يشرك بالله شيئاً، ثم نجا، رجوت أن يكون في أعلى الفردوس، إن كبيرةً بين العبد وربّه هو منها على رجاء، وكل هوى ليس هو على رجاء، إنما يهوي به في نار جهنم"<sup>(3)</sup> .

• من فقهاء التابعين باليمن، وكان مشهوراً بالقصص، توفي رحمه الله سنة 114 هـ .

1 - صحيح البخاري، باب ما جاء في الجنائز ومن كلامه لا إله إلا الله، ثم قال: وقيل لوهب بن منبه أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة قال بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك، ثم قال: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مهدي بن ميمون حدثنا واصل الأحدب عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتاني آت من ربي فأخبرني أو قال بشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق" حديث رقم / 1161 .

2 - موسى شاهين لاشين، فتح المنعم على صحيح مسلم، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة - مصر، ج 1 ص 146 .

3 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ص 257 .

ويفهم من هذا أن مَالِكاً - رحمه الله - كانت عقيدته في هذه المسألة عقيدة السلف الصالح - عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي أن شهادة التوحيد لها عظيم الأثر، وأن الإنسان المسلم، وإن كان سيحاسب على معاصيه، وأن الله تعالى سيجازي كل إنسان بما كسبت يده، غير أنه لا يخلد في النار، وهذا مذهب أهل السنة، حيث هم مجمعون على أن العاصي الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مستيقناً بها قلبه، يقولون: بأنه مؤمنٌ وإن ارتكب الكبائر ومصيره الجنة وإن لم يغفر له، وأنه وإن عذب بالنار لمعاصيه، فلا بد من إخراجة من النار وإدخاله الجنة بإيمانه وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الباب منها قوله عليه الصلاة والسلام، كما في سنن أبي داود عن معاذ بن جبل: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"<sup>(1)</sup>.

وكما في حديث معاذ بن جبل، وهو في صحيح البخاري وغيره، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال له: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة قال ألا أبشر الناس قال لا إني أخاف أن يتكلوا"<sup>(2)</sup>.  
وكقوله لأبي هريرة: "من لقيت وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها فيشره بالجنة"<sup>(3)</sup>.

1 - سنن أبي داود، باب في التلقين، حديث رقم/2709.

2 - صحيح البخاري، باب من خص بالعلم قومًا دون آخرين، حديث رقم/126.

3 - صحيح مسلم، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث

## بعض من مظاهر الشرك في توحيد الألوهية:

إن مجرد الاعتقاد بأن غير الله تعالى له من القدرة أو الإرادة ما لله عز وجل، يؤدي بالمسلم للردّة عن دينه والعياذ بالله، فالاعتقاد من أعمال القلوب وهو الفيصل في توحيد الألوهية، فمعنى أن يكون الله تعالى هو الإله الواحد الذي لا إله غيره، يتنافى مع اعتقاد أن غيره يستحق أن يصرف له شيء مما يجب أن يصرف له وحده، وهذا هو الشرك الذي يحبط العمل، وقد كان مالك رحمه الله - يقول بفوات أجر الأعمال، وضياعها بالشرك، قال بن العربي المالكي - رحمه الله تعالى - قال مالك: يحبط العمل بنفس الردّة، وذلك لقول الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (1) (2).

وتتنوع مظاهر الشرك التي حذّر من الوقوع فيها الكتاب والسنة، وحثّ على تجنبها علماء السلف الأوائل، وعدوها من خوارم التوحيد، ومبطلات الإيمان، ومن صورها ما يلي:

• التوجه بالدعاء والتضرع لغير الله عز وجل، حتى ولو كان هذا الذي يُدعى من دون الله، ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا، أو ولياً محترماً، وذلك لأن حقيقة الدعاء أنه عبادة محضة، والعبادة لا تصرف إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (3)، ولعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (4).

1 - سورة الزمر الآية 82 .

2 - حميد لحمر، الإمام مالك مفسراً، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1995، ص 105 .

3 - سورة غافر الآية 60 .

4 - سورة الجن الآية 18 .

• تقديم النذور، وقرايين الأضاحي، والتَّعَم، أو من الأموال وغيرها من العينيات، مما لا يجوز أن يتقرب به لغير الله تعالى، سواءً قدمت هذه القرايين لنبيٍّ أو لوليٍّ، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾<sup>(1)</sup>، ولأن الذبح تعظيمٌ، ومما يختص به المولى تبارك وتعالى فلا يجوز أن يتقرب به إلى أحدٍ سواه ولعموم قوله عليه الصلاة والسلام: "لعن الله من ذبح لغير الله"<sup>(2)</sup>.

وإنما جعل هذا من قبيل الشرك لأن الذبح عبادةٌ وامتنالٌ لله، بإزهاق روح البهيمة التي سخرها الله لعباده من طيبات الرزق، فإذا صرف هذا الذبح لغير الله بقصد القرية منه، صار من الشرك في الألوهية .  
قال العلامة السنوسي المالكي: "إن الله سبحانه كلَّف عباده بتوحيده، وحرَم عليهم الشرك في ألوهيته، وعبادته، وبلغوا عن المولى أن من ابتلي بهذه المحرمات، ثم مات على ذلك فهو على الشرك، محروم من نعم الآخرة، مخلَّدٌ في العذاب العظيم، إلى غير نهاية، أعاذنا الله من ذلك"<sup>(3)</sup>.

1 - سورة الكوثر الآية .

2 - صحيح مسلم، باب تحريم الذبح لغير الله، حديث رقم/3658، سنن النسائي باب من ذبح لغير الله، حديث رقم/4346، مسند الإمام أحمد، باب مسند علي، حديث رقم/813، ولفظ مسلم، عن أبي الطفيل قال: قلنا لعلي بن أبي طالب: أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: ما أسر إلي شيئاً كتّمه الناس، ولكنني سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار .

3 - أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المالكي الحسنّي، شرح صغرى الصغرى في علم التوحيد، مكتبة مصطفى الباني الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، 1953م، ص28 .

• التقرب إلى الأنبياء أو الأولياء والصالحين بالطواف حول قبورهم،  
 والتمسح بها، والتبرك بآثارهم، كل هذا من الأشياء المحرمة التي نهى  
 الشارع عنها، وتآبها نفس الموحد لله تعالى. حتى ولو كانت هذه القبور  
 لأناس عرفوا بالصلاح، وحتى لا نتبع سنن من قبلنا من الأمم التي ضلت عن  
 سواء السبيل، واتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما  
 قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ  
 مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا  
 يُشْرِكُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

بمعنى أنهم جعلوهم مريوبين مع الله عز وجل، فأشركوا في توحيد  
 الألوهية بتعبدهم لغير الله<sup>(2)</sup>، وإن كان هذا المعبود من الأحبار  
 والصالحين، بل وحتى لو كان من الأنبياء والمرسلين، كعيسى ابن مريم  
 عليه السلام، أو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر الإمام مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار رضي الله  
 عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "اللهم لا تجعل قبري وثناً  
 يعبد! اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"<sup>(3)</sup>، قال  
 الإمام المالك، ابن عبد البر: "قيل معناه النهي عن السجود على قبور  
 الأنبياء، وقيل معناه النهي عن اتخاذها قبلة يصلى إليها، ولذلك نقل الإمام  
 أشهب الرواية عن مالك، أنه كره أن يدفن في المسجد، ونقلت الرواية

1 - سورة التوبة الآية 31 .

2 - صالح بن محمد بن حسن الأسمرى، إفادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مطابع  
 المدينة المنورة، ص57 .

3 - موطأ الإمام مالك، رواية الحدثاني، تحقيق - عبد المجيد التركي، ص159 .

كذلك عن مالك، الكراهية في طلب شجرة بيعة الرضوان، مخالفة لليهود والنصارى" (1).

ويذكر الإمام ابن عبد البر أيضاً في كتابه المسمى: (التمهيد، لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) في تفسير قول النبي - صلى الله عليه وسلم: اللهم لا تجعل قبري وثناً... الحديث)، كلاماً مفيداً مطوّلاً نجمل منه قوله: الوثن الصنم، وهو الصورة من ذهب أو من فضة، أو غير ذلك من التمثال، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن، صنماً كان أو غير صنم، وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبيدها، فخشي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا على قبره كما يفعل بالصنم... إلى أن قال وكان - صلى الله عليه وسلم - يحب مخالفة أهل الكتاب وسائر الكفار، وكان يخاف على أمته اتباعهم، ألا ترى إلى قوله - صلى الله عليه وسلم -: على جهة التّعبير والتّوييح "لتتبعن سنن من قبلكم، الذين كانوا قبلكم حذو النّعل بالنّعل، حتى إن أحدهم لو دخل جحر ضب لدخلتموه" (2).

1 - شرح الزرقاني على الموطأ، ج 1 ص 497.

2 - صحيح البخاري، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم/6757، وصحيح مسلم باب اتباع سنن اليهود، حديث رقم/4822، سنن ابن ماجه، باب افتراق الأمم، حديث رقم/3984، مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، حديث رقم/7990، حديث رقم/9443، حديث رقم/10230، حديث رقم/10470، ولفظ البخاري: عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن؟".

ثم قال: قد احتج بعض من لا يرى الصلاة في المقبرة بهذا الحديث، ولا حجة له فيه، ثم أورد حديث عائشة رضي الله عنها، وهو في الصحيحين، أن نساء النبي - صلى الله عليه وسلم -، تذاكرنَّ عنده في مرضه كنيستاً رأيتها بأرض الحبشة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "أولئك قوم إذا مات الرجل الصالح عندهم، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله" (1)، ثم ساق الحديث بسنده، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرضه الذي لم يقم منه: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت: ولولا ذلك أبرز قبره، غير أن خشي عليه أن يتخذ مسجداً" (2).

1 - صحيح البخاري، باب هل تتبش قبور المشركين، حديث رقم/409، وعند البخاري أيضاً باب البيعة، حديث رقم/416، وباب بناء المسجد على القبر، حديث رقم/1255، وفيه أيضاً باب هجرة الحبشة، ولفظه: حدثني محمد بن المثنى حدثنا يحيى عن هشام قال: حدثني أبي عن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا: كنيست رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؟ بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة" حديث رقم/3584، صحيح مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، حديث رقم/622، وله روايات كذلك في باقي الكتب والمسانيد، كما في سنن النسائي باب اتخاذ القبور مساجد، حديث رقم/697، مسند الإمام أحمد، باب حديث السيدة عائشة، حديث رقم/23118. صحيح مسلم، ج5 ص15.

2 - الإمام الحافظ المالك، أبو عمر يوسف بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق - أسامة بن إبراهيم، الناشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2001م، ج5 ص178.

وروى الإمام مالك: عن إسماعيل بن أبي حكيم، أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: كان من آخر ما تكلم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن قال: "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقيان دينان بأرض العرب"<sup>(1)</sup>.

لذلك فإن ما يفعله بعض العامة والغوغاء من الطواف على القبور، والتمسُّح بها، والتوجه إليها، كان يراه مالك من مظاهر الشرك، ومن المخالفة لهديه عليه الصلاة والسلام، وهو أيضاً مخالف لقوله - صلى الله عليه وسلم -، كما ورد في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها"<sup>(2)</sup>.

فالطواف لم يشرع إلا بالكعبة المشرفة، وهو من هدي الإسلام، وليس تقرباً أو تزلفاً إلى الكعبة، فالمسلم يطوف بالكعبة امتثالاً لأمر ربه عز وجل حيث قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾<sup>(3)</sup>.

### تتبيه:

لا يدخل تحت هذا النوع من الشرك، الزيارة الشرعية لقبور المسلمين، والدعاء لهم، والترحم على الأولياء، ومحبة الرسول - صلى الله

1 - موطأ الإمام مالك، باب ما جاء في إجلاء اليهود عن المدينة، حديث رقم/1387.

2 - صحيح مسلم، باب النهي عن الجلوس على القبور، حديث رقم/1613، سنن أبي داود في كراهة القعود على القبر، حديث رقم/2810، سنن الترمذي، باب ما جاء في كراهية المشي على القبور والجلوس عليها والصلاة إليها، حديث رقم/971، مسند الإمام أحمد باب حديث أبي مرثد الغنوي، حديث رقم/16584.

3 - سورة الحج الآية 29.



عليه وسلم - ولا محبة سنته، ولا محبة غيره من الأنبياء، ولا محبة أولياء الله الصالحين، فمحببتهم، من محبة الله تعالى، شريطة أن لا يبالغ المحبوب، فيجعلهم مريوبين من دون الله، ويعتقد أن ييدهم ضرراً أو نفعاً<sup>(1)</sup>، بل إن محبته عليه الصلاة والسلام، ومحبة الأولياء والصالحين من عباد الله، مطلوبة، وقد حثت النصوص على ذلك، وهي من علامات الإيمان، ولكنَّ النَّهي عن المجاوزة في المحبة، وإنزالهم في غير المنزلة التي أنزلهم الله إياها .

### ثالثاً . توحيد الأسماء والصفات:

يقصد بتوحيد الأسماء والصفات، الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، كما جاءت في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - من دون البحث عن كنهها، وعدم التكلف والتحليل للدآت العليّة، فله الأسماء الحسنى، وهو المستحق لكل كمال، والمنزّه والمتعالي عن كل نقص، وينبغي أن يُعلم أن الخوض في الأسماء والصفات، مما أمسك عنه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، والمعروف عند جمهور علماء المسلمين كما يقول محمد بن أحمد المألّكي القرطبي: أن لا مدخل للقياس في أسماء الله تعالى، بل هي توقيفية، من وحي الله تعالى، سواءً منها ما جاء في كتاب الله جل وعلا، أو ما كان على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم<sup>(2)</sup>.

1 - شرح قسم العقائد من رسالة أبي زيد القيرواني، محمد عز الدين الغرياني، ص 78 .

2 - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المألّكي القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق الدكتور: صالح عطية الحطمانى، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 2001م، ص 34.

ولتوضيح هذه المسألة سنذكر آراء المتكلمين في تقسيمهم لآيات الصفات، ونتبعها بذكر تقسيم علماء السلف في إثبات ما أثبتته الله عز وجل لنفسه من صفات الكمال والجمال، مع ذكر آراء علماء السلف وموقفهم من آيات الصفات، ثم نتبعها بذكر رأي الإمام مالك خاصة في كيفية التعامل مع آيات الصفات التي ذكرت في القرآن الكريم، أو جاءت على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - .

### أولاً . تقسيم الصفات عند المتكلمين :

لقد اختار علماء الكلام الذين أثبتوا الصفات لله تعالى، أن يقسموا الصفات إلى أربعة أقسام وهي :

1. **الصفات النفسية:** وهي الحالة الواجبة للذات مادامت الذات قائمة بعلّة الوجود<sup>(1)</sup>.
2. **الصفات السلبية:** وعرفوها بأنها التي سلبت أمراً لا يليق بالله تعالى، وهي عندهم خمس صفات: القدم، البقاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفس، الوجدانية<sup>(2)</sup>.
3. **صفات المعاني:** وهي كل صفة قائمة بموصوف زائد على الذات وموجبة له حكماً وهي سبعة: القدرة، الإرادة، العلم، الحياة، السمع، البصر، الكلام، وهي أيضاً تسمى بالصفات الوجودية .

1 - روح المعاني للألوسي ، ج 9 ص 123.

2 - التفسير الكبير للفخر الرازي ، ج 1 ص 83، ص 87، ج 28 ص 489، وانظر: حمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، 1992م، ص 149 - 150.

4. الصفات المعنوية: وعرفوها بأنها الحالة الواجبة للذات مادامت المعاني قائمة بها، وهي ملازمة لصفات المعاني السابقة<sup>(1)</sup>.

### ثانياً . تقسيم الصفات عند السلف:

لقد ذهب السلف إلى تقسيم الصفات إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما<sup>(2)</sup>، وهما على النحو التالي:

1. صفات ذاتية: هي التي لا تنفك عن الذات، بل هي لازمة لها، ومنها ما هو عقلي، ومنها ما هو خبري .
2. صفات فعلية: تتعلق بالمشيئة والقدرة، ومنها أيضاً ما هو عقلي، ومنها ما هو خبري .

### الصفات الذاتية تنقسم إلى قسمين:

- أ - صفات ذاتية عقلية: وهي الصفات التي يستدل عليها بواسطة العقل مثل صفة الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، والسمع وغيرها .
- ب - صفات ذاتية خبرية: أي أن الاستدلال عليها لا يمكن إلا عن طريق النص كصفة اليمين .

### الصفات الفعلية تنقسم إلى قسمين:

- أ - عقلية: كصفة - الخلق، والرزق، وتعرف بالسمع من النصوص، وكذلك بواسطة العقل .

1 - أضواء البيان للشنقيطي، ج 8 ص 40.

2 - المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، تحقيق - عبد الإله بن سليمان الأحمد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1416هـ، ج 1 ص 280 .

ب - خبرية: مثل الاستواء، والنزول، والإتيان، والمجيء، وهذه لا تعرف إلا بالسمع من كتاب وسنة، وهذا هو تقسيم السلف للصفات، ولم يعرف له مخالف منهم<sup>(1)</sup>.

ومما لا شك فيه أن تقسيم السلف لآيات الصفات هو التقسيم الأصح والأشمل، لأنه يشمل جميع الصفات، ولأن هذا التقسيم موافق لنصوص الكتاب والسنة، فقد وردت النصوص بإثبات صفات لازمة للذات العليّة، وصفاتٍ أخرى تتعلق بمشيئته سبحانه وتعالى .

أما التقسيم الذي ذهب إليه المتكلمون فهو تقسيم ناقص لأنه يثبت بعض الصفات، ويفوض في البعض الآخر، ويؤولون بعضها الآخر تنزيهاً لله تعالى عن مشابهة الحوادث<sup>(2)</sup>.

ومن هنا يتبين أن عامة السلف وقفوا من الأسماء والصفات موقف المؤمن بها على الوصف الذي ذكره الله عز وجل، أو ذكره نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، مدركين حقيقة المعنى الدال عليه اللفظ، مفوضين علم الكيفية لله سبحانه وتعالى، جاء في كتاب العقيدة لابن أبي زيد القيرواني شيخ المالكية في زمانه: الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير له، ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون

1 - سعد عبدالله عاشور، منهج السلف في إثبات الصفات الإلهية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الأول، غزة،

فلسطين، 2002م، ص187 .

2 - المرجع السابق، ص189 .

بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم، العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير<sup>(1)</sup>. هذا هو منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات، وهو المذهب الأسلم، والطريق الأحكم، الذي يسلكه كل مرید للحق، ملتزم آثار النبوة، وما كان عليه الصحابة الأطهار الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .

يقول القاضي الباقلاني في كتابه (الدُّبُّ عن أبي الحسن الأشعري): كذلك قولنا في جميع المروي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صفات الله إذا صحَّ من إثبات اليدين، والوجه، العينين، ويقولون إنه يأتي يوم القيامة في ظلِّ من الغمام، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما في الحديث، وأنه مستوٍ على عرشه، ثم قال: وقد بيَّنَّا دين الأئمة، وأهل السنة، أن هذه الصفات تُمر كما جاءت، بغير تكييفٍ ولا تحديدٍ، ولا تجنيسٍ، ولا تصويرٍ، كما رُوِيَ عن الزُّهري، وعن مالك في الاستواء، فمن تجاوز هذا، فقد تعدى وابتدع وضلَّ<sup>(2)</sup>.

وبهذا يقرر الباقلاني، الذي انتهت إليه رئاسة المالكيين في زمانه<sup>(3)</sup>، أن عقيدته في الأسماء والصفات، وكذا عقيدة شيخه ومعلمه

1 - أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير، العقيدة القيروانية،

دار البصائر، الجزائر، (بدون تاريخ طباعة)، ص7.

2 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قيمان الذهبي، العلو للعلي الغفار، تقديم - حسن بن

علي السقاف، دار الإمام النووي، الطبعة الأولى، 1998م، ص541.

3 - الديباج المذهب، ج 1 ص143 .

أبو الحسن الأشعري، مستمدةً من أقوال مَالِك، وكأن الأثر الوارد عن مَالِك في مسألة الاستواء، صار قاعدةً - بل هو بالفعل القاعدة التي - جعلها علماء السلف مقياس التعامل في الحديث عن أسماء، وصفات، الربّ جل وعلا، بحيث وصف كل من خالف مَالِكاً في مسائل الاعتقاد المتعلقة بأسماء الله تعالى، وصفاته، - بأنه متجاوزٌ، وضالٌّ، ومبتدعٌ، ومُتعدٌّ .

أما العلماء المتكلمون الأوائل، الذين تأثروا بمنهج بعض شيوخهم، ولكنهم ما لبثوا أن رجعوا إلى منهج السلف، ما كان عليه النبي وأصحابه في القرن الأول، وما كان عليه الأئمة الأوائل، كمَالِك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، مثل ما حدث مع إمام المتكلمين في زمانه، أبو الحسن الأشعري، كما مر عينا من كلام تلميذه الباقلاني.

وقد نُقل عنه أيضاً، في كتابه الإبانة قوله: وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاءوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراد، استواء منزهاً عن الممارسة، والاستقرار، والتمكن، والحلول، والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء، إلى تخوم الثرى، فوقيّة لا تزيده قرباً إلى العرش والسما، بل هو رفيع الدرجات على العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو

أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد<sup>(1)</sup>.  
والأشعري لما برع في علم الكلام، وتصدر للرد على المبتدعة  
والزنادقة من أرباب الأفكار المنحرفة، صار يشار إليه بالبنان، وصار عالماً  
كبيراً من علماء السنة والجماعة، وهو يقرر في أصول عقيدته أنه على  
طريقة الإمام مالك في الأسماء والصفات، كما ذكر ذلك في كتابه  
الإبانة، ورسالة إلى أهل الثغر<sup>(2)</sup>.

وجاء في مواهب الجليل على مختصر خليل: فمذهب الشيخ أبي  
الحسن الأشعري، وعامة أهل السنة، أنه لا يجوز أن يسمى الله تعالى، إلا  
بما سمي به نفسه، أو أجمعت الأمة عليه<sup>(3)</sup>.

ومذهب أهل الحديث والأئمة الذين يقتدى بهم، مالك، والشافعي،  
وأحمد، وأصحاب الكتب الستة، وغيرهم أنهم يؤمنون بهذه الصفات كما  
ذكرها الله عز وجل، وكما هي في سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -  
من دون تحريف للكلام عن مواضعه، ولا تعطيل للآيات، ومن دون تشبيه  
للرب جلّ وعلا، أو تصوّر لكنهه جلّ جلاله، فهو سبحانه لا شبيه له ولا  
مثيل، وهو الجليل الجميل، وهم كما قال الحافظ الإسماعيلي: يعتقدون  
أن الله تعالى مدعو بأسمائه الحسنی، وموصوف بصفاته التي سمي ووصف  
بها نفسه، ووصفه بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - خلق آدم بيده، ويداه

1 - أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، مكتبة دار البيان، دمشق،  
سوريا، الطبعة الثالثة، 1996، ص 43. 44.

2 - الإبانة عن أصول الديانة (ص 113 - ص 121)، وانظر: الديباج المذهب لمعرفة أعيان  
علماء المذهب، ص 194.

3 - مواهب الجليل على مختصر خليل، ج 1 ص 30.

مبسوطتان ينفق كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف، وأنه عز وجل استوى على العرش، بلا كيف، فإن الله تعالى انتهى من ذلك إلى أنه استوى على العرش، ولم يذكر كيف كان استواؤه<sup>(1)</sup>.

ومن المُحدِّثين الأوائل، الذين اقتفوا أثر الإمام مالك، في مسألة الأسماء والصفات، على الرغم من كونه حنبلي الفقه والمذهب، ولكنه كان يستشهد بأراء مالك في مسائل الصفات، كما في مسألة الاستواء، ورأيه في القدرية، والجهمية، وغيرهم، الحافظ بن منده، الذي عاش في القرن الرابع الهجري- وقد ألف كتاباً أسماه (كتاب التوحيد)، حيث قال فيه: إن الأخبار في صفات الله عز وجل جاءت متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم -. موافقةً لكتاب الله عز وجل، نقلها الخلف عن السلف قرناً بعد قرن، من لدن الصحابة الأوائل، والتابعين، كابن سيرين، والحسن البصري، ومالك، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، والشافعي، وغيرهم، إلى عصرنا هذا، على سبيل إثبات الصفات لله عز وجل، والمعرفة والإيمان بها والتسليم لها<sup>(2)</sup>.

ونذكر ما ورد عن بعض أئمة السنة، وأخص منهم أئمة المذاهب كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في مسائل الأسماء والصفات، وسيتبين من خلال سرد أقوالهم أن الأئمة لم يختلفوا في قضايا الإيمان

1 - أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، اعتقاد أئمة الحديث، تحقيق - محمد

عبدالرحمن الخميس، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ص3.

2 - أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده، كتاب التوحيد، تحقيق (د. محمد بن

عبدالله الوهيبي، د. موسى بن عبدالعزيز الغصن) دار الهدى النبوي، مصر،

ص28م، 2007.



الجوهريّة، كالتوحيد، والقدر، وغيرها من مسائل الإيمان الحساسة، ومن ذلك قول أبي حنيفة - رحمه الله - : "لله عز وجل يد ووجه ونفس، كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن، من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال"<sup>(1)</sup>.

وبمثل هذا قال الشافعي - رحمه الله تعالى - فقد نقل ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية الرواية عن الإمام الشافعي بن إدريس أنه قال: "القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها، أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان، ومالك، وغيرهما الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء"<sup>(2)</sup>.

ويدلُّ الشافعي هنا - دلالة واضحة - على أن رأيه في مجمل قضايا الاعتقاد، وخصَّ منها مسألة الأسماء والصفات، كان موافقاً لرأي الإمام مالك، بل كان ينقل رأيه، ويعتقد أنه الأعم والأحكم في مسائل العقيدة. وكذلك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لم يكن رأيه مخالفاً لمن سبقه من أئمة كأمثال أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، بل كان رأيه موافقاً لهم في مسائل الاعتقاد، فقد نُقل عنه قوله: "نحن نؤمن بأن الله على

1 - الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة، ص27، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية، ج2 ص23، وانظر: محمد عبد الرحمن خميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، دار طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1422هـ، ص 6.

2 - ابن القيم الجوزية، اجتماع الجيوش الإسلامية، ص165.

العرش كيف شاء، وكما شاء، بلا حدٍّ ولا صفة يبلغها واصف، أو يحده أحد، فصفات الله منه وله وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار" (1). وقال أبو يعلى الفراء وهو من أصحاب أحمد: "روي عن شيخنا وإمامنا أحمد بن حنبل، وغيره من أئمة أصحاب الحديث، أنهم قالوا في هذه الأخبار: أمروها كما جاءت، فحملوها على ظاهرها، أي أنها صفات لله تعالى، لا تشبه سائر الموصوفين" (2).

ومن هنا يتبين لنا أنهم - رحمهم الله جميعاً - كانوا حذرين في مثل هذه المسائل، وتقيدوا بظاهر النصوص، وآمنوا بها على ظاهرها، وتركوا علم الكيفية لله وحده، لذلك نقول لمن أراد السلامة في توحيد الأسماء والصفات، عليه أن يتقيد بما يلي:

- أن ينزه الله تعالى، وصفاته وأسماءه عن كل نقص، وأنه تعالى مستحقٌ لصفات الكمال والجمال، منزّه عن كل نقيصَةٍ، ولا يجري عليه تعالى ما يجري على خلقه من نقص، كالموت والفناء، والنسيان، والغفلة، والظلم، والحاجة.. إلى غير ذلك من الأوصاف التي تجري على الحوادث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من الإيمان بالله - ما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا

1 - هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكاني، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ج3 ص402، وانظر: محمد عبد الرحمن الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، ص22، وانظر: سعود عبد الله الدعجان، منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة، دار الآثار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ، ص233.

2 - أبو يعلى محمد بن الحسين ابن محمد الفراء، إبطال التأويل لأخبار الصفات، محمد بن حمد بن محمد النجدي، دار إيلاف، الكويت، (بدون تاريخ طباعة) ج1 ص44.

تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفاء له ولا ند له<sup>(1)</sup>.

ومعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كانت له آراؤه المتميزة التي يخالف فيها أحياناً أئمة المذاهب، وذلك فيما يتعلق بالعبادات، وبعض قضايا المعاملات، ولكنه في مسائل العقائد، لم يكن ليخالفهم، بل كان يستشهد بأرائهم، ويذكر أقوالهم، وبالأخص كان يقدم آراء مالك على غيره من الأئمة، لذلك لما سئل عن صحة أصول أهل المدينة، أجاب إجابة مطولة، جمعت على هيئة كتاب عنون له بقوله: (صحة أصول مذهب أهل المدينة)، ويقصد بهذا مذهب الإمام مالك حيث يقول في مقدمته: الحمد لله، مذهب أهل المدينة النبوية، دار السنة، ودار الهجرة، ودار النصرة، إذ فيها سنَّ الله لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - سنن الإسلام وشرائعه، وإليها هاجر المهاجرون إلى الله ورسوله، وبها كان الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، مذهبهم في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم، أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية شرقاً وغرباً، في الأصول والفروع<sup>(2)</sup>.

لذلك كانت آراؤه وأقواله في مسائل العقائد، وقضايا الأسماء والصفات، إنما هي شرح لأقوال الأئمة الأوائل، كأمثال مالك، والشافعي، وأحمد وغيرهم.

- عدم الخوض، والبحث في كنهه الله عز وجل، فلا يجوز أن يسأل

1 - ابن تيمية، العقيدة الواسطية، ص 17.

2 - ابن تيمية، صحة أصول مذهب أهل المدينة، ص 3.

كيف يسمع الله تعالى؟ وكيف هو سمعه؟ أو كيف يتكلم؟ لأن معرفة الصفات تتوقف على معرفة الموصوف، ومعرفة كنه الذات الإلهية محال على العبد (1).

وعدَّ الشيخ محمد البغدادي: من عناصر العقيدة، عدم التعرض للحقيقة والماهية في الذات أو الصفات (2).

ذكر الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (3) أن السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحدٌ من السلف أنه استوى على عرشه حقيقةً، وخص العرش بذلك، لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، لأنه لا تعلم حقيقته (4).

وللمقارنة بين عقيدة الإمام مالك وغيره من أئمة السلف، سنتكلم عن عقيدته - رحمه الله - في الأسماء والصفات، ليكون الأمر أكثر وضوحاً عند إيراد أقواله بشكْلٍ خاص.

1 - عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة الإسلامية، 79 .

2 - محمود صالح البغدادي، إرشاد الأنام في عقائد الإسلام، دار البراء، الطبعة الأولى، 1985م، ص 11 .

3 - سورة الأعراف الآية 54 .

4 - عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير الإمام الطبري المسمى الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1999م (ج7 - ص 196) .

### عقيدة الإمام مالك في الأسماء والصفات:

لزم الإمام مالك في الأسماء والصفات طريق السلف الصالح، وكان يقف على مدلول النص، ولا يتجاوز المعنى الواضح في كتاب الله أو سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ولم يسلك طريق المشبهة أو المعطلة أو غيرهم من أهل الأهواء والفرق، وكان كما قال أبو طالب المكي: "كان مالك أبعد الناس من مذاهب المتكلمين وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين" (1).

جاء في الفواكه الدواني - وهي شرح لرسالة أبي زيد القيرواني، الملقب بمالك الصغير، وهو من جهاذة المذهب المالكي، وقد عاش في القرن الرابع الهجري، وعُرفَ بعلو سنده في الرواية عن مالك - حيث قال شارحها الإمام النضرابي المالكي: "وطريق السلف كابن شهاب، ومالك الإمام، ومن وافقهما من السلف الصالح تمنع تأويلها على التفصيل والتعيين، فيؤمنون بها إجمالاً، وأن المراد منها حتماً ليس تشبيه الله بخلقه، تنزهه الباري جل وعلا عن ذلك، ويقولون أن لله تعالى استواءً ويداً وغير ذلك كما يقول تعالى، مما ورد به الشرع، من كتاب وسنة، ولكن المعنى على التفصيل لا يعلمه إلا الله تعالى" (2).

وروي أن مالكاً كان في مجلسه، فجاءه رجل، فقال: يا أبا

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1 ص51، محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه، ص 193.

2 - أحمد بن غنيم النضرابي المالكي، الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيرواني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج1 ص59.

عبد الله، «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»<sup>(1)</sup>، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده، حتى علاه الرخضاء<sup>(2)</sup> يعني العرق، ثم رفع رأسه، ورمى بالعود، وقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنُّكَ صاحب بدعة، وأمر به، فأخرج، وفي رواية، قال له مالك: واني لأظنك ضالاً، فناداه الرجل، يا أبا عبد الله، والله الذي لا إله إلا هو، لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة، والكوفة والعراق، فلم أجد أحداً وفق لما وفقت إليه<sup>(2)</sup>.

يقول الأستاذ، محمد عز الدين الغرياني، وهو من الدارسين والباحثين في المذهب المالكي، وقد ذكر هذا بالنقل عن كتاب (الإشارات إلى معاني الأسماء والصفات، للأنصاري) حيث قال: إن مالكاً يقصد بقوله: "والكيف غير معقول"، أي كيف صفة الملك أو القهر، أو غيرها غير معقول، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، والذات الإلهية لا كيف لها، ولقد جاء في بعض الروايات عن مالك، "ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع" ثم استشهد بقول علي - رضي الله عنه - حيث قال: "سبحانه وتعالى عن تكييف الصفات"<sup>(3)</sup>.

1 - سورة طه الآية 5 .

• - الرخضاء في اللغة عرقٌ يغسل الجلد كثرةً، راجع مختار القاموس ص 242 .

2 - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق - عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، 1993م، ج 2 ص 306. وانظر: محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص 193 .

3 - محمد عز الدين الغرياني، سلسلة اعتدال التصوف (الآيات المتشابهة بين التأويل، والتفويض، والإثبات) مطابع طرابلس، 2001، ص 88 .

هكذا كانت عقيدة الإمام مالك - رحمه الله - في مسألة الأسماء والصفات، ونستنبط مما سبق من الآثار، أن: موقف الإمام مالك في هذه المسألة يتبين بوضوح، وذلك من خلال النقاط التالية:

• كان الإمام مالك يتعاطم الخوض، في مسائل الأسماء والصفات، والحديث عن الذات العلية، وكنهه الله سبحانه وتعالى، مما أمسك عنه السلف الصالح رضوان الله عليهم، قال بن حجر: "وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب" (1).

ومما يؤكد كراهية مالك الحديث في مسائل الصفات، وأنه كان يمتنع من القول في قضايا الغيبيات، رواية ابن رشد عن سحنون، فقد قال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان قاعداً عند مالك، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله: مسألة، فسكت عنه، ثم عاد عليه، فرفع إليه مالك رأسه كالمجيب له، فقال له السائل: يا أبا عبد الله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، كيف كان استواؤه؟ قال: فطأ مالك رأسه ساعة ثم رفع، فقال سألت عن غير مجهول، وتكلمت في غير معقول، ولا أراك إلا امرؤ سوءٍ أخرجوه (2).

وليس أبين من هذه الرواية لسحنون، في توضيح موقف مالك من الحديث في قضايا الاعتقاد، التي مرد علمها الحقيقي لله وحد . ومع هذا فإننا نقول: إن مالكاً - رحمه الله - ما كان ليسكت عن

1 - فتح الباري ، ج 1 ص 200 .

2 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، البيان والتحصيل ، ج 16 ص 368 ، وانظر: الإمام مالك مفسراً ، حميد لحمر ، ص 274 .

بيان كذب المفترين، وتوضيح زيف الضالين، من أهل البدع والأهواء، قال الإمام ابن عبد البر: الجماعة على ما قال مالك . رحمه الله . إلا أن يضطر أحد إلى الكلام، فلا يسعه السكوت إذا طمع في رد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، وخشي ضلالة عامة، أو نحو ذلك<sup>(1)</sup>.

● المعرفة بالله تعالى لا تتوقف، على المعرفة بكنهه ولا بكنه صفاته التي حجبها عن خلقه، وقد ذكر هذا القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الذي كان رأيه في مسألة الأسماء والصفات موافقاً لرأي الإمام مالك، وهو حنبلي المذهب، وقد عاش في القرن الرابع الهجري، ومن جملة ما ذكره في هذه المسألة: في جميع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله . صلى الله عليه وسلم .، فإن جميع ذلك صفات لله عز وجل تُمرُّ كما جاءت، من غير زيادة ولا نقصان، وقال أيضاً: إنما هو إثبات وجود، لا إثبات حدود، لها حقيقة في علمه، لم يُطلع الباري سبحانه على كنه معرفتها أحداً من إنس ولا جان<sup>(2)</sup>.

● إن هذه المسائل توقيفية، وليست تحليلية، ومن ادعى أنه يمكنه أن يتكلم فيها برأيه، فقد قال على الله بغير بصيرة، وقف ما ليس له به علم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾<sup>(3)</sup>.

1 . جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ص 364 .

2 . القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين ابن محمد بن الفراء، إبطال التأويل لأخبار الصفات، تحقيق ودراسة . أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية للنشر، الكويت، (بدون تاريخ طبعة) ج 1 ص 18 .

3 . سورة الإسراء الآية 36 .



• إن توحيد الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، يستلزم الإيمان بها كما أتت في كتاب الله، وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - من غير تحريفٍ، ولا تأويلٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تعطيلٍ .

• إن مالكاً رحمه الله، يعتبر الكلام في أسماء الله وصفاته، علامةً على الضلال والغي، وهو من الابتداع في الدين، والزيغ في العقيدة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

• إن عقيدة مالك في الأسماء والصفات تتوافق تماماً مع عقيدة غيره من أئمة السلف، على الرغم من كونه كان يتعاضم الخوض في ذات الله عز وجل كما مر علينا، ولهذا يقول الأستاذ - سعود الدعيجان: وكان مالك يمسك عن هذا الباب، من قبيل التعظيم لله تعالى، فقد كان الأئمة المعتبرين، ومن سار على منهج السلف الأول، يرون أن البحث في مسألة الصفات، لا يوصل إلى شيء، وهذا هو مذهب مالك في هذه المسألة<sup>(2)</sup>.

وهو القول الأسلم، والمذهب الأحوط، ولهذا يقول ابن كثير - رحمه الله - وهو من أرباب المدرسة الشافعية في الفقه والمذهب، ولكنه كما سبق وأشرنا، كان معتقده في الأسماء والصفات، موافقاً لمنهج الإمام مالك، ولم يخالفه في هذه المسألة، وقد كان الإمام مالك متقدماً عليه بفترة طويلة، حيث كان مجيئه بعد الإمام مالك بأكثر من خمسة قرون، جاء في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، قوله: وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح - مالك، والأوزاعي، والثوري،

1 - سورة يونس 69 .

2 - سعود عبد الله الدعيجان، منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة، دار الآثار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ، ص 156 .

والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من الأئمة، قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه فالله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ بل الأمر، كما ذكر الأئمة منهم، نعيم ابن حماد الخزاعي شيخ البخاري، حيث قال: من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، ولا ما وصفه به رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى<sup>(1)</sup>.

والحق إن هذا الكلام كلامٌ فصلٌ، يوضح ما كان عليه سلف هذه الأمة في القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ومن جاء بعدهم من التابعين، ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وعلى هذا نقول: إن هذا هو منهج الإمام مالك - رحمه الله - في الأسماء والصفات، وهو حقيقة المنهج الأعدل في الدعوة إلى الله، فلو أراد أي داعية أو عالم مسلم، أن يدعو إلى الإسلام، فإنه مطالبٌ بنصوص الشريعة الإسلامية، وأوامر الدين أن يبين الحق، ويبلغ رسالة الإسلام بتوضيح تعاليمه، وبيان ما افترضه الله تعالى على عباده، وتبيان ما أعده الله عز وجل للطائعين من الثواب العظيم، وأن يحذر الناس من سخطه وعذابه، وأن الدائرة على من عصاه، يقول بن خزيمة في كتاب التوحيد: فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا، أن خالقنا مستوٍ على عرشه، لا نبدل

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2 ص 238.

كلام الله الذي قيل لنا<sup>(1)</sup>.

وإنما قصد بهذا تتبع أثر الإمام مالك الوارد في مسألة الاستواء، كما سبق وذكرنا ذلك في مطلع حديثنا عن رأي الإمام مالك في مسائل الأسماء والصفات، وقد وصف الله عز وجل نفسه الكريمة بأوصاف الكمال والجمال، وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

وتحفظ مالك عن الخوض في قضايا الأسماء والصفات، هو الذي يفسر قلة الآثار الواردة عنه في هذا الباب، حتى صار هذا ديدن تلامذته، ومن أصول مذهبه، مما جعل التصانيف في المذهب المالكي، تتجه إلى الكتابة في أبواب الفقه والعبادات، والمعاملات، أكثر منها في جانب العقائد<sup>(3)</sup>.

وهذا الرأي الذي يراه مالك - رحمه الله تعالى - في إجراء النصوص الواردة في الأسماء والصفات على ظاهرها، والتفويض في علم حقيقتها لله وحده، يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(4)</sup>، قال الإمام الفخر الرازي - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: إن معنى الإلحاد الميل عن القصد، وقيل: الملحد العادل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه، وقيل

1 - ابن خزيمة، كتاب التوحيد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1988م، ص 101.

2 - سورة الأعراف الآية 180 .

3 - منهج الإمام مالك في إثبات العقيد، الدعيان، ص 384 .

4 - سورة الأعراف الآية 180 .

الإلحاد العدول عن الاستقامة<sup>(1)</sup>.

وهو تعالى كما قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾<sup>(2)</sup>،  
وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾<sup>(3)</sup>.

وأنة سيجازي كل إنسان بما عمل، وليس هنالك من حاجة إلى  
الخوض في ذات الله، وتبيان كنهها، فالأمر أكبر من أن يدركه المدعو،  
فضلاً عن الداعية، لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ  
الْبَصِيرُ﴾<sup>(4)</sup>.

والرأي في آيات الصفات عند السلف عموماً، إجراؤها كما هي،  
قال الحافظ ابن خزيمة: قد بين الله عز وجل في محكم تنزيله المثبت بين  
الدفنتين، أن له وجهاً وصفه بالجلال والإكرام، كما في قوله تعالى:  
﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(5)</sup>، وابن خزيمة شافعي المذهب،  
وهو من أصحاب التصانيف المشهورة في الحديث النبوي الشريف، وقد  
عاش في القرن الثالث الهجري، ولكنه كان على عقيدة الإمام مالك، في  
الأسماء والصفات، وكما عرفنا من قبل أن الأئمة لم يختلفوا في مسائل  
الاعتقاد، بل كان اختلافهم في فروع المسائل الفقهية، ولهذا كان قوله -  
رحمه الله - موافقاً لرأي الإمام مالك، ثم استشهد أيضاً بقول الله تعالى:

1. الفخر الرازي، التفسير الكبير، المطبعة البهية، مصر، الطبعة الأولى، 1938م، ج 15  
ص 71.

2. سورة الأنعام الآية 103.

3. سورة غافر الآية 19.

4. سورة الشورى الآية 9.

5. سورة الرحمان الآية 27.

﴿كل شيء هالكٌ إلا وجهه﴾ ثم قال - رحمه الله -: "زعم بعض الجهلة من الجهمية أنّما وصف في هذه الآيات نفسه التي أضاف إليها الجلال، ثم قال: إن هذه دعوةٌ إنما يدعيها من يجهل لغة العرب، لأن الآية ذكرت الوجه مضموماً، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة الوجه ولو كان قوله" ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ مردوداً إلى ذكر الرب، لذكر الآية هكذا: ﴿ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام﴾ فتفهموا يا ذوي الحجا"<sup>(1)</sup>.

ويذكر الصابوني في كتابه (عقيدة السلف أصحاب الحديث)، ما كان قولاً واحداً مجمعاً عليه عندهم، رحمهم الله جميعاً، ولم ينقل عن أي واحدٍ من السلف الصالح لهذه الأمة، قولٌ يخالفه، فقد قال - رحمه الله -: "وكذلك يقولون - وإنما يقصد أئمة السلف أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم - في جميع الصفات التي ذكرها القرآن، ووردت بها الأحاديث الصحااح من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعزة والعظمة، والإرادة، والمشية، والقول، والكلام، والرضا، والسخط، والحياة، واليقظة، والفرح، والضحك، وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من غير زيادة عليه، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب، وتضعه عليه بتأويل منكر، ويجرونه على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى، ويقرون بأن تأويله لا

1 - الحافظ ابن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، مكتبة الكليات

الأزهرية، القاهرة، 1988م ص22 .

يعلمه إلا الله ، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (1) (2).

لذلك كان مالك - رحمه الله - يُفَرِّقُ من الحديث في الأسماء والصفات أشدَّ التّفيرة، ويُقِلُّ عنه زجره للخائضين في هذا الباب . ولو كان الأمر مهماً، ولو كان عليه المعول في العقيدة، لما سكت عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الأطهار، ولنقل إلينا، إما بالتواتر، أو حتى بأخبار الآحاد، ذلك لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بلغ ما أوحى إليه من ربه، ولم يبق شيء مما يفترض أن يكون من أساسيات الدين، ولبَّ العقيدة، إلا وقد بلغنا به ووضَّحه لنا، ومن يظن أن هناك في الدين والعقيدة شيء لم يوضَّحه رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فقد اتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعدم البلاغ، واتهم دين الله بالنقص، وهذا اتهام باطل يكفر صاحبه، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (3) وكيف يكون ذلك، وقد أكمل الله الدين، وبين الشرائع، وحكَّم العقائد؟ وهو الذي قال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (4).

1 - سورة آل عمران الآية 7 .

2 - أبو عثمان الصابوني، عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، ص38.

3 - سورة المائدة الآية 3 .

4 - سورة المائدة الآية 3 .

ولم نسمع أن الصحابة رضوان الله عليهم، خاضوا في ذلك بل كانوا يكرهون الخوض في ذلك، قال العلامة الشنقيطي: "اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات، وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع من البدع التي يكرهها السلف"<sup>(1)</sup>.

ويذكر الشاطبي أيضاً: وهو مالك المذهب، في كتابه الاعتصام عن رأي مالك في مثل هذه القضايا الحساسة، ما نصه: قال ابن الماجشون<sup>(2)</sup> سمعت مالكاً يقول من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾<sup>(3)</sup> فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا"<sup>(3)</sup>.

وذكر القاضي عبد الوهاب المالكي: عن مالك أنه كان لا يرى في الأسماء والصفات إلا الإمرار والتسليم، وهذه هي طريقة المالكية في فهم النصوص، وفهم مالك لهذه النصوص بهذه الكيفية، دلالة على ما ذهب

1 - محمد الأمين الشنقيطي، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، مطابع المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1410هـ، ص 2 .

• هو عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، من كبار فقهاء المالكية، ويعتبره البعض من رفاق مالك قال فيه يحيى بن أكثم عبد الملك بحر لا تكدره الدلاء، وقال أحمد بن المعدل كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك صغرت الدنيا في عيني، وقال فيه أيضاً كان لسان عبد الملك إذا تعابى أحيا من لساني إذا تحايى، توفي رحمه الله سنة 213 هـ. (انظر: الديباج المذهب، ج 1 ص 91).

2 - سورة المائدة الآية 3 .

3 - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي، المالكي، الاعتصام للشاطبي، تحقيق: محمد هاني، المكتبة التوفيقية، ج 1 ص 365.

إليه السلف في مثل هذه القضايا، فهم ينفون المماثلة، وينفون المشابهة... ثم قال: واعلم أن الوصف له تعالى بالاستواء اتباعاً للنص، وتسليم للشرع، وتصديق لما وصف نفسه تعالى به، ولا يجوز أن نثبت له كيفية، لأن الشرع لم يرد بذلك، ولا أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه بشيء، ولا سألتها الصحابة عنه، وهذا هو فهم مالك لهذه النصوص<sup>(1)</sup>.

### شبهة والرد عليها:

نُسب إلى الإمام مالك تأويله حديث نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا، وهو حديث "ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا... الحديث"<sup>(2)</sup> بنزول أمره، وللرد على هذه الشبهة نقول: إن نسبة هذا القول لمالك لا يخرج عن وجهين:

1 - شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، ص 119 .

2 - صحيح مسلم، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، حديث رقم/1263، وحديث رقم/1265، ومسنند الإمام أحمد، حديث رقم/3491، وحديث رقم/3630، وحديث رقم/9220، وحديث رقم/10868، وحديث رقم/10959، وصحيح ابن حبان، باب فرض الإيمان، حديث رقم/923، والمعجم الكبير للطبراني، حديث رقم/1545، وحديث رقم/8309، وشعب الإيمان للبيهقي، حديث رقم/3453، ومستخرج أبي عوانة، حديث رقم/1755، ومستخرج أبي يعلى، حديث رقم/1145، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم، حديث رقم/2648، ولفظ مسلم: "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يُستجاب له، هل من مستغفر يُغفر له، حتى ينفجر الصبح".



الأول: أنه لا يصح نسبتها إلى مالك وتكون من قول حبيب كاتبه<sup>(1)</sup> وليس من قول مالك، وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى بقوله: ذكرت هذه الرواية عن مالك من طريق كاتبه حبيب بن أبي حبيب؛ لكن هذا كذاب باتفاق أهل العلم بالنقل، لا يقبل أحد منهم نقله عن مالك<sup>(2)</sup>.

1. هو أبو محمد حبيب بن أبي حبيب، كاتب مالك بن أنس، قال عنه الإمام أحمد: ليس بثقة، وقال ابن معين: كان حبيب يقرأ على مالك، وكان يخطر (يسرع) بالناس يصفح ورقتين ثلاثاً، وقال يحيى: وكان يحيى بن بكير سمع من مالك يعرض حبيب، وهو شر العرض، واتهمه أبو داود بالكذب، وقال ابن حبيب: كان يروي عن الثقات الموضوعات، وقال النسائي: أحاديثه كلها موضوعة عن مالك وغيره، وضعفه ابن حنبل وابن معين والنسائي وأبو حاتم الرازي وكذبوه وذموا. وقال ابن معين: حبيب الذي بمصر كان يقرأ على مالك ويخطر للناس ويصفح ورقتين، سألوني عنه فقلت: ليس بشيء. وبقرائه سمع ابن بكير. انظر: تهذيب الكمال، ج 2 ص 158، وترتيب المدارك، ج 1 ص 135، والوائف بالوفيات للصفدي، ج 4 ص 83، وسير أعلام النبلاء، ج 8 ص 68، والكامل لابن عدي، ج 2 ص 411.

وقال القاضي عياض في (الإلماع) ص 77: ولهذه العلة لم يخرج البخاري من حديث يحيى بن بكير عن مالك إلا القليل؛ لأن روايته كانت عن ابن حبيب. وقال الصفدي: قال أبو أحمد الحاكم: روى أحاديث شبيهة بالموضوعة، وعامة سماع المصريين عرض حبيب. قال ابن معين: سألوني عنه بمصر، فقلت: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل: ليس بثقة. وقال النسائي: متروك. وقال ابن عدي: كان يضع الحديث، توفي سنة 218هـ. (انظر: الوائف بالوفيات للصفدي، باب أبي تمام الطائي، ج 4 ص 83).

2. الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج 5 ص 401.

وقال النسائي فيما أخبرني محمد بن العباس عنه ، قال : حبيب كاتب مالك متروك الحديث ، وحبيب هذا أحاديثه موضوعة عن مالك<sup>(1)</sup> . وقد ضعف ابن تيمية أيضاً نسبة تأويل أحاديث الصفات للأئمة المتبوعين ، كأمثال مالك وأحمد بن حنبل ، وقال نافياً أن يكون صحيحاً نسبته - أي التأويل - للإمام أحمد بن حنبل ما نصّه: "وتأويل المجيء والإتيان والنزول ونحو ذلك - بمعنى القصد والإرادة ونحو ذلك - هو قول طائفة ، وتأولوا ذلك في قوله تعالى: ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾<sup>(2)</sup> ، وجعل ابن الزاغوني<sup>(3)</sup> وغيره ذلك هو إحدى الروايتين عن أحمد ، والصواب: أن جميع هذه التأويلات مبتدعة لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها ولا أحد من التابعين لهم بإحسان؛ وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث<sup>(4)</sup> .

1 - عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني (277 - 365هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، 1988م، ج2 ص411.

2 - سورة البقرة، الآية 29، سورة فصلت، الآية 11.

3 - علي بن عبيد الله بن نصر بن السري، أبو الحسن ابن الزاغوني: مؤرخ، فقيه، من أعيان الحنابلة، من أهل بغداد، قال ابن رجب: كان متفنناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ، وصنف في ذلك كله، من كتبه: الإقناع، والواضح، والخلاف الكبير، والمفردات، وكلها في الفقه، وكتاب الإيضاح وهو في أصول الدين، وكتاب غرر البيان وهو في أصول الفقه، وغيرها، ولد ابن الزاغوني سنة 455هـ، وتوفي سنة 527هـ. (انظر: الأعلام للزركلي، ج4 ص310).

4 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، باب فصل في تأويل بعض أهل السنة، ج5 ص401.

**الثاني:** القول بصحة ورودها عن مالك بما لا يتناقض مع ما تواتر النقل عنه بإثباته صفات الله تعالى على طريقة السلف، كما في رواية ابن عبد البر في التمهيد: أنّ محمد بن علي الجبلي وكان من ثقات المسلمين بالقيروان قال: حدثنا جامع بن سواده بمصر قال: حدثنا مطرف عن مالك ابن أنس أنه سئل عن الحديث "إن الله ينزل في الليل إلى سماء الدنيا" فقال مالك: **يتنزل أمره** <sup>(1)</sup>.

فقد تأول بعض أهل العلم ذلك بأن معنى نزول أمره أي القصد والعمد، كما قال تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ <sup>(2)</sup> قالوا: قصد وعمد، وهذا تأويل طائفة من أهل العربية، منهم أبو محمد عبد الله بن قتيبة، وفي رواية كذلك عن الإمام أحمد بن حنبل، وطائفة من أصحاب أحمد وغيرهم كالقاضي أبي يعلى وغيره <sup>(3)</sup>.

وما أحسن ما أجاب به الإمام ابن عبد البر، حيث قال: "هذا ليس بشيء لأن أمره ورحمته لا يزالان ينزلان أبداً في الليل والنهار، وتعالى الملك الجبار الذي إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، في أي وقت شاء، ويختص برحمته من يشاء متى شاء، لا إله إلا هو الكبير المتعال" <sup>(4)</sup>.

1 - التمهيد لابن عبد البر، ج 7 ص 143 .

2 - سورة البقرة، الآية 29، سورة فصلت، الآية 11.

3 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 5 ص 402.

4 - التمهيد لابن عبد البر، ج 7 ص 143 .

## تحليل واستنباط:

القول بأن الإمام مالكا أول النزول بمعنى نزول أمره، يفهم منه إن صحَّ عن مالك ما لا يتناقض مع ما تواتر النقل به أن مالكا - رحمه الله - يثبت هذه الصفات على الحقيقة لا على المجاز، والتفويض في الكيفية له سبحانه وتعالى، وأنه نهى عن تأويلها، والخوض فيها.

ولأن قوله: ينزل أمره، لا يناه في وقوف مالك على النص في معنى الصفات لا يتجاوزها، فأمره سبحانه يتنزل متى شاء وكيف شاء، كما قال عز وجل: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾<sup>(1)</sup>. وكقوله سبحانه: ﴿واليه يرجع الأمر كله﴾<sup>(2)</sup>. وكقوله تعالى: ﴿ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾<sup>(3)</sup>. ولهذا يقول ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: "وقل لهم: من يدبر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخلق؟ ﴿سيقولون الله﴾، يقول جل ثناؤه: فسوف يجيبونك بأن يقولوا: الذي يفعل ذلك كله الله"<sup>(4)</sup>.

ومن هنا نقول في مثل هذه الأقوال التي ترد عن السلف مما يوهم التأويل: أفنترك ما ثبت عن مالك وابن حنبل وحماد وغيرهم من علماء السلف، بما تواتر به النقل، وصار مشهوراً أصلاً من أصولهم، كقولهم في أحاديث الصفات: "أمروها كما جاءت"، كما في رواية البيهقي عن الوليد ابن مسلم قل: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه

1 - سورة الأعراف، الآية 54.

2 - سورة هود، الآية 123.

3 - سورة يونس، الآية 31.

4 - تفسير الطبري، ج 15 ص 83.

الأحاديث التي جاءت في التشبيه فقالوا: أمرها كما جاءت بلا كيفية" (1) وتأويلها ليس إمرارها.

ولهذا جاء في شرح العقيدة الطحاوية للشيخ الحوالي قوله: إن مذهب السلف يتنافى مع التأويل؛ لأنه قال: "كما جاءت" فلا تأويل، فلا نقول: استوى، بمعنى استولى، واليد بمعنى القدرة، وينزل ربنا أي تنزل رحمته، أو أمره، وإلا فإننا لم نمررها كما جاءت، وإنما حولناها وحرّفناها، فالتحريف هو التأويل في حقيقته؛ لأنه يغير المعنى ويغير اللفظ عما أرادته المخاطب الذي قاله (2).

أفنعدل عن هذا النص ونظائره؟ كقوله: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، إلى رواية تكلم فيها أهل العلم، وجعلت في شواذ ما روي عنه؟ ولزوم المشهور أولى من التعويل على الشاذ ومحاولة تعليقه، وتأويله. ولشيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول كتاب سماه: (شرح حديث النزول) فمن أراد الفائدة فليرجع إليه. والله نسأل أن يوفقنا للرشاد، آمين.

1 - سنن الترمذي، باب فضل الصدقة، حديث رقم/662، السنن الكبرى للبيهقي، باب الترغيب في قيام آخره، حديث رقم/4838، وانظر: تفسير القرطبي، ج 4 ص 14. وتفسير البغوي (المسمى: معالم التنزيل) وهو لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (المتوفى 516هـ)، تحقيق: (محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997م، ج 1 ص 241، ج 3 ص 777. وفتح الباري لابن حجر، ج 13 ص 407.

2 - شرح العقيدة الطحاوية للشيخ سفر الحوالي، ج 2 ص 389.

## القول في مسائل القدر وأفعال العباد:

إن مسألة القدر، وأفعال العباد، وقضايا الاختيار في الأعمال، من القضايا التي انقسم فيها الناس قديماً وحديثاً، وشغلت بال كثير من المتكلمين والعلماء، وسبب الخلاف: التنازع في وجهات النظر بين مسلمٍ للنصوص من كتاب وسنة، وفريق آخر أشكلت عليه النصوص، واشتبهت عليه، فقال بالجبر في الأعمال، وآخر منكرٌ للقدرة الإلهية في أفعال العباد، فأفرط في تفويض أمور الأعمال للعبد، صغيرها، وكبيرها، وبين كل فريق وفريق جماعاتٌ تقرُّ بجزئيات من المسؤولية على العباد، وتتكر، والعلماء يقسمون التنازع في مسائل القدر إلى ثلاثة فرق رئيسية، سنتحدث عنها فيما يلي بشيءٍ من التفصيل، وهي على النحو الآتي:

### 1. الجبر في الأعمال:

وقال بهذا طائفة اصطَلحت الفقهاء على تسميتهم بالجبرية، وأطلق عليهم هذا الاسم من معتقدهم في هذه المسألة، فهم يقولون: إن العبد لا اختيار له في فعل الخير أو الشر، بل هو مجبر على كل ما يفعل، وحال الإنسان مع القدر كقشةٍ في سيل الوادي، يجرفها كيف يشاء، ويقولون أيضاً ألا فعل للعبد حقيقةً ولا مجازاً<sup>(1)</sup>.

وجاء في شرح السمرقندي للفقهِ الأكبر للإمام أبي حنيفة، وهو

1 - حسن بن عبد الحسن بن أبي عذبه، الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتردية، تحقيق: علي فريد حروج، دار سبيل الرشاد، الطبعة الأولى، 1996، ص 79.

كتاب مشهور، جمع فيه أبو حنيفة - رحمه الله - مسائل متنوعة في العقيدة، وأورد فيه كذلك أقواله، وأقوال علماء السلف في قضايا الاعتقاد بشكّل عام، ومما ذكر في تعريفه للجبرية، قوله: "وقالت المجبرة: لا فعل للعبد، وله فعل على وجه المجاز لا على وجه الحقيقة"<sup>(1)</sup>.

وقال صاحب الفواكه الدواني: "الجبرية هم الذين ينفون الكسب ويزعمون أن العبد كالخييط المعلق في الهواء"<sup>(2)</sup>.

وكل من يعتقد هذا الاعتقاد في مسائل القدر، وأفعال العباد، فهو من الجبرية، وإن كان يعتقد أي معتقد آخر في غيرها من المسائل، فعلى هذا يمكن أن يكون المعتزلي جبرياً، والجهمي جبرياً، وهكذا، وقال البغدادي: وأهم فرقها هم الجهمية الذين قالوا: إن أفعال العباد مخلوقة والإنسان ليس إلا كالريشة في مهب الريح، ليس له قدرة ولا اختيار، وهذا هو الجبر المحض الذي أنكرته سائر الطوائف<sup>(3)</sup>.

- 
- 1 - أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الحنفي السمرقندي، شرح الفقه الأكبر المتن المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان، راجعه: محمد بن إبراهيم الأنصاري، مطبعة مجلس دائرة العلم النظامية، الهند 1321هـ، ص 18.
  - 2 - الفواكه الدواني، باب ما تنطق به الألسن، ج 1 ص 351.
  - 3 - عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق - محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، شارع الجمهورية، القاهرة، مصر، (بدون تاريخ طباعة) ص 199.

## 2. القائلون بالاختيار المحض في الأفعال:

ويطلق الفقهاء على هؤلاء اسم القدرية، لإفراطهم في استعمال العقل، ومقايستهم النصوص بعقولهم، معتقدين أن العبد حر في كل ما يختار، وأن لا سلطان لله عليه، ومنشأ هذا القول من المعتزلة، لذلك يعدُّ بعض أهل العلم القدرية إحدى طوائف المعتزلة، وقد قال الكرايسي، إن مآلكاً وصفهم بقوله: "هم الذين يقولون ما خلق المعاصي، فينسبون القدرة لهم في الأعمال والأفعال خيرها وشرها صغيرها وكبيرها"<sup>(1)</sup>.

ولكن ومن خلال تقييمنا لأقوال القدرية بشكْلٍ عام، فإننا نقول ما قلناه في الجبر، فليست فكرة القدرية مقصورة على فرقة بعينها، بل كل من يعتقد معتقدتهم، وينحو نحوهم في مسألة القدر، يمكن أن نسميه قدري، ويمكن أن يكون جبرياً من معتزلي الفكر، والمعتزلي قدري في أفعال العباد، ويقول الأشعري عنهم: أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لم يخلق الكفر، ولا المعاصي، ولا شيئاً من أفعال غيره، إلا رجلاً منهم، فإنه زعم أن الله خلقها بأن خلق أسماءها وأحكامها<sup>(2)</sup>.

واستدل القدرية بعدة نصوص منها، قول الحق جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(3)</sup>، وأيضاً بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1ص54، وانظر - محمد سكال الجزائري، المذهب المالكي، تحقيق ومراجعة - الدكتور - بديع السيد اللحام، دار الآثار المصرية، القاهرة، 1988م ص379.

2 - مقالات الإسلاميين للأشعري، هلموت ريتز، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ طباعة)، ص227.

3 - سورة الجاثية الآية 28.



شَاءَ فَلْيُكْفُرْ<sup>(1)</sup>.

- وقد وقعوا في بعض الشبهات العقلية، لأنهم وزنوا الأمور بعقولهم فقط، ولم يوازنوا بين الأدلة، ومن الحجج العقلية التي طرحوها:
- قالوا: لو كانت الأفعال مخلوقة من عند الله خيرها وشرها، ولا مسؤولية للإنسان فيها، فكيف يحاسبنا الله على عمل لا ذنب لنا فيه؟<sup>(2)</sup>.
- إذا كانت جميع الأفعال من الله، فكيف لك أن تعرف المحسن إليك من الناس، من المسيء؟ فالمحسن لا يد له في عمله، والمسيء كذلك يصير مكرهاً على ما يقوم به، ولا اختيار له.
  - كيف يأمرنا الله أو يكلفنا بأعمال، أمر صناعتها في يده وهو خالقها؟، وهذا يتنافى مع الحكمة الإلهية.
  - يلزم من قولنا: "إن الأعمال مخلوقة من الله" أن يكون الكافر مطيعاً، لأنه يفعل ما خلقه الله له<sup>(3)</sup>.

### 3. الفريق الوسط بين الفريقين:

- وهو الذي سلك المسلك الوسط، لا إفراط فيه ولا تفريط، وهم أهل السنة والجماعة، وعموم الأمة، ويقسم الشيخ بن عثيمين - رحمه الله - معتقد أهل السنة والجماعة في قضية القدر وأفعال العباد إلى قسمين:

1 - سورة الكهف الآية 29 .  
 2 - شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبه، مصر، الطبعة الأولى 1965، ص355.  
 3 - القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، دار الوطن، الرياض، الثانية، 1997م، ص235.

**القسم الأول:** ما يجريه الله - تبارك وتعالى - من فعله في مخلوقاته فهذا لا اختيار للعباد فيه، فهو سبحانه وتعالى ينزل المطر، وينبت الزرع، ويحيي ويميت، ويمرض ويشفي، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تشاهد في مخلوقات الله تعالى، وهي بلا شك، ليس لأحد فيها اختيار، وليس لأحد فيها مشيئة، وإنما المشيئة فيها لله الواحد القهار .

**القسم الثاني:** ما تفعله الخلائق كلها من ذوات الإرادة، فهذه الأفعال تكون باختيار فاعليها وإرادتهم، لأن الله تعالى جعل ذلك إليهم<sup>(1)</sup>، قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾<sup>(2)</sup>، وقال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾<sup>(3)</sup> وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾<sup>(4)</sup>.

وهذا القول، في الواقع، هو القول الفصل في هذه المسألة، وهو ما عليه أئمة السلف جميعاً في مسألة القدر، ولهذا لما سأل رجل مالكا بقوله: الفواشش كتبها الله علينا؟ قال: نعم قبل أن يخلقنا، ولا بد لكل من كتب الله عليه ذلك أن يعلمها، ويصير إلى ما قدر عليه وكتب<sup>(5)</sup>.

وهذا القول من مالك، إنما يدل على فهمه العميق لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي رواه في موطنه، وهو يلخص مسألة القدر، من دون تعقيد، ويبين معناها من دون تكلف، فقد روى مالك بسنده عن مسلم

1 - محمد صالح العثيمين ، رسالة في القضاء والقدر، المكتبة الوقفية، المدينة المنورة، 1422هـ، ص 3 .

2 - سورة التكوير الآية 28 .

3 - سورة آل عمران الآية 152 .

4 - سورة الكهف الآية 29 .

5 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 54 .

ابن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب، سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾<sup>(1)</sup>، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسأل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى، خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون" فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل؟ قال فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله ربه النار"<sup>(2)</sup>.

والمعنى كما في رواية البخاري: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"<sup>(3)</sup>،

1 - سورة الأعراف الآية 172 .

2 - موطأ مالك ، باب عن القول بالقدر، حديث رقم/1395، سنن أبي داوود، باب في القدر، حديث رقم/4081، سنن الترمذي، باب من سورة الأعراف، حديث رقم/3001.

3 - صحيح البخاري، باب فسنيسر للعسرى، حديث رقم/4568، ورواه البخاري بسنده عن علي رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآية .

أي لعمل خاص "من كان من أهل الجنة" أي في علم الله وكتابه "يسر لعمل أهل الجنة"، "ومن كان من أهل النار يسر لعمل أهل النار"، فقال الأنصاري: "الآن حق العمل"، ولهذا قال ابن عطاء في حكم إذا أردت أن تعرف قدرك عنده؟ فانظر فيما ذاك، فقيمة الأعمال بالخواتيم، وقد ورد: "من أراد أن يعلم منزلته عنده، فلينظر كيف منزلة الله من قلبه"<sup>(1)</sup>.

والشبهات التي وقع فيها الجبرية بجعل جميع الأفعال كلها مخلوقة، يتعارض مع صريح النصوص من كتاب وسنة، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(2)</sup>، والقول بخلق أفعال العباد جميعاً، يستلزم تكليف العباد ما لا يطيقون.

والقدرية وقعوا في شبهة تأويل النصوص، على خلاف تأويل السلف لها، لذلك مالوا عن الحق، فاستشهدواهم بقول الحق جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، لا يعني بالضرورة أن يجازوا على كل الأعمال، بل هذا دليل ضدهم في الواقع، لأن الجزاء إنما يكون على أعمالهم الخاصة بهم، والتي سيحاسبون عليها في الواقع، أما الأعمال الكونية، والمشية الإلهية التي لا قدرة للإنسان على ردها، فلا يحاسب الإنسان عليها، وهذا هو التأويل الصحيح لنصوص القرآن الكريم، إنما يكون بالجمع بين الأدلة، وليس باجتزائها.

وحول هذا المعنى يقول ابن القيم: فكل دليل صحيح للجبرية، إنما يثبت قدرة الرب تعالى ومشيتته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير، لا يُستثنى من هذا العموم فرداً واحداً من أفراد الممكنات، وهذا

1 - شرح مسند أبي حنيفة، ج 1 ص 384.

2 - سورة البقرة الآية 287.

حق، ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً، مريداً، فاعلاً، بمشيئته وقدرته، وأنه هو الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة به، وأنها فعل له لا لله، وأنها قائمة به لا بالله، وكل دليل صحيح يقيمه القدرية، فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم، قائم بهم، واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وإنهم مختارون لها غير مضطرين، ولا مجبورين، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادراً على أفعالهم، وهو الذي جعلهم فاعلين<sup>(1)</sup>.

وذكر الإمام أبي الحسن الحنبلي، جامع ما يجب على المؤمن اعتقاده في مسألة القدر، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، فقال: "يجب الإيمان بالقدر خيره، وشره، وحلوه، ومره، وقليله، وكثيره، وظاهره، وباطنه ومحبوبه، ومكروهه، وحسنه، وسيئه، وأوله وآخره من الله، قضى قضاءً على عبادته وقدر قدره عليهم، لا أحد يعدو منهم مشيئة الله - عز وجل - ولا يجاوز قضاءه، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لا محالة، وهو عدل من ربنا عز وجل، فأراد الطاعة وشاءها، ورضيها وأحبها وأمر بها، ولم يأمر بالمعصية، ولا أحبها ولا رضيها، بل قضى بها وقدرها وشاءها وأرادها، والمقتول يموت بأجله"<sup>(2)</sup>.

هذه أهم الأقوال في هذه المسألة، وسنتعرض لها بمزيد من التوضيح

1 - شفاء العليل، لابن القيم، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، دار الفكر، بيروت، 1398هـ، ص51.

2 - أبو الحسين محمد أبو يعلى الحنبلي، الاعتقاد، تحقيق: محمد أبي عبد الرحمن الخميس، مطبعة الإصدار، الرياض، هـ1422، ص16.

عند الحديث عنها في مباحث الطوائف والفرق .

وبعد سرد طائفة من أقوال المتكلمين في مسائل القدر، نستعرض أقوال أئمة المذاهب، وسنقارنها بعد ذلك بأقوال الإمام مالك، وهي على النحو الآتي :

• **الإمام أبوحنيفة:** لقد ألف الإمام أبوحنيفة كتابه (الفقه الأكبر)، وسماه بهذا الاسم لتناوله أهم مسائل الدين، ألا وهي مسائل الاعتقاد المختلفة، ورد فيه على المتكلمين الذين احترفوا بدعة الكلام، فأثاروا الشبهات المختلفة، وشككوا العوام في أهم بديهيات الدين، ألا وهي مسألة الإيمان بالغيب .

وفي رد الإمام أبي حنيفة على القدرية عندما عانده أحد المجادلين في القدر، قال له: "أما علمت أن الناظر في القدر كالناظر في عيني الشمس كلما ازداد نظراً ازداد تحيراً"، وقال أيضاً في هذه المسألة عندما كثر الجدل فيها، مبيناً أن مذهبه التفويض في مثل هذه المسائل فقال: "إن العبد مع أعماله وإقراره ومعرفته: مخلوق، فلما كان الفاعل مخلوقاً، فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة"<sup>(1)</sup>.

• **الإمام الشافعي:** لقد كان الإمام الشافعي - رحمه الله - إماماً عالماً، وفيلسوفاً، وأديباً، فهو الذي أسس لأصول الفقه وقعد قواعده، وهو ضليع في العلم بمدلولات الألفاظ، ولكنه مع هذا كان مذهبه التسليم في قضايا القدر.

1 - محمد عبد الرحمن الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، دار طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1422هـ، ص 8 .

ثقل عن الشافعي - رحمه الله - قوله المشيئة إرادة الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ فَأَعْلَمَ اللهُ خَلْقَهُ أَنْ الْمَشِيئَةَ لَهُ دُونَ خَلْقِهِ، وَأَنْ مَشِيئَتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ<sup>(1)</sup>.

وأورد البيهقي في مناقب الشافعي، أن الإمام الشافعي قال: "إن مشيئة العباد هي إلى الله تعالى، ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم، وهي - أي الأعمال - خلق من خلق الله تعالى، وإن القدر خيره وشره من الله عز وجل، وإن عذاب القبر حق، ومساءلة القبور حق، والبعث حق، والحساب حق، والجنة والنار حق، وغير ذلك مما جاءت به السنن"<sup>(2)</sup>.

- الإمام أحمد بن حنبل: جاء في كتاب السنة للإمام أحمد قوله: "القدر، خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومُمرّه، ومحبوه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره، من الله، قضاءً قضاءً على عباده وقدرٌ قدره، ولا يعدُّ واحدٌ منهم مشيئة الله عز وجل، ولا يجاوز قضاءه"<sup>(3)</sup>.

1 - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، مكتبة اليمامة، (دمشق - بيروت) الطبعة الأولى 1999م، ص 263.

2 - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مناقب الشافعي، ج 1 ص 415.

3 - محمد الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، ص 35.

وكان يذهب إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل، ولا يجوز أن يخرج شيء من أفعالهم عن خلقه، لقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>(1)</sup>.

وروي عن الإمام أبي محمد بن علاق الأنصاري أنه قال: قال أحمد ابن حنبل: ولو شاء الله أن يزيل فعل الفاعلين مما كرهه أزاله، ولو شاء أن يجمع خلقه على شيء واحد فعله، إذ هو قادر على ذلك، ولا يلحقه عجز ولا ضعف، ولكنه كان من خلقه ما علم وأراد، فليس بمغلوب ولا مقهور، ولا سفيه ولا عاجز، بريء من لواحق التقصير، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا﴾ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبِّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾، وهو - عز وجل - لا يوصف إذا منع بالبخل، لأن البخل هو الذي يمنع ما وجب عليه، فأما من كان متفضلاً فله أن يفعل، وله ألا يفعل<sup>(2)</sup>.

- أقوال الإمام مالك في مسائل القدر: لم يخالف الإمام مالك آراء غيره من أئمة المذاهب في مسائل القدر، بل الأمر كما مر علينا، فإن أئمة المذاهب لم يتنازعو في مسائل الاعتقاد، بل كان قولهم واحداً في مثل هذه المسائل، وذلك لأنهم توافقوا في فهم مقتضيات النصوص، فتطابقت آراؤهم في الأصول، واختلفوا في الفروع والجزئيات، وذلك

1 - سورة الزمر الآية 62 .

2 - اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل، رواية أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي، المكتبة الأزهرية، 1985، ص12.



لتحقق الغاية من ثبات أصول هذا الدين، وتتجلى الرحمة في فروعه، وما ذاك إلا لأنه صالح لكل زمان ومكان، وفيما يخص الحديث عن رأي مالك في مسائل القدر، ورأيه في القدرية بالتحديد، قال القاضي عياض: "سئل الإمام مالك عن القدرية، فقال: هم الذين يقولون إن الاستطاعة إليهم، إن شاءوا أطاعوا وإن شاءوا عصوا"<sup>(1)</sup>.

وفي الحقيقة، فإن هذه الآراء قد ظهرت زمن مالك، علاوةً على ما جاء بعده من الأئمة كما سبقت الإشارة إليهم، وقد كان مالك كما مر علينا ملازماً لأقوال الصحابة والتابعين في هذه المسألة، ذكر أبو نعيم في الحلية: عن ابن وهب قوله: سمعت مالكاً يقول لرجل سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(2)</sup> فلا بد أن يكون ما قاله الله تعالى<sup>(3)</sup>، وفي هذا إشارة إلى أن الإمام مالك كان يفوض في مسألة القدر، وما سيكون عليه مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، وذلك بعلم مستقبله، وما سيؤول إليه مصيره، وكيف سيكون حاله، من حيث الشقاء والسعادة، والجنة والنار، يفوض في كل ذلك لله تعالى وحده.

1 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ج2، ص48. وانظر: محمد بن عبد الرحمن الخميس، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية، 1425هـ، ص27.

2 - سورة السجدة، الآية 13.

3 - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988 م، ج6، ص326.

يقول الإمام ابن أبي زيد القيرواني - وهو من فضلاء المالكية وعلمائهم، صاحب الرسالة المشهورة، وكان يلقب بمالك الصغير لفهمه ومعرفته ودرايته بالمذهب المالكي<sup>(1)</sup> وقد نُقل عنه قوله في مسائل (القدر، والهداية، والإضلال)، وأن كل ذلك من الله سبحانه وتعالى: "يضل من يشاء فيخذه بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكلٌ ميسرٌ بتيسيره إلى ما سبق علمه، وقدره من شقيٍّ وسعيدٍ"<sup>(2)</sup>.

1 - هو أبو عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني، سليل أسرة من نضر الأندلس، ولد بالقيروان سنة 310 هـ، واتفقت الآراء على أن أبي زيد القيرواني، كان إمام المالكية في عصره، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، قال عنه القاسبي هو إمام موثوق به ذو دراية ورواية، توفى سنة 386 هـ (اصطلاح المذهب عند المالكية ص 238).

2 - محمد عزالدين الغرياني، قسم العقائد برسالة بن أبي زيد القيرواني، ELGA. فاليوتا - مالطا، 1996م، ص 141.

## المبحث الثاني . شمولية الدين الإسلامي عند مالك :

سبق وعرفنا أن السلف الصالح رضوان الله عليهم، يطلقون كلمة الدين، على العقائد، والعبادات، والمعاملات، ولا يُفرِّقون بينها، ومرّ علينا كذلك عند تعريفنا للعقيدة أن الإمام مالكاً - رحمه الله - كان يُطلق على مُجمل الدين، الإيمان، حيث كان يقول: (الإيمان قول وعمل) . فكل ما هو تعبدى لله تبارك وتعالى، يدخل تحت مسمى الدين، ومسمى الإيمان، وعلى هذا فقد كان مالك - رحمه الله - يعتبر التوحيد دين، ولا يصح الدين من دونه، والصلاة دين، ولا يصح دين امرئ مسلم بدون الصلاة، ولها المرتبة العليا في باب العبادات، والزكاة كذلك، وكذا الحج، والصوم، على الترتيب الذي رتبها عليه المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، كما جاء في الحديث، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان" (1) .

1 - صحيح البخاري، باب بني الإسلام على خمس، حديث رقم/ 7، صحيح مسلم، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، حديث رقم/ 19، حديث رقم/ 20، حديث رقم/ 21، سنن الترمذي، باب ما جاء بني الإسلام على خمس، حديث رقم/ 2534، سنن النسائي، باب على كم بني الإسلام، حديث رقم/ 4915، مسند الإمام أحمد، باب حديث عبد الله بن عمر، حديث رقم/ 4567، حديث رقم/ 5414، وله روايات كثيرة في باقي الكتب والأسانيد، ورواه البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان" .

فهذا الحديث يعتبر أصلاً من أصول الدين، عليه تتبني أحكام الإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (1).

وإذا كان الدين أعمالاً كاملةً، يرتبط بعضها ببعض، فلا بد أن يكون لهذا الترابط فائدته، بحيث تتحقق شخصية المسلم، الذي يدين لله تعالى بدين الإسلام، ويرتقي في هذا الدين مراتبه، ويحافظ على عراه الوثقى .

ونذكر هنا قولَ عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - الخليفة العادل، عندما بعث إلى عدي بن عدي<sup>(9)</sup>، أما بعد: فإن للإيمان (فرائض وشرائع) قال الإمام ابن حجر: (فرائض) أي أعمالاً مفروضة، و(شرائع) أي عقائد دينية<sup>(2)</sup> وقد كان الإمام مالك - كما علمنا من قبل - متأثراً بأراء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

1 - سورة الروم الآيات ( 43 ، 44 ، 45 ) .

• - تابعي من أبناء الصحابة، كان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة قيل عنه أنه سيد الجزيرة في العلم، وهو ابن عدي بن عميرة بن فروة، من بني الأرقم، من كندة: سيد أهل الجزيرة في زمانه، كان ناسكاً فقيهاً. ولاء سليمان بن عبد الملك قضاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان. وأقره عمر بن عبد العزيز، انظر - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002 م، ج 4 ص 221 .

2 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1 ص 55 .

ولمزيد من التوضيح لشمولية الدين الإسلامي للعقائد والعبادات،  
نتكلم عن مطلبين على النحو الآتي :

### المطلب الأول . العلاقة بين الإسلام والإيمان: أولاً . الإسلام :

**الإسلام لغةً:** الرضا والتسليم والقبول، يقال: أسلم يسلم، إسلاماً  
وتسليماً<sup>(1)</sup>، أي رضي وأذعن، وأسلم الرجل في الطعام، أي أسلفه وأسلم  
أي دخل في السلم وهو الاستسلام، وأسلم من الإسلام<sup>(2)</sup> قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَأَ  
يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(3)</sup>.

**واصطلاحاً:** الدين الذي ارتضاه الله لعباده، يشتمل على أقوال  
وأعمال، ويكون بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،  
وصلاة، وزكاة، وصوم، وحج بكيفية مخصوصة، أمر الله بها على لسان  
رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم .

**تعبيره:** مصطلح الإسلام في حال إطلاقه، يراد به الدين بشكْلٍ عام،  
فيشمل الإسلام بالمعنى الذي سبق، والإيمان، وكذلك الإحسان الذي هو  
درجة عالية في مراتب الإيمان .

أما الإسلام بمعناه الخاص، فيقصد به المعنى الذي ذكر في حديث  
النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله: (بني الإسلام على خمسٍ ....) وغير

1 . مختار الصحاح ص 311 ، ومختار القاموس ص 309 .

2 . لسان العرب لابن منظور ج 7 ص 244 .

3 . سورة النساء الآية 65 .

ذلك من عرى الإسلام، باقي العبادات والمعاملات، ولكن هذه الخمس هي الأعمدة، والقواعد التي ينبني عليها الدين، وهذا لا يتعارض مع أنه يوجد في الإسلام خصالاً أخرى ينبغي أن يتصف بها المسلم، وتعد من الدين، بل ومن صميم الإسلام .

ويذكر الأستاذ: **Izutsu Toshihiko** في تعريفه للإسلام، وذلك من خلال تحليله لأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية حول العلاقة بين الإسلام والإيمان فيقول: إن الإسلام يمثل الأعمال الظاهرة من عبادات، كصلاة وزكاة وصيامٍ وحجٍّ، وغيرها، فهو على هذا شيءٌ مرئيٌّ ظاهرٌ، وهذا هو المفهوم الخاص للإسلام<sup>(1)</sup>.

جاء في حديث أبي بردة رضي الله عنه، أنه قال: قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"<sup>(2)</sup>.

- الذي يظهر، والله أعلم، أن هذا سؤالٌ من الصحابة رضوان الله عليهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - والسؤال كان عن خصال الإسلام، لأنه، وكما يذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني، أي - في قولهم: (أي الإسلام) محذوف تقديره (أي ذوي الإسلام أفضل) ويؤيد هذا رواية مسلم: أي المسلمين أفضل؟ والجامع بين اللفظين أن: أفضلية المسلم حاصلة بهذه الخصلة<sup>(3)</sup>.

1 - Izutsu, Toshihiko, The Concept of Belief in Islamic Theology (reprint), New Hampshire, - Salem: Ayer Company, publishers, Inc., 1988. P78 ( my translation ) .

2 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم/10.

3 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري للبخاري، ج 1 ص 65 .

## فائدة:

إن في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - (بني الإسلام على خمس..) العقيدة، والدين، والإسلام، والإيمان، وكل هذه المسميات بجميع صورها، وهذا المعنى يتجلى من خلال النقاط التالية :

أولاً - قول النبي صلى الله عليه وسلم: (بني) فيه إشعار ببناء، والمعروف أن البناء يتكون من عدة أجزاء، وهذه الأجزاء يبنى بعضها على بعض، فلا يكون البعض، من غير البعض، ولا يكون الكل من دون الجزء، ولا يستوي الثاني، من دون الأول وهكذا ..

ثانياً - إن أوثق عرى هذا المبنى (الشهادتان) فهي الأساس، وهي الأصل، والباقي أركان ودعامات لهذا الأصل، وتبع، وتكمله<sup>(1)</sup> ولا يتصور بيت بدون أساسه، وأصله وقاعدته التي عليها يُبنى، كذلك إن لهذه القاعدة وهذا الأصل دعائم يتكئ عليها، فإذا لم توجد هذه الدعائم فإن بقاء الأصل، صعب، إن لم نقل إنه مستحيل، فإذا كان الأصل أن من يقول لا إله إلا الله يحكم له بالإسلام، فإن هذا القول لا بد له من حقيقة، وهذه الحقيقة تتجلى في باقي الأعمال، وبدونها فإن الشهادتين تكون ناقصة .

ثالثاً - إن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي قال فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>(2)</sup> قد جمع في الحديث ما بين الاعتقاد والذي هو أمر قلبي، والعمل الذي هو تطبيقي.

1 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري للبخاري، ج 1 ص 58 .

2 - سورة النجم الآيتان 3-4.

فلو قدر أن شخصاً قال: لا إله إلا الله بلسانه، ولم يعترف بها بقلبه، وفي داخله يؤمن بآلهة أخرى سوى الله، فإن هذه الشهادة لا تنفعه، مهما عمل من عمل، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(1)</sup>.

وقد وافق علماء الشريعة قديماً وحديثاً على هذا المعنى الذي يُدللُّ على أن الله تعالى لا يقبل عملاً من دون التوحيد، مهما كان هذا العمل صالحاً، وقصد به مريده الخير، وفي هذا يذكر العلامة - الزندانى - وهو من العلماء المعاصرين، الذين يدينون بعقيدة السلف، في قضايا الاعتقاد المختلفة، ويستشهدون برأي الإمام مالك في مسائله المتنوعة، حيث يقول: إن الذين لا يؤمنون بالله ولا يرجون ثوابه ولا يخافون عقابه، يعملون أعمالهم وهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون بها رضاه، ولا يهمهم هل عملوا حلالاً أم حراماً، فهم بهذا لا يستحقون الثواب على العمل وإن كان صالحاً، لأنهم كفار لا يقصدون به أن ينالوا ثواب ربهم، ولا ابتغوا به رضا خالقهم<sup>(2)</sup>.

وهذا هو الواقع، والمشاهد، والمقبول عقلاً، والمتمشّي مع طبيعة النفس البشرية التي خلقها الله على الفطرة السليمة، فالإعلان بشهادة التوحيد ليس إعلاناً بسيطاً عن معتقد يخرج من اللسان دون أن يكون له وقع في النفس، وبهذا قال علماءنا في العصر الحديث، ولم يخالفهم فيه أحد من علماء أهل السنة المعاصرين، نذكر منهم على سبيل المثال قول

1 - سورة الزمر الآية 65

2 - عبد المجيد عزيز الزندانى، كتاب التوحيد، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد سمير الشاوي، دار العصماء، دمشق، الطبعة الأولى 2002م، ص 9.



الشيخ القرضاوي عن حقيقة الإسلام، فقد قال: إن الإسلام ليس فعل اللسان والجسم والعقل، لكنه حالة نفسية شاملة، تصل إلى أعماق النفس وتلامس جميع أبعادها" (1).

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام مدرسة تربوية تترى فيها النفس وتتهذب فيها القلوب، بحيث تصبح صافية نقية، فلا ينطق اللسان إلا بما وقر في القلب، ولا تقوم الجوارح إلا بما سكن في النفس، وعلى هذا المعنى فالإسلام لله تعالى يعني الإخلاص المنافي للتناق، وقد ذم الله التناق والمنافقين بعدم إخلاصهم فقال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (2).

وها هنا سؤال يطرح نفسه، وهو: هل الإسلام هو الإيمان، أم أن الإيمان أعم من الإسلام أم العكس؟  
وللإجابة عن هذا السؤال، لا بد أولاً من أن نعرف الإيمان ومدلولاته، وبعض ما يندرج تحت مسماه فنقول:  
**الإيمان لغة:** مصدر من آمن، فنقول آمن يؤمن إيماناً والإيمان الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة، فهي بمعناها اللغوي كلمة تدور حول التصديق، والثقة، والإقرار، والطمأنينة (3).

1 - Islamic perspectives, eds. Amber Haque and Yasien Mohammed, Psychology of personality Gengage learning, Singapore, 2009, p222 (my translation) .

2 - سورة آل عمران الآية 167.

3 - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ج 1 ص 183، وانظر مصطفى شيبه، أصول العقيدة الإسلامية، ص 21.

وقيل الإيمان هو الانقياد الباطني<sup>(1)</sup>، وقد استعملت في القرآن الكريم بعدة معان، منها :

- بمعنى الأمن: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

- بمعنى الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾<sup>(3)</sup>.

- التصديق والتسليم لله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(4)</sup>.

واصطلاحاً: يعرف المالكية الإيمان بأنه: "قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح"<sup>(5)</sup>.

ومعناه العام يدور حول تصديق النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الإذعان، والقبول، والإقرار، والتسليم بما جاء به من غير إنكار، ولا إباء، ولا تكبر، ولا عناد<sup>(6)</sup>.

وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، يتضمن كل ما أخبر به النبي المصطفى عن الله تبارك وتعالى، فهو إذاً الأساس الذي ينبني عليه الإيمان

1 - عبد الهادي إدريس أبو إصبع، شرح بن عاشر في الفقه المالكي، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى، 1999.

2 - سورة الحجر الآية 46.

3 - سورة الأحزاب الآية 72.

4 - سورة البقرة الآية 285.

5 - أبو الحسن المالكي، كفاية الطالب الرياني لرسالة أبي زيد القيرواني، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، 1412هـ، بيروت، ج1 ص58.

6 - محمد مفتاح قريو، شرح لب العقائد الصغير، مكتبة الشعب، مصراته، ليبيا، رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية، بنغازي 2101 / 95، ص21.

(التصديق) ويكون بالإيقان بما أخبر به، وبما جاء على لسانه، سواء ما جاء به القرآن، أو بما ورد من السنة الصحيحة المضبوطة بشروطها، والتي تلقتها الأمة بالقبول، ولا يجوز التفريق بينهما، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

والذِّكْرُ أي القرآن، لتبيين للناس ما نزل إليهم من ربهم، لعلمه - صلى الله عليه وسلم - بمعنى ما أنزل الله عليه، وحرصه واتباعه له<sup>(2)</sup>، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو أولى الناس بالرواية عن الله، وهو يعلم بما أوحى إليه من ربه، فيبين ما أجمل، ويخصص ما عمم، وهو الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن هنا يمكن أن نطرح سؤالاً، وهو: ما حكم من آمن بالقرآن ولكنه لم يصدق بالسنة المطهرة؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابد أن نتكلم عن الموضوع التالي:

### حجية الكتاب والسنة عند مالك:

جاء في الحديث قوله - صلى الله عليه وسلم: "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة"<sup>(3)</sup>.

1 - سورة النحل الآية 44 .

2 - تفسير ابن كثير، الطبعة الأولى، 1965م ج2 ص619 .

3 - صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم، حديث رقم/6732، صحيح مسلم، عن أبي هريرة، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث رقم/217، وفي مسند الإمام أحمد باب حديث أبي هريرة، حديث رقم/1835 .

لقد كان الإمام مالك - رحمه الله - يعلم أن القرآن مشتمل على الدين اشتمالاً كلياً، وأن السنة مبيّنة له، وأنه لا يؤخذ على وجهه إلا إذا أخذ بيان مبيّنه، وهي السنة<sup>(1)</sup>.

لذلك كان مالك حريصاً، ومحافظةً على السنّة، لأنها المصدر الثاني للتشريع، وبدونها لا يعرف الدين، ولا قواعده، ولا دين بدون السنة، ثم إن النطق بالشهادتين يتضمن:

**أولاً:** الإقرار لله تعالى بالربوبية، والوحدانية في عبادته، وأسمائه وصفاته.

**ثانياً:** الإقرار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة، وأنه رسول الله المبلّغ عن الله، وأنه عليه الصلاة والسلام صادق فيما أخبر به عن ربه عز وجل، وبدون هذا لا يتحقق الإيمان، بل، ولا يدخل العبد في دائرة الإسلام أصلاً وبناءً عليه، فإنه بجحود السنة لا يعرف الدين، ولا تعرف شعائره ولا شرائعه.

ثم نحن نسأل بأسئلة تجيب عن السؤال الذي طرح، إذا لم تكن هناك سنة، وإذا لم يوضح لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - الدين، ولم تردنا أحاديثه الصحيحة التي تلقتها جموع الأمة بالقبول.

• فكيف نفهم معنى آية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾<sup>(2)</sup> مثلاً؟

• وكيف نعرف الكيفيات المخصوصة لهذه الصلاة؟ وما هي أوقاتها؟ وعدد ركعاتها؟ والزكاة كذلك في قوله تعالى: ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

1 - محمد أبو زهرة، ص 278 .

2 - سورة البقرة الآية 43 .

صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(1)</sup>.

• فكيف تكون الزكاة؟ وما هي أنصبتها؟ ووقت إخراجها؟ أسئلة كثيرة قد أجابت السنة عنها، وقد فصلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبينها أيما تبيين، كقوله عليه الصلاة والسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا"<sup>(2)</sup>.

وجاء في موطأ مالك أحاديث كثيرة، تبين أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يوحى إليه من ربه، قد بين للناس سننهم، ووضح لهم عباداتهم، ولم يكن هذا إلا من خلال تعليمه عليه الصلاة والسلام ما يوحى إليه من ربه، لصحابته الذين نقلوا عنه شرائع الدين، وأحكامه، وتفصيله .

**ونذكر من الموطأ بعض الأمثلة على ذلك منها:**

1 - سورة التوبة الآية 103 .

2 - صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، حديث رقم/497، صحيح مسلم باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، حديث رقم/1071، وحديث رقم/1072، سنن الترمذي، باب مثل الصلوات الخمس، حديث رقم/2794، سنن النسائي، باب فضل الصلوات الخمس، حديث رقم/458، مسند الإمام أحمد، باب حديث أبي هريرة، حديث رقم/8569، وله روايات في باقي الكتب والأسانيد، ورواية البخاري: "عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا، ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا".



ثُمَّ قَالَ أَيَّنَ السَّائِلُ عَنَ وَقْتِ الصَّلَاةِ قَالَ هَأَنْذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٌ<sup>(1)</sup>.

فمن يعلمهم هذه التفاصيل، وهذه الجزئيات المهمة، والمسائل الدقيقة في مواقيت الصلاة، وفي كيفيتها وصفتها، إن لم يعلمها لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ وهكذا في سائر العبادات والمعاملات .  
- في الزكاة مثلاً، وهي ثالث الفرائض بعد الشهادتين، وإقام الصلاة، نجد أن أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم -، هي التي بينت الأنصبة، وفصلت المقدار الواجب في كل نصاب، ففي الموطأ أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "ليس فيما دون خمس ذور صدقة، وليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة"<sup>(2)</sup>.

وقال مالك: "السنة التي لا اختلاف فيها عندنا: أن الزكاة تجب في عشرين ديناراً عيناً، كما تجب في مائتي درهم"<sup>(3)</sup>.

خلاصة: إن أي مسلم عاقل متدبر عارف لمقاصد الشريعة - لا يمكن أن تحدثه نفسه بالتفريق بين السنة والقرآن من حيث العمل، فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -، والسنة المطهرة التي هي وحي من الله تبارك وتعالى، لا يجوز التفاضل بينها، والتساهل في شأنها، فالسنة مكملة للقرآن، وشارحة له، وموضحة للمعاني المقصودة من آيات العقائد والأحكام، وكذلك لما جاء

1 - موطأ مالك، باب وقوت الصلاة، حديث رقم/2.

2 - المصدر السابق، ص 163.

3 - المصدر السابق، ص 164.

فيه من القصص القرآني الرائع الذي هو عبرة لمن يعتبر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(1)</sup>.

### الإسلام والإيمان توأم:

إن الإسلام والإيمان توأم، فلا يكون أحدهما دون الآخر، فلو قلنا إن الإيمان أخص من الإسلام، وأن الإسلام أعم، فقد يقال: إن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن.

ولكن هذا الكلام يحتاج إلى نظر - إذ قد يجاب بأن المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا آمن بالله تعالى رباً وخالقاً وإلهاً معبوداً، وهو ما تعنيه شهادة التوحيد، فإذا آمن، وصدق بالله تعالى، فلا بد من التصديق بالأخبار التي ترد من الله، كالأخبار بعالم الغيب، والملائكة، واليوم الآخر، إلى غير ذلك من القضايا الإيمانية التي أخبر بها الحق تبارك وتعالى.

جاء في كفاية الطالب الرياني: "الإيمان والإسلام واحد، وذلك لأن الإسلام هو الخضوع والانقياد، بمعنى قبول الأحكام والإذعان، وذلك حقيقة التصديق، فلا يصح في الشرع أن يحكم على أحد أنه مؤمن وليس بمسلم، أو مسلم وليس بمؤمن"<sup>(2)</sup>.

ولعل في حديث جبريل عليه السلام، بعض ما يوضح الفارق الذي هو في واقع الأمر ليس بفرق، بل نعتبه خصوصية لكل من المصطلحين إذا

1 - سورة النساء الآية 65 .

2 - أبو الحسن المالكي، كفاية الطالب الرياني لرسالة أبي زيد القيرواني، ج 1 ،



جاز التعبير، فإن لكلٍ من المصطلحين عند اجتماعهما معاني تخصّصه عن الآخر. والله أعلم .

. جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : " كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ ، قَالَ مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، قَالَ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَسَأَخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا ، إِذَا وَكَدَتِ الْأُمَّةُ رِيثَهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ ، فِي حَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (1) الْآيَةَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ ، فَقَالَ: رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ (2) .

يعتبر هذا الحديث الذي مر علينا أصلاً من أصول الدين، ودليلاً واضحاً للسالكين، يبين العلاقة الوثيقة لهذا الدين، وأنه متين مكين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (3) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

1 - سورة لقمان الآية 34 .

2 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان والإسلام، والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال جبريل جاء يعلمكم دينكم، فجعل ذلك كله ديننا، حديث رقم / 37، وانظر: مختصر الزبيدي لصحيح البخاري، ص 34 .

3 - سورة الشعراء الآية 193 .

خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (1) .

عَلَّقَ الحافظ بن حجر العسقلاني على هذا الحديث فقال: باب سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، وبيان النبي - صلى الله عليه وسلم - له، ثم قال - رحمه الله -: مع بيان أن الاعتقاد والعمل دينٌ وقوله: وما بيِّن (2) وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (3) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن المبني غير المبني عليه، بل جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليها الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسن، ولا كل مسلم مؤمن (4) .  
وابن تيمية لا يقصد انعدام الإيمان في كل من هذه المسميات، ولكن اختلاف مراتب الإيمان ودرجاته، فدرجة الإحسان أعلى من درجة الإيمان، ودرجة الإيمان أعلى من درجة الإسلام وهكذا، ولكن هذا لا يعني تخلف صفة الإيمان وهي الاعتقاد القلبي في كل من هذه

1 - سورة فصلت الآية 42 .

2 - قوله وما بين المراد به أن بينه النبي - صلى الله عليه وسلم - من شرائع الدين وعرا الإسلام التي لا يتم الدين من دونها كإقام الصلاة والزكاة والحج والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الشرائع التي بناها المصطفى صلى الله عليه وسلم.

3 - سورة آل عمران الآية 19.

4 - أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، كتاب الإيمان، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 7 .

المصطلحات، فكل إيمانه المرتبط بالعمل الملازم للإيمان، والمسلم يترقى بحسب عمله وما يفتح الله عليه، درجةً درجةً إلى مرتبة الإيمان، ثم يعلو إيمانه، وتقوى عقيدته، ويزداد تقرباً حتى يصل درجة الإحسان، وهكذا . ويعرف الشيخ أبو إصبع المالكى، الإحسان فيقول: الإحسان في العبادة له مرتبتان: الأولى - أن تعبد الله كأنك تراه، وذلك بأن تغلب عليك مشاهدة الحق تبارك وتعالى بقلبك، وكأنك تراه رأي العين.

الثانية - أن تعبد الله كأنه يراك، وذلك بأن تستحضر بقلبك أن البارى جل وعلا يراك ومطلع عليك في كل حركاتك وسكناتك . والمرتبة الأولى، أرفع من الثانية، وهناك مرتبة ثالثة وهي أن تعبد الله دون أن تستحضر أنه مطلع عليك، وهذه ليست من مراتب الإحسان لأنها خالية من معرفة الله وخشيته<sup>(1)</sup>.

وقد دلت الآيات على أن الإسلام هو الدين، ودل عليه خبر أبي سفيان، أن الإيمان هو الدين، فمقتضى ذلك أن الإسلام والإيمان أمر واحد، ونقل عن المزني، صاحب الشافعي، الجزم بأنهما عبارة عن معنى واحدة<sup>(2)</sup>، فإذا قيل إن الله تعالى يقول: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(3)</sup>.

فليس المراد بالأعراب عمومهم، بل المراد بعضهم الذين جاءوا لرسول

1 - الجوهر الفريد في علم التوحيد، عبد الهادي أبو إصبع المالكى، ص 346 .

2 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية عين شمس، رقم الإيداع، 20570 / 2000 ج1 ص 139 .

3 - سورة الحجرات الآية 14 .

الله - صلى الله عليه وسلم - يدعون الإيمان، والمعروف أن الإيمان هو التصديق بالقلب فرد الله ادعاءهم وكذبهم في ادعائهم الإيمان، لأن الحاجة وحدها هي التي ألجأتهم للإسلام، فهم أسلموا وسلموا تسليماً ظاهرياً، ولم تدخل حقيقة الإيمان بعد في قلوبهم<sup>(1)</sup>.

وهذا لا يمنع أنه قد يطلق الإسلام ويراد به الإيمان، أو عموم الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾<sup>(2)</sup> وقد يطلق الإيمان كذلك على عموم الدين، ويمكن القول أن المصطلحان في حال اجتماعهما في جملة واحدة فإن لكل منهما المعنى الدال على مسماه بشكل خاص، أما في حال افتراقهما فهما يدلان على معنى واحد، والله أعلم.

### المطلب الثاني. الشرائع في الإسلام:

**الشرائع لغة:** جمع شريعة، والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين، وشرع لهم أي سن لهم، والشرع: العالم الرياني العامل المعلم<sup>(3)</sup>.

**واصطلاحاً:** هي مجموعة الأوامر والنواهي، التي تصدر عن الشارع سبحانه وتعالى، وتسمى كذلك بالأحكام الدينية، بحيث تأخذ القدسية من واضعها فلا حلال ولا حرام إلا بشرع، وسنة، ولا شرع إلا ما شرعه الله ورسوله، ولا سنة إلا ما سنّها الله ورسوله.

1 - عفيف عبد الفتاح طيارة، تفسير روح القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م، ج الأحقاف، ص 126.

2 - سورة آل عمران الآية 19.

3 - القاموس المحيط، للفيروزابادي ج 2 ص 619. وانظر: مختار الصحاح ص 335.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (1).

والشرائع مستمدة من الله عز وجل، وأنها الدين القيم، وأن دين الله واحد هو الإسلام، وأن الله تعالى أنزل الشرائع على الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام، ومن بعده نوح، وإبراهيم، وداوود، وموسى، وعيسى، إلى محمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وأن وصيته هي إقامة الدين، وعدم التفرق فيه، والتشردم، واتباع الأهواء، وكذلك عدم الانحراف عن الدين القويم بالابتداع والقول في دين الله من دون حكم، وبدون ما شرع، لأن هدف الدين هو الاستقامة وهذا هو الدين القيم.

ومعلوم من الدين بالضرورة أن هناك أموراً محسومة في الدين ولا خلاف عليها، كالعقائد، والعبادات، وهي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا تختلف أو تتغير على مر العصور، ومهما تعاقبت الأجيال (2). فديننا دين اتباع وليس دين ابتداع، فمن أراد أن يعبد الله تعالى فإنه لن يجد أفضل ممّا كان عليه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وصحابته، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، المبلغ الوحيد عن الله، وهو المشرع بما يوحى إليه من ربه.

وقد كان صحابته من بعده متمسكين بهديه، سائرين على نهجه،

1 - سورة الشورى الآية 13 .

2 - عبد العظيم شرف الدين، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 7 .

لا يخالفونه في صغيرة أو كبيرة، لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأتقاهم له، حيث كان يقول عليه الصلاة والسلام، فيما روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب، حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا" (1).

وهذا الحديث كما علمنا، هو من الأحاديث المهمة، في الجانب التشريعي، حيث بين أن أمر مشروعية العمل، وبيان مقدارها، وهيئته، ووقته، وهذا الأمر لا مجال للعقل فيه، ولا للعاطفة، ولا للتحليل، بدليل أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يناقشون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويحاورونه في هذا الأمر، يا رسول الله، إنا لسنا مثلك، لسنا كهيئتك، لأنه عليه الصلاة والسلام قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم هو أمر إيماني من الصحابة حيث كان بدافع الحرص، فقد كانوا راغبين في الازدياد، وحريصين - رحمهم الله - على ألا يعبد الله تبارك وتعالى إلا بما شرع على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وليس لأحد مخالفته، حتى وإن كان مراده خيراً، فهو مهما بلغ فلن يبلغ بالقرب من الله تعالى ما بلغه النبي صلى الله عليه وسلم، ولا حتى المنزلة التي أرادها لنا نبي الله - صلى الله عليه وسلم - في قربنا من الله، فهو عليه الصلاة والسلام أدرى بما يقربنا إلى الله، وهو أرفأ بأمتة من غيره، وأعلم بحالهم وما يقربهم من ربهم، ولذلك قال "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا"،

1 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1 ص 83.

وفي رواية "وأعلمكم بالله لأنا" وفي رواية أخرى "إن أبركم وأتقاكم أنا" (1).

ولقد كان الإمام مالك - رحمه الله - يرى أن الخير كل الخير في اتباع الشريعة، وأن الشر كله في مخالفتها، ولذلك فقد بنى مذهبه على (الكتاب والسنة)، وهما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية، وكان يرى أن مخالفة السنة من البدع التي يؤدب فاعلها.

روي عن عبد الرحمن بن مهدي (2) قوله: سئل مالك بن أنس عن السنة فقال: هي مالا اسم له غير السنة وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (2) (3).

#### فائدة:

إن هذا الأثر الوارد عن الإمام مالك، فيه إشارة مهمة إلى نظرة مالك إلى الاستقامة بشكل عام، وكذلك يدل على أن مفهوم مالك للصراف المستقيم هو بالتمسك بالسنة، وأن من ترك السنة فقد ترك صراط الله المستقيم، ومن ترك صراط الله اتبع السبل المضللة، ولهذا قال مالك: (السنة ما لا اسم له غير السنة)، والسنة الطريقة، فمن ترك طريق السنة،

1. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1 ص 84.

• هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبيري، إمام حافظ، من المتبحرين في العلم، روى عن مالك آثاراً كثيرة، وله علم وفضل، وُلد سنة 135هـ وتوفي سنة 198هـ،

انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي، ص 94.

2. سورة الأنعام الآية 154.

3. الاعتصام للشاطبي، ج 1 ص 63.

فقد ترك طريق الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومن انحرف عن طريق الرسول فقد انحرف عن دين الله، ومن انحرف عن دين الله فقد ضل، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (1).

وحول هذا المعنى أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وليسوا منك، هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة (2).

وقد ذكر الإمام القرطبي - وهو من أئمة المالكية - في هذا الباب عند تفسير هذه الآية - هذا الحديث قال: هم أصحاب البدع، والأهواء، وأصحاب الضلالات من هذه الأمة، ثم ذكر قوله عليه الصلاة والسلام: "يا عائشة، إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة، وأنا بريء منهم، وهم مني براء" (3).

1 - سورة الأنعام الآية 159 .

2 - تفسير ابن كثير، لجنة من العلماء، دار الأندلس للطباعة، بيروت لبنان، الطبعة الجديدة المصححة، ص135، ولقد ذكر ابن كثير كلاماً مهماً في هذا الباب وخلص فيه إلى أن الآية عامة في كل من فارق دينه واتبع غير سبيل المؤمنين .

3 - عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1999م، ج7، ص132، روى هذا الحديث ابن بطة في الإبانة الكبرى، باب الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، حديث رقم/146، الطبراني في المعجم الكبير، باب إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، حديث رقم/561، البيهقي في شعب الإيمان، باب في الطبع على القلب أو الرين، حديث رقم/6987 .



ومن البحث والتتبع لهذا الحديث نقول: لقد ذكر ابن كثير وغيره أن هذه الأحاديث فيها ضعفٌ، ولكن مع هذا، فإن في النصوص القطعية الدالة على عظم خطر البدعة على الدين، والآثار السلبية للداعي إلى البدعة على شعائر الإسلام، وما هو معروفٌ من السنة - أمرٌ لا لبس فيه -، فالبدعة خطرٌ واضح، ومفسدتها جليةٌ لا تحتاج إلى دليل، فالأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات، فما كان من العبادات خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردودٌ، ويدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾<sup>(1)</sup>.

ولا يستقيم من المعاملات إلا ما كان في رضا المولى تبارك وتعالى، وللمرء أن يفعل ما يشاء فيما يتعلق بأمور دنياه، شريطة ألا يكون في ذلك فساد، أو مخالفة لشرع، أو سنة معلومة يفسد بمخالفتها الدين، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد"<sup>(2)</sup>.

وروى مسلم بسنده عن سعد بن إبراهيم قال: سألت القاسم بن محمد عن رجل له ثلاثة مساكن، فأوصى بثلاث كل مسكن منها، قال يجمع ذلك كله في مسكن واحد، ثم قال أخبرتني عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم -: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"<sup>(3)</sup>.

1 - سورة الشورى الآية 21 .

2 - صحيح البخاري، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم/2499 .

3 - صحيح مسلم، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم/3243 .

وعليه فإننا نخلص إلى القول: إن الشريعة تضادها البدعة التي لا دليل على مشروعيتها، وهي في حقيقتها اتهام للمشروع بالنقص في الدين بعد كماله، ومن هنا يجب أن نقف على تعريف البدعة، وحكمها في الإسلام، وموقف مالك من الابتداع في الدين، وكيف تصدى لمجموع البدع التي ظهرت في زمانه .

## المبحث الثالث. البدعة وموقف الشريعة منها:

البدعة لغةً: بكسر الباء - الحدث في الدين بعد الإكمال، أو ما استحدث بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأهواء والأعمال<sup>(1)</sup>، وتكون في المعتقدات، والعبادات، وحتى في المعاملات .

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾<sup>(2)</sup> أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله تعالى، بل هناك رسلٌ قبلي أوحى إليهم من الله<sup>(3)</sup>.

واصطلاحاً: لا تختلف عن معناها اللغوي، فهي مصطلحٌ قد اتفق عليه، وتعارف عليه علماء الشريعة قديماً وحديثاً، من حيث دلالة البدعة على فعلٍ محدثٍ في الدين، لم يكن من هدي النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، ولا من هدي صحابته الأطهار، وإن كان في الغالب أن مراد من يقوم به التعبد والتقرب إلى الله تعالى .

ومن العلماء من عرفها: أنها طريقةٌ محدثةٌ في الدين، تضاهي الشريعة، يقصد بفعالها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى<sup>(4)</sup>.

1 - القاموس المحيط للفيروزآبادي، جمع الطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة 1980م، ج1ص 230، وانظر: مختار القاموس للعلامة الطاهر الزاوي ص43.

2 - سورة الأحقاف الآية 9 .

3 - الاعتصام للشاطبي، ج1 ص 41 .

4 - المصدر السابق، ج1 ص42 .

## المطلب الأول . حكم البدعة:

البدعة محرمة في الشريعة، وقد كان جمهور علماء السنة وعلى رأسهم المالكية، يقولون بتحريم البدعة، ومن ذلك ما ذكره العلامة أحمد الزروق، وهو من علماء المالكية في القرن التاسع الهجري، وله شروح مهمة ومفيدة، على رسالة ابن زيد القيرواني، علل تحريم المالكية الأوائل للبدعة بقوله: لأنها افتيات<sup>(1)</sup>، على الشارع، وتجرؤ بين يديه، وتغيير أحكامه مع وجود شبهة منه<sup>(2)</sup>.

ويقول سفيان الثوري: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها"<sup>(3)</sup>.

وقد ذكر الدكتور الصادق الغرياني، وهو من علماء المالكية المعاصرين، وله كتاب - مدونة الفقه المالكي بأدلته، وكتاب في العقيدة والمنهج، وكتاب العبادات أحكام وأدلة - وغيرها، حيث قال: إن المالكية الأوائل، ومن تبعهم، على منهج السلف، كانوا يرون أن الابتداع في الدين، من أعظم المحرمات، وأعظمها - بدعة الكلام في أسماء الله وصفاته، ثم أضاف مستشهداً بالأثر المنقول عن مالك عندما سئل عن أهل البدع، فقال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته، وكلامه وعلمه

1 - المعنى افتراء في الدين بغير هدى من الله .

2 - أحمد زروق، عدة المرید الصادق، تحقيق الصادق عبد الرحمن الغرياني، الطبعة الأولى، دار الجماهيرية، ليبيا، 1996م، ص 29 .

3 - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني (المتوفى : 728هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي، بدون تاريخ طباعة، باب المناظرة العلنية، ج 1 ص 143 .

وقدرته، ولا يكفون عما سكت عليه الصحابة والتابعون<sup>(1)</sup>. وإذا كانت البدع مما يؤثر في الاعتقاد كتقديم النذور، والذبح لغير الله، وإتيان بعض القربات التي لا تكون إلا لله، كالدعاء، والالتجاء، والتضرع، والخوف، والرغبة، مما يفعله بعض المبتدعة عند القبور<sup>(2)</sup> فهذا من البدع التي تفسد العقيدة، وتضعف التوحيد، ويخشى على صاحبها الخروج من الملة المحمدية، والعياذ بالله، كما قال الغرياني المألوكي أيضاً: يجب على العلماء وعلى كل من أعطاه الله فهماً وعقلاً وعلماً، إنكاره صرف هذه القربات لغير الله، وزجره قبل فوات الأوان، لأنه من المنكر العظيم الذي يؤدي إلى الذهاب بعقائد المسلمين، ويناقض التوحيد لرب العالمين<sup>(3)</sup>.

### المطلب الثاني. أنواع البدعة:

يقسم علماء السنة المعاصرين البدعة إلى نوعين أساسيين، وهما:

#### 1. البدعة المكفرة:

وهي: التي تخرج صاحبها من الملة، وهي ما كانت من بدع الاعتقاد كالقول بخلق القرآن، كما يقول الجهمية، وهم كفار في مذهب السلف<sup>(4)</sup>.

وقد ثبت هذا عن مالك، فعن ابن أبي أويس قال: قال مالك: "القرآن

1. الصادق الغرياني، في العقيدة والمنهج، ص 126.

2. مصطفى عبد الغني شيبه، أصول العقيدة الإسلامية، ص 92.

3. الصادق الغرياني، في العقيدة والمنهج، ص 225.

4. محمد صالح العثيمين، شرح العقيدة السفارينية، ج 1 ص 394.

كلام الله وكلام الله من الله وليس من الله شيء مخلوق، زاد غيره عنه، ومن قال القرآن مخلوق فهو كافر" (1)، وكذلك من ينكرون صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله عليه الصلاة والسلام. ومن البدع المكفرة التي تضر بالإيمان، وتخرج صاحبها من الملة إذا فعلها عن عمد وإصرار، وهي الذبح لغير الله، وتقديم القرابين والنذور لأضرحة الأولياء، ودعائهم والاستغاثة بهم، وهذا يدفعنا إلى طرح إشكالية مهمة، وهي: ما الحكم إذا فعلت هذه الأشياء عن جهل، وهل يعذر مرتكبو بدع الاعتقاد بجهلهم؟

هذه مسألة مهمة، والإمام بها من الفقه في الدين، والبسطة في العلم، لاسيما وأن مثل هذه البدع منتشرة انتشار النار في الهشيم في بلادنا الإسلامية في تاريخنا المعاصر، وتنتشر بشكل واسع في شمال أفريقيا، وفي غربها، وهي البلاد التي تعتمد المذهب المالكي في الفقه والأصول، وعلى هذا نرى أنه لزاماً علينا أن نتتبع آراء العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة، ومعرفة آراء المالكية منهم بشكل خاص، وعلى هذا يمكن أن نلخص الجواب عن هذه المسألة فيما يلي:

**أولاً** - القول بأن من فعل من هذه المحذورات شيئاً معتقداً أن الولي أو صاحب الضريح يضرُّ أو ينفع من دون الله، وأنه يتحكم في الكون، ويقدر على تدبير الأمور، هذا شرك صريح، ومن منكرات البدع، قول مجمع عليه عند أهل العلم قاطبةً قديماً وحديثاً، ولا لبس حول هذه المسألة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1 ص53.

فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ<sup>(1)</sup>.

وقال أيضاً: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ<sup>(2)</sup>﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من أكثر المبتدعات الشركية، وأخطرها على المسلمين، وأكثرها انتشاراً: تقديس الموتى، وقبورهم، والبناء عليها، وتخصيص النذور إليها، والذبح عندها، ودعاء أصحابها، من دون الله"<sup>(3)</sup>.

وبين الصنعاني في كتابه المسمى: "تطهير الاعتقاد": أن واجب العلماء، بيان أن الاعتقاد الذي تفرعت عنه النذور، والنحائر<sup>(4)</sup>، والطواف بالقبور، شرك محرم<sup>(5)</sup>.

ويقول الألويسي في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً<sup>(6)</sup>﴾، إشارة إلى ذم الغالين في أولياء الله تعالى، حيث يستغيثون بهم في الشدة، غافلين عن الله تعالى وينذرون لهم النذور<sup>(7)</sup>.

1 - سورة الأعراف الآية 194 .

2 - سورة الكوثر الآية 2 .

3 - ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، دار عالم الكتب، الطبعة السابعة، 1999م، ص561 .

4 - النحائر: جمع نحيرة، وهي ما ينحر من البهائم كالإبل وغيرها، انظر - الوسيط في اللغة، لـ(إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار)، تحقيق - مجمع اللغة، (بدون تاريخ طباعة)، ج2ص906 .

5 - الصنعاني، تطهير الاعتقاد، ص24 .

6 - سورة الحج الآية 73 .

7 - شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألويسي، روح المعاني في تفسير السبع المثاني، ج13ص155.

جاء في الذخيرة للقرايبي أن قاعدة توحيد الله تعالى بالتعظيم، منها ما هو واجب إجماعاً، كتوحيده بالعبادة والخلق والإرزاق، فيجب على كل أحد أن لا يشرك معه تعالى غيره في ذلك<sup>(1)</sup>.

وجاء في حاشية العدوي المالكي في باب تحريم الحلف بغير الله، قوله: "إن من حلف باللات والعزى ونحوهما مما عبد من دون الله، حتى الأنبياء والصالحين، كالمسيح والعزير وقصد بالقسم بها تعظيمها من حيث كونها معبودات فهو كافر، يستتاب فإن تاب وإلا قتل"<sup>(2)</sup>.

**ثانياً:** القول فيمن قام بهذه الأفعال التي ظاهرها الشرك، ولكنه أداها عن جهل، ولم يقصد بتمسحه ودعائه ونذوره أنها تعبد من دون الله، وإذا سألته قال لك أنه لا يقصد العبادة المطلقة، ولكن يريد التبرك بأضرحة الأولياء، ويعتقد أن هذا لا يضر بالعقيدة، وأكثر القائلين بهذه المحذورات هم من هذا الصنف، ولا شك أن هذه بدعة منكرة، ولكن القول بكفر هؤلاء، ووصفهم بالشرك على الإطلاق، توقف فيه كثير من أهل العلم قديماً وحديثاً، وبيان المسألة على هذا النحو:

- يفوض بعض أهل العلم في شأن الجاهلين والمتأولين من أرباب البدع الاعتقادية، أمرهم لله تعالى، فإن شاء عفا عنهم، وإن شاء عاقبهم، وهو سبحانه عليم بحالهم، خبير بمقاصدهم، وممن قال بهذا - شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث ذكر في حديثه عن بدعة القول بالفناء في عين المعبود، وعنى

1 - شهاب الدين أحمد بن إدريس القرايبي، الذخيرة، تحقيق - محمد حجي، دار الغرب، بيروت، 1994م، ج4ص6.

2 - علي الصعيدي العدوي المالكي، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرياني، دار الفكر، بيروت، 1412هـ، باب في الأيمان والنذور، ج2ص25.



به فناء الكافرين وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق، أو وجود نفسه عين وجوده، كما هو معلوم من مذاهب أهل الحلول والاتحاد، وبين أن هذا كفرٌ، وصاحبه كافر بعد قيام الحجة عليه، وإن كان جاهلاً أو متأولاً لم تقم عليه الحجة، كالذي قال إذا أنا مت فأحرقوني ثم ذروني في اليم<sup>(1)</sup> فهذا أمره إلى الله تعالى<sup>(2)</sup>.

### رأي مالك في مسألة العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد:

ثبت عن مالك أنه يعذر بالجهل في مسائل الاعتقاد، لمثل السفية أو الجاهل، ما لم ينو أو يعتقد، فقد سئل الإمام مالك عن رجل نادى رجلاً باسمه، فقال لبيك اللهم لبيك، أعلية شيء؟ قال مالك: إن كان جاهلاً أو على وجه السفه فلا شيء عليه<sup>(3)</sup>.

ومثل الجاهل من لا يقصد إنزاله منزلة التعظيم لله تعالى.

1 - إشارة إلى الحديث وهو في صحيح البخاري، باب حديث الغار، حديث رقم/3222، ونصه "عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبيني إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت، فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رب خشيتك، فغفر له وقال غيره مخافتك يا رب" ومسند الإمام أحمد من رواية حذيفة رضي الله عنه، حديث رقم/23253.

2 - ابن تيمية، الاستقامة، ج2 ص142.

3 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (المتوفى: 450هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، حققه - د محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1988م، ج16، ص270.

ونقل نحوه عن ابن القاسم، فقد جاء في مواهب الجليل شرح مختصر خليل: سئل ابن القاسم عن رجل نادى رجلاً باسمه، فأجابه لبيك - إشارة لتعديده على هذا اللفظ الذي لا يقال إلا لله تعالى - فقال إن كان جاهلاً، أو قاله على وجه سفه، فإنه يزجر ويعلم، والسفيه يؤدب، ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه كفر<sup>(1)</sup>.

ومن هذا نعلم أن مالكاً والمالكية، كان رأيهم في مسألة العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد مقدماً عند أهل العلم، قديماً وحديثاً، غير أن من أهل العلم من فصل في هذه المسألة، ويوب لها أقسامها، وفروعها، لكن الكل يدور حول معنى القصد والنية، مثل ما نقل عن ابن القيم في هذه المسألة.

يقسم ابن القيم الجاهلين في مسائل الاعتقاد إلى قسمين:

- جاهل لا يريد الحق، فهو غير معذور، وهو الذي يمكنه أن يسأل ويصل إلى العلم ليس بمعذور، فلا بد أن يتعلم، ولا بد أن يبحث ويسأل.
  - جاهل يريد الحق ثم بحث عنه ولم يحصل عليه، وهو طالب للحقيقة، غير معاند ولا متكبر، فهذا معذور<sup>(2)</sup>.
- وهو أيضاً قول العلماء حديثاً، وذلك فيمن لم يبلغه الحكم، ولم يصل إليه العلم بما هو خائن فيه من جهل الاعتقاد، يقول العلامة الألباني:

1 - مواهب الجليل على مختصر خليل، ج4 ص149، وانظر - محمد عليش، منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، دار الفكر، بيروت، 1989م، ج2 ص264.

2 - ابن قيم الجوزية، الكافية الشافية، دار الفكر، بيروت، 1994، ص66، وانظر: عبد العزيز الراجحي، أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، ص44.

"في مسألة العذر بالجهل، أن من كان معذوراً بالجهل هو الذي لم تصله الحجة، سواءً كانت عقلية، أو نقلية"<sup>(1)</sup>.

ويذكر الشيخ ابن عثيمين أن مسألة العذر بالجهل قائمة في كل ما ندين الله عز وجل به، وهذا ما دل عليه صريح النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾<sup>(2)</sup>. وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾<sup>(3)</sup>.

ثم يضيف العثيمين مستشهداً بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في صحيح مسلم وغيره، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار"<sup>(4)</sup>.

ثم يضيف العثيمين قائلاً: إن النصوص في هذا كثيرة، فمن كان جاهلاً فإنه لا يؤخذ بجهله في أي شيء كان من أمور الدين، إلا من كان

1 - محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ)، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، <http://www.islamweb.net>

2 - سورة الإسراء الآية 15 .

3 - سورة التوبة الآية 115 .

4 - صحيح مسلم باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، حديث رقم/218، ومسند الإمام أحمد باب حديث أبي هريرة، حديث رقم/7856، وحديث رقم/8255، وله رواية في السنن الكبرى للنسائي، عن سعيد بن جبير عن أبي موسى حديث رقم/11241، وفي مستخرج أبي عوانة، باب بيان ثواب من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة، حديث رقم/227، وحديث رقم/228 .

معانداً، أي إنه يذكر له الحق ولكنه لا يبحث عنه، ولا يتبعه، بل يكون على ما كان عليه أسيأخه، ومن يعظمهم ويتبعهم، وهذا في الحقيقة ليس بمعدور (1).

## 2. البدعة غير المكفرة:

وهي: البدعة التي لا تكون في جانب المعتقدات، وتكون بالزيادة، أو الإحداث، بما يتضمن الدخول في قول النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في صحيح مسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (2). ويمكن تبين حدها بأنها: ما خالفت العبادة في كفييتها، أو عددها، أو هيئتها، أو وقتها، أو مكانها، ويمكن ضرب أمثلة لكل ما سبق بما يلي:

- مثال المخالفة بالكيفية: إن أصل قراءة القرآن الكريم مشروعة ومرغب فيها، ولكن اجتماع الناس وقراءتهم مجتمعين بصوت مرتفع من البدع وقد كره مالك اجتماع القراء يقرءون في سورة واحدة وقال: لم يكن من عمل الناس، ورآها بدعة (3).

1 - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن، دار الثريا، الطبعة: الأخيرة، 1413 هـ، ج2ص127.  
2 - صحيح مسلم، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم/3242.  
3 - التاج والإكليل، باب فصل في سجود التلاوة، ج2ص85، قال محيي الدين النووي في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما اجتمع قوم يتلون كتاب الله" الحديث، فيه =

وكالتصويت بالمضمضة في الوضوء<sup>(1)</sup>.

وسئل مالك عن الجلوس بعد العصر في المساجد بالبلدان يوم عرفة للدعاء فكره ذلك، وقال ابن رشد: كرهه، وإن كان الدعاء حسنا وأفضله يوم عرفة؛ لأن الاجتماع لذلك اليوم بدعة<sup>(2)</sup>. وما أشبه ذلك، فهي مخالفات في الكيفية التي شرعت عليها هذه العبادات.

- **مثال المخالفة في العدد:** وصورته بأن يزداد على الحد الذي قال به الشارع في العدد، كالزيادة في التسبيح، عن ثلاث وثلاثين في معقبات الصلاة، والزيادة في مقدار صدقة الفطر عن الصاع. جاء في الشرح الكبير: وندب عدم زيادة على الصاع، بل تكره الزيادة عليه لأنه تحديد من الشارع، فالزيادة عليه بدعة مكروهة، كالزيادة في التسبيح على ثلاث وثلاثين<sup>(3)</sup>.
- **مثال المخالفة في الهيئة:** المعروف أن الطواف بالبيت الحرام له هيئة معينة، بصورة مخصوصة، ومثلها كذلك سائر أعمال الحج، ولتأكيد ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجته: "خذوا عني

= جواز قراءة القرآن بالإدارة وهو مذهبنا ومذهب الجمهور وكرهه مالك، قال صاحب التاج: وتأول ذلك بعض أصحابنا كابن رشد حيث قال: إنما كرهه مالك لأنه أمر مبتدع ولأنهم يبتغون به الألحان على نحو ما يفعل في الغناء فوجه المكروه في ذلك بين .

1. مواهب الجليل، باب المسألة الثانية رفض النية.

2. التاج والإكليل، فصل في سجود التلاوة، ج 2 ص 89 .

3. أحمد بن محمد بن أحمد الدردير، الشرح الكبير، ج 1 ص 508 .

مناسككم" (1).

فيقول قائل: أريد أن أطوف بالبيت، وأستلم الحجر الأسود، وبدلاً من أن يقبله كما جاءت به السنة، يضع خده عليه، متمسحاً به، فنقول له إن هذا بدعة، لأنه تعبد بهيئة غير مشروعة، جاء في التاج والإكليل على شرح مختصر خليل: كراهية مالك له، وأنه أنكر وضع الخدين على الحجر الأسود قال في المدونة: وهو بدعة (2).

- مثال البدع المكانية: تخصيص مكان بعينه بصلاة، أم بصوم، أو بأي عبادة من سائر العبادات، مما لم يرد به نص عن الشارع. كمن يقيمون الموالد عند أضرحة الأولياء، ويستبركون بقبورهم، ويعتقدون أنها أماكن تزار لقدسيتها وبركتها، ويجعلونها أماكن للاحتفالات، وإقامة الولائم، بخلاف ما لو اعتقد نفع الولي، أو قدرته على دفع الخطوب، وتفريج الكرب، فهي من بدع العقائد، التي تضر بالإيمان كما سبقت الإشارة إليه، نسأل الله أن يقينا شرَّ البدع والمبتدعين، وأن يجعلنا من أهل الاتباع. آمين.

1 - السنن الكبرى للبيهقي، ج5 ص125، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي، باب جماع أبواب ما يجتبه المحرم، حديث رقم/3073، رواية مسلم، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله صلى الله عليه وسلم لتأخذوا مناسككم، عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: "لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه" حديث رقم/2286، حديث رقم/2287.

2 - التاج والإكليل شرح مختصر خليل، باب فرع تجاوز الميقات وهو مرید، ج3 ص444.

## المطلب الثالث. أسباب البدعة:

1. الجهل بالدين، المفضي إلى الاستهانة بالاستدلال على مشروعية العبادات، وأحكامها، وسننها، وما يتعلق بها من فضائل مأذون فيها شرعاً.
2. عدم إدراك أهمية الاقتداء بالمصطفى - صلى الله عليه وسلم - رغم أن الاقتداء به هو أساس قبول العمل، وأن غرام اتباع، خير من قنطار ابتداع.
3. الاستبداد بالرأي، والانتصار للنفس، وهذا سببه قلة الإخلاص لله تعالى فإن المخلص له سبحانه همُّه الوحيد وشغله الشَّاغل هو رضوان الله عز وجل، وهذا يتنافى مع عمل المبتدع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (1).
4. استغلال بعض ذوي النفوذ والجاه، أو أصحاب الآراء المضلَّة، عاطفة الناس البسطاء، وذلك بترويج بعض البدع، والحركات المثيرة للانتباه، لاستمالة قلوبهم، كما يفعل بعض مدعي التصوف من شطحات وهيامات لا تمت للدين بصلَّة، ولو كانت كذلك لكان أولى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الأطهار، ولنقلت إلينا في الكتب الصحاح التي لم تترك شاردةً ولا واردةً مما كان عليه، ومن سمته، وأخلاقه، وأفعاله عليه الصلاة والسلام إلا وقد ذكرته بالنقل الصحيح.

1 - سورة البينة الآية 5 .

### المطلب الرابع . فضل التمسك بالسنة وترك البدعة:

إن التمسك بالسنة وترك البدع والابتداع في الدين، خلق المؤمن الحق، وديدن المسلم الصادق، فللمرء أن يتخيل ما أحدثته المبتدعة من المحدثات، وكم ألقىوا بالدين ما ليس منه، حتى صار بعض الجهلة، وللأسف، يألّفون البدعة، ويأنفون من السنة، وأصبحت السنة غريبةً، والبدعة عندهم هي المشهورة .

أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن أبي رواد قال سمعت الزهري يقول دخلت على أنس بن مالك<sup>(9)</sup> بدمشق وهو يبكي فقلت ما يبكيك فقال: "لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت"<sup>(1)</sup>.

وحكى الشاطبي هذا الأثر في الاعتصام، عن أنس رضي الله عنه قال: "لو أن رجلاً أدرك السلف الأول، ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً، ووضع يده على خده، ثم قال إلا هذه الصلاة، ثم قال أما والله على ذلك لمن عاش في النُّكْر ولم يدرك ذلك السلف الصالح، فرأى مبتدعاً

• هو الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن عدي من بني النجار ، روى أحاديث كثيرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عدها بعضهم إلى (2286) حديثاً اتفق البخاري ومسلم على 186 حديثاً منها وتفرد البخاري بـ(80)، ومسلم بـ(90) عمراً طويلاً حيث تذكر الروايات أنه توفي سنة 93هـ، ولما مات أنس قال مؤرق العجلي: اليوم ذهب نصف العلم كنا إذا خالفنا الرجل قلنا: تعال إلى من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: مختصر الزبيدي تراجم الرواة 518، وانظر - طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص52.

1 - صحيح البخاري، باب تضييع الصلاة عن وقتها، حديث رقم/499 .



يدعو إلى بدعته، ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه، فعصمه الله من ذلك، وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح يسأل عن سبلهم، ويقتص آثارهم ويتبع سبيلهم، ليعوض أجراً عظيماً، فكذلك فكونوا إن شاء الله" (1). فلننظر إلى قول أنس رضي الله عنه، وهو الصحابي الفقيه المحدث، وهو الذي عاش زمناً بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد روى علماً

1 - الاعتصام للشاطبي، ج 1 ص 29.

أقول: رأيت أكثر من روى هذا الأثر نسبه للحسن البصري، فلعل الحسن - رحمه الله - قاله أيضاً، أو لعله كان من محفوظاته عن أنس رضي الله عنه، والله أعلم. انظر: الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين، لعبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز أباطين، دراسة وتحقيق: الوليد بن عبدالرحمن الفريان دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 69. والبدع والنهي عنها لابن وضاح، ص 42. والبدع لأبي عبدالله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني، ص 190. ومفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، للإمام محمد بن عبدالوهاب، ص 158.

وفي هذا الباب نقل عن ميمون بن مهران - رحمه الله - قوله: لو أن رجلاً نشر فيكم من السلف ما عرف فيكم غير هذه القبلة، ونقل محمد بن قدامة الهاشمي بإسناده عن أم الدرداء قالت: "دخل عليّ أبو الدرداء مغضباً، فقلت له: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا أنهم يصلون جميعاً" وفي لفظ: "لو أن الرجل تعلم الإسلام وأهمه ثم تفقده ما عرف منه شيئاً"، وعن عبدالله بن عمرو قال: "لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفيهما في بعض الأودية لأتيا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه، وقال مالك: وبلغني أن أبا هريرة رضي الله عنه تلا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فقال: والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دينهم أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً"، فيا لله ما أعظم الاتباع، وما أدق صورته، فإذا كان هذا في عصر التابعين وأتباعهم، فماذا نقول عن حالنا نحن اليوم، في زمان كثرت فيه الفتن، وعاد فيه الإسلام غريباً، فنسأل الله أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، آمين.

غزيراً عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعن كبار الصحابة وشيوخهم، كأبي بكرٍ وعمر، وعثمان، وأسيد بن الحضير وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين<sup>(1)</sup>.

فإذا كان هذا الصحابي الجليل قد أنكر ما أنكر من البدع التي أحدثت بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وسيدنا أنس هو آخر الصحابة موتاً، ومعنى هذا أنه عاصر بعض الفتن التي حدثت بعد وفاة عثمان - رضي الله عنه -، وبعده، ثم انظر إلى قوله رضي الله عنه: (فيرى مبتدعاً يدعو إلى بدعته) وقوله: (ما عرف من الإسلام شيئاً).

وهو يتكلم عن أناسٍ في القرن الأول تقام فيهم الصلاة، وشعائر الإسلام ظاهرة معلومة عندهم، وهم في تمسك أقل واحدٍ منهم بدينه خيرٌ، من كثيرين في زماننا اليوم، ولكن مع هذا قد أنكر عليهم - رضي الله عنه -، عدم تمسكهم بالسنة، كما كان عليه الأولون زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا دليل قوي على فضل التمسك بالسنة، والنفور من الابتداع وأهله، وأنه المحك في معرفة المسلم الحق، بل على المسلم الحقيقي أن يترك حتى ما يشبه أنه بدعةٌ ليسلم له دينه ويقبل الله عمله.

وفي فضل التمسك بالسنة والتحذير من البدعة، يُذكر أن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، علم بأناسٍ يجلسون بعد المغرب، فيهم رجلٌ يقول: كبروا الله كذا وكذا، وسبحوه كذا وكذا، واحمدوه كذا وكذا، فجاءهم، فقال لهم: أنا عبد الله بن مسعود، والله الذي لا إله غيره، لقد جئتم ببدعةٍ ظلماً، ولقد فضلتكم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علماء، فقال عمرو بن عتب: أستغفر الله، فقال ابن مسعود:

1 - مختصر الزبيدي على صحيح البخاري، تراجم الرواة، ص 518.

عليكم بالطريق فالزموه ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لتضلنَّ ضلالاً بعيداً<sup>(1)</sup>.

### المالكية وإنكارهم بدعة الزيادة على ما

#### نص عليه الشارع في أبواب العبادات:

ذكر الإمام القرافي<sup>(\*)</sup>، وهو من علماء المالكية الأوائل: أن من البدع المكروهة الزيادة في المندوبات المحدودة شرعاً، لأن شأن العظماء إذا حدّد شيئاً إنما يكون لغايةٍ ولحكمةٍ، كالدواء يقدم للمريض بأسباب

1. أقول ذكر الأثر بتمامه في كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ونصه: "عن أبي البحري قال: أخبر رجل عبد الله بن مسعود - رحمه الله - أن قوماً يجلسون في المسجد بعد المغرب وفيهم رجل يقول: كبروا لله كذا وكذا وسبحوا لله كذا وكذا واحمدوا الله كذا وكذا، فقال عبد الله: فيقولون، قال: نعم، قال: فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني بمجلسهم، فأتاهم وعليه يرنس، فجلس، فلما سمع ما يقولون قام وكان رجلاً حديداً فقال: أنا عبد الله بن مسعود، والذي لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلماء أو لقد فضلتهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم علماً، فقال عمرو بن عتبة: يا أبا عبد الرحمن نستغفر الله، قال: عليكم بالطريق فالزموه فوالله لئن فعلتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لتضلوا ضلالاً بعيداً". كتاب الزهد للإمام أحمد، المطبعة الوقفية، السعودية، 1422هـ، ص351. وانظر: ابن الجوزي، تلييس إبليس، تحقيق حامد أحمد طاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2004، ص22، وانظر: الفواكه الدواني بشرح رسالة أبي زيد القيرواني، تحقيق: رضا فرحات، ج1 ص332.

• أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن شهاب الدين المالكي القرافي، ولد سنة 626هـ، وكان من كبار فقهاء عصره، كان ملماً باللغة وعلومها، يذكر أنه اشتهر بصناعة الساعات، له عدة مؤلفات منها الذخيرة في الفقه المالكي، المنية في إدراك النية وغيرها، توفي بمصر سنة 684هـ (راجع ابن فرحون، الديباج المذهب ج1 ص27).

محدودة، فإذا زاد عن حده، لربما أفضى إلى هلاك المريض، وتأخّر شفائه<sup>(1)</sup>.

وجاء في البيان والتحصيل لابن رشد، في حديثه عن قراءة الواحد على الواحد وعلى الجماعة، أن اجتماع الجماعة في القراءة في سورة واحدة، أو في سور مختلفة دون أن يقرؤوا على أحدهم، أنه من البدع المكروهة لم يختلف قول مالك في ذلك<sup>(2)</sup>.

وهذا كما هو معلوم في باب العبادات والطاعات، ولكن لما كان هذا مخالفاً للهدى النبوي، وفيه ما فيه من التشويش والتخليط، عدّ مالك هذا من البدع المكروهة.

وذكر الخرشي في شرحه على مختصر خليل، في باب الأذان وآدابه، قوله: "والسنة المتقدمة في الأذان أن يؤذّنوا واحداً بعد واحد، ... ثم قال وأذانهم جماعة على صوت واحد من البدع المكروهة، والاتباع في الأذان وغيره متعين، وفي الأذان أكثر، لأنه من أكبر أعلام الدين، وفي الأذان جماعة مفسدة مخالفة السنة"<sup>(3)</sup>.

ويذكر صاحب الفواكه الدواني أن الزيادة على ما ذكر الشارع في الألفية والمقدار من البدع المكروهة، وأن الأفضلية في اتباع ما نص عليه الشارع، ولهذا يقسم البدعة إلى مكروهة ومباحة، فالمكروهة ما كانت في باب التعبد، والمباحة ما كانت في جانب المعاملات، وما يصلح من شأن العباد، ثم يضيف في تعريفه للبدعة المكروهة: أنها ما تناولتها

1 - انظر فتح الباري، ج 2 ص 250 .

2 - أبو الوليد محمد أحمد ابن رشد، البيان والتحصيل، ج 18 ص 350 .

3 - الخرشي شرح مختصر خليل، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1988م، ج 1 ص 235 .

قواعد الكراهة، كتخصيص الأيام الفاضلة بنوع من العبادات، ومنه الزيادة على القرب المندوبة، كالصاع في صدقة الفطر، وكالتسييح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد والتكبير، والتهليل فيفعل أكثر مما حده الشارع، فهو مكروه<sup>(1)</sup>.

وجاء في الشرح الكبير للدردير، في باب صدقة عيد الفطر، أن المندوب عدم الزيادة على الصاع، بل تكره الزيادة عليه لأنه تحديد من الشارع، فالزيادة عليه بدعة مكروهة، كالزيادة في التسييح على ثلاث وثلاثين<sup>(2)</sup>.

وعلى هذا، فإن التمسك بالسُنن، المتابع للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، التارك للبدع، يستفيد أموراً كثيرة، منها ما يلي:

- سلامة الاعتقاد، وصفاء الإيمان، وقوة الدين، حيث تصفو عقيدة المتبّع لسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ويتخلص من الشوائب، والمثالب التي طرأت على عقائد المبتدعة، من المشبهة وأهل الأهواء وغيرهم.
- مشروعية العمل بموافقته لعمل النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ"<sup>(3)</sup>، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن

1 - النفاوي، الفواكه الدواني، باب ما تنطق به الألسن، ج 1 ص 335.

2 - أبو البركات أحمد بن محمد العدوي الشهير بالدردير، (المتوفى: 1201هـ)، الشرح الكبير، دار الفكر العربي، بيروت، 1994م، ج 1 ص 508.

• - نواجذ جمع ناجذ وهي أقصى الأضراس، والمراد التمسك بالسنة والقبض عليها، والتشبث بها فهي السلامة من الفتن (مختار القاموس ص 593).

كل بدعة ضلالة" (1).

فلا تشرع الزيادة على القدر الذي دلت عليه النصوص، حتى في باب الطاعات، والمستحبات.

- الشرب من حوض النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة وذلك لما جاء في حديث، الحوض وهو من الأحاديث المتواترة، وقد رواه البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أم سلمة رضي الله عنها وفيه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إنني فرطكم على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم فيذبُّ عني كما يذب البعير الضال، فأقول فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً" (2).

1 - سنن أبي داود، باب في لزوم السنة، حديث رقم/3991، سنن الترمذي، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، حديث/2600، وانظر - أبو الفرج عبد الرحمان بن شهاب الدين الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م ص313، رواه أبو داود والترمذي باب في لزوم السنة، عن العرياض بن سارية رضي الله عنه حديث رقم/3991، وسنن ابن ماجه باب اتباع سنن الخلفاء الراشدين، حديث رقم/42، ونصه عن يحيى بن أبي المطاع قال: سمعت العرياض بن سارية يقول: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون فقبل يا رسول الله وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد، فقال: عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا، وسترون من بعدي اختلافا شديدا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة .

2 - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الحوض، حديث رقم 6585، والحديث له عدة روايات في البخاري، فروي عن أبي هريرة، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، بمعناه. وانظر: صحيح مسلم، باب إثبات حوض النبي صلى الله عليه وسلم، مختصر المنذري، ص 344 .

ولهذا قال محمد بن عبد الله الأندلسي المالكي: في نونيته المعروفة بنونية القحطاني:

وصراطنا حقٌ وحوض نبيِّنا      صدقٌ له عدد النجوم أوانٍ  
يُسقى بها السنِّيُّ أعذب شربةٍ      ويذاد كل مخالفٍ فتانٍ<sup>(1)</sup>

هذا إذا استهان بأمر السنة وناصر البدعة، قال ابن أبي زيد القيرواني: "والإيمان بحوض النبي - صلى الله عليه وسلم -، ترده أمته لا يظماً من شرب منه، ويذاد عنه من بدّل وغير" (2).

فالتبديل والتغيير في الدين، مانع والعياذ بالله من ورود الحوض والشرب منه، أما أهل السنة والاتباع فهم إن شاء الله من أهل الحوض الذين يشربون منه شربة هنيئة لا يظماًون بعدها أبداً، نسأل الله أن يجعلنا منهم، آمين.

ولقد كان هذا موقف الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم فقد سئل أبو حنيفة: ما تقول فيما أحدثه الناس في الكلام في الأعراض والأجسام، فقال: "مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر، وطريق السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة" (3).

### المطلب الخامس - موقف مالك من البدع وأهلها:

لقد عرفنا أن الإمام مالك - رحمه الله - من أئمة السنّة، وشيخ علمائها، وإمام أئمتها، ويعد من المدونين الأوائل لأحاديث رسول الله - صلى

1 - نونية محمد بن عبد الله الأندلسي المالكي، ص 12 .

2 - أبو زيد القيرواني المالكي، الفواكه الدواني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 3 .

3 - محمد عبدالرحمن الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، الرياض 1415هـ، ص 12 .

الله عليه وسلم .، ولا يختلف اثنان على تمسكه وحرصه على ألا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع على لسان رسوله . صلى الله عليه وسلم .، لذلك كان . رحمه الله . داعياً للسنة، ومدافعاً ومناجحاً عنها، قامعاً للبدعة، ومحارباً أهلها والمروجين لها .

رُوي أن ابن أشهب بن عبد العزيز قال: سمعت مَالِكاً يقول: "إياكم والبدع، قيل يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون"<sup>(1)</sup>.

لقد كان موقف مَالِكٍ متشددًا من أصحاب البدع، وكانت البدع وأهلها من أكثر ما حذر منه، بل وجعلها أكبر من الكبائر نفسها، ومن الروايات في ذلك، ما روي عن عبد الله بن نافع قال: سمعت مَالِكاً يقول: "لو أن رجلاً ركب الكبائر كلها . بعد ألا يشرك بالله، ثم تخفى من هذه الأهواء والبدع . وذكر كلاماً . دخل الجنة"<sup>(2)</sup>.

ومن هنا نفهم أن مَالِكاً، كان يعد البدع أعظم من الكبائر كلها، وهو إنما يقصد البدع التي ابتدعتها أهل الأهواء في العقيدة، بقولهم في القرآن أنه مخلوق وليس كلام الله، وقولهم أن العبد يخلق أفعاله، وألاً سلطان لله على العبد، فهذه وأشباهها من البدع في العقيدة، التي كان يرى بكفر صاحبها .

1 - أبو عثمان الصابوني، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، مكتبة الآثار، القاهرة،

2002م، ص236، وانظر . الصادق الغرياني، في العقيدة والمنهج، ص63 .

2 - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب

العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1988م، ج6ص325 .



وبلغ من شدة مَالِك على أهل البدع وعظم تنكيهه عليهم، أنه كان - رحمه الله - لا يقبل روايتهم للحديث، ولا نقلهم للأخبار، فقد نقل ابن حجر الرواية عن مَالِك وأصحابه، أنهم كانوا لا يقبلون رواية المبتدع مطلقاً<sup>(1)</sup>.

حتى إن الإمام أحمد بن حنبل كان يقول: "إذا رأيت الرجل ينقص مالكا فاعلم أنه مبتدع"<sup>(2)</sup>.

والبدع عند مَالِك، بدعٌ مهما اختلفت صورها، والقائمين بها، ومهما كان قصدهم، حتى وإن رأى بعض المبتدعة أنهم يريدون بها التبعيد والتزهيد، ومع هذا كان مَالِك يعدُّها من البدع وينكر على أهلها.

سئل مَالِك ف قيل له: "يا أبا عبد الله عندنا قوم يقال لهم الصوفية، يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون يرقصون، فقال مَالِك أصبيان هم؟ قال السائل لا؟ قال: أمجانين هم؟ قال لا، قومٌ مشائخ، وغير ذلك عقلاء، فقال مَالِك: ما سمعت أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا"<sup>(3)</sup>.

إن مَالِكاً قد أنكر هذا العمل، واستهجنه وعده مخالفاً لعمل أهل الإسلام، ليس لأن هذا من قبيل الرقص والغناء، والاستمتاع باللهو والعبث، فهم ليسوا من أهل المعازف والقيناء، هم كما ذكر السائل (صوفية)، ليسوا متميعين ولا أهل باطل وفحش، بل هم صوفية، ولكن

1 - ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، دار الأندلس، المغرب، 1988م، ج 1 ص 10.

2 - مواهب الجليل، باب ترجمة الإمام مالك، ج 1 ص 87.

3 - القاضي عياض ترتيب المدارك ج 1 ص 98، وانظر - الصادق عبد الرحمان الغرياني،

الغلو في الدين غلو التطرف وغلو التصوف، مطابع سبها ليبيا، الطبعة الأولى 2000م،

ص 191.

مَالِكاً - رحمه الله - أنكر عليهم، لأنهم فعلوا ما فعلوا من قبيل التعبد والقربة إلى الله، فبين مَالِك، أن هذا من البدع، وليس من عمل أهل الإسلام، فلا يعبد الله تبارك وتعالى بهذه الحركات والشطحات، ولا بهذا الرقص واللغو، فالعبادة لها آدابها، وشروطها التي وردت بها، وكيفيات مخصوصة جاءت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكرام .  
والصُّوفِيَّة في حقيقتها، علامة على الزُّهد والتدين، والورع والتقوى، إلا من انحرف منهم عن المنهج الصحيح للتَّصَوُّف، وهم المقصودون بقول مَالِك، الذي مرَّ علينا، بدليل أن عامة علماء السلف، قد سلكوا منهج التزهد والتصوُّف، والتعبُّد والتدين .

وفي هذا الباب يقول الشاطبي المَالِكِي: وقد نقلنا عن جملة ممَّن اشتهر منهم، يَنيف على أربعين شيخاً، جميعهم يشير أو يصرح بأن الابتداع ضلالٌ، والسلوك عليه تيه، واستعماله رمي في عماية، وأنه مناف لطلب النجاة، وصاحبه غير محفوظ، وموكُّولٌ إلى نفسه، ومطرود عن نيل الحكمة، وأن الصُّوفِيَّة الذين نسبت إليهم الطريقة، مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مغلِّين بشيءٍ من آدابها، وهم أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرق من الفرق الضالة، ولا يميل إلى خلاف السنة، وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، وممَّن يؤخذ عنه الدين أصولاً وفروعاً<sup>(1)</sup>.

### تحذير الإمام مالك من البدع وأصحابها:

لقد كان الإمام مالك في طليعة علماء السلف، الذين تصدوا للبدع في الدين، وقد مر بنا رده على من يسأل عن الاستواء وحقيقته، عند قوله

1 - الاعتصام للشاطبي، ج 1 ص 98 .

تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(1)</sup> فما جامله، ولا هادنه، بل كان رده حازماً في بيان الحق، فقد قال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا صاحب بدعة، أُخرج من مجلسي" (2).

فقد كان الإمام يرى أن البدع من المنكرات، التي لا يجوز التماذي فيها، ولا التهاون مع مرتكبيها، لاسيما بدعة الخوض في الأسماء والصفات، والقدر والقول على الله بغير علم، فقد كان يطرد أهل البدع والأهواء من مجلسه، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على كراهيته للبدع وأهلها.

ولقد كان للإمام مالك - رحمه الله - ردوداً على هؤلاء المبتدعة، وتفنيده ما ذهبوا إليه من ابتداع، سنورها عند الحديث عن الفرق والطوائف المنحرفة.

ونقل ابن الأثيري أيضاً الرواية التي سبقت الإشارة إليها عن مالك محدثاً من أهل البدع والأهواء، ونص الرواية، قال ابن الأثيري: قال الإمام

1 - سورة طه الآية 5 .

2 - سبق تخريج هذا الأثر وهو مشهور عن مالك ذكره علماء التفسير كابن جرير الطبري، وابن كثير، والقرطبي، وغيرهم من المفسرين، عند قوله تعالى في سورة الأعراف الآية 54 ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، واستشهد به كثير من علماء السلف على وجوب التسليم لله في قضية الأسماء والصفات، كابن عبد البر، والقاضي عياض من علماء المالكية، والزواوي، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وغيرهم.

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ - إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ "إِيَّاكُمْ وَالْبِدْعَ" قِيلَ: وَمَا الْبِدْعُ؟ قَالَ: "أَهْلُ الْبِدْعِ هُمُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَكَلَامِهِ، وَعِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَسْكُتُونَ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ"<sup>(1)</sup>.

وقال أبو مصعب<sup>(2)</sup>: قدم علينا ابن مهدي، فصلى ووضع رداءه بين يدي الصَّفِّ، فلما سلَّم الإِمَامَ، رمقه الناس بأبصارهم ورمقوا مَالِكاً، وكان قد صلى خلف الإِمَامَ، فلما سلَّم قال مَالِكُ: من هاهنا من الحرس؟ فجاءه اثنان منهم، فقال لهما: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه .

فحبس، فقيل له: إنه ابن مهدي .

فوجه إليه مَالِكُ وقال له: أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف، وشغلت المصلين بالنظر إليه، وأحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنَّا نعرفه!! وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "من أحدث في

1 - شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ذم الكلام وأهله، تحقيق عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم، 1998م، ج5 ص70، وانظر: أبو القاسم إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، تحقيق - محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر دار الراية، 1999م، الرياض السعودية، ج1 ص88، وانظر: عبد الله بن عبد الحميد الأثري، الوجيز في عقيدة السلف الصالح، مراجعة وتقديم: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، 1422هـ، نقلا عن موقع - <http://www.al-islam.com> .

2 - أحمد بن أبي بكر، ينتهي إلى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف أبو مصعب الزهري العوفي المدني قاضي المدينة، سمع الموطأ من مالك، روى عنه الجماعة خلا النسائي فإنه روى عنه بواسطة، قال الزبير بن بكار: هو فقيه أهل المدينة بلا مدافعة، توفي سنة 242هـ، انظر: (الصفدي، الوايف بالوفيات، ج2 ص310).

مسجدنا حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" (1).  
 فبكى ابن مهدي، وآل على نفسه أن لا يفعل ذلك أبداً في مسجد  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في غيره (2).  
 وهذا الأثر إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على حزم مالك في مسألة  
 البدعة، وعدم تهاونه في هذه القضية، على الرغم من أن الفعل الذي فعله  
 ابن مهدي، لو قيس بمنظورِ المفسدة والمصلحة، فإنه ليس فيه كبير ضرر،  
 ولكنَّ مالكاً كان لا يتساهل في هذا الشأن، ويمكن أن نصفه بالمتشدد  
 في هذه المسألة، ولو لم يكن كذلك لما أمر بحبسه، وقد كان عبد  
 الرحمن بن مهدي، من أرفع علماء التابعين في ذلك الزمان.  
 وفي التحذير منهم، وبيان أنهم على خطرٍ عظيمٍ، وأن إيمانهم  
 ناقص، وأنَّ مالكاً كان لا يقبل لهم صرفاً ولا عدلاً، ويعتبرهم على  
 انحرافٍ وضلالٍ، لا يؤمنون على شيءٍ، وأنه - رحمه الله - رد شهادتهم،  
 وقال بعدم قبولها، إذ أنَّ من يبتدع في دين الله لا ذمة له ولا أمانة، فهو

1 - قلت: الحديث رواه البخاري، باب حرم المدينة، ونصه: "عن أنس رضي الله عنه،  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع  
 شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس  
 أجمعين" حديث رقم/1734، ورواه أيضاً من حديث علي رضي الله عنه، باب حرم  
 المدينة، حديث رقم/1737، ومسلم، باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه  
 وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها،  
 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم/2429.

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1ص52، وانظر: حمزة أبو فارس، بحوث  
 ودراسات في بعض مصنفات الفقه المالكي، منشورات، ELGA فالتا - مالطا، 2001  
 ص166.

مضيعٌ للدين، ومن كان للدين مضيعاً، فهو إلى ما سواه أضيع، حيث ذكر الإمام الغزالي - رحمه الله - الرواية عن مالك أنه قال: "لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء"<sup>(1)</sup>.

### بدعة سب الصحابة:

من واجبنا أن نعرف أنه من أعظم البدع، وأخطرها، التي ظهرت زمن الإمام مالك: (بدعة سبّ وشتم الصحابة)، وذلك أن الشيعة الرافضة، أو من يسمون بالإمامية، ومن كان على شاكلتهم، قد استحلوا سبّ الشيخين الجليلين أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة - زاعمين بذلك أنهم يوالون علياً رضي الله عنه، وكرم وجهه، وما علموا أن علياً رضي الله عنه، ما كان ليرضى أن يُسبَّ أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم إخوانه ورفقاؤه في مسيرة الدعوة والجهاد، وقد تحمّلوا معاً ما تحمّلوا، وقاسوا وعانوا كثيراً لنصرة الدين، والدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والدعوة، وليسوا بحاجة إلى من يتطفل لبيان من هو الأفضل، والأحسن بلاءً في دين الله، فكلّ مقام لا يجاوزه، وكلهم يعرف مكانته، ويعرف لأخيه حقه، فقل للمحرّش بين النجوم، ويحك إن النجوم لا تراك .

وليس أدل على رفعة شأن الصحابة، وبيان فضلهم، وذم منتقصيهم، ومن ينال منهم، وأن النيل منهم من السفه في الرأي، وضعف الإيمان، وقلة

1 - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ج 2 ص 195، وانظر: الإمام أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تقديم وتعليق (طه عبد الرؤوف سعد)، مكتبة الصفا، طبعة جديدة منقحة، ج 1 ص 103 .

العلم، من حديث النبي صلى الله عليه وسلم - وهو في صحيح مسلم، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أحدا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"<sup>(1)</sup>.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله اختار لي أصحاباً، فجعل لي منهم وزراء، وأصهاراً، فمن سبهم، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين"<sup>(2)</sup>.

جاء في شرح النووي على صحيح مسلم: "ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يقتل"<sup>(3)</sup>.

وسبُ الصحابة، والطعن فيهم، اعتبره بعض أهل العلم جرحاً وطعناً في الصحابة، وفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وفي دين الله، وتجرؤاً

1 - صحيح مسلم، باب تحريم سب الصحابة، حديث رقم/4611، سنن أبي داود باب في النهي عن سب الصحابة، حديث رقم/4039، مسند الإمام أحمد باب أبي سعيد الخدري، حديث رقم/10657.

2 - رواه الحاكم في مستدركه، عن عويم بن ساعدة، رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله تبارك وتعالى اختارني واختار بي أصحاباً فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل" وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، والطبراني في الأوسط عن عويم، حديث رقم/462، ورواه عبدالرحمان بن عبد السلام الصفوري الشافعي، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، 1997م، ج 2 ص 479.

3 - النووي على صحيح مسلم، ج 16 ص 94.

على الله بالباطل" (1).

ويمكن أن نُجمل المحاذير التي يقع فيها من ينال من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فيما يلي:

**1- قدح في الصحابة، وتقليل من شأنهم وهم الذين نصرُوا الإسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فهذا أمرٌ واضحٌ لا لبس فيه .**

**2- طعن في رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، بتضمنه القول بأنه عليه الصلاة والسلام، - وحاشاه ذلك - لم يصاحب خياراً من الناس، بل صاحب أشراراً لا عهد لهم ولا أمانةً، ولم يكن صادقاً في مدحه لهم، وثناؤه عليهم، بأنهم خير الأمة وأفضلها، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .**

**3- طعن في دين الله، فما نقل إلينا هذا الدين، وما بلغت شعائره إلا على أيدي أولئك الأطهار - رضوان الله عليهم أجمعين - فإذا كانوا كذلك كما وصفهم غلاة المبتدعة من الروافض والنواصب وغيرهم، فهم ليسوا بأمناء على هذا الدين وليسوا أهلاً لنقل الشعائر والسنن، وهذا كلامٌ باطلٌ جملةً وتفصيلاً .**

**4- من جهةٍ أخرى أدهى وأمر، فهو طعنٌ في الله جلّ وعلا، حيث إن الله تعالى امتدحهم في القرآن العظيم، وتَرْضَى عنهم وزكّاهم وطهرهم تطهيراً، حيث قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (2).**

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

1 - العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام بن تيمية، بشرح ابن عثيمين، ج 2 ص 261 .

2 - سورة التوبة الآية 100 .



فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السُّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا<sup>(1)</sup>.  
 وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ  
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ  
 فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ  
 كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ  
 بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا  
 عَظِيمًا<sup>(2)</sup> .

إلى غير ذلك من الآيات التي نزلت في ذكر فضلهم ورضى الله  
 عنهم، ويقتضي كلام هؤلاء الضلال من غلاة المبتدعة والمستشرقين  
 وغيرهم، وجهين، أو وجهاً من وجهين:

**الوجه الأول -** إما أنه تعالى رضى عن أناسٍ أشرارٍ، ليسوا أهلاً  
 لذلك، وهذا محالٌ في حقه تعالى، فهو الذي يحكم بالقسط، ويأمر  
 بالعدل .

**الوجه الثاني -** أنه تعالى أخبر بما ليس واقعاً وخلافاً للحقيقة،  
 ومدحهم بما ليس فيهم، حيث ذكر أنهم من صفوة الخلق بعد الأنبياء، قد  
 نالوا رضوانه ومغفرته ورحمته، وهم ليسوا كذلك، وهذا كلامٌ باطلٌ  
 يغني بطلانه عن إبطاله، وفساده عن إفساده، وكذبه عن تكذيبه،  
 فالصحابة كما أخبر عز وجل ورسوله عنهم، من أحسن الناس بعد رسل  
 الله وأنبيائه سمياً، وأكرمهم خلقاً، وأغبرهم على دين الله، وإذا كان قد

1 - سورة الفتح الآية 18 .

2 - سورة الفتح الآية 29 .

جرى بينهم خلاف، فهذا لكونهم بشراً يخطئون ويصيبون، والله تعالى لا يعذب مجتهداً على اجتهاده إن هو أخطأ، وهذا من تمام رحمته عز وجل .

### موقف مالك من بدعة سب الصحابة:

لقد تصدى مالك - رحمه الله - لهذه البدعة المنكرة، ورأى أن أهلها لاحظ لهم في الإسلام ورأى أنه من المنكر الذي لا يجوز السكوت عنه، وقال إن المدينة التي يشيع فيها سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب الخروج منها، فقد أثر عنه قوله "لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير الحق والسب للسلف"<sup>(1)</sup>.

وقد كان موقفه - رحمه الله - من هذه النقطة حازماً، بل وعلاوة على ذلك فقد قال بحرمانهم من الفيء، حيث نقل بن عبد البر عنه قوله: "ليس لمن سب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الفيء حق، قد قسم الله الفيء على ثلاثة أصناف، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾"<sup>(2)</sup>. وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، فمن عدا هؤلاء فلا حق له فيه"<sup>(3)</sup>.

1 - أبو عمر يوسف بن عبد البر، الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، عناية،

عبد الفتاح أبو غردة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، الطبعة

الأولى، 1997م، ص 72 .

2 - سورة الحشر الآيتان 8 - 9 .

3 - راجع: الانتقاء لابن عبد البر، ص 73 .

وبالطبع فإن من يسب الصحابة ليس من هؤلاء، ولا يجري عليه ما يجري عليهم، هذا إذا كان له حظٌّ في الإسلام أصلاً، كما يرى مالك رحمه الله.

ولأن مكانة الصحابة عظيمة في الإسلام، بل وورد ذكرهم، والتبشير بهم، حتى في الأمم السابقة، قال الإمام مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة- رضي الله عنهم- الذين فتحوا الشام يقولون: "والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا"، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(1)</sup>.

ذكر القاضي عياض أن هارون الرشيد سأل مالكاً عمَّن يسب الصحابة، هل له من الشيء شيء؟ قال: "لا، ولا كرامة له، فقال هارون: من أين قلت ذلك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فمن عاداهم، فهو كافر"<sup>(2)</sup>.

وبالحديث عن بدعة الخوض في أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعرفة مفسدتها العظيمة على الكيان المسلم، وعلى الأمة جمعاء، ومعرفة موقف الإمام مالك من هذه البدعة المنكرة، يتبين لنا ما للبدعة من خطرٍ عظيمٍ، وما لها من تأثيرٍ بالغٍ على الدين، فمن أراد السلامة في دينه فليبتعد عن الابتداع، وعليه بالسنة والاتباع، فهما النجاة لمن أراد النجاة.

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 7 ص 362، وانظر: محمد بن عبد الله الوهبي،

اعتقاد أهل السنة في الصحابة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة

والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1428هـ، ص 8.

2 - ترتيب المدارك، ص 200. وانظر: أبو زهرة، ص 203.

ولقد اتبع قومٌ هواهم، فضلُّوا وأضلُّوا، ولم يسلم لهم من دينهم شيءٌ، إلا من أدرك الله برحمته، فليتق الله المبتدعة والقائلين في دين الله بغير ما أنزل الله، فهم على شفا جرفٍ هارٍ، وهم الهلكة لا محالة، ويا سعادة من تمسك بسنة نبيه المصطفى، وقدَّم اتباعه على اتباع غيره، وأنارت السنة طريقه، ليسلم له دينه والله نسأل أن يجعلنا منهم .

هكذا كان فهم مالك - رحمه الله - للعقيدة الإسلامية، جملة واحدة لا تبديل فيها ولا تحريف، ولا يفصل بين العبادات والعقائد، ولا بين العبادات والمعاملات، بل الدين عنده كل لا يتجزأ، وهو قائمٌ على اتباع منهج المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، فهو خير مبلغ عن الله، لأنه رسول الله، وهو أعرف العباد بربه وبما يرضيه، وهو الذي أنزل عليه، قول الحق تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (1).

فلا وحي بعد رسول الله ولا شرع إلا ما شرعه عليه الصلاة والسلام مبلغاً عن ربه، والأسئلة التي تطرح بإلحاح الآن، كيف فهم مالك - رحمه الله - مجمل نصوص العقيدة؟ وكيف مارسها واقعاً عملياً؟ وكيف كانت نظرتهم لمفهومي العمل والتطبيق بشكْل عام؟ والفصل القادم سيكون محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة إن شاء الله تعالى.

## الفصل الثالث

# فهم الإمام مالك للعقيدة الإسلامية ممارسةً وتطبيقاً

المبحث الأول . علاقة العقيدة بالعمل :

المطلب الأول : المفهوم العام للعبادة .

المطلب الثاني : أقسام العمل من حيث حكمه .

المبحث الثاني . تأثير العمل في الإيمان :

المطلب الأول : تأثير الذكر في الإيمان .

المطلب الثاني : تقسيم العمل من حيث ماهيته .

المطلب الثالث : زيادة العمل في الإيمان ونقصانه .

المطلب الرابع : تفاوت الأعمال في الأجر والثواب .

المبحث الثالث . فهم الممارسة وممارسة الفهم :

المطلب الأول : ارتباط الفهم بالممارسة .

المطلب الثاني : الفهم والممارسة عند الإمام مالك .

المطلب الثالث : اجتهاد الإمام مالك في النص .

**ورقة بيضاء**  
**( ظهر عنوان الفصل الثالث )**

### الفصل الثالث

#### فهم الإمام مالك للعقيدة الإسلامية

#### ممارسةً وتطبيقاً

إن الأعمال الصالحة هي ترجمان العقيدة، فإذا كانت عقيدة المؤمن صحيحةً سليمةً، فإن العمل لابد وأن يكون هو الآخر صالحاً، ولا يمكن أن يكون العبد مؤمناً من دون عملٍ صالحٍ، وقد عبر القرآن الكريم عن بعض الأعمال الصالحة بصيغة الإيمان قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>، أي صلاتكم إلى بيت المقدس<sup>(2)</sup>.

وكثيراً ما قرن العمل الصالح بالإيمان في العديد من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾<sup>(3)</sup>، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(4)</sup>، وقوله أيضاً: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(5)</sup>، وقوله كذلك: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(6)</sup>.

1 - البقرة الآية 143 .

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، ج1ص197 .

3 - البقرة الآية 25 .

4 - النساء الآية 173 .

5 - يونس الآية 4 .

6 - الحج الآية 50 .

وقد قُرنُ العمل الصالح مع الإيمان في أكثر من خمسين موضعاً في كتاب الله، وهذا يدل على مكانة العمل الصالح في الدين، وأنه أصل من أصوله لا يستقيم الدين بدونه، ولا يستوي الإسلام من غيره .  
والأسئلة التي يمكن طرحها في هذا الصدد هي: ما علاقة العقيدة بالعمل؟ وما تأثير الأعمال على المعتقد؟ وكيف ومتى يصبح العمل صالحاً؟ هذه الأسئلة جميعها، تتطلب عدة مباحث للإجابة عنها بتفصيلٍ وإسهابٍ، وهي على النحو الآتي:



## المبحث الأول . علاقة العقيدة بالعمل :

سبق وتكلمنا عن مفهوم العقيدة، وعرفنا ما للعقيدة من مكانة في دين الإسلام، حيث هي قوام الدين، ومناطق التكليف، وبصلاحها يصلح الإسلام، وبفسادها يفسد الإسلام، فما المقصود بالعمل إذاً؟ وما هو مفهومه؟ وما هي منزلته في دين الله تعالى؟

**العمل لغة:** المهنة، والفعل، واستعمله بمعنى استأجره، واعتمل أي عمل بنفسه<sup>(1)</sup>، وهي كلمة لا تؤدي معناها المراد حقيقة إلا بوصفها أو بإضافتها، فتقول: عمل صالح - عمل سيئ - وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(2)</sup>.

**واصطلاحاً:** يقصد بالعمل شرعاً: جملة الأعمال التعبدية التي أمر الله بإقامتها وفعالها، وتكون بالأبدان كالصلاة والصيام والحج والجهاد، وبالإنفاق كالزكاة، وقولية كالذكر وتلاوة القرآن والدعوة إلى الله وغيرها، وقد تكون أعمالاً أمر الله باجتنابها كالسرقة، والغش، وأكل مال اليتيم، والزنى، والكذب، وما أشبه ذلك، وقد اصطلح الفقهاء على تسميتها بالعبادات، أو المعاملات .

جاء في مدونة الفقه المالكي، للعلامة الصادق الغرياني<sup>(\*)</sup>: وقد جرى

1 . القاموس المحيط، للفيروزابادي ج3ص314، وانظر - مختار القاموس، ص438 .

2 . سورة التوبة الآية 102 .

• هو: العلامة الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، من أعلام الفقه المالكي قى ليبيا، عالم معاصر، وعضو في مجمع الفقه الإسلامي في جدة، له مؤلفات عديدة، منها مدونة الفقه المالكي، والعبادات أحكام وأدلة، والعقيدة والمنهج، أستاذ بقسم الدراسات الإسلامية، ورئيس قسم الدراسات العليا بقسم الدراسات الإسلامية، بجامعة الفاتح في طرابلس ليبيا.

عليه العمل عند الفقهاء بتسميتها بهذا الاسم، حين قسموا أبواب الفقه إلى عبادات، ومعاملات، والعبادات، بهذا المعنى تشمل بعد الإيمان بالله: أبواب الطهارة، والصلاة، والصيام والحج، والاعتكاف، وغيرها<sup>(1)</sup>.  
إذاً فإننا قلنا الأعمال في الإسلام، فالمقصود بها أبواب العبادات المختلفة، سواء منها القلبية، أو العملية، أو اللفظية .

### المفهوم العام للعبادة:

يعرف ابن تيمية العبادة بمفهومها العام أنها "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة"<sup>(2)</sup>.  
ويشمل المفهوم العام للعبادة جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان لمعاشه، وما ينفعه يوم معاده وعرضه على ربه<sup>(3)</sup>.  
وعلى هذا فإن العبادة تشمل جميع أمور الدين، العقديّة القلبية، والتعبديّة القولية والعملية، وتشمل المعاملات والأخلاق أيضاً، فالعبادة لا تتجزأ، فكل ما يُتعبّد به إلى الله تعالى فهو عبادة .  
وبناء عليه تعتبر العبادات هي الدين كله، من فرائض وسنن،

1 - الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، مدونة الفقه المالكي، مكتبة بن حمودة، زيتن، تشاركية المقرري، طرابلس، مكتبة الشعب مصراته ليبيا، الطبعة الثالثة 2005م، ج 1 ص 11.

2 - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم بن تيمية الحراني (المتوفى : 728هـ)، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، طباعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة المجددة، 2005م، ص 44 .

3 - المصدر السابق، ج 1 ص 12.

ومستحبات، واجتناب المنهيات وغيرها، ومن هنا فإن كل عمل يبتغى به وجه الله تعالى، ويكون له أصل في الدين، بمعنى أنه مشروع، وليس من قبيل البدعة، نستطيع أن نطلق عليه مصطلح العبادة .

والأصل أن العبادة توقيفية لله، لا مجال للعقل فيها، فالعقل مهما بلغ من قدرة ومن تفكير لن يدرك المعنى الحقيقي للعبادة، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما القيمة الحقيقية للعبادة؟ أو بعبارة أخرى، ما أهمية الأعمال الصالحة التي فرضها الله على عباده؟ وما هي جدوى هذه الأعمال؟

#### وللإجابة عن هذا نقول :

**أولاً .** اقتضت حكمة الله عز وجل ألا يدرك الإنسان بعقله الحكمة الحقيقية للعبادة، ولا الحكمة من ورودها على كفيات مخصوصة، فالعبادة توقيفية لا مجال للعقل فيها، فنحن لا نعرف لماذا كانت الصلاة مثلاً على هيئة مخصوصة، بالكيفية التي وردت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ونحن لا نعلم أكثر من أن الله قد شرع لنبيه - صلى الله عليه وسلم - هذه الصلوات بهذه الكيفية، وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بها، وكذلك فإن العقل قاصر عن إدراك لماذا الظهر أربع ركعات؟ والعصر أربع؟ فالعقل لا يدرك الحكمة من ذلك، أما السؤال عن هذا فهو من قبيل الخوض في الجدال الذي لا طائل منه، ولن يصل العقل فيه إلى نتيجة، فلو قيل مثلاً لماذا العصر أربع ركعات ولم يكن خمس، فيقال مثلاً ولماذا خمساً وليس أربعاً، أو ثلاثاً، أو ستاً وهكذا .

**ثانياً .** قد يدرك العقل السليم بعض الحكم الظاهرة للعبادة، والتي يدل عليها الإدراك الحقيقي لما لهذه العبادة من عظيم الأثر على نفسية

المؤمن، وتطهير قلبه مما قد يعلق فيه من أدران الذنوب والمعاصي، وهذا تحسه الأنفس مطمئنة، والقلوب المؤمنة، ومن آثاره الدالة عليه - انشراح الصدر، وطمأنينة النفس، وراحة الضمير، وعلى العكس من ذلك عند التفريط في هذه العبادة يحس المفرط بانقباض صدره، وضيق نفسه، وتأنيب الضمير له، وذلك كما يقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(1)</sup> روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" يقول تعالى: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح" قالوا يا رسول الله هل لذلك من أمانة؟ قال: "نعم الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت"<sup>(2)</sup>.

**ثالثاً** - يجد المسلم القائم بالعبادة فائدة تنعكس على بدنه نشاطاً وحيويةً وقوةً، لا يجدها من لا يقوم بهذه العبادات، وذلك انعكاساً للطمأنينة التي تحدثها العبادة في قلوب المؤمنين، فتثمر نشاطاً، ويمتلئ القلب حيويةً، وذلك مشاهدٌ وملاحظٌ على حال كثيرٍ من المتعبدين .  
وكما جاء في موطأ الإمام مالك، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "يعقد الشيطان على قافية

1 - سورة الأنعام الآية 125 .

2 - تفسير ابن كثير الطبعة الأولى ج2 ص188، والحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الزهد، حديث رقم/13، وتفسير ابن أبي حاتم عند قوله تعالى: "فمن يرد الله أن يهديه" وأخرجه من رواية أبي جعفر، حديث رقم/7899.

رأس أحدكم، إذا هو نام، ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة، عليك ليل طويل، فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان" (1).

جاء في شرح الزرقاني على الموطأ عند شرح هذا الحديث ما نصه "فأصبح نشيطاً، لسروره بما وفقه الله له من الطاعة، وما وعد به من الثواب، وما زال عنه من العقد" (2).

رابعاً: إجماع الله تبارك وتعالى ونجاته لأهل الطاعات، وإعانتهم في الشدائد، وتفريج الكربات، كما حدث مع أصحاب الصخرة الذين أقفل عليهم في الكهف، والحديث في صحيح البخاري (3)، وغيره، فماذا كانت

1 - موطأ مالك، باب جامع الترغيب في الصلاة، حديث رقم/1074، وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ ج1 ص508، والحديث رواه البخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، حديث رقم/1074، ورواه أيضاً من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم/3029.

2 - شرح الزرقاني، ج1 ص510.

3 - صحيح البخاري، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي، حديث رقم/2063، ورواه أيضاً في باب من استأجر أجيراً فترك الأجير أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل، حديث رقم/2111، وكذلك تحت باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنه وكان في ذلك صلاح لهم، حديث رقم/2165، والرواية الأولى من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ونصها أنه رضي الله عنهما قال: خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في غار في جبل، فانحطت عليهم صخرة قال: فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله عز وجل بأفضل =

النتيجة؟ أن فرج الله عليهم كربتهم، بتوسلهم بالعمل الصالح، فسيحان الله، كم كان للعمل الصالح من عظيم الأثر، حيث أنجد الله الصالحين من عباده، وأنقذهم من المصائب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (1).

وقد جعل الإمام مالك العمل مناط الثواب والعقاب، وهو السبيل لخلاص العبد في الآخرة، وجعله مقروناً بطاعة الله، لذلك عندما وعظ أحد الخلفاء، وذكره بالله، كان مما قال له: "ولو رأيت أهل طاعة الله، وما صاروا إليه من كرامة الله، ومنزلتهم، مع قريهم من الله تعالى،

= عمل عملتموه، فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجيء بالحلاب فآتي به أبوي فيشريان ثم أسقي الصبية وأهلي وامراتي، فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان، قال: فكرهت أن أوقضهما والصبية يتضاغون عند رجلي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا فرجة نرى منها السماء، قال: ففرج عنهم، وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت لا تنال ذلك منها حتى تعطيهما مائة دينار فسعيت فيها حتى جمعتهما فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا فرجة، قال ففرج عنهم الثلثين، وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق من ذرة فأعطيته فأبى أن يأخذ، فعمدت الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرراً وراعيها ثم جاء فقال: يا عبد الله أعطني حقي، فقلت انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك، فقال أستهزئ بي قال: فقلت ما أستهزئ بك ولكنها لك، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا فكشف عنهم).

1 - سورة العنكبوت الآية 43 .

ونضرة وجوههم، ونور ألوانهم، وسرورهم بالنظر إليه، والمكانة منه، وأجاء عنده، مع قربه منهم لتقلل في عينك عظيم ما طلبت به الدنيا" (1).

### أقسام العمل من حيث حكمه:

- 1 - الجائز: وهو الأمر المباح الذي أجازته الشارع، وأذن فيه، دون حرج أو تثريب، "ويسمى كذلك الحل وهو ما ليس ممنوعاً" (2).
- قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ (3).
- 2 - الواجب: وهو العمل الذي أمر به الشارع أمراً لازماً، وعلق على فعله ثواباً، وتوعد على تركه عقاباً، ويسمى كذلك المحتم، واللازم، والفرض (4)، وقيل الواجب: (هو الذي يُدْمُ شرعاً تاركه مطلقاً) (5).
- 3 - المستحب أو المندوب: وهو ما قلّت درجته عن الواجب، حيث لم يطلبه الشارع طلباً لازماً، ولكنه علق على فعله ثواباً، ولم يعلق على

1 - سبق تخريج هذا الأثر عن الإمام مالك، وقد أخرجه القاضي عياض في ترتيب المدارك، (ج2 ص106-107).

2 - إرشاد السالك إلى أشرف المسالك على مذهب مالك، عبدالرحمن بن محمد بن عسكر شهاب الدين البغدادي المالكي، الشركة الأفريقية للطباعة، (بدون تاريخ)، ص5، وانظر: عبد السلام التونجي، مؤسسة الإباحة في الشريعة الإسلامية، جمعية الدعوة الإسلامية، 2007م، ص33.

3 - سورة البقرة الآية 235.

4 - الفواكه الدواني، ج1 ص154.

5 - الإبهاج في شرح المنهاج، علي بن عبد الكافي السبتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ، ج1 ص51، وانظر: عبد المجيد عبد الحميد الديباني، المنهاج الواضح في علم أصول الفقه، جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى 1995م، ص59.

تركه عقاباً<sup>(1)</sup> - وذلك كالاستتجاء باليد اليسرى<sup>(2)</sup>، وكالتسييح في الرُّكُوع والسجود في الصلاة، وكذلك بعض أعمال البرِّ التي ندب الشارع إليها كصدقة التَّطوع وغيرها .

وبعض العلماء يجعلون المستحب والسنة، في درجة واحدة، من حيث أنهما لا يترتب عليهما عقاب، ويحصل بإيقاع أيٍّ منهما الثواب من الله تعالى، ومن العلماء من يفرِّق بين المستحب والسنة، بحيث يجعل السنة في درجة أعلى من المستحب، ومنهم من يجعل المستحب والسنة في مرتبة واحدة، ويشترك الواجب والمستحب من حيث حكمهما الشرعي في وجهين: من حيث أن كلاهما قد علّق عليه الشارع ثواباً، وكذلك فإنّ كلاهما طلب فعل، أمر به الشارع الحكيم، ويختلفان من عدة وجوه وهي: الواجب يترتب على تركه عقاب، والمستحب لا يترتب على تركه عقاب، وقد يُعدُّ ترك الواجب كبيرةً من كبائر الذنوب، كترك الصلاة والزكاة، في حين أن ترك المستحب لا يعدُّ كبيرةً، بل لا يعدُّ إثماً أصلاً، الواجب لا تبرأ ذمّة تاركه، والمستحب لا تعلق له بالذمة .

4 - الحرام: هو ذلك العمل الذي نهى عنه الشارع نهياً جازماً، وغلظ

فيه، ورتب على فعله عقوبة، بحيث يَأْثَمُ فاعله، ويسمى حظراً وممنوعاً، وكذلك علّق على تركه ثواب، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(3)</sup>.

1 - ابن عثيمين، الأصول من علم الأصول، ص11.

2 - عبد الرحمان بن محمد الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2005 ص65 .

3 - سورة المائدة الآية 38



5 - المكروه: نهى الشارع عن الشيء نهياً قَلَّ منعه عن الحرمة، بحيث لا يعاقب فاعله ومن رحمة الله تعالى - أن يُثيب تاركه، ومن أمثلة المكروه - الإسراف في الوضوء من غير حاجة، ومسح الرقبة في الوضوء<sup>(1)</sup>.

#### فائدة:

يشترك المكروه والحرام، من وجهين: من حيث أن كليهما يتضمن نهياً نهى عنه الشارع الحكيم، وأيضاً يثاب تاركهما. وجه الاختلاف بينهما أن: المحرّم يعاقب فاعله، والمكروه لا يعاقب فاعله، والحرام طلب التّرك طلباً لازماً، والمكروه طلب التّرك طلباً غير لازم.

#### خلاصة:

من هنا نخلص إلى القول: إنّ العمل الصالح هو ما لم يكن حراماً ولا مكروهاً، وهذا يعني أن العمل الصالح هو تلك الأعمال التي أحلها الله عز وجل، أو أمر بها أمراً لازماً، أو كان الأمر فيها غير لازم، وهي في عمومها من أجل إصلاح الناس وسعادتهم في الدارين، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق المصوّر، وهو الذي يعلم سبحانه، ما يصلح أن يكون عملاً صالحاً، يُصلح البشرية جمعاء، وما يكون عملاً سيئاً، يفسد الإنسان ظاهراً وباطناً .

1 - أحمد الصاوي، بلغة السالك، ج1ص116، وراجع رأي المالكية في مكروهات الوضوء، في كتاب، الفقه على المذاهب الأربعة، للجزري، الطبعة الأولى، 2005م، ص54.

## المبحث الثاني. العمل وتأثيره في الإيمان عند مالك:

مما لا شك فيه أن الأعمال لها تأثير بالغ في الإيمان، وهي قوام الإيمان وعلامته، فلا يستقيم إيمان امرئ حتى يستقيم عمله، وكما أمر تعالى عباده بالتوحيد الخالص، وجعله مناط الاعتقاد، وسبب قبول الأعمال، وقد أمر تعالى عباده، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان، والإحسان للناس، وجعل هذه الأعمال من علامات الإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (1).

وكثيراً ما ربط الإسلام بين العمل الصالح والإيمان، ومن الأحاديث الدالة على ذلك - ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" (2).

ذكر الإمام محمد بن أبي زيد، إمام المالكية في زمانه: "أن جميع آداب الخير تنفرد من أربعة أحاديث قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، وقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه، وقوله - صلى الله

1 - سورة الأنفال الآيات 2 - 4.

2 - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤدي جاره، حديث رقم/5559، سنن أبي داود، باب من حق الجوار، من رواية أبي هريرة أيضاً، حديث رقم/4487.

عليه وسلم - الذي اختصر له الوصية: لا تغضب وقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (1).

وإن المتدبر لما ذكره ابن أبي زيد المالكي، يجد فعلاً أن هذه الأحاديث هي جماع الخير كله، وجماع الآداب العامة، حيث اشتملت على أسس الأخلاق مثل كف اللسان عن الخوض في الباطل، وإمساكه إلا في الحق والخير.

- ترك الفضول مما لا طائل منه، ولا يرجع على الإنسان بأمر نافعة في الدنيا والآخرة، وأيضاً الحلم والتحكم في النفس وعدم إمضاء الغضب.

- اقتران الإيمان بمحبة الخیر للأخ المسلم، وتمني ما يتمناه المرء لنفسه، كل هذا من جماع الخير، ومن الأصول التي ينبني عليها الخلق الكريم، إن الكلام الطيب، وكف الأذى عن الآخرين، والحلم، والعضو، والصفح، ومحبة الخیر لعباد الله، وعدم الأنانية وحب الذات، كل هذا من أعمال الإيمان التي يثيب عليها الحق تبارك وتعالى.

وعلى هذا فلا نستطيع إلا أن نقول إن العمل الصالح مقترن بالإيمان ومرتبطة به، وجمهور العلماء يقولون بذلك، وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية إجماع أهل السنة والحديث على أن الإيمان قولٌ وعملٌ، وقال رحمه الله: وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز، والعراق، والشام، ومصر، ومنهم مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري<sup>(\*)</sup>،

1 - الحديث في موطأ مالك من رواية علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم/1402. الإمام النووي، شرح الأربعين نوية، تقديم علي عبد العالي الطهطاوي، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001، ص35.

• هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، قال عبد الرحمان بن مهدي الأئمة أربعة سفيان الثوري ومالك وحماد بن زيد وابن المبارك، ولد في خلافة سليمان بن عبد الملك، سنة 96هـ، ومات في خلافة المهدي، سنة 161هـ، قال ابن المبارك: لا تعلم أحداً على وجه الأرض أعلم من سفيان (طبقات الفقهاء للشيرازي ص84).

والأوزاعي، والشافعي، وأحمد بن حنبل<sup>(\*)</sup> وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداوود بن علي، والطبري، ومن سلك سبيلهم فقالوا الإيمان - قول وعمل - قولٌ باللسان وهو الإقرار، واعتقاد القلب، وعمل بالجوارح، مع الإخلاص بالنية الصادقة<sup>(1)</sup>.

ومن العلماء المعاصرين، من يجعل العمل من معاني الإيمان حيث يقول: لا يجوز أن ننظر إلى الإيمان والإسلام بمعزلٍ عن العمل، إذ أن مثل هذه النظرة قاصرة، وبعيدة عن الفهم الصحيح - فأن تؤمن - يعني أن تعمل<sup>(2)</sup>.

بل وأكثر من ذلك بوب البخاري، في صحيحه باباً سماه باب من قال: (إن الإيمان هو العمل) ثم ذكر الحديث بسنده عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل أي العمل أفضل؟ فقال: "إيمان بالله ورسوله" قيل ثم ماذا؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، قيل ثم ماذا؟ قال: "حج مبرور"<sup>(3)</sup>.

ومنسجماً مع هذا أيضاً، فإن الذنوب والأعمال السيئة تؤثر في

• هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، إمام المذهب، وعالم الحديث، قال أبو ثور أحمد بن حنبل أعلم وأفقه من الثوري، ولد سنة 164هـ، وتوفي سنة 412هـ، فرحمه الله ورضي عنه .

1 - أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، كتب الإيمان، تحقيق عصام الدين الصباطي، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص196 .

2 - طلعت محمود سقير، الإسلام دين العمل، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، 1999م ص65.

3 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال الإيمان قول وعمل، ج 1 ص 17، حديث رقم 26 . وانظر فتح الباري على صحيح البخاري، ج 1 ص 93 .

الإيمان وتنقصه، كما تزيده وتقويه الأعمال الصالحة، جاء في صحيح مسلم من حديث حذيفة<sup>(\*)</sup> رضي الله عنه قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "تعرض الفتن كالحصير عوداً عوداً، فأى قلبٍ أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلبٍ أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً<sup>(\*\*)</sup>، كالكوز مجخياً<sup>(\*\*\*)</sup>، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه"<sup>(1)</sup>.

إذا فمما لاشك فيه أن الذنوب لها تأثير على القلوب التي هي مودع الإيمان، وبها تكون المعتقدات .

وفي حقيقة الأمر، إن هذا مشاهد من الواقع، وبالتجربة، فكم سمعنا عن أناس علم صلاحهم، وظهر نقاؤهم، فكم كان ذلك مؤثراً في سمعتهم وخلقتهم، بحيث يشهد لهم الناس بالإيمان والثبات، وذلك نتيجةً للصلاح والتقى، وعلى العكس من ذلك، الذين يقترفون المنكرات، ويأتون المحذورات ما ظهر منها وما بطن، حتى صاروا لا يؤمنون على شيء،

• هو حذيفة بن اليمان بن جابر بن عمرو الأنصاري، كاتم سر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، من كبار الصحابة رضي الله عنهم، شهد أحداً وما بعدها، وهو الذي أشار على عثمان رضي الله عنه بنسخ المصحف، تولى المدائن وبقي بها حتى مات بعد مقتل عثمان، سنة 36 هـ . ( شجرة النور الزكية التتمة ص 84).

•• شدة البياض في سواد .

••• المعنى المراد منكوساً .

1 - صحيح مسلم، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم/207، مختصر عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق محمد بن عبادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا 2005م، ص37.

ولا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ، فهم كالخشب المسندة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (1).

و يشترط للعمل الإيماني لكي يكون صالحاً طيباً مشروعاً شروطاً

نجمها فيما يلي :

1- النية، وهي شرطٌ في جميع الأعمال، وقد جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" (2). فلا عبرة للعمل من دون النية، فلا يثاب المرء إلا على نيته، ولذلك يصحُّ أن نقول إن مناط الأعمال، وروحها هو: (الإخلاص).

2- أن يكون ممّا أمر الشارعُ به وجعله سبباً في مرضاته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (3).

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ

1 - سورة المنافقون الآية 4.

2 - صحيح البخاري، باب بدء الوحي، حديث رقم/1، وباب النية في الإيمان، حديث رقم/1695، باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الإيمان وغيرها، حديث رقم/6439، صحيح مسلم، باب قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، حديث رقم/3530، سنن أبي داود، باب فيما عني به الطلاق والنيات، حديث رقم/1882، وقد روى الحديث في معظم الكتب والمسانيد .

3 - سورة الأنفال الآية 3.

## الْبِرَّةُ ﴿١﴾

3- أن يكون مما أذن الشارع فيه وجعله مباحاً، سواء كان في المعاملات الخاصة أو العامة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ (2).

وفي موطأ مالك من حديث عطاء بين يسار قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ألا أخبركم بخير الناس منزلاً؟ رجل أخذ بعنان فرسه جاهد في سبيل الله، ألا أخبركم بخير الناس منزلاً بعده؟ رجل معتزل في غنيمته يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد الله لا يشرك به شيئاً" (3).

جاء في شرح الزرقاني للموطأ ما نصه: "ففيه فضل العزلة لما فيها من السلامة من الغيبة واللغو وغيره، ويذكر الجمهور أن محل ذلك وقت وقوع الفتن، وجاء في الحديث يأتي على الناس زمان يكون خير الناس فيه منزلةً من أخذ بعنان فرسه في سبيل الله يطلب الموت في مظانه، ورجل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويدع الناس إلا من خير" (4).

1 - سورة البينة الآية 7 .

2 - سورة النور الآية 61 .

3 - موطأ مالك، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، باب الترغيب في الجهاد، حديث رقم/852، سنن النسائي، باب من يسأل بالله عز وجل ولا يعطي به، حديث رقم/2522، مسند الإمام أحمد، باب بداية مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم/2778.

4 - محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 2 ص 11.

ومن خلال التأمل في هذا الحديث، يتبين فضل العزلة في زمن الفتن، وظهور الخلاف والشقاق، ومدى ارتباط الأعمال بتوحيد الله والإيمان به وعدم الإشراف به، ومدى ارتباط العقيدة حقيقةً بالصلاة والزكاة، وغيرها من الأعمال كالجهاد، وكف الأذى عن الناس، فلا إيمان من دون عمل، والعمل من دون الإيمان مردود على صاحبه .

### تأثير الذكر في الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (1).

جاء في موطأ مالك من حديث سعيد بن المسيب قوله في الباقيات الصالحات: "إنها قول العبد: الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله" (2).

إن لهذا الذكر أثراً عظيماً في الإيمان، بل وفي حياة المؤمن بأكملها حيث إن الله تعالى ذكر في كتابه (الباقيات الصالحات) بعد الحديث عن الأموال والأولاد، حيث قال عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ثم تلى بذكر الباقيات الصالحات، وهي كما مر علينا من حديث سعيد ابن المسيب، "قول المسلم....، إذا فهي أقوال، ولكن مع هذا عُدَّتْ من أعمال الإيمان، بل ومن أعظمها، فهذه الأذكار من الباقيات، وقد قابلها تعالى بالفانيات الزائلات، ولكنها أعظم في الأجر عند الله من هذه

1 - سورة الكهف الآية 46 .

2 - شرح الزرقاني على الموطأ، ج 2 ص 39 .



الزائلات الفانيات، أي قول المؤمن: الله أكبر، والحمد لله، ولا إله إلا الله - ولا حول ولا قوة - أي لا تحول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلا بالله، وهو قول ابن عمر وعطاء بن أبي رباح وأكثر العلماء، فهي جماع الذكر<sup>(1)</sup>.

وفي فوائد الذكر وفضله وتأثيره على أعمال القلوب، يذكر الإمام مالك الرواية عن عيسى بن مريم عليه السلام، حيث قال رحمه الله: "إن عيسى ابن مريم كان يقول: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرياب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مُبتلى ومُعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية"<sup>(2)</sup>.

والإمام مالك رحمه الله، إنما استشهد بكلام عيسى عليه السلام، ليدل على حقيقة مهمة جداً، وهي أن القلوب تتأثر بالأقوال، وأن كلام اللسان، يؤثر في الجنان، لذلك قال سيدنا عيسى عليه السلام: (فتقسوا قلوبكم)، وهل كانت قسوة القلب هذه إلا بكثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى.

### من أعظم العمل قول لا إله إلا الله:

لا يخفى أن قول: (لا إله إلا الله) هي جماع الخير كله، وهي الفيصل بين الإسلام والكفر، وهي من أعظم الذكربل ومن أفضل الأعمال، وهي توحيد خالص لله تعالى، قال العلامة الزركشي: "قول لا

1 - شرح الزرقاني، ج 2 ص 39

2 - موطأ مالك، ص 372 .

إله إلا الله" فيه خاصيتان:

إحدهما: أن جميع حروفها جوفية، ليس فيها شيء من الحروف الشفهية للإشارة إلى الإتيان بها من خالص جوفه، وهو القلب، لا من الشفتين فحسب.

الثانية: أنها ليس فيها حرف معجم، بل جميعها متجردة عن النقط، إشارة إلى التجرد عن كل معبود سوى الله تعالى<sup>(1)</sup>.

جاء في الموطأ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: "من قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" مائة مرة؟ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك"<sup>(2)</sup>.

إن ترتيب هذا الأجر العظيم، والثواب المضاعف من الله تبارك وتعالى على هذا الذكر المحدود بعدد معين، ولا يستغرق كثيراً من الوقت، إن تعليق هذا الثواب الجزيل من الله تبارك وتعالى، لدليل على عظم هذا الذكر، وماله من فضل ومكانة، عند الله تبارك وتعالى.

ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمّاه عملاً، حيث قال: (إلا أحدٌ عمل) وهو عليه الصلاة والسلام ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌّ يوحى، وكل كلمة يقولها، لها مدلولها ومعناها المقصود، فهذا الذكر من أعمال

1 - رسالة (معنى لا إله إلا الله) للعلامة الزركشي، دار التراث الإسلامي، القاهرة،

1975م، ص3.

2 - الموطأ بشرح الزرقاني، ج2 ص35.

الإيمان التي يثيب الحق تبارك وتعالى عليها، بل ويعطي عليها عظيم الأجر - عدل عتق عشر رقاب - وثواب مائة حسنة - ومحو مائة سيئة - والحرز من الشيطان - بل وزيادة على ذلك لم يأت أحد بأفضل من عمله إلا من عمل مثل عمله أو زاد عليه.

ومن هنا نقول: إن الأقوال اعتبرها الشارع من الأعمال، وهي من الدلائل على ما في القلوب من الإيمان، فلا ينطق اللسان إلا بما قرئ في الجنان، ولا تتحرك الشفاه إلا بما اقتنعت به الأنفس، فإذا كان اللسان دلالةً على ما في القلوب، وهو عملٌ على كل حال، والعلاقة بينه وبين باقي الجوارح وثيقةٌ جداً، بل هو ترجمانها ودليلها، إذاً فالتسويق بينهما ضروريٌّ ولا بد من تلازم العمل الصالح مع الإيمان، ولا إيمان بدون عمل، ولا عمل مقبول من دون الإيمان قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (1).

وحتى يكون الأمر أكثر وضوحاً، في باب الأعمال، فلا بد أن نعرف العمل من حيث ماهيته ووصفه، وبناءً عليه يمكننا تقسيم العمل من حيث ماهيته إلى ما يلي:

1 - عمل خبيث يفسد صاحبه، ويبعده عن الله، وهذا عمل المفسدين في الأرض، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (2).

2 - عمل صالح طيب، يكون سبباً في سعادة صاحبه وينور قلبه

1 - سورة ص الآية 28 .

2 - سورة الجاثية الآية 21 .

ويريح باله، وينقسم إلى قسمين :

أ - عمل صالح لا يثاب عليه فاعله، لأنه افتقد شرط الإيمان، وذلك كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً، رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" (1).

ب - عمل صالح يثاب فاعله، وهو ما كان عن نية وقصد، وهو ما يوصف بالإخلاص لله تبارك وتعالى، والحقيقة أن الإنسان المسلم يثاب بقدر إخلاصه لله، وتتفاوت أعماله بحسب إخلاصه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (2).

وهذا العمل الصالح من الأنفس المؤمنة - يثاب عليه فاعله، وهم أهل الفوز في الدارين، وأهل الرضا والهداية قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (3).

ويمكن أن نصف العمل الصالح بشكْلٍ عام: أنه ما تطمئن إليه

1 - صحيح مسلم، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، حديث رقم/315، مسند الإمام أحمد باب حديث السيدة عائشة، حديث رقم/23480، حديث رقم/23745، مستدرک الحاكم، تفسير سورة الشعراء، حديث رقم/3483.

2 - سورة البينة الآية 5 .

3 - سورة النور الآية 55 .

النفس المؤمنة، ولا يتعارض مع سعادة الإنسان.  
 إذا فالأعمال من علامات الإيمان، ودليل عليه، والسؤال الوجيه هنا:  
 هل يزيد العمل في الإيمان أو ينقصه؟  
 للإجابة عن هذا السؤال لابد أن نعلم أن العلماء قديماً، وحديثاً، قد  
 تناولوا هذه المسألة بالبحث والتحليل، ولهم فيها آراء متعددة نوردها على  
 هذا النحو:

#### أ. رأي الأشاعرة والماتردية:

يرى المتأخرون من الأشاعرة والماتردية: أن الأعمال تؤثر في الإيمان  
 سلباً وإيجاباً، فالطاعة تزيد في الإيمان، والمعصية تنقصه، واستدلوا بقول  
 الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ  
 يَتَوَكَّلُونَ﴾ (1).  
 أما الأشاعرة المتقدمون فيرون أن مفهوم الإيمان مساوٍ للتصديق،  
 ويرى الأشعري كذلك ومعه كثير من علماء الأشاعرة أن الأعمال لا تدخل  
 في مسمى الإيمان (2).

#### ب. رأي الإمام أبي حنيفة وكثير من المتكلمين:

إن الأعمال لا تزيد الإيمان ولا تنقصه، ودليلهم في ذلك أن الإيمان  
 اسم للتصديق البالغ إلى حد الجزم والإذعان، وهذا لا يتصور فيه زيادة لأنه  
 ليس هناك درجة للتصديق أعلى منه، وإذا نقص عن هذا القدر سمي

1 - سورة الأنفال الآية 3 .

2 - Frank, Richard M. Knowledge and Taqlid: The Foundations of Religious Belief In  
 Classical Ash'arism in Journal of the American Oriental Society, vol. 109, no. 1  
 1989,p.38 my translation

شكاً، والشك يناهز الإيمان، فالمؤمن مؤمن حقاً، والكافر كافر حقاً، وليس في الإيمان شك<sup>(1)</sup>.

وفي هذه المسألة بالذات وهي مسألة تأثير العمل في الإيمان، خالف فيها الإمام أبو حنيفة باقي الأئمة الأربعة<sup>(2)</sup>.

### ج. المرجئة :

يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهو إقرار بالقلب، ويستوي على هذا عندهم إيمان أهل المعاصي مع إيمان أهل الطاعة، ما دامت المعصية لا تخرج صاحبها من الملة، ومن دائرة الإيمان، فلا يضر عندهم مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة<sup>(3)</sup>.

وهذا ما ذكره في العقيدة الواسطية، شيخ الإسلام ابن تيمية حيث وصفهم بأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية؛ فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان، ولا يستحق دخول النار<sup>(4)</sup>.

1 - أبو حنيفة النعمان، (الفقه الأكبر)، محمد بن عبد الرحمن الخميس، الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسويين لأبي حنيفة، مكتبة الفرقان، 1999م، الإمارات العربية، ص121، وانظر - مذكرة التوحيد والفرق، حسن السيد متولي، المكتبة الأزهرية، (بدون تاريخ طباعة)، ج1ص53.

2 - محمد عبد الرحمن خميس، تعقبات الأئمة الأربعة، دار طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1422هـ، ص7.

3 - الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، ص165.

4 - محمد خليل هراس، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، 1992م، ص251.

ومن أقوالهم كذلك، كما يذكر الشيخ الراجحي: "لا كفر إلا باعتماد، فهذا قول المرجئة، وذهبت طائفة منهم إلى التسوية بين إيمان الملائكة وإيمان أهل الكبائر"<sup>(1)</sup>.

وإن انقسم المرجئة إلى طوائف متعددة، لكن مذهبهم في العموم، يدعو إلى فصل الإيمان عن العمل.

ولقد اعتبر الإمام مالك الآية من سورة البقرة، أعظم رد على المرجئة، وهي قول الحق جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾<sup>(2)</sup>، حيث فسّر مالك الصلاة بالإيمان، ثم قال: يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان<sup>(3)</sup> وهذا بيان واضح من الإمام مالك بنفسه، إلى أن من أخص أصول المرجئة، أنهم يفصلون الأعمال على الإيمان، وهذا بطلانه واضح كما ذكر مالك، وبقول مالك، أخذ كثير من علماء السلف ممن جاءوا بعد مالك.

يقول: **Izutsu Toshihik** في مناقشته لمفهوم الإيمان وعلاقته بالعمل، ناقلاً وجهة نظر بن تيمية في المرجئة، حيث قال: إنهم يحصرون الإيمان في قول اللسان وإقرار القلب فقط، ثم أضاف قائلاً إنهم بهذا يثبتون تعريفاً آخر للإيمان مفاده، أن أهم ركن في الإيمان هو الإقرار القلبي الذي يجعل الأعمال لا قيمة لها، وقال إن هذا ما اعتبره ابن تيمية كفراً<sup>(4)</sup>.

1. أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، ص 6 .

2. سورة البقرة الآية 143 .

3. الإمام مالك مفسراً، حميد لحمر، ص 209 .

4. Izutsu, Toshihiko, The Concept of Belief in Islamic Theology, p172 . my translation .

ويذهب بعض العلماء والباحثين من أهل السنة في عصرنا الحاضر، إلى تقسيم المرجئة إلى أربعة أقسام<sup>(1)</sup>.

**القسم الأول - الجهمية:** الذين قالوا إن الإيمان مجرد المعرفة، والأعمال ليست من الإيمان، فإيمان أفسق الناس كإيمان أكمل الناس، ويقولون، لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة<sup>(2)</sup> وهؤلاء هم أضل فرق المرجئة.

وعلى هذا فتعريف الإيمان عند الجهمية يختزل في معرفة الرب بالقلب والكفر هو جهل الرب بالقلب، فعندهم المؤمن هو الذي عرف ربه بقلبه، والكافر هو الذي جهل ربه بقلبه، وهذا من أفسد وأقبح المعتقدات على الإطلاق، وهذا ما يسميه العلماء بمرجئة الجهمية، وعلى هذا، فإن إبليس يعتبر مؤمناً على قول هؤلاء - فهو يعرف ربه، بدليل قوله لله تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾**<sup>(3)</sup>. وفرعون أيضاً من المؤمنين على قولهم - فإن الله قال عنه وعن قومه: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾**<sup>(4)</sup>.

1 - أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل، شرح الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله الراجحي،

نقلاً عن موقع العقيدة والأديان المعاصرة. 10. 19. 2008م www.alaqidah.com.

2 - محمد بن خليفة بن علي التميمي، مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات،

أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2002م، ص86

3 - سورة ص الآية 79 .

4 - سورة النمل الآية 14 .



**القسم الثاني - الكرامية:** ومؤسس هذه الجماعة هو: محمد بن كرام<sup>(1)</sup>، وهم يعتقدون أن الإيمان هو النطق باللسان دون القلب<sup>(2)</sup>. فكل من قال: لا إله إلا الله، فهو مؤمن ولو كان لا يعتقد الإيمان في قلبه، فقط يقول هذا بلسانه فهو مؤمن، كامل الإيمان عند الكرامية، ويقولون بخلوده في النار، لأنه ليس مؤمناً من قلبه، وهو مؤمن لأنه نطق بلسانه، فهم بهذا يجمعون بين المتناقضين.

**القسم الثالث - مجموعة من المتقدمين من الماتريدية، والأشاعرة:** فقد ذهبوا إلى أن الإيمان هو مجرد التصديق، ولو لم ينطق بلسانه، وهذه إحدى الروايات التي رويت عن الإمام أبي حنيفة، حيث يرى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، من دون إقرار اللسان<sup>(3)</sup>.

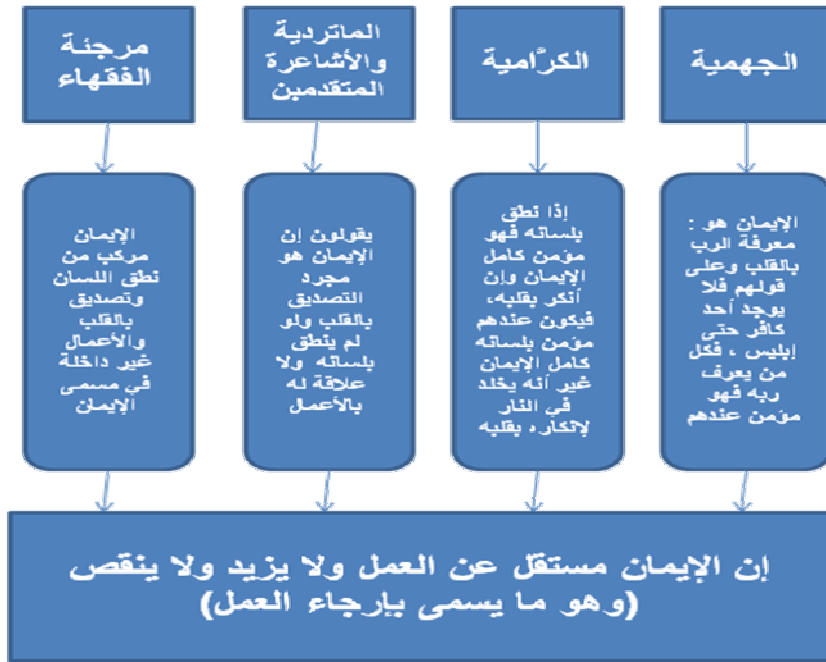
1 - قال عنه ابن حجر في الميزان: هو محمد بن كرام السجستاني، المتكلم العابد، شيخ الكرامية ساقط الحديث على بدعته، أكثر عن حميد والجويباري ومحمد بن تميم السعدي وكانوا كذابين، قال ابن حبان: خذل حتى التقط من المذاهب أرداها ومن الأحاديث أوهاها. وقال أبو العباس السراج: شهدت البخاري ودفع إليه كتاب من ابن كرام يسأله عن أحاديث منها: الزهري عن سالم عن أبيه مرفوعاً: "الإيمان لا يزيد ولا ينقص" فكتب أبو عبد الله على ظهر كتابه: من حدث بهذا استوجب الضرب الشديد والحبس الطويل. وقال ابن حبان: جعل ابن كرام الإيمان قولاً بلا معرفة. وقال ابن حزم: قال ابن كرام: الإيمان قول باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن. قال ابن حجر: هذا منافق محض في الدرك الأسفل من النار قطعاً فأى شيء يسع بن كرام أن يسميه مؤمناً. انظر: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، باب من اسمه محمد، ج 2 ص 468.

2 - الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص 141.

3 - أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل، شرح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

القسم الرابع - مرجئة الفقهاء - وهؤلاء يعرفون الإيمان بأنه تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وأما الأعمال فمستقلة عن مسمى الإيمان، وهذه هي الرواية الثانية عن الإمام أبي حنيفة وعليها أكثر أصحابه، وسماهم بعض أهل العلم بمرجئة الفقهاء، وهم أهل الكوفة، وأول من قال بهذا النوع من الإرجاء حماد بن سليمان، شيخ الإمام أبي حنيفة<sup>(1)</sup>.

ويلاحظ أن طوائف مرجئة الأعمال التي سبق ذكرها، تشترك جميعها في أن الأعمال لا تزيد في الإيمان ولا تنقصه، وعلى التقسيم السابق فإننا نصور المرجئة بجميع فرقها على نحو هذا الجدول، وهو شكل رقم<sup>(1)</sup>



شكل رقم (1)

1 - محمد بن محمود الخضير، الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات

## د . الخوارج والمعتزلة:

يقولون : إن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، كما يرون أن من يعمل معصيةً من كبائر الذنوب يخرج من الإيمان ، ويقولون بأنه كافرٌ ، غير أن المعتزلة ينفون عنه الإيمان ولا يصفونه بالكفر ، بل يقولون هو في منزلة بين المنزلتين ، ويرى بعض الباحثين - كأمثال Wensinck - أن المعتزلة قد خالفوا بقولهم هذا جمهور المسلمين ، وأضاف - وهم مع هذا كله يطلقون على أنفسهم لقب - أهل العدل والتوحيد ، ويسمون أنفسهم أيضاً أهل الوعيد ، وهم بهذا يرسخون مذهبهم الذي يقول بأن أهل الكبائر لا شفاعة لهم<sup>(1)</sup>.

## هـ . الشيعة:

يذهب الشيعة إلى أن مرتكب المعاصي باقٍ على أصل الإيمان ، وترى الإمامية من أهل الشيعة أن مرتكب الكبيرة مؤمنٌ فاسق ، وهذا ما ذهب إليه الطوسي ، والسبحاني ، وهم من أئمة الشيعة الإمامية<sup>(2)</sup>.

## و . أهل السنة:

وهم عموم الأمة من لدن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام ، والتابعون لهم بإحسان ، وعلى رأسهم كبار التابعين وأئمتهم كسعيد بن المسيب ، وابن سيرين ، والحسن البصري وسفيان بن عيينة ،

1 Wensinck, A.J., The Muslim Creed: Its Genesis and Historical Development, India: Delhi, . 1 Munshiram Manoharlal Publishers Pvt. Ltd. New Delhi, India 1979.P.60,6.my translation.

2 - جعفر السبحاني ، بحوث في الملل والنحل ، مؤسسة النشر الإسلامي ، الطبعة الثالثة ،

ومالك، والشافعي بن ادريس، وأحمد بن حنبل وغيرهم، فقد كان رأيهم في هذه المسألة متمشياً مع صريح النصوص، والتي تدل على أن الإيمان يزيد وينقص بالأعمال، فأعمال البرّ تزيد، وأعمال الفجور تنقصه، وهذا رأي عموم أهل السنة وعلماء السلف، قال شيخ الإسلام بن تيمية في هذا المضمار: "ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"<sup>(1)</sup>.

إنّ هذا الذي ذكره شيخ الإسلام، كلام وافٍ ومختصر، لخص فيه عقيدة أهل السنة والجماعة في تأثير الأعمال على الإيمان، وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام قولٌ مجمعٌ عليه عندهم، لم يذكر له مخالفٌ عند من يعتد برأيه من علماء السلف، وابن تيمية في هذا إنما هو يستشهد بقول هؤلاء الأئمة الأعلام، وعلى رأسهم الإمام مالك، الذي نُقل عنه قوله: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص" كما سيأتي بيان قول مالك مفصلاً. قال الإمام النووي: "أجمع أهل الحق على أن الزاني، والسارق، والقاتل، وغيرهم من أصحاب الكبائر لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عز وجل أدخلهم الجنة، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة"<sup>(2)</sup>.

1 - شيخ الإسلام بن تيمية، العقيدة الواسطية، شرح محمد صالح العثيمين، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، 1998م، ج 2 ص 211.

2 - النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق: محمد الصبايطي، حازم محمد، عماد عامر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2001م، ج 1 ص 319.

تنبيه:

الإمام النووي أحد الأئمة الأوائل الثقات، صاحب الشرح المشهور على صحيح مسلم، وهو من أتباع المذهب الشافعي، ومعلوم أن المدرسة الشافعية، تعتبر متطابقة مع المدرسة المالكية، من حيث الاعتقاد في مسائل الإيمان المختلفة، ونحن إذ نستشهد بقوله، أو بقول واحد من علماء السلف، كأمثال ابن تيمية، أو ابن حجر، أو غيرهم ممن انتسبوا لغير المذهب المالكي في الفقه، فنحن إنما نورد آراءهم خاصة في مسائل الاعتقاد، لاتفاقها مع المذهب المالكي، فمن رحمة الله بهذه الأمة أن علماءها الأوائل لم يختلفوا في مسائل الأصول والاعتقاد، إنما كان اختلافهم، في الفروع وقضايا الفقه التي تحتل الآراء المتعددة، والاختلاف فيها إنما هو من قبيل التنوع في الاجتهاد.

ونقل عن الإمام المالكي المشهور، ابن عبد البر، في شرحه للموطأ المسمى - التمهيد - <sup>(1)</sup> قوله: أجمع أهل الفقه، والحديث على أن الإيمان قولٌ

1 - كتاب فريد في بابه، موسوعة شاملة في الفقه والحديث وهو كتاب شرح فيه ابن عبد البر كتاب الموطأ للإمام مالك ولكنه رتبته ترتيباً آخر يختلف عن ترتيب الإمام مالك حيث إنه رتبته بطريقة الإسناد على أسماء شيوخ الإمام مالك الذين روى عنهم ما في الموطأ من الأحاديث، فلقد جمع أحاديث كل راوٍ في مسند على حدة معتمداً في ترتيبهم على حروف المعجم وترجم للرواة وخرج الأحاديث وشرحها لغويًا وفقهياً، وذكر آراء أهل العلم والفقه، وقد اقتصر فيه على ما ورد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحديث، متصلًا، أو منقطعًا، أو موقوفًا، أو مرسلًا، دون ما في الموطأ من الآراء والآثار، لأن هذه أفردتها بكتاب آخر سماه الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار، فيما نظم الموطأ من معاني الرأي والآثار "وقد قضى في تأليف كتاب التمهيد أكثر من ثلاثين سنة، يقول بن حزم عن التمهيد: كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً، فكيف أحسن منه، توفي ابن عبد البر سنة 463هـ، (اصطلاح المذهب عند المالكية، ص 297).

وعملٌ، ولا عمل إلا بنيةً، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان، إلا ما كان من أبي حنيفة وأصحابه، فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعة لا تسمى إيماناً، وقالوا إنما الإيمان التصديق والإقرار.

ويذهب Wilferd إلى أن - الطوائف على مختلف مسمياتها وانقسامها في مسألة الإيمان وتأثره بالأعمال، لا تخرج عن رأيين، الفريق الأول، يرى أن الإيمان يشمل الإخلاص لله بالقلب، والشهادة باللسان، وعمل الجوارح، أما الفريق الثاني كما يذكر Wilferd، وهو في هذا ينقل كلام أبي عبيد القاسم بن سلام، فيقول يرى أصحاب الرأي الثاني أن الإيمان في القلوب والألسنة، أما العمل فهو عبارة عن التقوى والبر، وليس داخلياً في مسمى الإيمان، وأضاف أيضاً، وعلى هذا ووفقاً لأبي عبيد، فإن القرآن والسنة يؤكدان قول الفريق الأول<sup>(1)</sup>.

وفي بيان رجحان ما ذهب إليه أهل السنة من اعتقاد في زيادة الإيمان ونقصانه، يقول الإمام إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة:

ورُجِحَتْ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ      بِمَا تَزِيدُ طَاعَةَ الْإِنْسَانِ  
وَنَقَصَهُ يَنْقُصُهُ وَقِيلَ لَا      وَقِيلَ لَا خُلْفَ كَذَا قَدْ نُقِلَ<sup>(2)</sup>

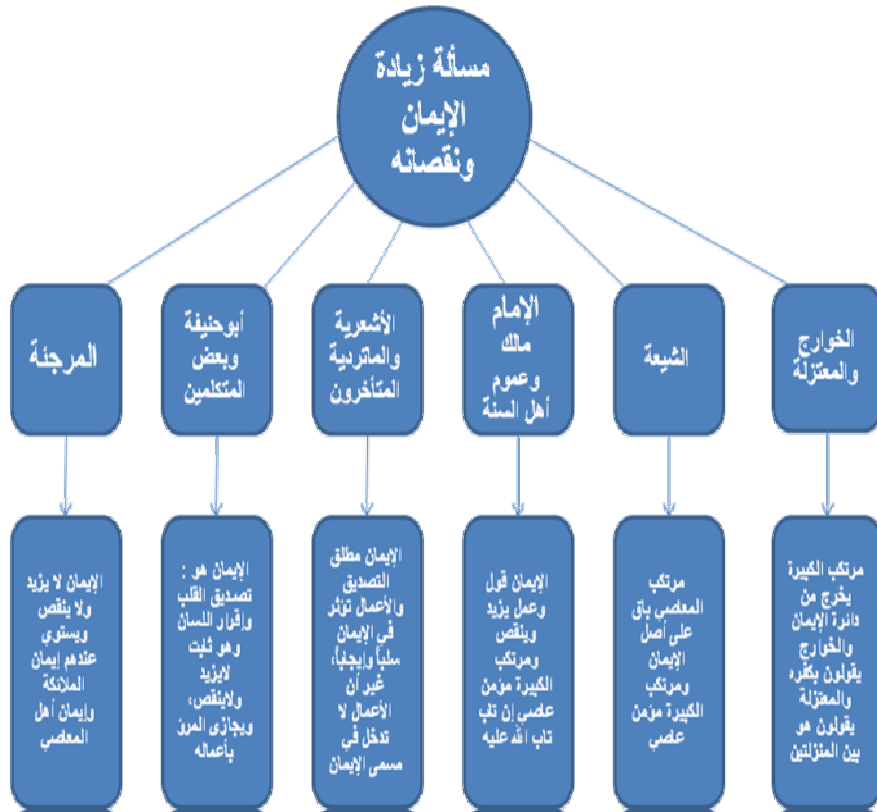
1 - Madelung, Wilferd, Early Sunni Doctrine Concerning Faith as Reflected in the Kitab al .

Qasim B. Sallam d. 224/438 in Studia Islamica, no. 32 1970, pp . Iman of Abu 'Ubayd al. 233-254. my translation .

2 - أحمد بن محمد المألّكي الصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تحقيق وتعليق: عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، 1997م،

يقول العلامة الصاوي المألِكِي في شرحه لهذه الآيات: إن عمل الجوارح من كمال الإيمان، فمن صدَّق بقلبه، ونطق بلسانه، ولم يعمل بجوارحه، فهو مؤمن ناقص الإيمان<sup>(1)</sup>، وبزيادة الأعمال الصالحة، يزيد الإيمان، وهذا هو رأي الإمام مالك، وعامة أهل السنة والجماعة.

ويمكن أن نلخص أقوال العلماء في هذه المسألة، ونجملها في الجدول الآتي: شكل رقم<sup>(2)</sup>.



1 - شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص 143.

## • مقارنة بين كلام الإمام مالك وأبي حنيفة وغيره في مسألة الإيمان:

يطلق بعض العلماء على الإمام أبي حنيفة وأصحابه اسم مرجئة الفقهاء، وقد ذكر هذا الشيخ الراجحي، في كتابه: (أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر)، حيث قال: إنه ثمة فرق بين اعتقاد جمهور الأئمة مالك والشافعي وأحمد في هذه المسألة، واعتقاد أبي حنيفة وأصحابه<sup>(1)</sup>، ويرى بعض الباحثين في هذا المجال أن هذا الاسم لم يكن مصدره أهل السنة بل على العكس من ذلك، وهذا ما ذكره Pessagno، وأضاف أيضاً إن الشهرستاني يذكر في كتابه: (الملل والنحل)، أن سبب هذه التسمية كون أبي حنيفة خالف القدرية والمعتزلة، والمعتزلة دائماً يسمون مخالفيهم في القدر مرجئة، وأيضاً كما يفعل العبادية، وهم فرقة من الخوارج<sup>(2)</sup>.

وسواء أطلقت هذه التسمية على مرجئة الفقهاء من أهل السنة أو من غيرهم، فالحق أن هذا اسم صاروا يعرفون به، على الرغم من الجدل القائم حول صحّة وصفهم بهذا الوصف، وعلى كل حال؛ يمكن أن نجمل المسائل التي أتاها مرجئة الفقهاء، وما خالفوا فيها أهل السنة فيما يلي:

1 - إن جمهور أهل السنة وافقوا الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى، فتأدّبوا مع النصوص، ومرجئة الفقهاء وافقوا الكتاب والسنة معنىً

1 - عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والأديان المعاصرة، أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، 1422هـ، ص 8.

J.Meric pessagno, The Murji'a, Iman and Abo Ubayd . Journal of American, Oriental society, - 2 vol. 95 ,no.3,1975, pp.382. 294. my translation.



وخالفوهما لفظاً، ولا يجوز للمسلم أن يخالف النصوص لا لفظاً ولا معنى قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (1).

فبين الله تعالى أن هذه الأعمال كلها من الإيمان، فوجل القلب عند ذكر الله، هذا عمل قلبي، وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن، عمل قلبي أيضاً، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عمل قلبي، ويشمل أيضاً أعمال الجوارح من فعل الأسباب والإنفاق مما رزقهم الله، كل هذه الأشياء سماها إيماناً (2)، ويشهد لذلك أيضاً حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - "الإيمان بضع وستون شعبة" (3)، وهذا من أقوى الأدلة في دحض كلام مرجئة الفقهاء.

2 - إن خلاف مرجئة الفقهاء مع جمهور أهل السنة فتح باباً للمرجئة المحضة الغلاة فإن مرجئة الفقهاء بقولهم: "إن الأعمال ليست من الإيمان، وإن كانت واجبة" فتحوا باباً للمرجئة المحضة فقالوا: الأعمال ليست واجبة وليست مطلوبة، ولهذا قالوا: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، هذه كلها ليست بواجبة، ومن عرف ربه بقلبه، فهو مؤمن كامل الإيمان، ويدخل الجنة، والأعمال ليست مطلوبة، والذي فتح لهم هذا الباب،

1 - سورة الأنفال الآية 4 .

2 - أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، الراجحي، ص10 .

3 - الحديث سبق تخريجه، وهو في صحيح البخاري، ومسلم وغيرهما، صحيح البخاري، باب أمور الإيمان، حديث رقم/8، ونصه: "عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان"، صحيح مسلم، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها، حديث رقم/50 .

وشجعهم على هذا القول، هم مرجئة الفقهاء.

3 - هذا الرأي لمرجئة الفقهاء، فتح الباب على مصراعيه للفساق، والجهلة، والزنادقة، ولجميع العصاة، للتمادي في غيهم وفسادهم، فالقول بأن الإيمان ثابت يجرى هؤلاء على المعاصي، إذا فليفعل العاصي ما يشاء من الذنوب والمعاصي، يسرق وينهب ويقتل، وهذا لا يؤثر في أصل إيمانه، وهذا ينذر بمفسدة عظيمة لا يعلم مداها إلا الله.

4 - إن مرجئة الفقهاء يمنعون الاستثناء في الإيمان، بقول القائل: أنا مؤمن إن شاء الله، ويسمون المستثنين بأنهم المتشككون في إيمانهم، على خلاف أهل السنة، فإنهم يفصلون في المسألة فيقولون إذا قال هذا على سبيل الشك في أصل الإيمان فممنوع، أما إذا قالها من قبيل عدم تزكية النفس، وأن عرى الإسلام متعددة، والإنسان يخشى من التقصير في جنب الله، وأنه لا يعلم العاقبة، فلا بأس به، كذلك لو قالها من قبيل التبرك باسم الله، فيجوز<sup>(1)</sup>.

ومع هذا، فإنه لا يستطيع أحد أن يخرج أبا حنيفة ومذهبه من طليعة علماء أهل السنة والجماعة، ولقد تبرأ الإمام أبو حنيفة ممن نسب إليه الإرجاء؛ فقال في رسالته المشهورة إلى البتّي: وأما ما ذكرت من اسم المرجئة، فما ذنب قوم تكلموا بعدل، وسماهم أهل البدع بهذا الاسم، ولكنهم أهل عدل، وأهل السنة، وإنما هذا اسم سماهم به أهل الشنآن<sup>(2)</sup>. وإنما قال ذلك بناء على تعريف الإرجاء عنده، وهو مذهب غلاة

1 - أسئلة وأجوبة في الإيمان، الشيخ الراجحي، ص12 (بتصرف كثير).

2 - رسالة أبي حنيفة إلى البتّي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مطبعة الأنوار بالقاهرة سنة 1386هـ، ص38، وأهل الشنآن أي أهل الخصومات والحساد.

المرجئة الذين يجعلون الإيمان: هو المعرفة فقط، فلا يضرُّ معه ذنب، والأمر ليس كذلك عند أبي حنيفة، فالعمل معتبرٌ من حيث أن للحسنات والسيئات حسابها، ولها تأثيرها على مصير العبد في الآخرة، وكفة ميزانه يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويفرقون بينهما بالثواب والعقوبة، وليست المرجئة المحضة كذلك.

وبالرغم من هذا فإن المسائل الخلافية بين مرجئة الفقهاء، وبين بقية أهل السنة ترجع إلى خلاف لفظي، في بعض المسائل المتنازع فيها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنه لم يكفر أحدٌ من السلف مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا بدع العقائد، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين<sup>(1)</sup>.

ولهذا كان للإمام مالك مع أبي حنيفة وأصحابه موقفٌ مختلفٌ، ولم يعتبر شبهة الإرجاء التي وقع فيها أبو حنيفة ومن سار على مذهبه، من الإرجاء المحض الذي يضرُّ بالعقيدة.

ولقد ذكر الأستاذ الأعظمي هذه المسألة فقال: لقد غير الإمام مالك موقفه من مدرسة الكوفة وأتباعها فيما رُموا به من تهمة الإرجاء<sup>(2)</sup>

1 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج2ص133، وانظر - الدكتور غالب بن علي عواجي، فرق معاصرة، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، الطبعة الرابعة، 2001م، ج3ص1086، وانظر: أبو إبراهيم الرئيس الحنفي، مقالة بعنوان (براءة الحنفية من الفرق المبتدعة)، 23/ربيع الثاني/1423، نقلا عن موقع [www.islamonline.com](http://www.islamonline.com).

2 - محمد محروس المدرس الأعظمي، وشائج الصلة المتميزة بين مذهبي الإمامين أبي حنيفة ومالك، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، كلية معارف الوحي، قسم الفقه والأصول، (بدون تاريخ) [www.almooodares.net](http://www.almooodares.net).

لأن جهم بن صفوان<sup>(1)</sup> يقول: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا مع الكفر طاعة، وحين استبان نوع إرجاء تلك المدرسة، وهو إرجاء الفقهاء الذي يوافق معاني النصوص ويستند إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(2)</sup>.

ولهذا نقول: إن الذين خاضوا في سب الأئمة نتيجة النقل المشوه، إنما وقعوا ضحية الإنكار الشديد من قبل أقرانهم من العلماء، وحين يستبين الأمر لهم فإنهم يرجعون إلى الحق، وهذا دلالة علمهم وتأكيدهم إمامتهم في الناس.

فحين أنكر الإمام الأوزاعي على أبي حنيفة، وصرح بذلك لعبد الله بن المبارك - التابعي المشهور - قام ابن المبارك بعمل ذكي، فجاء بمسائل عويصة من مسائل أبي حنيفة وأجوبتها - من غير تصريح بقائلها - فسأله الأوزاعي: لمن هذه المسائل؟ قال ابن المبارك: هي لشيخ في العراق اسمه النعمان بن ثابت، فقال الأوزاعي: هذا نبيل من المشايخ! اذهب واستكثر منه! فقال له: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه! ولما اجتمع الأوزاعي بأبي حنيفة في مكة، كشف له أبو حنيفة تلك المسائل بأكثر مما عرفه منها ابن المبارك، فلما افترقا، قال الأوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله، واستغفر الله لقد كنت في غلطٍ ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه<sup>(3)</sup>.

1 - جهم بن صفوان: متكلم ظهر بترمد، وقتله آخر خلفاء بني أمية، وهو من الجبرية الخالصة، ومما ذكر عنه أيضاً، أنه كان يقول إن الإنسان مجبر على أفعاله، وأنه لا استطاعة له. راجع - الملل والنحل الشهرستاني، ج1 ص190.

2 - سورة التوبة الآية 106.

3 - المجروحين لابن حبان، ج3 ص62، وانظر: أوجز المسالك إلى موطأ مالك للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ج1 ص174 تحقيق: أيمن صالح، الطبعة الأولى، 1999.

### رأي الإمام مالك في أثر العمل على الإيمان:

كان يقول بتأثير الأعمال سلباً وإيجاباً في العقيدة، فالإيمان يزيد بأعمال البرّ وينقص بأعمال الفجور والآثام، وعليه فإن الكفّ عن المعصية من أعمال البرّ وهي تزيد في الإيمان كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (1).

ولقد كان رأي الإمام مالك في هذه المسألة كما عُرِف عنه دائماً موافقاً لأهل السنة والجماعة، ولكن مع هذا فقد كان رأيه مميزاً بينهم، حيث التزم بما جاء به القرآن الكريم نصّاً وحرفاً، ولم يتعداه إلى ما سواه، حتى أنه نقل عنه - رحمه الله - تمام المتابعة لكتاب الله في هذا.

وكثيراً ما كان مالك يستشهد بآثار عمر بن عبد العزيز، ومن أقواله في هذا الباب رضي الله عنه: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي ابن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبيئها لكم حتى تعلموا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص" (2).

1 - سورة النساء الآية 31 .

2 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، وقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "بني الإسلام على خمس، وهو قول وفعل ويزيد وينقص"، ج 1 ص 11. وانظر: عبد الرحمن بن علي ابن محمد بن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، دار المنار، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2000م، ص 27.

وقد كان مالك ينهى عن أن يصف المؤمن نفسه بأوصاف يفهم منها عدم طمأنينة القلب بالإيمان، ومن ذلك ما نقل عنه في قوله لزهير بن عباد، حيث قال زهير بن عباد: قلت لمالك: ما قولك في صنفين عندنا، بالشام اختلفوا في الإيمان، فقالوا يزيد وينقص؟ قال: بئس ما قالوا.

قال زهير، قلت: قالوا: إنا نخاف على أنفسنا النفاق.

قال مالك: بئس ما قالوا.

قال زهير قلت: فإن قالوا نحن مؤمنون إن شاء الله، قالت الأخرى الإيمان واحد، وإيمان أهل الأرض كإيمان أهل السماء.

قال مالك: لا تقولوا.

قلت: نحن مؤمنون حقاً؟

قال: لا تقولوا.

قلت: فما ينبغي للطائفتين أن يقولوا؟

قال مالك: يقولوا: نحن مؤمنون، ثم يكفوا عما سوى ذلك من الكلام، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله... الحديث" <sup>(1)</sup>، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ

1 - صحيح البخاري، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة، حديث رقم/24، ونصه: عن ابن عمر، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله"، صحيح مسلم، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وهو عن أبي هريرة، حديث رقم/31، وحديث رقم/33، عن عبد الله بن عمر، وفي سنن أبي =

أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلْمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا» (1 x 2).

ومن هنا نلاحظ أن الإمام مالك، كان يرى أن الأعمال لها تأثير بالغ في الإيمان، فهي تزيد في الإيمان وتقصه، غير أنه - رحمه الله - كف عما لم يذكر في كتاب الله من نقصان الإيمان فقد أثر عنه قوله: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض"، قال ابن القاسم: "كان مالك يقول الإيمان يزيد وتوقف عن النقصان، وقال: ذكر الله زيادته في غير موضع، فدع الكلام في نقصانه، وكف عنه" (3).

وقال ابن عبد البر - رحمه الله -: "سئل مالك بن أنس عن الإيمان فقال قول وعمل، قيل: أيزيد وينقص، فقال: ذكر الله سبحانه في غير آي من القرآن أن الإيمان يزيد، قيل له أينقص، قال: دع الكلام في نقصانه وكف، قيل فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم" (4).

= داوود، باب على ما يقاتل المشركون، حديث رقم/2271، ونصه: عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن يستقبلوا قبلتنا وأن يأكلوا ذبيحتنا وأن يصلوا صلاتنا فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين"، وله روايات في باقي الكتب والمسانيد .

1 - سورة النساء الآية 94 .

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب اتباعه السنن، وكراهيته المحدثات وبعض ما روي عنه في عقائد أهل السنة والكلام في أهل الأهواء، ج1ص52، وانظر - الإمام مالك مفسراً، حميد لحمير، ص208 .

3 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ص202 .

4 - الانتقاء لابن عبد البر، ص32 .

ومما سبق من الآثار يتبين لنا - أن مَالِكاً كان يقصد أن الإيمان متداخلاً في الأعمال، بل هو جزء منها، ولأَ حَظاً للمرء في الإيمان من دون العمل، ولذلك نجده - رحمه الله - قال: في الرواية الأولى: (وبعضه أفضل من بعض)، وفي الرواية الثانية: يقرر للسائل أن الإيمان بعضه أفضل من بعض، ونحن نتساءل عما كان يقصده الإمام بقوله: (بعضه أفضل من بعض)؟ هل قصد الإيمان الذي هو بمعنى العقيدة؟ أم قصد الأعمال التي يتفاوت بعضها من حيث الأجر والثواب، والمكانة من الإسلام، كالصلاة مثلاً، والتي تعتبر عماد هذا الدين، والزكاة، والحج، والصوم، وغيرها من سائر العبادات.

### و لهذا يتبين من خلال التمعن في أقوال مالك ما يلي:

1 - زيادة الإيمان ونقصانه حقيقة لا جدال فيها عند مالك، تؤيدها النصوص الصحيحة، والنظر والتصور السليم، إذ لا معنى للأعمال ولا فرق في المعتقدات إذا لم تتحقق هذه الحقيقة، ويستوي على هذا إيمان عامة الناس بإيمان الملائكة والمرسلين - ويصبح كذلك إيمان آحاد الأمة المنهمكين على الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة، والخلفاء الراشدين<sup>(1)</sup>.

ولهذا نجد في روايات أخرى غير الرواية التي توقف الإمام مالك فيها عن القول بنقصانه، فنجده يصرح بالنقصان والزيادة معاً، حيث نقل عنه أنه قال إن الإيمان يزيد وينقص، كما أخرج ابن عبد البر في رواية أخرى،

1 - حسن السيد متولي، مذكرة التوحيد والفرق، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة

الأولى، 1998م، ج 1 ص 52.



عن عبد الرزاق بن همام قال: سمعت ابن جريج<sup>(1)</sup> وسفيان الثوري، ومعمّر ابن راشد<sup>(2)</sup>، وسفيان بن عيينه، ومالك بن أنس يقولون: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)<sup>(3)</sup>.

2 - إن مالكاً كان ينظر للإيمان جملةً واحدةً، فبقدر قوة الإيمان، وتمكن الاعتقاد في قلب المسلم، بقدر ما يتمسك المرء بأعمال الإيمان ويواظب<sup>(4)</sup> عليها، وبقدر ما يتمسك بالأعمال الإيمانية - التعبدية - يزداد إيمانه، وتصفو عقيدته، فقد كان مالك ينظر إلى العلاقة بين الإيمان والأعمال، على أنها: (علاقةً تناسبية)، والمعنى: أنه إذا زادت نسبة الأعمال الصالحة، زادت نسبة الإيمان، وإذا زاد الإيمان، زادت نسبة الأعمال

- 1 - عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج أبو خالد ويقال أبو الوليد القرشي المكي مولى أمية بن خالد بن أسى، مات سنة تسع وأربعين مائة، وقيل سنة خمسين ومائة وقد جاوز السبعين وكان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ومتقنيهم قال عمرو بن علي مات سنة تسع وأربعين ومائة، انظر - أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني أبو بكر رجال صحيح مسلم، تحقيق - عبد الله الليثي، دار المعرفة، 1407هـ، ج 1 ص 437 .
- 2 - معمّر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي الحداني بالولاء، أبو عروة: فقيه، حافظ للحديث، متقن، ثقة. من أهل البصرة. ولد واشتهر فيها. وسكن اليمن. وأراد العودة إلى بلده فكره أهل صنعاء أن يفارقهم، فقال لهم رجل: قيده. فزوجوه، فأقام. وهو عند مؤرخي رجال الحديث: أول من صنّف باليمن، وتوفي سنة 153هـ. انظر - الأعلام للزركلي، ج 7 ص 272 .
- 3 - ابن عبد البرّ، الانتقاء ص 37، وانظر - محمد عبد الرحمن الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، ص 17.
- 4 - واظب عليه وظوباً: دام وتمهد، مختار القاموس، ص 662 .

الصالحة، ونقصت الأعمال السيئة، وهكذا، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (1).

3 - الإمساك عما سكت الله عنه في مثل هذه المسائل، أفضل من الاجتهاد الذي يعتبره مالك نوعاً من التَّكْلَفِ غير المحمود في قضايا الإيمان والاعتقاد، فكما علمنا أن مالكاً مذهبه مذهب السلف الصالح، وهم - رضوان الله عليهم - يؤثرون التفويض في مثل هذه القضايا.

أو لأنه - رحمه الله - جعلها من قبيل البديهي الذي يغني وضوحه عن إيضاحه، فكل ما يزيد قابلاً للنقصان، والإيمان ليس مستثنىً من هذه القاعدة، ولكن الرجاء في فضل الله وكرمه في الزيادة على الأعمال بما هو أعظم وأجزل في الأجر بتقوية الإيمان وتزكية النفس، أرجى عنده من المعاملة بالمثل بتقيص الإيمان، وتشبيط العزيمة، وهذا من فضل الله وكرمه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (2).

4 - تذكر بعض الروايات أن مالكاً إنما توقف عن القول بنقصان الإيمان خشية أن يتوهم البعض أنه يقف موقف الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي من أهل القبلة (3)، والمعروف أن مالكاً لا يرى ذلك، بل إنه يقول بأن أهل المعاصي حتى أصحاب الكبائر إذا ماتوا على التوحيد، فإنهم يرجى أن يغفر الله لهم، وأن يدخلهم فسيح جنانه، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (4).

1 - سورة العنكبوت الآية 69.

2 - سورة الأنعام الآية 160.

3 - انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ج 1 ص 183.

4 - سورة النساء الآية 116.

وقد جاء في حاشية العدوي ما نصه: وفيما قاله مالك مُشكِّلاً، والجوابُ عنه ما قاله القسطلاني<sup>(1)</sup>، ونصّه: وأما توقُّف مالك عن القول بنقصانه فخشية أن يتأوَّلَ عليه موافقة الخوارج، والمراد منه، فقد ذهب الخوارج إلى أن الإيمان هو الطاعات بأسرها، فرضاً كانت أو نفلًا، ويكفرون أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب<sup>(2)</sup>، وهذا ما لا يراه مالك، بل كان يرى أن أهل المعاصي مؤمنون، باقون على أصل الإيمان.

5 - كذلك ينبغي علينا أن لا ننسى أن مالكاً من أئمة الحديث، ومن أبرز علماء الأمة، وأئمة المذاهب، وكان حريصاً على موافقة كلام الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وإذا علمنا كذلك، أنه مؤسس مدرسة الحديث والأثر التي كانت تأخذ بالنصوص من كتاب وسنة، وقد أطبقت الأدلة على القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

نذكر من هذه النصوص على سبيل المثال لا الحصر قول الحق جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾<sup>(3)</sup>.

وهذه الآية من سورة الفتح قد نزلت في حق الصحابة الذين كانوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديبية، والمعروف أن الصحابة

1 - أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث. مولده ووفاته في القاهرة. له عدة مؤلفات منها - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري عشرة أجزاء، والمواهب اللدنية في المنح المحمدية، في السيرة النبوية، ولطائف الإشارات في علم القراءات، والكنز في التجويد، و الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر، وكتب أخرى، ولد سنة 851هـ، وتوفي سنة 923هـ، (انظر: الأعلام للزركلي، ج 1 ص 232).

2 - حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، ج 1 ص 299 .

3 - سورة الفتح الآية 4.

رضوان الله عليهم، من أبر هذه الأمة قلوباً ومن أزكاها أنفساً، ومن أقواها إيماناً، وأكثرها خشيةً وقرباً من الله تعالى بعد رسوله عليه الصلاة والسلام، ومع هذا قال الله تعالى في حقهم، ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا﴾، معنى هذا - أن هناك زيادة للإيمان، وفي المقابل هناك نقص، وهذا يقرر الحقيقة التي ما كان للإمام مالك - رحمه الله - وهو من قد عرفنا من حيث التزامه بالنصوص، فما كان له أن يتجاوز هذا النص القرآني.

ثم إن حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضاً دليل واضح - يُذكر أنه من أقوى الأدلة في هذا الباب، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: **"أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"**<sup>(1)</sup>.

وهذا يبين أن هناك مؤمن ناقص الإيمان، ومؤمن كامل الإيمان، ومؤمن أكمل منه، وهكذا، وبناءً على ما تقدم، فإنه يتبين لنا أن هذا هو الصواب وهو ما يترجح من قول مالك، وهو المقبول نقلاً وعقلاً في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، وهو الثابت عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث قال: إن ذلك مما ثبت عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاطبة، فروى الناس من وجوه كثيرة، عن حماد بن سلمة، عن أبي جعفر، عن جده عمير ابن حبيب الخطمي، وهو من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

1 - سنن أبي داود، باب الدليل على زيادة الإيمان، حديث رقم/4062، سنن الترمذي باب ما جاء في استكمال الإيمان، حديث رقم/2537، مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، حديث رقم/7095، ونصه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخيارهم خيارهم لنسائهم"، وفي المسند أيضاً، حديث رقم/9725، وفيه أيضاً، حديث رقم/10397، وفيه أيضاً، حديث رقم/23073، ورقم/23536، بعضها عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

قال: الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته، وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه، فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه، وروى إسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال: الإيمان يزيد وينقص<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت الأعمال تزيد في الإيمان وتنقصه، على رأي أهل السنة والجماعة، وقد عرفنا أن الأعمال تشمل الأقوال والأفعال وما تعتقده القلوب، من هنا يمكننا أن نطرح سؤالاً مهماً يستوجب منا الإجابة عنه بإسهابٍ وتفصيلٍ: هل يعتبر ما تحدث به النفس صاحبها، وما ينتابها من وساوسٍ، من الأعمال التي يحاسب عليها المرء؟ وما اعتبار النية في باب الحسنات والسيئات؟

الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا النظر في عدة معانٍ، والتفصيل في العديد من المسائل، خاصةً إذا علمنا أن النية معتبرة عند الإمام مالك، ولها تأثير بالغ في الأعمال الاعتقادية والعملية، ومما نقل في هذا الباب عن مالك في موطنه أنه كان يعتبر النية جزءاً مهماً في العمل، بل عليها المعوّل

1 - الإيمان لشيخ الإسلام بن تيمية، ص 136. وقد أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، فقال: حدثني عبد الأعلى النرسي نا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي أحسبه عن أبيه أن جده عمير بن حبيب قال: الإيمان يزيد وينقص فسنل ما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحده وخشيناه فذلك زيادته وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه"، انظر: كتاب السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، ط1، 1406هـ، ج1 ص330. وكذلك: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (المتوفى: 1188هـ)، مؤسسة الخافقين ومكبتها، دمشق، ط2، 1982م، ج1 ص411.

في أخص العبادات وهي الصلاة، قوله رحمه الله: (إِذَا أَدْرَكَ الرَّجُلُ الرَّكْعَةَ فَكَبَّرَ تَكْبِيرَةً وَاحِدَةً أَجْزَأَتْ عَنْهُ تِلْكَ التَّكْبِيرَةَ قَالَ مَالِكٌ: وَذَلِكَ إِذَا نَوَى بِتِلْكَ التَّكْبِيرَةَ افْتِتَاحَ الصَّلَاةِ) (1).

وعلى هذا فالنية لها أثر كبير في أعمال الإيمان، وتحرُّك القلب، وقصده، سواء في إرادة الفعل، أو إرادة التَّرك، وقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - يهتمون بالنية في جميع الأعمال، ودليل حرصهم على النية وأعمال القلوب، ما جاء في قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (2).

فقد نزلت هذه الآية أول ما نزلت، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقرأها على أصحابه فخافوا جميعاً، وقالوا يا رسول الله من ممَّا لا تحدثه نفسه، وقد ذكرت روايات عدة، في كتب التفسير بينت ما كان عليه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القلق الشديد، والخوف البالغ من هذه الآية، ومن هذه الروايات ما ذكره ابن كثير في تفسيره، عن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس، فقلت يا أبا عباس، كنت عند بن عمر فقرأ هذه الآية فبكى، قال: أَيُّ آيَةٍ ؟ قلت: ﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت، غمَّت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غمًّا شديداً، وغازطتهم غيظاً شديداً، يعني - وقالوا: يا رسول الله هلكنَّا إن كنَّا نؤاخذ بما

1 - موطأ مالك، باب افتتاح الصلاة، ص 59 .

2 - سورة البقرة الآية 284 .

تكلّمنا، وبما نفعنا، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (قولوا سمعنا وأطعنا)، فقالوا سمعنا وأطعنا، قال فنسختها الآية: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾<sup>(1)</sup>، فتجوّز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال<sup>(2)</sup>.

وعلى هذا فإن حديث النفس لا يعتبر من الأعمال، ولكن يرد علينا

1 - سورة البقرة الآيات 285 - 286.

2 - ابن كثير، ج 1 ص 601، والحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب بيان أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث/179، ونصه: عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾، قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم بركوا على الركب، فقالوا أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾، فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾، قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾، قال: نعم، ﴿واعف عنا وَاغْفِرْ لَنَا وارحمننا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾، قال: نعم.

إشكالٌ وهو - إذا كان حديث النفس لا يعتبر عملاً، ولا يؤخذ المرء به، فبماذا نجيب عن حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سئل أي العمل أفضل؟ فقال: "إيمانٌ بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال الجهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال حجٌّ مبرور" (1).

والإيمان المقصود هنا: الاعتقاد، والنطق بالشهادتين، والمعروف أن الاعتقاد محله القلب، إذاً فهو مما لا يتعلق بعمل الجوارح، بل هو عملٌ قلبي، ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - اعتبره عملاً، وقد سبق في الآية تجاوز الله عز وجل وعضوه عما تحدث به النفس، وعدم اعتبارها من الأعمال التي يؤخذ عليها المرء، فكيف يتم الجمع بينهما، وكذلك النية - كما مرَّ علينا، وهي معلقةٌ بالأعمال، علماً بأنها من أعمال القلوب، ودواخل الأنفس، وهناك أعمال لا يؤخذ عليها الشرع، ما لم تكن مقصودةً، مع أن الإنسان قد يعملها حقيقةً من دون قصدٍ، في حين يؤخذ عليها بشكْلِ كاملٍ إذا كانت مقصودةً، كما في القتل الخطأ، وطلاق المكره، وغيرها، فما هو القول الفصل في هذه المسألة؟ وهل هناك فرقٌ في أعمال القلوب؟

في حقيقة الأمر إن هذا موضوعٌ كبيرٌ، وفيه آراءٌ متعددةٌ للعلماء، وللإجابة عنه نحتاج إلى معرفة بعض المصطلحات التي لها علاقةٌ بأعمال القلوب حتى يتسنى لنا التفريق بينها بشكْلِ دقيق، ومن هنا فإننا نقول إن

1 - صحيح البخاري، بفتح الباري، ج 1 ص 93، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله - أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله، والجهاد ... الحديث.



أعمال القلوب تنقسم إلى ما يلي :

1- الهاجس (الخاطر): في اللغة حديث في النفس ابتداءً، ويسمى الحدس (1).

وهناك من ينزل الهاجس منزلة الخاطر العابر، وفي الحديث "ما يهجس في الضمائر"<sup>(2)</sup>، أي ما يخطر بها وما يدور فيها من الأحاديث والأفكار<sup>(3)</sup>، بحيث لا يملك المرء دفعه، وليس له أي أثرٍ بمعنى أن النفس فيه على حياضٍ، من حيث تمنّي حصوله أو عدمه، والهاجس تعتري الأنفس البشرية غالباً، وهي لا تعدو كونها أفكاراً عابرةً لا تشكل شيئاً، وقد تكون أفكاراً وخواطر صالحةً طيبةً، وقد تكون خواطر وأفكاراً رديئةً خبيثة.

ومن العلماء من يفرق بين (الخاطر، والهاجس)، فيجعل الهاجس أقل تأثيراً في النفس من الخاطر، فأول ما تبتدئ الفكرة في النفس بالهاجس، ثم إذا ما كان لها وقع في النفس، وتأثر القلب بها وصارت تراوده وتستقر بياله فهي الخاطر<sup>(4)</sup>.

1 . مختار الصحاح ، ص 691 .

2 . أقول: ما أشارا إليه ابن منظور بقوله: وفي الحديث "وما يهجس في الضمائر" بحثت عنه فلم أجده في مجموع الكتب والأسانيد ، فلعله سمعه من بعض كلام العرب، ومما ورد من الأمثال، فاختلط عليه فعده من الحديث ، وليس منه ، والله أعلم.

3 . لسان العرب، لابن منظور، ج15 ص27، وانظر - محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج12 ص188.

4 . مختار الصحاح ، ص180 ، مختار القاموس ، ص184 .

وهما أي الهاجس والخاطر لا تأثير لهما، فلا يعدوا كونهما أفكاراً عابرةً لا تستقر في النفس، كما قال الله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1).

فالهواجس والخواطر الرديئة لا تعدوا كونها وساوس ونزغات من الشيطان، قال الإمام الرازي: "اعلم أن نزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب، مما يسول للإنسان من المعاصي" (2)، وجاء في حاشية العدوي: "ويقال للذي من قبل النفس هاجس، والذي من قبل الشيطان وساوس" (3).

ومع هذا كله فإن هذه الهواجس والوساوس، لا تعتبر من الأعمال ولا تكتب في خانة الحسنات ولا في باب السيئات.

**2- حديث النفس:** وهو مما يأتي في المرتبة الثانية بعد الهاجس والخاطر، وهو أمكن في التأثير على القلب من حيث تمني حصوله، بحيث تكون تلك الخواطر والهواجس من قبيل حديث النفس الذي يمينه به الشيطان، كأن تحدث الإنسان نفسه بفعل معصية، ويتمناها من غير أن يهّم بها أو يستقبلها بقلبه، ولكن إلحاح النفس منه متمكن، بحيث يجد صعوبة في صرفه، غير أنه لا أثر له حيث أنه لا يستقر في النفس، ولم تقتنع به، ويتمكن الإنسان من الانتهاء عنه، وهذا المعنى موجود في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي

1 - سورة الأعراف الآية 200 .

2 - التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، المطبعة البهية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1938م، ج 15 ص 97 .

3 - حاشية العدوي، باب طهارة الماء، ج 1 ص 197 .

اللَّهِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ﴾ (1).

فمن رحمة الله عز وجل أن لا يؤاخذنا بحديث النفس هذا، طالما لم يتمكن في القلب ولم يكن له عظيم أثر على النفس.

3- الهم لغة: له عدة معانٍ: يأتي الهمُّ بمعنى الحزن وتجمع على هموم (2) وفي البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو قال: سمعت أنساً - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن، والبخل، وضيع الدين، وغلبة الرجال" (3).

وتأتي همٌّ بمعنى أذاب وأقعد، فيقال همَّ أسقم جسمه - أي أذابه وأقعده (4).

1 - صحيح البخاري، باب إذا حدث ناسياً في الإيمان، حديث رقم/1671، صحيح مسلم، باب تجاوز الله عن حديث النفس، حديث رقم/181، وحديث رقم/182، سنن أبي داود باب في الوسوسة بالطلاق، حديث رقم/181، سنن النسائي باب من طلق في نفسه، حديث رقم/3380، وحديث رقم/3361، سنن ابن ماجه، باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به، حديث رقم/2030، وباب طلاق المكره، حديث رقم/2034، ومسند الإمام أحمد، باب حديث إبي هريرة، حديث رقم/8745، وحديث رقم/9134، وحديث رقم/9752، وحديث رقم/9848، وحديث رقم/9968، وله روايات في باقي الكتب والمسانيد .

2 - مختار الصحاح ص 698 .

3 - صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، حديث رقم/5892، سنن أبي داود، باب في الاستعاذة، حديث رقم/1317 .

4 - مختار القاموس ، ص 639 .

ويأتي الهمُّ بمعنى إرادة الشيء، والإقبال عليه، والهمّة بكسر الهاء: ما هُمَّ به من أمرٍ يُفعل<sup>(1)</sup>.

وهَمَّامٌ بمعنى فعَّال، وفي الحديث: أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارثٌ وهَمَّامٌ<sup>(2)</sup>، وهذا المعنى الذي نريده من المعاني اللغوية للهمَّ.

والمعنى الاصطلاحي للهم: مأخوذاً من المعنى اللغوي، فهو إرادة الشيء من غير عزمٍ عليه، ومنه قولهم:

هممت ولم أفعَل، وكدت وليتني

تركت على عثمان، تبكي حلائله<sup>(3)</sup>

ومنه قولك لا أفعَل ذلك، لا كيداً ولا همماً<sup>(4)</sup>.

ولقد ذكرت كلمة الهمُّ في القرآن الكريم بمعنى إرادة الفعل، غير أنها كما جاءت في سياقها تتفاوت في الدرجة والرتبة من حيث حركة

1 - مختار الصحاح / ص 699، وراجع: مختار القاموس، ص 639.

2 - لسان العرب، لابن منظور، طبعة جديدة منقحة، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، 2000م، ج 15 ص 96، والحديث في سنن أبي داود، باب في تغيير الأسماء، حديث رقم/4299، ومسند الإمام أحمد، باب حديث أبي مهب الجشمي، حديث رقم/18258، ولفظ أبي داود: عن أبي وهب الجشمي وكانت له صحبة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة"

3 - محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف، مكتبة الباني الحلبي، مصر، الطبعة

الأخيرة، 1966م، ص 311.

4 - المصدر السابق، ص 311.

القلب، وترتب الفعل عليها، وأفادت عدة معاني كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾<sup>(1)</sup>، أي قريت أن ترجعا، وتَجِبْنَا . تخافا من القتال . لولا تثبيت الله لهما، وهما قبيلتا (بنو سلمة وبنو حارثة)<sup>(2)</sup>.

. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(3)</sup>، والمعنى أنهم يكيّدون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد عصمه الله تعالى، وحفظه، فهم لا يضرّون إلا أنفسهم<sup>(4)</sup>.

ونلاحظ هنا أن الله تعالى استعمل الهم كناية عن الفعل، فهم قد كادوا حقيقة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم .، فتعدّى الأمر من كونه إرادة الفعل إلى كونه فعلاً حقيقياً، واستعمل لفظ الهم إشارة إلى ما كانوا يعتقدونه من استطاعتهم إضلال رسول الله - صلى الله عليه وسلم .، وتلبّيس الحقّ عليه، ولكن هيهات، فبحفظ الله له يُحفظ، وهداية الله له يُهدى، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>(5)</sup>.

1 - سورة آل عمران الآية 122 .

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، 1965م، ص 417 .

3 - سورة النساء الآية 113 .

4 - محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، دار النصر، القاهرة، مصر، الطبعة

السادسة، 1972م، ج 5 ص 60 .

5 - سورة يوسف الآية 24 .

إنَّ كلمة الهمَّ الأولى: كما يذكر المفسرون، لها معنىٌ يختلف عنه في الثانية، فهي قد همَّت به حقيقةً كما ذكر الله عز وجل، و كما فصَّلت الآيات، فقد ﴿قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ وجذبتَه وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ودعته للفاحشة، وغلَّقت عليه الأبواب، وقد سمَّى الله تعالى كلَّ ذلك همًّا، مع أنه أفعالٌ في واقع الأمر.

والهمُّ الثانية: لا تعدو كونها خطرات حديث النفس، كما ذكره ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، وابن جرير، وغيره، كما جاء في الحديث (إذا همَّ عبدي بحسنةٍ فاكتبوها له حسنةً .. الحديث) (1).

وقد تعددت آراء المفسرين في ذلك، فمن قائلٍ: رأى آياتٍ صرفته عن الفاحشة، كرؤيته صورة يعقوب عليه السلام، ومن قال أنه رأى مكتوباً على الحائط آية: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (2)، وأقوال كثيرةٌ وهذه الأقوال كما قال ابن كثير: "لا حجة قاطعة على تعيين شيءٍ منها" (3).

والذي يظهر في هذه المسألة (والله أعلم)، أن يوسف عليه السلام، لو أُسْلِمَ للحالة البشرية التي تعترى الناس في مثل هذه المواقف، لهمَّ بالفاحشة، ولقارف المعصية، ولكن الله عزَّ وجلَّ ثبَّتَه، فلم يعد كون الفاحشة عرضت على سيدنا يوسف عليه السلام، ولكن الله عزَّ وجلَّ ثبَّت قلبه، وصرف فؤاده عنها، وزكاه من التهمة والافتراء، فما أشبه موقفه

1. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، ج 2 ص 510 .

2. سورة الإسراء الآية 32 .

3. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، ج 2 ص 511 .

هنا - بالآية الأولى في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿إذ همّت طائفةٌ منهم أن يضلوك﴾ فإنه قال بعدها: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾، فرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لم يهّم بالضلالة، وحاشاه عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى حافظه، بل همّوا بإضلاله، وتزييف الحق عليه، وقد فعلوا كيدهم، ومكروا مكرهم، ولكن الله مانعه، وأبان له الحق، لذلك قال بعدها: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾، فمهما فعلوا فهو لا يعدو كونه حديث أنفسهم، وما تسوله لهم، وكذلك يوسف عليه السلام، فمهما فعلت امرأة العزيز، فإن الله تعالى قال: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، فلا يعدو كونه حديث نفسها بأن تغويه، لأنه - عليه السلام - لن تؤثر عليه من هذا الجانب، فالله تعالى قد صرفها عنه، فقد قال: ﴿لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾.

والمعنى كما ذكر الزمخشري في قوله: ﴿هممت بقتله لولا أنني خفت الله﴾ فمخافة الله حالت بينه وبين القتل<sup>(1)</sup>، بدليل قوله قبلها: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَآئِي إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾<sup>(3)</sup>، والمعنى أنهم حرصوا على قتل أنبيائهم بكل ممكن، ومنهم من قتلوا أنبياءهم فعلاً<sup>(4)</sup>.

1 - الكشاف، الطبعة الأخيرة، 1966م، ص 311.

2 - سورة يوسف الآية 23.

3 - سورة غافر الآية 5.

4 - تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق - محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة، القاهرة، مصر، 1988م، ج 3 ص 235.

فهمَّ بهذا المعنى تفيد أنهم همُّوا بجميع الوسائل، وولجوا جميع الطرق التي استطاعوا بها محاربة الله تعالى فماذا كانت النتيجة؟ قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ﴾.

مما سبق نستنتج: أن الهمَّ استعمل في القرآن الكريم دلالةً على إرادة الفعل تارةً، ودلالةً على الفعل نفسه تارةً أخرى، ولكنه مع هذا كله، كان علامةً على فعلٍ قلبيٍّ، أريد به الإشارة، إلى ثلاثة أشياء، وهي:

. الهم بالفعل فقط، وإرادته من دون القيام به.

. القيام به مع إرادته عن سبق ترصدٍ وإصرارٍ، كما فعلت امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام، وكما فعل الذين كذبوا الرسل كعادٍ وثمود، وغيرهم، وكما فعل من أراد التلبيس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

. حديث النفس العارض الذي لا يترتب عليه تحرك القلب، ولا تمنى الفعل، كما حصل ليوسف عليه السلام، وعصمة الله له، وتزكيتة إياه.

وبعد التمعن في كل ما سبق، فإنه يتبين لنا أن الهمَّ يحتمل كل ما ذكر، ولكنه استعمل غالباً في الهمَّ الذي هو بمعنى إرادة الفعل، من دون العزم عليه والإقبال على فعله، ويعتبر آخر مراحل حديث النفس التي يتوصل المرء بعدها إلى قرار الفعل، إما الماضي في الأمر والعزم عليه، أو تركه والإعراض عنه، ومن رحمة الله تعالى، أنه لا يؤاخذ على هذا الهمَّ بهذه الدرجة من إقبال النفس عليه، إذا لم يترتب عليه فعلٌ مقصودٌ، وهذا من عظيم فضله عزَّ وجلَّ.



4- العزم لغةً: مصدر عزم، أي إرادة الفعل والقطع به، والعزيمة كذلك، "وعزم على الأمر يعزم عزمًا، أراد فعله، قال الليث: العزم ما عقد عليه قلبه من أمرٍ أنك فاعله" (1) قال تعالى: ﴿وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (2). والمضي في العزيمة من الصفات التي اتصف بها العرب قبل الإسلام، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، فلا يصرفهم عنه صارف ويخاطرون من أجله (3)، ولو كان فيه هلاكهم، لأنهم يرون أن الرجوع عنه سبٌّ ومهانة.

والعزم الذي يقصد هنا، هو إرادة فعل الشيء بنية عن إلحاح في النفس وإصرارٍ، بحيث أن المرء سينفذ ما استقرَّ في نفسه ويمضيه، إلا أن يحول بينه وبينه حائلٌ لا يملك دفعه.

وهذه المرتبة من إرادة الشيء في النفس، هي التي يؤخذ عليها المرء، لأنه في هذه الحال أراد فعل الشيء، وأخذ بأسبابه المؤدية إليه، ونواه عن قصدٍ وإلحاحٍ، وما وصل لهذه المرحلة، حتى مرَّ بالمراحل الأولى التي سبقت، فهو إذاً قد فكر فيه، ونظر في عواقبه، وما سيؤول إليه حاله من بعده، ومن رحمة الله - جل وعلا - أنه لا يؤخذ في باب السيئات إلا بهذه الحالة من مراتب التدرج في أعمال القلوب، في حين يكتب في باب الحسنات مجرد الهم والتفكير في فعل الصالحات، كما جاء في الحديث: "إذا همَّ عبدي بحسنةٍ فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها فاكتبوها حسنةً، فإنما تركها من

1. لسان العرب، ج 1 ص 139 .

2. مختار الصحاح، ص 431 - 439.

3. الرحيق المختوم، ص 46 .

جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها"<sup>(1)</sup>.

وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على تمام رحمة الله جل وعلا، وفضله، فالهمُّ لا يحسب في باب السيئات، ولكنه يحسب في باب الحسنات، والفعل في السيئات يكون بمثلها، وقد يغفرها الله برحمته، فهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، والحسنة تكتب بمجرد الهمِّ بها ونيتها، فإن عملها كتبت بعشر حسنات، وهذا أمرٌ لا خلاف عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

خلاصة: من كل ما سبق نخلص إلى القول أن مراتب تعلق القلب بالفعل، خمسة مراتب، وهي لا تعدو كونها أحاديث النفس، سوى ما كان من المرتبة الأخيرة وهي العزم على القيام بالفعل، ولقد جمع الناظم

1 - صحيح البخاري، باب قول الله تعالى: "يريدون أن يبدلوا كلام الله"، حديث رقم/6947، ونصه: عن أبي هريرة، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: يقول الله: "إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف"، ورواه مسلم، من حديث أبي هريرة، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، حديث رقم/185، وسنن الترمذي، باب ومن سورة الأنعام، حديث رقم/2999، مسند الإمام أحمد، باب حديث أبي هريرة، حديث رقم/7872، ونص رواية أحمد "وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي".

2 - سورة الأنعام الآية 160 .

هذه المراتب من تحرك القلوب، ومقاصدها في الأعمال، وتعلق الفعل بها مرتبةً في هذين البيتين، ولقد كان مشايخنا يرددونهما، ويستشهدون بهما في هذا الباب وهما :

مراتب القصد خمسٌ هاجسٌ ذكروا

فخاطرٌ فحديث النفس فاستمعاً

بليه هم فعزمٌ كلها رفعت سوى

الأخيرُ ففيه الأخذُ قد وقعاً (1)

قال صاحب الفواكه الدواني على شرح رسالة أبي زيد القيرواني: وأما ما يقع من النفس على قصد المعصية، فهو على خمس مراتب: الهاجس وهو ما يلقي فيها، والخاطر وهو ما يجري فيها، وحديث النفس وهو التردد هل يفعل أو يترك، والهم وهو أن يترجح عنده قصد الفعل، والعزم وهو قوة القصد والجزم به، فالهاجس لا يؤخذ به إجماعاً، لأنه يطرقه قهراً عليه، وكذا ما بعده من الخاطر، وحديث النفس وإن قدر على دفعهما، لا يؤخذ بهما لحديث: "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به" (2) إلى أن قال: وأما العزم على المعصية

1 - بحثت عن قائل هذه الأبيات فلم أعثر على اسمه، وهي من المشهورة في كتب الفقه الحنفي، والشافعي، ولم ينسبها لقائلها، ويكتفون بقولهم يقول الناظم، أو الشاعر أو نحوهما، انظر أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، 1318هـ، ج1 ص438.

2 - سبق تخريجه، صحيح البخاري ومسلم، وغيرهما، انظر - صحيح البخاري، باب إذا حث ناسياً في الأيمان، حديث رقم / 6575.

فالمُحَقَّقُونَ عَلَى الْمُواخَذَةِ بِهِ (1).

### تفاوت الأعمال في الأجر والثواب :

لا شك أن عرى الإسلام يتميز بعضها على بعض من حيث المنزلة في دين الله، فمنها ما يوصف بأنه أعلى وأوثق عرى الإسلام، كالنطق بالشهادتين، ثم الصلاة، والزكاة، وغيرها، كما جاء في صحيح مسلم، "الإسلام بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (2).

فبقول: (لا إله إلا الله)، يدخل المرء في الإسلام، ثم تتوالى الشرائع من مثل الصلاة، والزكاة، والحج، وهكذا، وهذا لا يعني التقليل من شأن بعض شعائر الإسلام ولكن هذا يقسمها إلى الأهم، فالهم، إلى ما هو أدنى في الأهمية، وهو ما يسميه الفقهاء الأركان، ثم الفرائض فالواجبات، ثم السنن والفضائل، ويكمل إيمان المرء بقدر محافظته على هذه الشعائر.

وقد ذكر القاضي عياض اليحصبي المألوكي هذا المعنى حيث ذكر أن أصل الإيمان في اللغة التصديق، وفي الشرع، هو: تصديق القلب واللسان، وظواهر الشرع تطلقه على الأعمال كما وقع هنا؛ أفضلها لا إله إلا الله، وآخرها إماطة الأذى عن الطريق، وإنَّ كمال الإيمان بالأعمال وتمامه الطاعات، وقد جاء في الحديث أن أفضلها التوحيد المتعين على

1. الفواكه الدواني على شرح رسالة أبي زيد القيرواني، ج 1 ص 294.

2. سبق تخريجه، صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، انظر: صحيح البخاري، باب أمور الإيمان، حديث رقم/8.

كل أحد ، ولا يصلح أي من شعب الإيمان من دونه ، وأدناها ما يتحقق به رفع الأذى ، وبين ذلك شعب كثيرة ، لو تكلف المجتهد تحصيلها بغلبة الظن وشدة التتبع لأمكنه<sup>(1)</sup> انتهى كلامه مختصراً.

ومن فضل الله وكرمه ، تعدد هذه الشُّعَبُ وكثرتها ، بحيث يحصل الإنسان من الخير ما وفقه الله إليه ، ويأخذ من جماع الخير ما يطيق ، والله تعالى يجازي كلاً بما عمل ، دون أن ينقص من أجره شيئاً ، وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾<sup>(2)</sup>.

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(3)</sup>.

فهذا من الله وكرمه ، ومن من الله وكرمه ، إعطاؤه الثواب بقدر العمل ، بل ويضاعفه أضعافاً كثيرة ، ولكن هذه الأعمال كما سبق تتفاوت ، وأن هذا التفاوت قد يكون في الرتبة والمكانة من الدين كما مرّ علينا من حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: (أعلاها لا إله إلا الله) وقوله: (أدناها) إذا فهناك ما هو أعلى وما هو أدنى.

وتتفاوت كذلك في الأجر من حيث هذه المكانة ، فشهادة التوحيد - مثلاً - لا تقارن بإماطة الأذى عن الطريق ، أو بالحياء مثلاً ، فهي أعلى وأوثق عرى الإسلام ، ولا يصح إسلام امرئٍ من دونها ، كذلك الصلاة وما لها من مكانة عالية في الدين ، لا تقارن بغيرها من الفضائل والمستحبات ،

1 - صحيح مسلم بشرح النووي، ج 1 ص 280 .

2 - سورة الكهف الآية 30 .

3 - سورة البقرة الآية 277 .

فالفرائض والأركان لها المكانة الأعلى والثواب فيها أجزل، وهذا لا يعني التقليل من شأن شعاب الإيمان الأخرى، ولكن هذا من قبيل الإتيان بالأهم، فالأقل أهمية وهكذا، وهذا لا يلغي أهميته، وأنه قد يكون من الأعمال التي ينال بها رضا الله تبارك وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

جاء في إرشاد المرید في الفقه المالكي: واعلم أن الإيمان على خمسة أقسام: إيمان عن تقليد وإيمان عن علم وإيمان عن عيان، وإيمان عن يقين، وإيمان عن حقيقته، فالتقليد للعوام، والعلم لأصحاب الأدلة، والعيان لأهل المشاهدة، والحق للعارفين، ثم قال إن أعلى الناس إيماناً وتصديقاً الصحابة على اختلاف طبقاتهم، ثم من يؤمن بالغيب على الكمال كأهل زماننا<sup>(2)</sup>.

ومقصده (والله أعلم) تفاوت الناس في درجات الإيمان بحسب أعمالهم، وقوة يقينهم، فمن الناس من يكون دينه قائماً على تقليد العلماء ومن يثق في علمهم وفي ديانتهم، من جماعة المسلمين، ومن الناس من يكون على بصيرة من دينه وعلى دراية بالحلال والحرام، وعلى علم بالقواعد العامة في العقائد والعبادات، وذلك كحال بعض طلبة العلم والدارسين المتتورين بأنوار العلم، بمعرفة الحلال والحرام والتزام الشرع في عباداتهم ومعاملاتهم، وهم مع هذا مُسَلَّمُونَ بالأمور الغيبية لله تبارك وتعالى، مصدقين بعالم الغيب الذي أخبر به الصادق المعصوم، من الإيمان

1 - سورة الأنعام الآية 132 .

2 - علي بن عبد الصادق الطرابلسي المالكي، إرشاد المرید، تحقيق السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا، 2001، ج 1 ص 71 .

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره.

وأما الدرجة الأعلى والمكانة المثلى لشخصية المؤمن الجامع، لكل ما سبق من درجة الإسلام والإيمان، واتصافه بالعبادة الحقيقية لله تبارك وتعالى، عن قوة يقين، وكأنما يشاهده رأى عيان، كما مر علينا من حديث جبريل، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: "كأنك تراه"<sup>(1)</sup>.

ومن هنا تطرح علينا المسألة التالية: هل من كانت درجته أقل في الأيمان لا يعبد الله حقاً؟ وما هو المقصود من قول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: "كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"؟ وكيف يتأثر العمل بهذا المعتقد؟ "اعتقاد رؤية المولى تبارك وتعالى" اعتقاداً جازماً ومراقبته في العمل، والعلم اليقيني هو أن الله يراك، ومطلع عليك، وكأنك تراه وهو يراك، ومع أن رؤية الله تبارك وتعالى مستحيلة في الدنيا، ولكنه عز وجل يرانا ومطلع علينا، والمراد قوة اليقين في مراقبة الله تبارك وتعالى ومن هذا أخلص إلى ما يلي:

أولاً - علمنا أن الناس يتفاوتون في مراتب الأيمان كل بحسب عمله وقربه من الله تعالى، ولكن الجميع عبيد لله تبارك وتعالى وهم عنده سواء، لا فرق بينهم إلا بقدر تفاوتهم في المعتقدات وأعمال الأيمان، فكل مسلم موحد لله عز وجل موقن بربوبيته، وألوهيته، هو عابد لله تبارك وتعالى.

ويبقى بعد ذلك، الكيفية التي تكون عليها العبادة، ودرجة

1 - إشارة إلى حديث جبريل عليه السلام، وقد سبق تخريجه في الصحيحين وغيرهما .

الإخلاص لله ، والصدق في النية ومتابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (1).

ثانياً - المقصود بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (كأنك تراه) دوام المراقبة ، والحذر من معصيته واتقاء غضبه كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (2).

ثالثاً - يتأثر العمل بدوام المراقبة والخشية من الله تعالى ، بحيث يتبوأ من الإخلاص أعلاه، ومن المتابعة والجد غاية منتهاه، إذ بدوام المراقبة يكون صلاح العمل، وبالخشية يكون علو الهمة، وباليقين يقبل القلب بصدق ونية.

### تأثر الأعمال بدوام المراقبة:

إن كمال العبودية لله تبارك وتعالى ، يكون بدوام المراقبة له عز وجل والخوف منه، والحذر من معصيته ومخالفة أمره، ويكون منه على متابعة، حتى يختم له بالسلامة في الدارين، فإن العبرة بالخواتيم، ودوام المراقبة لله لها تأثير بالغ على الأعمال، لذلك جاء في صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء" ثم قال رسول الله - صلى الله

1 - سورة البقرة الآية 21 .

2 - سورة آل عمران الآية 28 .



عليه وسلم -: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك"<sup>(1)</sup>، إذا فالثبات على طاعة الله أمرٌ عظيمٌ وغايةٌ سامية، لذلك كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يسأل ربه الثبات، ويعلم أمته ذلك، وبروايات متعددة فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من قول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" فقلت يا رسول الله آمنت بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: "نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء"<sup>(2)</sup>.

لكي يُعلم الأمة، أن الإنسان مهما بلغ من قدر، فإنه لا يستغني عن الله، وأنه دائماً في حاجةٍ له سبحانه، وأنه لا يقدر على شيءٍ من دون توفيقه وتيسيره، وذلك كما قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾<sup>(3)</sup>، جاء في تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: "لا بنت أبي بكرٍ يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي، ويصوم،

1 - صحيح مسلم، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، حديث رقم/4798،

مسند الإمام أحمد، باب حديث عبد الله بن عمر بن العاص، حديث رقم/6281.

2 - سنن الترمذي، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث رقم/2066، وفيه

أيضاً باب منته، حديث رقم/3444، وعنده أيضاً باب دعاء عرفة، حديث رقم/3511،

وعند ابن ماجه، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم/3824،

ومسند الإمام أحمد، باب حديث أبي هريرة، حديث رقم/9052، وباب حديث أنس

ابن مالك، حديث رقم/11664، وحديث رقم/13200، وله لروايات عدة في الكتب

والمسانيد .

3 - سورة المؤمنون الآية 60 .

ويتصدَّق، وهو يخاف الله عز وجل" (1).

فانظر إلى كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يشرح هذه الآية، فهذا بيان واضح لحقيقة المؤمن الصادق، فهو مع عمله الذي يقدمه بين يدي ربه من صلاة، وصدقة، وصيام، ولكنه يخاف ألا يتقبل منه، يحذر من مكر الله، يعرض قلبه على مرآة الإخلاص، يخشى من سوء الخاتمة. وفي الحقيقة، إن هذا ما جبل عليه المجتهدون دائماً، وهذا الإحساس يمرُّ به كل حريص، فالطالب المجد على سبيل المثال، لا الحصر: نجده مع ما يتحصل عليه من علامات متفوقاً في الامتحانات والاختبارات الجزئية - ومع هذا تجده في الامتحان النهائي خائفاً مترقباً، يتطلع إلى النتيجة بقلق شديد، وقلبه خائفٌ وجلٌ، يرتجي العلامات العالية، ولكنه يخاف الرسوب، أو الحصول على علامات أقل من المعدل المطلوب، بعكس المهمل والمفرط، فتجده لا يحرك ساكناً يرضى بأقل القليل، والرسوب نتيجة متوقعة لا يهابها، فهذا في امتحان الدنيا، فما بالك بامتحان الآخرة، وإذا علمت أن امتحان الدنيا فيه ما فيه، فليست النتيجة نهائيةً فهناك دور ثان لاستدراك مواد الرسوب، وهناك الترحيل لمن طال أمده وتكرر رسوبه، أما في الآخرة، فلعمري إن الرسوب مهلكة، لا منجاة منها، إن لم تتدارك الهالكين رحمة أرحم الراحمين .

فكيف تجد المشمرين للدَّار الآخرة أليسوا في قلق ووجل وخوف من

1 - ابن كثير، الطبعة الأولى، ج3 ص260، والحديث في مسند الإمام أحمد، باب حديث عائشة رضي الله عنها، حديث رقم/24102، وفي شعب الإيمان للبيهقي، باب يا رسول الله قول الله عز وجل "والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون" حديث رقم/781.

اللَّهِ تَعَالَى ؟ لَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ بَعْدَهَا : ﴿أَوْلَيْتُكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (1).

وذلك كما حصل لسيدنا عمر بن الخطاب عندما سأل حذيفة بن اليمان - رضي الله - عنهما عن اسمه هل هو من المنافقين (2)، الذين ذكر

1 - سورة المؤمنون 61 .

2 - علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى : 975هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق - بكري حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1981م، ج1ص369، باب صفات المنافقين، حديث رقم/1622، ونص الحديث " عن حذيفة قال: "مر بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد فقال لي: يا حذيفة إن فلانا قد مات فاشهده، ثم مضى حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إلي فرآني وأنا جالس فعرف فرجع إلي فقال: يا حذيفة أنشدك الله أمن القوم أنا؟ قلت: اللهم لا ولن أبرئ أحدا بعدك". (فرأيت عيني عمر جاءتا ) (جاءتا) هكذا في النسخة ولعلها (جادتتا)، انظر: جلال الدين السيوطي، الجامع الكبير، وزوائد الجامع الكبير، جمع وترتيب: عباس أحمد صقر، وأحمد عبد الجواد، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون تاريخ طباعة، باب مسند حذيفة بن اليمان، حديث رقم/37440، وقال ابن الأثير في أسد الغابة: " وحذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة؛ أعلمه بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عمر: أي في عمالي أحد من المنافقين؟ قال: نعم، واحد، قال: من هو؟ قال: لا أذكره. قال حذيفة: فعزله، كأنما دل عليه، وكان عمر إذا مات يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر" انظر: عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر الإسلامي، سوريا، 1988م، ج1ص248، والأعلام للزركلي، ج2ص171 .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسماءهم لحذيفة، حيث كان حذيفة يسمي بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم (1).  
وعمر رضي الله عنه هو من هو، في ورعه وتقواه، ولكنه حريص خائف وجل، فكان كما قال الله: ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجل﴾.

### مفهوم الخشية عند الإمام مالك:

لقد امتثل الإمام مالك هذه الآية: وهي قول ربنا جل وعلا: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجل﴾، قولاً وعملاً، بحيث ظهر ذلك في فتاواه، وعرف ذلك في تحرجه من التحديث، والتحري في نقل السنة، والمخافة من الوقوع في المحذور، ودوام المراقبة والخشية، على نحو يطرح العجب والتساؤل، عن حال كثير من المتجربين والمتكلمين بالدين، والمتصدرين للفتوى، في زماننا اليوم، وهل هؤلاء عندهم من الورع والتقوى ما يجعلهم أهلاً لذلك.

1 - سنن الترمذي، باب مناقب عبد الله بن مسعود، حديث رقم/3747، والحديث نصه: " عن خيثمة بن أبي سبرة قال: أتيت المدينة فسألت الله أن يبسر لي جليسا صالحا؛ فيبسر لي أبا هريرة فجلست إليه، فقلت له: إني سألت الله أن يبسر لي جليسا صالحا فوفقت لي، فقال لي: ممن أنت قلت: من أهل الكوفة، جئت ألتمس الخير وأطلبه، قال أليس فيكم سعد بن مالك مجاب الدعوة، وابن مسعود صاحب ظهور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونعليه، وحذيفة صاحب سر رسول - الله صلى الله عليه وسلم -، وعمار الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه، وسلمان صاحب الكتابين" قال قتادة والكتابان الإنجيل والفرقان قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

ومن الأمثلة على الورع والتقوى، والخوف من الله عز وجل، والحذر من سخطه، ودوام المراقبة، ما كان عليه مالك رحمه الله من التحري والدقة في تبليغ العلم، حتى إنه أثر عنه - رحمه الله - وكما قال الشافعي: "قيل لمالك: عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك، فقال: إذا أحدث بكل ما سمعت، إنني إذا أحقق، إنني أريد أن أضلهم إذاً، ولقد خرجت مني أحاديث لوددت أني ضربت بكل حديثٍ منها سوطاً ولم أحدث به"<sup>(1)</sup>.

فسبحان الله كم كانت خشيته - رحمه الله - وهم مع هذا معذورون عند الله، فقد اقتضت حكمة الله أن لا يعذب مجتهداً على اجتهاده، فالعالم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ.

ولكنه الورع الذي منعهم من التحديث بكل ما يعلمون، إنها المراقبة لله تعالى، وانظر إلى قوله - رحمه الله - (ولقد خرجت مني أحاديث) فعبّر بقوله خرجت، وكأنه ما أراد أن تخرج، ولكنه قد يكون قالها في أول تصدره للفتوى، ورأى أن الناس يحتاجون إليها، ثم بعد أن خبر الناس، وتعرف على أحوالهم، وما يصلح أن يقال لهم، وما يحسن أن يحجب عنهم، تمنى أنه لم يحدث بها، أو قد يكون قالها في زمن كان يرى الحاجة إليها ملحةً لإخماد فتنة، أو إحياء سنةٍ - ثم تبين له الحق خلافها، فقال: (لوددت أني ضربت بكل حديثٍ منها سوطاً).

وهذا ما جعل كثيراً من علماء المالكية اليوم، يتحرّزون من الوُجوع في الفتن، والبدع المعاصرة، والتي كانت لها جذورٌ من أقوال أهل البدع والأهواء، كالخوارج الذين كانوا يكفرون المؤمنين بالمعاصي، وهذا ما قاله الدكتور الصادق الغرياني، في كتابه: (في العقيدة والمنهج)، وهو في

1 - ترتيب المدارك، ص 164.

هذا يُعبّر عن كثيرٍ من شيوخ المألكية في زماننا، حيث استتكر على المتصدرين للفتوى اليوم، الذين يفتون في كل شيء، ولا يتورعون من شيء، مع قلة علمهم وتقواهم، وضعف يقينهم، فما أجراهم على الفتيا، وما أصبرهم على القول على الله بغير علم، حتى إنهم تكلموا في مسائل ما كان واحداً من علماء السلف يجرؤ على الخوض فيها، كمسائل التكفير، واستباحة دماء الأبرياء الآمنين من المسلمين، فيكفر بمجرد أن تخالفه الرأي، ويبدع ويفسق بمجرد الخطأ والزلل، ولا يفعل ذلك إلا متعصباً يريد من جميع الناس أن يكونوا على رأيه، ومذهبه في الفهم<sup>(1)</sup>.

فيا لله أين هؤلاء من سيدنا علي رضي الله عنه، حين سئل عن

حكمه في الخوارج وهم الذين ناصبوه العداً وأذوه وقتلوه؟

ماذا قال عنهم حينما قيل له: أمشركون هم؟

فقال: من الشرك فرؤا.

قيل: أفمنافقون هم؟ قال إن المنافقين لا يذكرهم الله إلا قليلاً.

قيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟

قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببيغهم علينا<sup>(2)</sup>.

هكذا كان علي رضي الله عنه، مع هذه الزمرة من الخوارج الذين جاهروا بالعصيان، وبارزوا الله بالمعاصي، معتقدين أنهم على الحق، وفي سبيل الله يجاهدون، ولكن مع هذا كله، ورغم أنهم ناصبوه العداً،

1 - الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، في العقيدة والمنهج، ص43.

2 - إسماعيل بن كثير القرشي، البداية والنهاية، خرّج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن

أحمد، ومحمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر،

الطبعة الأولى 2002م، ج7 ص236.

ولكنه كان منصفاً معهم، وما تجرأ - رضي الله عنه - على تكفيرهم، فهم يشهدون (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

وعليّ - رضي الله - عنه يعرف ما لشهادة التوحيد من المكانة في دين الله، فسبحان الله كيف تجرأ أقوامٌ على استباحة الدماء بغير حق، وتكفير الناس بالباطل، وإشعال الفتنة بين المسلمين، بفتاوى باطلة، تفتقر إلى الدليل الواضح، والقياس الصحيح، وإدراك المسائل على حقيقتها، كما يفعل بعض المتشددين في زماننا، من تكفير الأمة كلها، وتبديع، وتفسيق كل من يخالفهم، وتكفير الحكومات التي تحكم القوانين الوضعية، ويبيحون قتالها، وقتال المدنيين، والأبرياء من العامة والخاصة.

وللأسف الشديد ارتكبت أفظع الجرائم التي لم تر البشرية لها نظيراً باسم الإسلام، وأقيمت مذابح لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، باطلاً وزوراً وبهتاناً، باسم نصرته الدين، مما لا يشكُّ فيه عاقلٌ أنها مكيدةٌ مدسوسةٌ، لتشويه صورة الإسلام<sup>(1)</sup> النَّاصعة البيضاء، التي ملأت العالم عدلاً ونوراً وبهاءً وضياءً، فسَلُّ الأندلس وأهلها عن عدل الإسلام وسماحته، هل أكره واحدٌ من أهل الأندلس على دخول الإسلام؟

كيف كانت معاملة النصارى في بلاد المسلمين؟

كيف تعايشت كل الديانات والمجتمعات مع المسلمين؟

كيف انتشر الإسلام في شرق آسيا؟

ألم يعرف الشرق والغرب قديماً وحديثاً سماحة الإسلام! وكرامة

أهله، وصدقهم وأمانتهم؟

1 - الصادق عبد الرحمان الغرياني، الغلو في الدين، مطابع الجماهيرية، سبها، ليبيا،

الطبعة الأولى، 2000م، ص6.

ولقد كانت الخشية التي تمثلها مَالِكٌ وغيره من علماء الإسلام، سبباً في تقريب المسلمين من هذه المجتمعات، ورافداً أساسياً ومعتاداً، لبيان سماحة الإسلام، وصلاحه لكل زمان ومكان.

ولقد كان الإمام مالك بورعه وتقواه وخشيته، وتحزره في الفتوى، وإصدار الأحكام، من السفراء الأوائل لهؤلاء العلماء الأعلام، وذلك لعمق فهمه لمقتضيات الشريعة، ومراعاته لمصالح المسلمين، لذلك كان إذ قيل له: هذا الحديث ليس عند غيرك! تركه، وإن قيل له هو مما يحتج به أهل البدع! تركه<sup>(1)</sup>، مخافة أن يفهم منه غير مراد الشارع، فالفهم للنصوص مقدم عند مالك، وأكثر ما كان يقلقه الفتن، فكان همه درء الفتن، وغايته صلاح الناس واجتماعهم على كلمة سواء.

قال ابن وهب: قال مالك: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها، فقال الفروي<sup>(2)</sup>: فقلت له: لم؟ قال ليس عليها العمل<sup>(3)</sup>.

لقد عرف مالك أن أمر الفتوى حملٌ ثقيلٌ تنوء بحمله الجبال، وتقشعر منه جلود الأبطال، وتثقل من عواقبه قلوب الرجال، فإذا كان هذا

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب تحريه في العلم والفتيا والحديث، ج 1 ص 42 .

2 - إسحاق بن محمد الفروي - بسكون الراء - سمع من مالك، وروى عنه البخاري، وروى عنه الترمذي وابن ماجه بواسطة، وأبو بكر الأثرم وخلق، قال أبو حاتم: صدوق وربما لقن لأنه ذهب بصره، وكتبه صحيحة، ووهاه أبو داود ونقم عليه حديث الإفك لروايته عن مالك، وذكره ابن حبان في الثقات، وتوفي سنة 220هـ، انظر: الصفدي، الوايف بالوفيات، ج 3 ص 171 .

3 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 41 .



حال مالك الذي عرف بعلمه وورعه، وقيل عنه لا يفتى ومالك في المدينة، إذا كانت هذه حاله، وهو من هو؛ فليتب الله المتجرؤون على القول في الدين بغير علم، وليتحلوا بدوام المراقبة لله تعالى، فهي خير علاج من داء التجرؤ على الفتوى.

ولينظروا إلى مصالح المسلمين، فالشريعة إنما جاءت بحفظ المصالح، وصيانة الأعراض، وإخماد الفتن، وحقن الدماء، قال الشافعي رحمه الله: لقد كان مالك يحفظ كل ما يلقي عليه، ويدونه في مذكرات خاصة، ولا يلقي على تلاميذه منه إلا ما يرى فيه مصلحة للناس، وما يستقيم من مقاييس نقده في الفحص، وتمييز الصحيح من غير الصحيح، حتى إنهم وجدوا بعد موته صندوقين كان الإمام مالك رحمه الله، قد دونها ولم يعلنها، ولقد قال أحد أبناء تلاميذه: "وجدنا في تركة مالك صندوقين فيها كتب، فجعل أبي يقرأها ويبكي ويقول: رحمك الله إن كنت تريد بعلمك وجه الله تعالى، لقد جالسته الدهر الطويل، وما سمعته يحدث بشيء مما قرأناه"<sup>(1)</sup>.

فما أحوجنا اليوم لعلماء يتحلون بدوام المراقبة لله تعالى، ويؤثرون مرضاته على مرضاة الناس، ورضاه على رضا العام والخاص، والله المستعان وعليه التكلان.

1 - ترتيب المدارك، ج 1 ص 164 .

### المبحث الثالث . فهم الممارسة وممارسة الفهم:

إن هذا المبحث من أهم المباحث في هذا الفصل، حيث سنقف فيه على ما كان يتمتع به الإمام مالك - رحمه الله - من نظرٍ ثاقب، وفهمٍ صحيحٍ للشريعة الإسلامية، وما كان للعقيدة الإسلامية من غايات ساميةٍ تتعدى كونها عقيدةً جامدةً تقتصر على الأوامر والنواهي، إلى كونها رسالةً ساميةً، خالدةً جاءت لإسعاد الإنسان أينما كان، واهتمت بالمعنى قبل المبنى، وعنيت بالداخل قبل الخارج، وراعت المصالح العامة قبل الخاصة.

والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية يفك كثيراً من الرموز والطلاسم التي بات يبيتها أعداء الإسلام حول الإسلام، وتتفثها عقارب الغدر، وأفاعي الدس التي خرجت من جحورها تروّج الإشاعات والأغاليط التي تبرأ منها الإسلام ونبذها، وعدّها من البدع والأهواء، وكذلك يتبين من خلال ذلك أن السبب الرئيسي لما نراه في وقتنا الحاضر من حملات التشويه المتكررة التي تشن على الإسلام، ونبى الإسلام من حينٍ لآخر، سببها عدم فهم الإسلام بصورته الحقيقية، وعدم إظهاره بوجهه الصحيح، والعلة قلة الفهم، وإنما دواء العي السؤال.

### ارتباط الفهم بالممارسة:

أولاً - الفهم لغة: مرادف للعلم، فتقول فهم الشيء بمعنى: (عَلِمَهُ) (1). قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (2)، أي

1 - مختار الصحاح 513 .

2 - سورة الأنبياء الآية 79 .

علمناها له.

وفي الاصطلاح: الفهم أعم وأوسع من مجرد العلم - فيطلق الفهم على إدراك الأمور على حقيقتها، والإمام بجميع جوانبها، فليس كل من علم فهم، في حين أن الفهم لا يكون إلا عن علم، فقد يعلم الإنسان الحكم في قضية ما عن طريق الإخبار بها؛ أو الاطلاع على حكمها، في حين أنه قد لا يكون فاهماً ومدركاً لجميع خباياها وفروعها، والأسباب التي أدت إلى ذلك الحكم، بعكس الإنسان الذي يدرك الحكم عن فهم ودراية بجميع الفروع، والإمام بجميع القضايا التي تتعلق بهذه المسألة.

ومن علماء اللغة، من يطلق الفهم على الفقه<sup>(1)</sup>، فالفقيه في الدين هو العالم العارف بالمسائل الفقهية المدرك لأحكامها وأصولها وفروعها، فكلُّ فقيه عالم، في حين أنه ليس كلُّ عالم فقيه، والله أعلم.

**ثانياً - الممارسة لغةً:** مصدر للفعل الرباعي - مارس - وهو مزيد بالألف، والأصل: مرس، ومرس، أمراس جمع مرس بكسر الراء وهو الشديد الذي مارس الأمور وجربها ومنه حديث وحشي في مقتل حمزة - رضي الله عنه - فطلع علي رجل حذر مرس، أي شديد مجرب للحروب والمرس<sup>(2)</sup>.

ويقال: (مرس الثمر) إذا أنقعه في الماء، ومرسه وفركه بيده مراراً، ومنه المريس - أي الثريد، وتمرس بالشيء احتكَّ به<sup>(3)</sup>.

1 - مختار الصحاح ، ص 508.

2 - لسان العرب لابن منظور، باب مرس، ج 6 ص 215 .

3 - مختار الصحاح، ص 621، وراجع : مختار القاموس ، للزاوي، ص 571 .

وفي الاصطلاح: المعنى الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي فهي وإن كانت تعني العمل المستمر والدءوب، ولكن مدلول الممارسة أقوى في الدلالة على معنى المشاركة والتطبيق من مفهوم العمل، فكلمة العمل وحدها، لا تعني بالضرورة قيام شخص بعمل ما، فهي تعبّر عن العمل في حدّ ذاته، بقطع النَّظر عن كونه عملاً مقوماً به أم لا.

في حين الأمر يختلف في مفهوم الممارسة، فالممارسة لا تطلق إلا على عملٍ مقومٍ به، مُستمرٌ عليه، ناتج عن علمٍ من العامل، فعندما نعطي إنساناً معلومة ما، فإننا بعد ذلك نطلب منه أن يمارس هذه المعلومة واقعاً عملياً، فلا يستطيع أن يمارسها عن جهلٍ، فمصطلح الممارسة على هذا لا يكون إلا عن علمٍ وفهمٍ من كثرة التكرار والمزاولة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن إضافة مصطلح الممارسة للعقيدة الإسلامية، يدل على ارتباط العقيدة بالعمل عن طريق الفهم الصحيح لهذه العقيدة، وإذا علمنا أن العقيدة مرتبطة بالعمل، فيجوز القول إن المؤمن هو ذاك الشخص الممارس لعقيدته واقعاً عملياً، حتى صارت العقيدة مرآة تتجلى فيها شخصيته، بحيث لا يرى إلا من خلالها، فهو مؤمنٌ في كلِّ شيءٍ، مؤمنٌ في أخلاقه، مؤمنٌ في معاملاته، مؤمنٌ في عباداته، كما قال تعالى: ﴿طس~ تلك آيات الكتاب المبين هدىً وبشرى للمؤمنين الذين يُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾<sup>(1)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدىً ورحمةً للمحسنين الذين يُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾<sup>(2)</sup>.

1 - سورة النمل الآيات 1 - 3.

2 - سورة لقمان الآيات 1 - 5.

فهؤلاء هم أهل الممارسة للعقيدة الإسلامية، وهم أهل الصلاح والصلاح في الدارين، فهم يواظبون على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهم مع هذا كله يؤمنون بالغيب، وما أخبر تعالى به عن أحوال الآخرة، وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ (1).

### الفهم والممارسة عند مالك:

مما لا شك فيه أن الإمام مالك، كان من خيرة علماء السلف الذين فهموا الدين فهماً صحيحاً، على منهج السلف الصالح، من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم بإحسان، وهو من أولئك العلماء الذين تلت الأمة علمهم بالقبول، ولقد كان الفهم مقدماً فيما يختلج في صدورهم من أحكام، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - وكان مما قاله له: "الفهم الفهم فيما تخلج في صدرك، مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله، ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق" (2).

والفهم عند مالك؛ لم يكن فهماً متكلفاً ملفقاً، بحيث لا يكون منسجماً مع روح الدين، وأصول العقيدة، بل كان فهماً موضوعياً يستند على الأدلة الصحيحة، والقياس والرأي السليم، وإجماع أهل المدينة، كيف لا يكون كذلك وقد كان - رحمه الله - كما قال يحيى بن معين:

1 - سورة الأنفال الآية 5.

2 - السنن الكبرى للبيهقي، ج 10 ص 150، سنن الدارقطني، باب عمر بن الخطاب، حديث رقم/5424، وحديث رقم/5425.

"مَالِكُ أمير المؤمنين في الحديث، ومَالِكُ من حجج الله على خلقه، إمام من أئمة المسلمين مجمع على فضله"<sup>(1)</sup>.

فمَالِكُ لا يُختلف على فهمه، وحُسن تتبُّعه للأدلة والأثر، أحدٌ من علماء الدين، ومجمع عليه من الأئمة العاملين، وقد أثر عنه - رحمه الله - قوله "ليس الجدل في الدين بشيء"<sup>(2)</sup>.

### الفهم الصحيح عند مالك بالنأي عن الجدل:

لقد كان مالك يؤمن أن الفهم الحقيقي للدين وأصوله، وللشَّرْعِ وأحكامه، يقتضي البعد عن الجدل والمراء، فليس هذا ديدن المتدينين، ولا هو منهج المصلحين، فما دخل الجدل في شيء إلا شأنه وأفسده، يدخل الجدل بين الولد وأبيه، فيذهب ما بينهما من ودٍّ واحترام، ويكون بين الصديقين الحميمين فيعدِّي أحدهما على الآخر، ويقلل من احترام كلٍّ منهما للآخر، وإذا ما كان الجدل والمراء والمناقشات التافهة التي لا طائل من ورائها بين الزوجين، فاحكم على حياتهما بالانھیار، وعلى زواجهما بالفشل، أما إذا كان الجدل والمنافحات الكلامية بين التلميذ والمعلم، والمفتي والمستفتي، فلا تسأل عن قبجه، فهو يقلل من هيبة العالم، ويحط من قدر المتعلم، ويدلُّ على قلة أدب التلميذ، وحمق المعلم، ويصبح العلم الذي هو مفخرة أهله، زبالة للتصارع بين الديكة حيث قال له: "يا أمير المؤمنين، إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة"<sup>(3)</sup>.

1 - ابن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المتوفى سنة 1122هـ، شرح الزرقاني على موطأ

مَالِكُ، محمد دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 6.

2 - الانتقاء لابن عبد البر، ص 70.

3 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 2 ص 119، وانظر: محمد أبو زهره، مَالِكُ حياته وعصره، ص 96.

حتماً إن مَالِكاً إنما قصد بهذا الجدل المذموم، الذي لا يقصد منه العلم، ومناقشة المسائل بأدلتها، ومذاكرة الطلاب والرفقاء من أهل العلم، بل هو الجدل الممقوت الذي لا طائل منه، ولا يبتغى به وجه الله تعالى، ويكون للانتصار للنفس، ولممارسة السفهاء، وإغواء العامة من الناس.

لذلك كان يقول: "ليس الجدل في الدين بشيء".

ونقل عن الزهري قوله: "رأيت مالكا وقوماً يتجادلون عنده فقام ونفض رداءه وقال إنما أنتم حرب" (1).

وهذا الجدل منهي عنه، لأنه يُخشى على صاحبه الزيغ في الاعتقاد، والإحداث في الدين، أما المحاوراة بالحسنى واستبيان الحق بأدلتها، فهذا لا يعده من الجدل المذموم، بل هو من قبيل طلب العلم، واستبيان الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لذلك نقل عنه أن الوسيلة الحقيقية للفهم المحاوراة بالحسنى، وتحصل بالإخبار بما عند المرء من العلم، وبما يعلمه من السنة، قال الهيثم ابن جميل (2)، قيل لمالك: الرجل له علم بالسنة يجادل عنها؟

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب كراهيته المحدثات، ج 1 ص 50.  
2 - الهيثم بن جميل الأنطاكي سكن الشام، روى عن مالك بن انس، وزهير بن معاوية، وشريك، والمبارك بن فضالة، وعبد الله بن المثني، ومحمد بن مسلم الطائفي، وروى عنه احمد بن حنبل، وعمرو الناقد سمعت ابي يقول ذلك، حدثنا عبد الرحمن نا عبد الله بن احمد، ابن حنبل فيما كتب إلي قال قال أبي: الهيثم ابن جميل ثقة، توفي سنة 213هـ، انظر: أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، الجرح والتعديل، ج 9 ص 86، والذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، ج 2 ص 342.

قال: "لا، ولكن يخبر بالسنة" (1).

هكذا كان فهمه للعلم ومقتضياته، وإن كان هناك جدال فهو يكون - ولكن - بالحسنى، للوصول إلى الحق، وبعيداً عن الانتصار للنفس، لأنه علم أن العالم مبلّغ عن الله، فينبغي أن يتجرّد، وأن يتنرّه من حظوظ النفس، وأن يجعل غايته ومبتغاه مرضاة الله تبارك وتعالى، أما الجدل الذي لا طائل منه فهو ليس من الدين في شيء.

### الفهم عند مالك:

علمنا في الفصل الأول في الحديث عن منهج مالك في الفتوى، أن مالكاً - رحمه الله - كان لا يتعدى النصوص إلى ما سواها، وإذا صح الحديث فهو مذهبه، وهو كما علمنا مذهب السلف الصالح حيث كانت نظرتهم - رحمه الله - أن السلف هم خير من فهم الدين فهماً صحيحاً. وقد كان مالك، يقدم فهم أهل مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فهم غيرهم، وقد روى عنه - رحمه الله - أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع هذا العلم ودون كتاباً وجنب فيه شذائد ابن عمر، ورخص ابن عباس وشواذ بن مسعود، واقصد أوسط الأمور، وما

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1 ص 51، وانظر - إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عصفان، الطبعة الأولى، 1997م، باب النظر الثاني: في أحكام السؤال، ج 5 ص 190، وانظر: التاج والإكليل، باب العدل، ج 6 ص 167.



أجمع عليها الصحابة والأئمة<sup>(1)</sup>.

ثم إنه قال له مرة أخرى: يا مَالِك اجعل هذا العلم علماً واحداً، أراد أبو جعفر أي علماً واحداً، وفتاوى موحدة ليجمع عليها الناس قصراً، ففهم ذلك مَالِك، فقال له: إن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، تفرقوا في البلاد، فأفتى كل في مصره بما رأى، فلاهل المدينة قول، ولأهل العراق قول، تعدوا فيه طورهم، فقال أبو جعفر أما أهل العراق فلا أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، وإنما العلم علم أهل المدينة فضع للناس العلم<sup>(2)</sup> وأعتقد أن هذه المحاورة بين مَالِك وأبي جعفر، وردود أبي جعفر على الإمام، وتبريراته للنزوع إلى علم أهل المدينة، تصلح أن تكون أساساً ننطلق منه لتغطية هذه الجزئية من مبحث الفهم والممارسة عند مَالِك - رحمه الله -، وطريقه فهمه للنصوص، وكيف أن المنهج الذي اعتمده مَالِك في ذلك الوقت لم يكن معتمداً عنده فقط، بل كان هو المنهج المقدم عند الأمراء وولاة الأمر، ناهيك عن عامة الناس الذين كانوا يرتضون علم أهل المدينة ويقدمونه على ما سواه.

### سبب اختيار فهم أهل المدينة:

لقد اجتهد كثير من العلماء في ذكر الأسباب التي أدت بمَالِك لاعتتماد عمل أهل المدينة في فهم النصوص أساساً في مذهبه، وأصلاً من أصوله، ومنهم أبو زهرة، ومن قبله القاضي عياض، والإمام ابن عبد البر،

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج1ص60، الديباج المذهب لابن فرحون، باب في

ذكر الموطأ وتأليفه إياه، ج1ص13، وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ، ج1ص13.

2 - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج1ص60، وانظر: الموطأ بشرح الزرقاني، ج1ص13.

وغيرهم، وجملة ما قالوه ما يلي :

إن مَالِكاً كان يقول إن إجماعهم حجةٌ، وهو قول مجمع عليه عند المَالِكِيَّةِ، ودليلهم على ذلك الحديث في الموطأ وغيره، عن جابر بن عبد الله، "أن أعرابياً بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فقال يا رسول الله أقلني بيعتي! فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم جاءه فقال أقلني بيعتي! فأبى، ثم جاءه فقال أقلني بيعتي! فأبى، فخرج الأعرابي، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما المدينة كالكبير، تنفي خبثها وينصح طيبها"<sup>(1)</sup>.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تآرز الحية إلى جحرها"<sup>(2)</sup>.

جاء في الديباج على شرح مسلم: "لأنه في أول الإسلام كان كل من

1 - موطأ مالك، باب ما جاء في سكنى المدينة، حديث رقم/1377، صحيح البخاري، باب المدينة تنفي الخبث، حديث رقم/1750، وفيه أيضاً باب بيعة الأعراب، حديث رقم/6669، وباب من بايع ثم استقال، حديث رقم/6671، وباب من نكث بيعة، حديث رقم/6676، وباب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحض على اتفاق أهل العلم وما أجمع عليه الحرمان مكة والمدينة وما كان بها من مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ومصلى النبي صلى الله عليه وسلم والمنبر والقبر، حديث رقم/6777، وصحيح مسلم، باب المدينة تنفي شرارها، حديث رقم/2453 وله روايات أخرى في المسانيد .

2 - صحيح البخاري، باب الإيمان، يآرز إلى المدينة، حديث رقم/1743، صحيح مسلم، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، حديث رقم/210.

خلص إيمانه، وصح إسلامه، في المدينة أتى مهاجرا متوطنا، وإما متشوقا إلى رؤية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومتعلما منه، ومتقربا، ثم بعد هذا في زمن الخلفاء، لأخذ سيرة العدل منهم، والاقتراء بجمهور الصحابة فيها، ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرح الوقت، وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم، وكان كل منهم ثابت الإيمان، منشرح الصدر" (1).

وقد كان مالك رحمه الله يقول: "فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله واختار له ما عنده، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته" (2).

1 - الديباج على مسلم، ج 1 ص 165.

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، ج 1 ص 10، وهي رسالة مطولة من الإمام مالك لليث ابن يعد، ونصها: "سلام عليكم، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياك من كل مكروه، اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وبيلدنا الذي نحن فيه وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله تعالى يقول في كتابه: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار... الآية. وقال تعالى: فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... الآية. فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم =

ويمكن أن نعزو أخذ مالك برأي أهل المدينة لعدة أسباب منها:

1 - نظرة مالك لمفهوم الممارسة أنها أبلغ في الدلالة من مفهوم النص، خاصة إذا علمنا أنه لم ينقل ذلك عن أي واحد من أهل المدينة، بل عن الصفوة منهم حتى إنه كان يقول: "أدركت سبعين من أهل المدينة وما من واحد منهم إلا لو ائتمن على مال بيت المسلمين لكان أميناً، ولكنهم لم يكونوا من أهل ذلك الشأن"<sup>(1)</sup> فكان يراعي إجماع الفضلاء من أهل

= فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته. ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحدائهم وعهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم، فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك واعلم أنني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده، والنظر لك والظن بك، فانزل كتابي منك منزلته، فإنك إن فعلت تعلم أنني لم آلك نصحاً، وفقنا الله وإياك لطاعته وطلاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله، وكتب يوم الأحد لتسع مضي من صفر..

1 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب وتحريه فيمن يأخذ عنه، ج 33، وانظر - ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم، ص 36، ابن عساكر تاريخ دمشق، باب محمد بن مسلم بن عبيد الله، ج 5 ص 251.

المدينة، ويأخذ عن أهل العلم، وممن كان على فهم، وورع وتقوى منهم.  
 2 - كان رحمه الله يجمع ما بين الممارسة والفهم من جهة، والنص من جهة أخرى، حيث كان ينظر إلى العمل، ثم يسأل ويناقش عن السبب لإثبات رأيه على هذا الوجه، دون غيره وكيفية تطبيقه.

مثل قوله في طلاق السكران أنه يقع - كما نقل ذلك عن التابعي الجليل، سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، واستشهد بفعل عمر رضي الله عنه، فقد جلد المطلب بن أبي البختري، الذي طلق زوجته وهو سكران جلده عمر بن الخطاب الحد، وأجاز طلاقه<sup>(1)</sup>، وغيرها من الأحداث والقضايا، حيث كان الإمام - رحمه الله - يتشبه بعمل أهل المدينة، ويقارنه بالأحاديث الصحاح المعتمدة عنده.

ويشترط اعتبار عمل أهل المدينة عند مالك شرطان:

**الأول** - أن يكون فيما لا مجال للرأي فيه.

**الثاني** - أن يكون من الصحابة أو التابعين، لا غير ذلك؛ لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه في حكم المرفوع فألحق بهم مالك التابعين من أهل المدينة فيما لا اجتهاد فيه، لتعلمهم ذلك عن الصحابة<sup>(2)</sup>.  
 كذلك ما جاء في الموطأ: عن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يقول: "إذا فاتتك الركعة، فقد فاتتكَ السجدة"، وأيضاً في نفس الباب من الموطأ حديث مالك، أنه بلغه أن عبد الله بن عمر، وزيد بن

1 - سحنون بن سعيد التتوخي، المدونة الكبرى، ضبط وتخريج: محمد محمد تامر،

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ج 2 ص 87.

2 - محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة،

دار ابن الجوزي، الطبعة الخامسة، 1427 هـ، ص 168.

ثابت، كانا يقولان: "من أدرك الركعة فقد أدرك السجدة"<sup>(1)</sup>. فلم يكن مالك يعتد بعمل أي واحد من أهل المدينة، ما لم يكن من أهل الرأي والعلم، وممن لا يُشكُّ في أن فعله هذا كان موافقاً لفعل النبي - صلي الله عليه وسلم -. لما علمه من شدة حرصهم على دوام المتابعة. ففي مسألة كهذه لا يعقل أن تخفى على عموم الصحابة والتابعين؛ لكثرة ورودها، باعتبار الصلاة من الأعمال اليومية، وهو حكم لا يخفى لتعلقه بأمرٍ مهم جداً في مسألة إدراك صلاة الجماعة، والتي كانوا - رضي الله عنهم - معروفين بحرصهم عليها والمواظبة على حضورها مع رسول الله - صلي الله عليه وسلم -. واحتمال ورود التأخر على الصلاة وارد، وقد ترد فيها أقوال عن كثير من الصحابة والتابعين، ولكن مع هذا كان متتبعاً لأقوال الفقهاء منهم، كأبي هريرة، وزيد بن ثابت، وابن عمر رضي الله عنهما، ومن التابعين كسعيد بن المسيب، والزهري وغيرهما.

قال محمد بن الحسن الحجوي، في الفكر السامي: والأخذ بقول الصحابي وفتواه عند مالك، إنما قيده بكونه من أعلام الصحابة المفتين، كالخلفاء، ومعاذ، وأبي، وابن عمر، وابن عباس، ونظرائهم، كما يشترط أن لا يخالف المرفوع الصالح للاحتجاج<sup>(2)</sup>.

ومن هنا نستتبط أن مالكاً كان يذكر الأحكام بعناية، وتتبع، واستقراءً لعمل أهل المدينة، وقدّم منهم عمل فقهاء الصحابة كما سبق،

1 - موطأ مالك، رواية سويد بن سعيد الحدثاني، تحقيق عبد المجيد تركي، دار

الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994م، ص46.

2 - الحجوي محمد بن الحسن، الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة

العلمية، المدينة المنورة، 1396هـ، ج1 ص391.

وليس هذا فحسب، بل كان ينظر إلى النصوص الصحيحة، ويقدمها على عمل أهل المدينة إذا كان من الأخبار المتواترة المقطوع بصحتها<sup>(1)</sup>، وذلك لشدة حرصه وورعه في تنقيح الأحكام، ومتابعتها للسنة، واقتفاء هدي المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

فتجده يورد في المسألة الواحدة أكثر من حديث وأثر كما مرّ علينا، ومن الأمثلة على ذلك كما في هذه المسألة، فهو يورد أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حيث كان يقول: "من أدرك الركعة، فقد أدرك السجدة"<sup>(2)</sup>، ومن فائته قراءة أم القرآن، فقد فاته خير كثير"<sup>(2)</sup>، فقد وردت في هذه المسألة ثلاثة أقوال وهي كما يلي:

**الأثر الأول -** فعل ابن عمر رضي الله عنهما، وهو مذكور في الصحيحين، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر.

**الأثر الثاني -** فعل ابن عمر، وزيد بن ثابت.

**الأثر الثالث -** القول المأثور عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا فهذه ثلاثة آثار استشهد بها في مسألة واحدة فقط، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حرص مالك، ودقته في استنباط الأحكام من التتبع والاستقراء لعمل أهل المدينة، فهؤلاء كلهم من الصحابة الأرحام، الذين يحتج بقولهم، ومع هذا لم يعلم لهم مخالف من الصحابة في هذا الفعل الذي يقطع بشيوعه عند عامة الصحابة، وعلمهم به لكونه من الأعمال التي لا غنى عنها.

1 - محمد أحمد برانق، عهد الأئمة المجتهدين، إشراف لجنة من الأساتذة، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1978م، ص 8.

• - المعنى: الصلاة، وهذا من قبيل ذكر الكل بالبعض.

2 - موطأ مالك، برواية الحدثاني، تحقيق عبد المجيد تركي، ص 46.

## سبب أخذ مالك بأقوال الصحابة:

إن مالكاً - رحمه الله - يعدُّ أصحاب النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، كلهم عدولاً، حيث كان يقدم قولهم على الاجتهاد، والقياس، ويرى أن رأيهم حجة، فهم أقرب الناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعلى أكتافهم حملت مشاعل راية التوحيد، وقد كانوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - العون والسند، فهم الذين آووه ونصروه، وجاهدوا لرفع راية الإسلام، وكانوا يقدمونه على النفس والوالد والولد، وهذا هو قول جمهور علماء السلف، والخلف، فهم عدول بمزيد ثناء الله عز وجل عليهم (1).

قال ابن عبد البر: "الصحابة رضي الله عنهم قد كفيينا البحث عن أحوالهم لإجماع أهل الحق من المسلمين، وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول" (2).

وصدق الله العظيم حيث قال فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

1 - محمد علي الصابوني، تفسير آيات الأحكام، دار الصابوني، القاهرة، مصر،

الطبعة الأولى، 1999م، ج 2 ص 350.

2 - ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المقدمة، ج 1 ص 7.



بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (1).

سماهم الله - عز وجل - بالصادقين، فصدقهم في الله ولدين الله لا حدود له، وصدقهم مع سول الله منقطع النظير.

أخرج ابن جرير في تفسيره بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليضيفه، فلم يكن عنده ما يضيفه، فقال: "ألا رجلٌ يضيف هذا رحمه الله، فقال رجلٌ من الأنصار، يقال له أبو طلحة، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته أكرمي ضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، وأريه بأنك تأكلين معه، واتركيه لضيف الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعلت، فنزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" (2).

فأي إخلاصٍ أبلغ من هذا؟ وأي صدقٍ أصدق من هذا؟ أن ينام بيتٌ كامل أهله جياعاً، الزوج والزوجة والصبية الصغار، في مقابل أن يكرم ضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إن هذا الصدق هو الذي بلغ بهم ما بلغ، وهذه الهمة العالية، وهذا الإيثار، هو الذي جعلهم حجةً لا يتسرب إليها الشك في الورع والتقوى، والحرص على دين الله، وهذا مثل واحدٌ فقط من أمثلة هؤلاء الصادقين، وهي أكثر من أن

1 - سورة الحشر الآيات 8 - 10.

2 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة بيروت، لبنان، 1980م، ج12 ص29، والحديث في صحيح البخاري، باب قول الله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، حديث رقم/3514، وحديث رقم/4510، وصحيح مسلم، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، حديث رقم/3830، سنن الترمذي، باب من سورة الحشر، 3226.

تحصى.

وقال الباجي المالكي: "كلهم عدول وبدون استثناء"<sup>(1)</sup>. وجاء في الوجيز في أصول الفقه المالكي: قول الصحابي متضمن للدليل، لأن الصحابة كلهم عدول لثناء الله ورسوله عليهم، فلا يُظن بأي منهم الإقدام على قول في الدين دون استناد إلى دليل شرعي<sup>(2)</sup>. وإلى هذا أشار ابن الأثير في أسد الغابة حيث قال: "الصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع الأحوال، إلا في الجرح والتعديل؛ فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح؛ لأن الله - عز و جل - ورسوله زكياهم وعدلاهم"<sup>(3)</sup>.

من أجل هذا كان مالك وغيره من علماء السلف يرون أن عمل الصحابي وقوله، أقرب إلى السنة من قول غيره، وأن العدالة تضمهم جميعاً، وقولهم حجة يرجع إليه في المذهب المالكي وغيره من المذاهب السنية.

- 
- 1 - الحافظ أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد ابن أيوب الباجي المالكي «403 - 474 هـ»، التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح، دراسة وتحقيق - أحمد ليزار أستاذ بكلية اللغة العربية بمراكش، المكتبة الوقفية، 2001م، ج1ص28 .
  - 2 - محمد عبد الغني الباجقني، الوجيز الميسر في أصول الفقه المالكي، المكتبة الوقفية، 2005م، ج1ص180 .
  - 3 - ابن الأثير، أسد الغابة، المقدمة، ج1ص1 .

## اجتهاد مالك في النص:

إن اجتهاد مالك في النص، كان لا يعدو كونه اجتهاداً في تلقى الحديث من طريقه، وعمن يأخذه، فإذا صح عنده الحديث فإنه لا يتعداه إلى ما سواه، وكثيراً ما كان يستشهد على كلامه، بحديث صحيح أو فعل صحابي أو بمن يعتد برأيه من التابعين كسعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري، ونافع، وغيرهم.

- كما في مسألة رفع اليدين عند تكبيره الإحرام، والركوع، والرفع منه، فقد جاء في الموطأ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أن رسول - صلى الله عليه وسلم - إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه، وإذا رفع رأسه من الركوع، رفعهما كذلك، وقال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد وكان لا يفعل ذلك في السجود" (1).

قال ابن عبد البر: إن معنى رفع اليدين تعظيم لله وتسليم وابتهاال له، وكان بن عمر رضي الله عنهما يقول لكل شيء زينة، وزينة الصلاة التكبير ورفع اليدين (2).

وجاء في صحيح مسلم في باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة حديثان:

الأول - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه: "كان يكبر كلما خفض ورفع، ويحدث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يفعل ذلك" (3).

1 - موطأ مالك، باب افتتاح الصلاة، حديث رقم/149.

2 - الاستذكار لابن عبد البر، باب افتتاح الصلاة، ج 1 ص 406، وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ، ص 228.

3 - صحيح مسلم، باب إثبات التكبير في كل رفع أو خفض، حديث رقم/590.

الثاني - حديث مطرفٍ، قال صليت أنا وعمران بن حصين خلف على ابن أبي طالب، فكان إذا سجد كَبَّر، وإذا رفع رأسه كَبَّر، وإذا نهض من الركعتين كَبَّر، فلما انصرفنا من الصلاة قال: أخذ عمران بيدي ثم قال: "لقد صلى بنا هذا، صلاة محمد - صلى الله عليه وسلم - أو قال ذكّرني هذا، صلاة محمد - صلى الله عليه وسلم -".<sup>(1)</sup>

هذا وقد علمنا أن مَالِكاً - رحمه الله - كان مذهبه ما صح من حديث رسول الله صلى عليه وسلم وما كان عليه العمل في المدينة، وما نقل من المدونة من أن مَالِكاً - رحمه الله - كان لا يرفع إلا عند تكبيرة الإحرام وهو قول ابن القاسم: "وكان رفع اليدين عند مالك ضعيفاً إلا في تكبيرة الإحرام"<sup>(2)</sup>.

يحتاج إلى تفصيل<sup>(3)</sup>، حيث إنه من غير المعقول أن يكون مَالِكٌ - رحمه الله - قد ترك هذه السنّة عن قصدٍ، أو مخالفاً لهدي المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، فهذا لا قائل به، ولا يرد أي شك في كون الإمام

1 - صحيح مسلم، باب إثبات التكبير في كل رفع أو خفض، حديث رقم/594. أقول: إن الأحاديث التي سبقت لها روايات عدة في صحيح البخار، وغيره، ومنها ما هو في موطأ مالك - انظر الموطأ، باب افتتاح الصلاة، حديث رقم/150، حديث رقم/152، وحديث رقم/153.

2 - سحنون بن سعيد، المدونة الكبرى، ج 1 ص 139.

3 - يذكر شيخ الإسلام بن تيمية تعليقا على المدونة فقال: ومعلوم أن مدونة ابن القاسم أصلها مسائل أسد بن الفرات التي فرعها أهل العراق، ثم سأل عنها أسد ابن القاسم فأجابه بالنقل عن مالك، وتارة بالقياس على أقواله، ثم أصلها في رواية سحنون، لهذا يقع في كلام بن القاسم طائفة من الميل إلى أقوال أهل العراق، وإن لم يكن ذلك في أصول أهل المدينة. (صحة أصول أهل المدينة، ص 38).

مَالِك - رحمه الله - كان متقيداً بالسنة، عاملاً بما صح من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم ..

وقال في الإكمال: "اختلف عن مالك في الرفع فرؤي عنه لا رفع إلا في الافتتاح، وهي أشهر الروايات، وروي عنه الرفع عند الافتتاح، وعند الركوع وعند الرفع منه، وهذه الرواية مشهورة عن مالك عمل بها كثير من أصحابه"<sup>(1)</sup>.

وقال ابن عبد البر: روت جماعة عن مالك فذكرت فيه رفع اليدين عند الافتتاح، وعند الركوع، وعند الرفع من الركوع، وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب وهو الصواب، .... ثم قال: ومعنى رفع اليدين عند الافتتاح وغيره - خضوع واستكانة وابتهاال وتعظيم لله تعالى واتباع لسنة رسوله عليه السلام، وليس بواجب<sup>(2)</sup>.

أما رواية ترك الرفع فلا تخلو أن تكون نقلت عن الإمام، وكان قد استند فيها لعمل واحد من الصحابة، أو أن الحديث لم يصح عنده في مبدأ الأمر، ثم بعد ذلك ثبت عنده، وقد مر علينا حديث ابن عمر في الموطأ - فكيف يروي الإمام هذا الحديث ثم يخالفه؟ الأمر ليس كذلك - والمسألة أراها "والله أعلم" كما ذكرها ابن عبد البر وصححها، فقد نقلت عن جماعة منهم ابن وهب، وابن القاسم، وابن نافع، وأثبتوها في الموطأ، وقد استفاض النقل عن مالك بالرفع في الركوع، والرفع منه، وبه قال الأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والطبري، وجماعة الحديث، في حين لم ينقل أحد عن مالك ترك الرفع إلا ابن القاسم، وهو ما سبب

1 - التاج والإكليل، باب فرع مندوبات الصلاة، ج 1 ص 536 .

2 - ابن عبد البر، الاستذكار، باب افتتاح الصلاة، ج 1 ص 406 .

الإشكال في هذه المسألة<sup>(1)</sup>.

والحق أن - مَالِكاً - رحمه الله - ما كان ليترك سنّةً ثبتت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو مَنْ هُوَ فِي التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، واحترامها وتعظيمه لفعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو قد يكون - رحمه الله - كان لا يرفع في بادئ الأمر ثم بعد أن صحَّ عنده الحديث واظب عليه. والله اعلم.

- تقديم العمل على النَّصِّ في أمور المستحبات والفضائل - كما في حديث العقيدة، فقد وَرَدَ عن مَالِكٍ، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "لم يكن يسأله أحدٌ من أهله عقيدة إلا أعطاه إياها، وكان يعقُّ عن ولده بشاةٍ شاةٍ عن الذكور والإناث" وهو المشهور عن مَالِكٍ، أنه يُعَقُّ عن المولود بشاةٍ شاةٍ، الذكر والأنثى، وروي كذلك أن أبا عروة بن الزبير كان يعقُّ عن بنيه الذكور والإناث، بشاةٍ شاةٍ، قال مَالِكُ: الأمر عندنا في العقيدة أن من عقَّ، فإنما يعق عن ولده بشاةٍ شاةٍ، الذكور والإناث، وليست العقيدة بواجبةٍ - ولكنها يستحب العمل بها، وهي من الأمر الذي لم يزل عليه الناس عندنا - فمن عقَّ عن ولده فإنما هي بمنزلة النسك والضحايا، لا يجوز فيها عوراء ولا عجفاء ولا مكسورة ولا مريضةً، ولا يباع من لحمها شيء، ولا جلدها، ويكسر عظامها، ويأكل أهلها من لحمها، ويتصدقون منها، ولا يمس الصبي بشيء من دمها"<sup>(2)</sup>.

وحجّةٌ من احتج بأن للذكر شاتين، وللأنثى شاةً، لما صحَّحه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها أنه - صلى الله عليه وسلم - أمر

1 - شرح الزرقاني للموطأ، ج 2 ص 229.

2 - ابن عبد البر، الاستذكار، ج 15 ص 378، وانظر: الموطأ بشرح الزرقاني، ج 3 ص 131.

أن يعق عن الغلام بشاتين متكافئتين، وعن الجارية بشاةٍ، وقد أجاب عنه مالك ومن وافقه - أنه لما اختلفت الرواية فيما عتق عن الحسنين ترجح تساوي الذكور والإناث بالعمل، والقياس<sup>(1)</sup>.

ومن هنا تبين لنا أن مالكاً - رحمه الله - ما كان ليجتهد مع النص، وهذه هي في الواقع القاعدة الفقهية المقررة (لا اجتهاد في القطعيات)<sup>(2)</sup>. ولكن مالكاً كان يقدم العمل أحياناً، فيما يرى أنه ترجح العمل به عند فقهاء الصحابة، وأئمة التابعين.

مسألة أخرى من المستحبات، وهي: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة، وهي من المسائل التي يذهب أغلب المالكية فيها إلى تقديم الإسدال على القبض في الصلاة، وذلك لأنها نقلت في رواية المدونة عن ابن القاسم<sup>(3)</sup>، ولكن المقرر في الموطأ عن مالك، غير ذلك، فقد جاء

1 - الموطأ بشرح الزرقاني، ج3 ص130، وانظر: الفواكه الدواني شرح رسالة أبي زيد القيرواني المالكي، ج1 ص460.

2 - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: 1250هـ)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى 1999م، ج2 ص206.

3 - قال ابن رشد الحفيد: "اختلف العلماء في وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة فكره ذلك مالك في الفرض وأجازة في النفل. ورأى قوم أن هذا الفعل من سنن الصلاة وهم الجمهور، انظر: أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الرابعة، 1975م، ج1 ص137. وهو: حفيد العلامة ابن رشد الفقيه، عرض الموطأ على والده وأخذ الطب عن أبي مروان بن حزبول، ودرس الفقه حتى برع، وأقبل على علم الكلام =

النصُ بإثبات القبض، وهذا هو الموافق لرأي الجمهور، وما كان لمالك أن يروي حديثاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يخالفه، وفي هذه المسألة حديثان في الموطأ، وهما كما يلي:

- الأول - حديث ابن المخارقة البصري، قال: "من كلام النبوة إذا لم تستح فافعل ما شئت، ووضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة، يضع اليمنى على اليسرى، وتعجيل الفطر، والاستيناء بالسحور"<sup>(1)</sup>.
- الثاني: حديث سهل بن سعد قال: "كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة" قال أبو حازم: لا أعلم إلا أنه ينمي<sup>(2)</sup>.

#### التوجيه في هذه المسألة:

يذكر بعض العلماء أنّ الحكمة من هذه الهيئة، أنها صفة السائل الدليل، وأنها أبعد عن العبث، وأقرب للخشوع، وهو الواقع حقيقة، إذ هي أظهر في التأدب مع الله تبارك وتعالى، فلو أردنا المقارنة: بين الهيئتين، واستعرضنا هذا بسؤالٍ مفاده: أيهما أولى، وأخشع في التأدب مع الله تبارك

= والفلسفة وعلوم الأوائل حتى صار يضرب به المثل، ومن تصانيفه كتاب التحصيل جمع فيه اختلاف العلماء، شرح كتاب المقدمات في الفقه لجدّه، نهاية المجتهد، كتاب الحيوان، الكليات في الطب، شرح أرجوزة ابن سينا في الطب، وغيرها، انظر - الأعلام للزركلي، ج 1 ص 197 .

1 - موطأ مالك، باب وضع اليدين إحداهما على الأخرى، حديث رقم/339.

• - أبو حازم راوي الحديث، ينمي ذلك، يعني - يرفعه لرسول الله صلى عليه وسلم .

2 - موطأ مالك، باب وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة، حديث رقم/340 .



وتعالى، قبض اليدين ووضع اليمنى على اليسرى، كما وردت السنة بها، أو إسدال اليدين؟ فالجواب الذي لا لبس فيه، أن الأفضل والأحسن هو القبض، هذا إذا علمنا أنه المروي عن مالك، كما رواه ابن عبد البر وغيره. قال ابن عبد البر: "لم يأت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه خلاف وهو قول جمهور الصحابة، والتابعين، ولم يحك عن مالك غيره" (1).  
وعد ابن رشد (2) من مستحبات الصلاة "وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة" (2).

1 - شرح الزرقاني للموطأ، ج 1 ص 454.

• - ويعتبر ابن رشد من جهابذة، علماء المالكية له عدة مؤلفات منها - المقدمات والمهدات، توفيت سنة 520.

2 - محمد بن أحمد المعروف بابن رشد الجد، المقدمات المهدات لابن رشد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ص 78، يقول عنه الذهبي في السير: "ابن رشد \* الإمام العلامة، شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، تفقه بأبي جعفر أحمد بن رزق، وأجاز له أبو العباس بن دلهان، قال ابن بشكوال: كان فقيها عالما، حافظا للفقه، مقدسا فيه على جميع أهل عصره، عارفا بالفتوى، بصيرا بأقوال أئمة المالكية، نافذا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العالم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدى الصالح، ومن تصانيفه كتاب "المقدمات" لأوائل كتب المدونة، وكتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل"، واختصار "المبسوطة"، واختصار "مشكلة الآثار" للطحاوي، وسار في القضاء بأحسن سيرة، وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشرت كتبه، وكان الناس يعولون عليه ويلجؤون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته، جميل العشرة لهم، بارا بهم، عاش سبعين سنة، ومات في ذي القعدة، سنة 520هـ، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج 19 ص 501.

- أما رواية ابن القاسم، الإسدال عن مالك فمن العلماء من يحملها على النافلة عند طول القيام، كما في صلاة التهجد والتراويح.
- كذلك منهم من علّله بأن ذلك بعد مرور مالك بالحنّة على أيدي العباسيين، وتعرضه للتعذيب والأذى بعد أن أفتى الإمام بعدم وقوع طلاق المكروه<sup>(1)</sup>، أما الإسدال بدون عذر، فقد نقل عن مالك كراهته<sup>(2)</sup>.
- ومع ذلك، وللحقيقة العلمية نقول: إن وضع اليمين على اليسرى في الصلاة عند علماء المالكية، يختلف فيه على أربعة أقوال، وقد جمعها العلامة المسناوي<sup>(3)</sup>، وغيره، وهي كما يلي:
- الاستحباب في الفريضة والنافلة: وهو قول مالك في الواضحة، وابن مخزوم المعروف بالصائغ، وأشهب بن عبد العزيز مفتي مصر، وعده ابن رشد في مقدماته من فضائل الصلاة، وكذا القرابي في الذخيرة، وهو الرواية التي نقلها أشهب عن مالك حيث قال: أشهب عن مالك: إن وضع اليد على الأخرى مستحب في الفريضة والنافلة<sup>(4)</sup>.

1 - وكان مالك قد جلد وعذب على أيدي أحد الولاة العباسيين، بسبب فتواه في وقوع طلاق المكروه، بسبب وشاية وشاهاها به أحد الحساد، المدونة ج 10، وانظر: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ج 1 ص 29.

2 - شرح الزرقاني، ج 1 ص 454.

3 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الملقب بالمسناوي، ولد بالزاوية الدلائية سنة 1072هـ، تتلمذ على أعلام منهم: أبي عبد الله محمد المرابط، وعبد السلام القادري، وأبي العباس أحمد بن الحاج، وغيرهم، من مؤلفاته: صرف الهمة في تحقيق معنى الذمة، فوائد التصوف، نصرة القبض، وغيرها كثير، قال عنه صاحب شجرة النور الزكية: "له أجوبة كثيرة، وتقاييد مفيدة في أنواع مختلفة لو جمعت لكانت مجلداً" انظر: شجرة النور الزكية، ص 333.

4 - أبو عبد الله محمد بن يوسف المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية بيروت، 1995، ج 1 ص 437.

ونقل القباب عن اللخمي قوله: "إن القبض أحسن للحديث الذي ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في البخاري ومسلم، ولأنهما وقفت العبد الدليل لربه"<sup>(1)</sup>.

• الكراهة في الفريضة: ذكر المواق الرواية عن ابن العربي أنه قال: كره مالك وضع اليد على الأخرى في الصلاة، وقال: إنه ما سمع بشيء في قوله سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾<sup>(2)</sup>، ثم قال ابن العربي: قد سمعنا وروينا محاسن، والصحيح أن ذلك في الفريضة<sup>(3)</sup>، وهذه الكراهة إنما تكون إذا قصد به الاعتماد، فالنافلة يجوز فيها الجلوس من دون عذر فكيف بالاعتماد، إذا طال القيام، واحتيج إليه<sup>(4)</sup>.

1 - محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر، ص235، وحديث البخاري المشار إليه هو: المروي من طريق عبد الله بن مسلمة عن مالك عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة، قال أبو حازم لا أعلمه إلا ينمي ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - "صحيح البخاري، باب وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، حديث رقم/698.

2 - سورة الكوثر الآية 2 .

3 - أبو عبد الله محمد بن يوسف المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ج1 ص536.

4 - محمد بن أحمد المسناوي المالكي، نصره القبض، والرد على من أنكروا مشروعيتها، ضبط وتعليق: د.عبد اللطيف بن الإمام بوعزيزي، د. طه بن علي بوسريح التونسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان، ص40 .

• الكراهة في الفريضة والنافلة: نقل عن الليث بن سعد قوله: سدل اليدين في الصلاة أحب إليّ، إلا أن يطول في القيام، فلا بأس أن يضع اليمنى على اليسرى في الصلاة (1).

• المشهور في المذهب أن القبض مستحبٌ إذا قصد به اتباع السنة، ولهذا يقول صاحب بلغة السالك لأقرب المسالك لمذهب مالك: "فإن لم يقصد به الاعتماد، وإنما قصد التسنُّن فمندوب" (2).

أما قوله "الاعتماد" فيحتاج إلى تدبُّر، إذ الأولى الإسدال لمريد الراحة من اعتماده على اليدين، وفي وضعهما بذل وجهه، فلا معنى لقوله: (لم يقصد به الاعتماد) فلم يبقَ إلا التسنُّن، وإليه ذهب مالك لما سبق من أدلة، وهو روايته في الموطأ.

ويحتج بعض متأخري المالكية، ممن يرون تقديم الإسدال على القبض في الصلاة، وأنه آخر الأمرين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقولون إنه آخر العهد بمالك، وإنما ذكر الحديث ليعلم أنه يعرفه، كما أشار إليه الشيخ اعليش في تحقيقه لهذه المسألة.

**ونرى أن هذا القول بعيد عن مالك، وذلك من عدة وجوه:**

- القول بأن مالك إنما ذكر رواية القبض التي كان عليها العمل في

1 - ابن عبد البر، الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار، تحقيق - عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة، سوريا، 1993م، الطبعة الأولى، ج 6 ص 196، 197.

2 - أحمد بن محمد الصاوي المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك لمذهب الإمام مالك، على شرح أحمد بن محمد بن أحمد الدردير، دار النهضة، القاهرة، مصر، الطبعة الأخيرة، 1952م، ج 1 ص 118.

أول الأمر، ثم عدل عنها، ليُعلم أنه على دراية برواية القبض، تجنُّ على مالك، وقول لا دليل عليه، وما كان الظن بمالكٍ رحمه الله وهو من هو، أن يكون غرضه من إثبات الرواية مجرد الإعلام بمعرفته إياها، وهل كان يحتاج إلى إثبات بسطته في العلم، ومعرفته بالرواية إلى هذا الإثبات، إذا سلمنا به؟ ثم ما هو المسوغ لإمام كمالكٍ، أن يثبت رواية القبض، ويكتم رواية العمل بالإسدال إذا ثبتت عنده؟

- احتج من قال بأن السدل هو آخر الأمرين، بنص الحديث الذي هو في رواية الموطأ، وثبت في الصحيح من رواية سهل بن سعد قال: "كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى.. الحديث" (1).

والشاهد فيه قوله: "كان الناس يؤمرون"، ويقولون: إن هذا مشعر بأن هذا في الماضي، ولو كان للاستمرار لقال: أمرنا، أو شرع لنا، أو نحوها مما يفيد الاستمرار، ولكن الصحيح كما لا يخفى على ذي نظر من أهل اللغة، أن كان ليست للماضي دوماً، فقد تستعمل للدلالة على الحكم واستمراره، ودليل ذلك قول عائشة رضي الله عنها: "كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة" (2).

1 - سبقت الإشارة إليه في الموطأ، حديث رقم/340 .

2 - الحديث رواه مسلم صحيحه، وأحمد في سننه، وغيرهما، من حديث معاذة، ولفظ مسلم "عن عاصم عن معاذة قالت: سألت عائشة فقلت ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت أحروورية أنت قلت لست بحرورية ولكني أسأل قالت كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة، صحيح مسلم، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض، حديث رقم/508، ويقال لمن يعتقد مذهب الخوارج حروري، انظر: فتح الباري، ج 2 ص 2 .

- حمل بعض المحققين كالقاضي عبد الوهاب، وغيره، أنه إنما كره مالك ذلك لمن فعله بقصد الاعتماد، أي تخفيف القيام على نفسه بذلك<sup>(1)</sup>، جاء في الشرح الكبير قوله: "وندب لكل مصل مطلقاً، سدل أي إرسال يديه لجنيبه، وكره القبض.. - إلى أن قال -: وهل كراهته، أي القبض، في الفرض، بأي صفة كانت، فالمراد به هنا ما قابل السدل، لا ما سبق فقط، (للاعتقاد) إذ هذا شبيه بالمستند، فلو فعله لا للاعتقاد بل استئنا لم يكره، وكذا إن لم يقصد شيئاً فيما يظهر، وهذا التعليل هو المعتمد، وعليه فيجوز في النفل مطلقاً، لجواز الاعتماد فيه بلا ضرورة، أو كراهته خيفة اعتقاد وجوبه على العوام"<sup>(2)</sup>.

- إنما كانت رواية مالك للحديث لأنه قد صحَّ عنده، ولم تثبت عنده رواية الإسدال، ويؤيد ذلك ذكر البخاري له، والبخاري بعد مالك بنحو قرن، فهل نقول إن البخاري نقل رواية القبض، ولم ينقل رواية الإسدال؟ أم أنه لم ينقلها لأنها ضعيفة لم تصحَّ عنده؟ أو أنهم اتفقوا جميعاً على نقل رواية القبض، ولم ينقلوا فعله عليه الصلاة والسلام وتقديمه الإسدال على زعم من قال به؟! وهذا أمرٌ يتجلى لكل ذي نظر وبصيرة، وهذا هو فهم مالك للنصوص، يكون بإجرائها على ظاهرها، إلا أن تدل قرينة تحمل النص عن الظاهر، وتدل على أنه غير مراد، كما في زكاة النعم، وبيان هذه المسألة كما يأتي:

1 - محمد بن أحمد المسناوي المالكي، نصره القبض، والرد على من أنكروا

مشروعيته، ص 40.

2 - الشرح الكبير للدردير، ج 1 ص 250.

. فهم مالك لقوله عليه الصلاة والسلام " في سائمة الغنم":

يرى جمهور الفقهاء أن الزكاة لا تجب إلا في النعم من الإبل والغنم والبقر، والسائمة منها فقط، أما المعلوفة منها فلا زكاة فيها، وذلك لعموم قوله عليه الصلاة والسلام: "وفي سائمة الغنم... الحديث" (1).

يقول الشافعي في الأم: "بهذا قلنا لا يتبين أن يؤخذ من الغنم غير السائمة صدقة، وهكذا في الإبل والبقر، لأنها المشية التي تجب فيها الصدقة دون ما سواها" (2).

وقال أبو حامد الغزالي: "ولا زكاة في معلوفة لمفهوم قوله صلى الله عليه وسلم في سائمة الغنم زكاة" (3).

وذكر ابن عبد البر وغيره، أن سائر فقهاء الأمصار، وأهل الحديث يرون أن لا زكاة في الإبل، ولا في البقر، العوامل ولا في شيء من المشية التي ليست بمهملة، وإنما هي سائمة راعية باستثناء مالك (4).

وقد كان مالك يرى أن الزكاة تجب في الغنم معلوفة كانت أم غير

1 - سنن أبي داود، كتاب أبي بكر لأنس بن مالك، باب في زكاة السائمة، حديث رقم/1339، وفيه أيضاً من نفس الباب، حديث الزهري عن سالم عن أبيه، حديث رقم/1340، مستدرک الحاكم، كتاب أبي بكر لأنس، باب هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم، حديث رقم/1392 .

2 - محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، (سنة الولادة 150 / سنة الوفاة 204)، الأم، دار المعرفة، بيروت، 1393هـ، ج2 ص5 .

3 - محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، (سنة الولادة 450 / سنة الوفاة 505)، الوسيط في المذهب، تحقيق: أحمد محمود إبراهيم، محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، 1417هـ، ج2 ص435.

4 - ابن عبد البر، الاستذكار، ج5 ص40 .

معلوفة ، وذلك لعدة أسباب:

■ إن الظاهر من قوله سائمة غير مراد ، فإن الغنم وسائر الماشية سائمة بطبيعتها ، فذكر السوم لأنه الغالب في صفة الماشية ، ولهذا ذكر ابن عبد البر أن مالكا رأى ذلك ، ووافقته الليث بن سعد ، لأنها سائمة في طبيعتها وخلقتها ، وسواء رعت أو أمسكت عن الرعي (1) .

وذكر الخرشي أن مذهبنا وجوب الزكاة فيهما أيضا ، خلافا لأبي حنيفة والشافعي لأن عموم منطوق قوله عليه الصلاة والسلام: " في كل أربعين شاة شاة وفي أربع وعشرين فدونها الغنم في كل خمس شاة" (2) ،

1 - ابن عبد البر، الاستذكار، ج 5 ص 40 .

2 - صحيح البخاري، باب زكاة الغنم، حديث رقم/1362، سنن أبي داود، باب زكاة السائمة، حديث رقم/1340، وسنن الترمذي، باب ما جاء في زكاة الإبل والغنم، حديث/564، وهو من طريق الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب كتاب الصدقة فلم يخرجها إلى عماله حتى قبض، فقرنه بسيفه فعمل به أبو بكر حتى قبض، ثم عمل به عمر حتى قبض، فكان فيه في خمس من الإبل شاة وفي عشر شاتان وفي خمس عشرة ثلاث شياه وفي عشرين أربع شياه وفي خمس وعشرين ابنة مخاض إلى خمس وثلاثين فإن زادت واحدة ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين فإذا زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين فإذا زادت واحدة ففيها جذعة إلى خمس وسبعين فإذا زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين فإذا زادت واحدة ففيها حقتان إلى عشرين ومائة فإن كانت الإبل أكثر من ذلك ففي كل خمسين حقة وفي كل أربعين ابنة لبون وفي الغنم في كل أربعين شاة إلى عشرين ومائة فإن زادت واحدة فشاتان إلى مائتين ... الحديث، ورواية الموطأ تقول: عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة"، باب ما يجب في الزكاة، حديث رقم/514.



وهو مقدم على مفهوم قوله: في سائمة الغنم الزكاة، أو لخروجه مخرج الغالب قوله: وإن معلوفة أي، وإن كان النعم معلوفة وعاملة<sup>(1)</sup>.

■ إن قوله في سائمة الغنم، جرى مجرى الجواب على سؤال، هل في سائمة الغنم زكاة؟، ولا يدل على تخصيصها بالسوم، قال ابن رشد مرجحاً رأي مالك: "ولا دليل في قوله: "وفي سائمة الغنم زكاة... على أنه لا زكاة في غير السائمة، عند من يقول بدليل الخطاب، لأن المعنى في ذلك عندهم، أن الحديث خرج على سؤال سائل، هل في سائمة الغنم الزكاة؟ فقال: وفي سائمة الغنم الزكاة، فكان مقصوداً على سببه، وانتفى بذلك أن يكون فيه دليل على أنه لا زكاة في المعلوفة، وبالله التوفيق"<sup>(2)</sup>.

■ إذا قلنا أن لا زكاة في الغنم المعلوفة؟ وقد علمنا أن علف الماشية يختلف باختلاف المواسم، وحاجة الماشية إليه، وهذا تتغير الحاجة إليه بحسب البلدان، ووفرة الكلاً والمرعى، أفنوجب زكاة على مصر، ولا نوجبها على آخر؟ وإذا نظرنا إلى نصاب الزكاة في الماشية، وهذا لا يكون إلا بعدد يخبر عن إيسار مالكه بحولها عنده، مع المحافظة على النصاب، فإن القول بأن لا زكاة فيها، إلا إذا كانت سائمة تضييع لحق الفقير، هذا إذا علمنا أن الزكاة فيها لكونها مالاً معد للنماء حقيقةً وحكماً.

1 - منح الجليل على مختصر خليل للخرشي، ج2ص184 .

2 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي «المتوفى : 450هـ»، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تحقيق - د محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1988م، ج2ص436 .

## اجتهاد مالك في تفسير النص، وحمله على العلة التي من أجلها قال به الشارع:

كما في حديث الوضوء من لحم الجزور، ومسألة الوضوء مما مست النار، ولم يخف الأستاذ عبد المجيد التركي إعجابه بمالك في استنباط الأحكام من النصوص، مستشهداً بهذه المسألة بالتحديد، حيث قال: ورأي مالك في هذه المسألة بالذات، يبين أنه - رحمه الله - كان له نظر في مسائل الفقه لا يضاها، ومقدرة عالية على تقصي خفايا المسائل على نحو لم يسبق إليه، فقد جاء في الموطأ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "أكل كتف شاة، ثم صلى ولم يتوضأ"<sup>(1)</sup>.

والحديث ذكره مالك في باب: (الوضوء مما مست النار) ثم قال - رحمه الله - عن ضمرة بن سعيد عن أبان بن عثمان أن عثمان أكل خبزاً ولحماً، ثم مضمض وغسل يديه ومسح بهما وجهه، ثم صلى ولم يتوضأ<sup>(2)</sup>.

وحديث آخر في الموطأ هو حديث: سويد بن النعمان، أنه أخبره أنه خرج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، عام خيبر حتى إذا كانوا بالصهباء، وهي من أدنى خيبر، نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، "فصلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثري، فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأكلنا ثم قام إلى المغرب

1 - موطأ مالك، باب ترك الوضوء مما مست النار، حديث رقم/44.

2 - المصدر السابق، حديث رقم/44.

فَمَضْمَضٌ، وَمَضْمَضُنَا، ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ"<sup>(1)</sup>.

وذلك أنه جاء في صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة أن رجلاً سأل النبي - صلى الله عليه وسلم -، أتوضأ من لحم الغنم؟ قال: "إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا تتوضأ" قال: أتتوضأ من لحم الإبل؟ قال: "نعم؛ توضأ من لحوم الإبل" وقال: لقد حمل ذلك على غسل اليدين والمضمضة لزيادة دسومته، وزهومته، ثم قال: وقد أومأ مسلم إلى النسخ بكونه ذكر أحاديث الوضوء مما مست النار أولاً، ثم تثنى بحديث ابن عباس فرواه عن القعنبي والبخاري، عن ابن يوسف، وكلاهما عن مالك، واليأبأن في صحيح مسلم على هذا الترتيب، قال رحمه الله تعالى "باب الوضوء من لحوم الإبل" ثم قال باب "نسخ الوضوء مما مست النار"<sup>(2)</sup>.

ولقد ذكرت هذه المسألة مفصلة في شرح الزرقاني على الموطأ مبيناً فيها رأي مالك، وفي مسألة الوضوء مما مست النار بالتحديد، وخص لحم الإبل بالذكر، ثم قال: ذكر بن المهلب: أن أهل الجاهلية قد ألفوا قلة النظافة، فأمروا بالوضوء مما مست النار، ولما تقررت النظافة في الإسلام، وشاعت نسخ الوضوء تيسيراً على المسلمين<sup>(3)</sup>.

وجاء في "متن العشماوية" في الفقه المالكي، وشرحه الموسع: "التحفة الرضية في فقه السادة المالكية"، وذلك في الحديث عن ما لا ينقض الوضوء - ما نصه "ولا بأكل لحم جزور" ثم قال في الشرح ولا ينقض

1 - الموطأ، باب ترك الوضوء مما مست النار، حديث رقم/45.

2 - صحيح مسلم، باب الوضوء من لحوم الإبل، حديث رقم/539، وانظر: كلام المنذري، في صحيح مسلم بمختصر المنذري، ص62، ورقم الحديث / 148 .

3 - الموطأ بشرح الزرقاني، ص 87 .

الوضوء أيضاً بأكل لحم الجزور أي الإبل لأنه ليس يحدث ولا سبباً له، ولا مظنة حدوثه" ثم قال وما ورد من أكل لحم الجزور، بقوله عليه الصلاة والسلام: "توضأ منها" وكان قد سئل عن الوضوء من لحم الإبل، وهذا منسوخٌ بحديث جابر رضي الله عنه<sup>(1)</sup>.

وليس أدل على فقه مالك، وفهمه للنصوص، ووقوفه على مدلولاتها، دون أن يتجاوزها قيد أنملة، وتمسكه بالحدود والقصاص، حتى لا يتساهل الأمراء ولا العامة مع النصوص، حتى صار مرجعاً للقضاة والولاة والأمراء، في أمور الحكم وشؤون الدولة، مع وجود علماء آخرين في زمانه، ولكن مالكاً كان هو المقدم، قال حفص بن غياث: كان مالكٌ يجلس عند الوالي فيعرض عليه أهل السجن فيقول اقطع هذا، واضرب هذا مائة أو مائتين، واصلب هذا كأنه أنزل عليه كتاب، وقال أشهب: دعا بعض الأمراء مالكاً يستشيره في شيء فدخل عليه وأشار بقطع قوم، وقتل قوم، وخرج علينا وهو يبتسم، ويقرأ: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب<sup>(2)</sup>.

ومن هنا نقول إن مالكاً - رحمه الله - لم يكن ليجتهد مع النص، ولكن مع ذلك كله، فقد كان يوازن ما بين النصوص والأدلة، ويقيس على عمل أهل المدينة، أما إذا صح الحديث فهو مذهبه، ويفرق ما بين الظاهر المراد، أو المعاني المقصودة في النصوص، وتلك ملكة لا يملكها إلا الجهابذة من الفقهاء، والراسخين في العلم، وهذا ما كان مالك يتبوأ

1 - التحفة الرضية في فقه السادة المالكية، شرح متن العشماوية، مصطفى ديب البغا، ص 83. ابن كثير، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، 1992 ص 53.

2 - المصدر السابق، ص 99.

منه مكاناً علياً.

قال الإمام الذهبي، بعد أن ذكر كلام القاضي عياض عن أرباب المذاهب السنية المتبوعة كأبي حنيفة ومالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، ثم قال: سمي المذاهب الأربعة، والسفانية، والأوزاعية، والداوودية.. إلى أن قال: "فحق على طالب العلم أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليحصل على مذهبه، وها نحن نبين أن مالكا رحمه الله هو ذلك، لجمعه أدوات الإمامة وكونه أعلم القوم"<sup>(1)</sup>.

ومع هذا فقد كان يقول: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم"<sup>(2)</sup> فمذهبه هو مذهب أهل الحديث، ومنهجه هو منهج أهل الأثر، وهكذا كان تعامله مع مختلف القضايا، سواء منها ما يتعلق بالجوانب العملية، أو ما له علاقة بقضايا الإيمان المختلفة، أو بمسائل الاعتقاد، كما سيأتي بيانه في الفصل التالي، من تعامل مالك مع أرباب الفرق والطوائف الكلامية المختلفة.

1 - سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 93 .

2 - سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 93، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ، ص 64، وانظر: محمد سكال، المذهب المالكي، ص 380 .

ورقة بيضاء  
( نهاية الفصل الثالث )

# الطوائف والفرق

المبحث الأول . أهم الفرق والطوائف في عصر الإمام مالك:

المطلب الأول : تعريف بالطوائف والفرق المختلفة.

المطلب الثاني : أهم الآراء التي ذهبت إليها هذه الفرق.

المطلب الثالث : نشأة علم الكلام.

المبحث الثاني . رأي مالك في الفرق المختلفة:

المطلب الأول : تقييم للفرق على ضوء الكتاب والسنة.

المطلب الثاني : منهجية مالك في التعامل مع الفرق.

المطلب الثالث : براءة المذهب المالكي من أهل الأهواء.

المبحث الثالث . تأملات في المذهب المالكي:

المطلب لأول : أعلام المذهب المالكي.

المطلب الثاني : تدوين المذهب المالكي.

المطلب الثالث: تطور المذهب المالكي في شمال أفريقيا والمغرب.

ورقة بيضاء  
( ظهر عنوان الفصل الرابع )



## الفصل الرابع الطوائف والفرق

### المبحث الأول . التعريف بالطوائف والفرق المختلفة:

كانت حياة مالك - رحمه الله - حافلة بظهور فرق وطوائف مختلفة، فقد عاش عمراً مديداً، وعاصر خلافتين مختلفتين، الخلافة الأموية، والعباسية، ولم تُجمع هاتان الخلافتان على إمامٍ كإجماعهما على مالك، ورغم أن الفرق والطوائف في ذلك الزمن، كانت تنزع إلى القدر، والتجريح، والطعن في العلماء، وذلك بحكم الميول إلى مناصرة الآراء، واتباع الأهواء، إلا أنها مع ذلك، ورغم اختلاف الإمام مع أكثرها، وتخطيئه لكثير منها، بل وتحذيره علناً من آراء الفرق الضالة، والمبتدعة التي قد ابتدعت بدعاً في العقائد، ونالت من أصول الدين، رغم أن مالكاً لم يكن يُخفي آراءه فيها، بل وكان يقوله بكل جرأة وشجاعة، إلا أنه لم ينقل أن واحدة من هذه الطوائف قد طعن في الإمام، أو في علمه، أو ناصبته العدا. مما يدل على ما كان يتمتع به من علمٍ غزير، وأدبٍ رفيع، ومجادلةٍ بالحسنى، وإعراضٍ عن الجاهل، وتبنيه للغافل، وردّه على المسائل بأصولها من دون انتقامٍ للنفس، أو مراعاةٍ لمدح المدّاحين، وهذا دأب العلماء الربانيين .

وهذه الطوائف كانت على قدرٍ كبيرٍ من الاختلاف، فكلُّ مذهبٍ وطريقته، ومنهم من التبس عليه الحق بالباطل، فكانت الحاجة ملحةً إلى استبيان هذه الفرق وآرائها عن قرب، واستيضاح رأي الإمام مالك فيها، وما كان له من دور، في محاربة الأفكار الضالة، والأهواء المنحرفة،

نصحاء للأمة، وكشفاً للغمّة، عملاً بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (1).

وقد ظهرت هذه الطوائف والفرق مع ظهور بدعة الكلام في أسماء الله وصفاته التي لا يزال علماء السلف يحذرون من الخوض فيها، والانجرار نحو ضلالات أصحابها وغواياتهم، سئل الإمام ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات، فقال: بدعةٌ ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين، مثل مالك، وسفيان، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المبارك، ومحمد بن يحيى، وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف، يتكلمون في ذلك، وينهون عن الخوض فيه، ويدلّون أصحابهم على الكتاب والسنة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال" (2).

ومن هذه الطوائف من كان سبب نشأته سياسياً محضاً، ثم بعد ذلك أخذت طابعاً دينياً، وفق ما افترضته عليهم الظروف في جزيرة العرب في ذلك الوقت، كأمثال الخوارج، والمعتزلة، ومنهم من كانت نشأته عقائدية مثل الشيعة (3).

ثم إننا لا بد أن نعلم أن من الطوائف والفرق من ظهر قبل عصر الإمام مالك، ولكنه نما وترعرع، وصار له أتباعٌ وفرقٌ مختلفة أثناء وبعد عهد

1 - سورة الأنعام الآية 153 .

2 - شيخ الإسلام ابن تيمية، الاستقامة، علق عليه: أشرف علي حنفي، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، طبعة مصححة مدققة، 2004م، ص 66 .

3 - محاضرة، لعصام البشير، 22 / 6 / 2007م .

الإمام، كالشيعة مثلاً، والخوارج، ومنها ما تأثر بأفكار الإمام مالك، بمعنى أن منها ما كان للإمام فضلٌ بعد فضل الله تعالى، بردُّ بعض أتباعها إلى جادة الصواب، ومنها من استمر في غيِّه، بل وإن من الطوائف والفرق ما هو موجودٌ إلى زماننا هذا، ومنهم من انتهوا كطائفةٍ وفرقةٍ، ولكن أفكارهم قد بقت في أزمان متفاوتة ومتعاقبة، تارةً تظهر وتارةً تختفي، بحسب الظروف الملائمة لترويج ظهور هذه الأفكار المنحرفة، والله نسأل أن يقي الأمة شرَّ التفرُّق والتشردم .

### المطلب الأول . تعريف الطوائف والفرق :

#### أولاً . الطوائف:

لغةً: جمع طائفة، وهي القطعة من الشيء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الواحد فما فوق"<sup>(1)</sup>.

وقد ذكرت كلمة طائفة في القرآن الكريم - ست مرات - وهي تذكر الجماعة من الناس بشكْلٍ عام الطيبين منهم والأشرار، فتارةً يأتي على ذكر الطائفة بأنها مؤمنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

وأيضاً كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾<sup>(3)</sup>.

1 - العرب تسمي الواحد فما زاد طائفة، تفسير الطبري، تفسير سورة النور، ج19 ص93، وانظر: مختار الصحاح، ص400.

2 - سورة النور الآية 2.

3 - سورة الصف الآية 14.

وتارة يأتي مسمى الطائفة لذكر جماعة من الكفار، وأخرى من المنافقين، فأما جماعة الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾<sup>(1)</sup>، والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾<sup>(2)</sup>.

وتارة لذكر الضعفاء من الناس كما في حال بني إسرائيل الذين عذبهم فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾<sup>(3)</sup>.

وأحياناً يذكر الله عز وجل جماعةً من صفوة الناس، وهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويمدحهم بإخلاصهم وعبادتهم، وقيامهم الليل مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويسمّيهم بالطائفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾<sup>(4)</sup>، يقول ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: قوله ﴿طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، "يعني من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين كانوا مؤمنين بالله حين فرض عليهم القيام"<sup>(5)</sup>.

1 - سورة الصف الآية 14.

2 - سورة الأحزاب الآية 13 .

3 - سورة القصص الآية 4 .

4 - سورة المزمل الآية 20.

5 - تفسير ابن جرير ، ج 12 ص 88.

والذي يظهر من خلال النظر في آي القرآن الكريم، (والله أعلم):  
أن كلمة طائفة تستعمل في الجماعة من الناس، قد تقل وقد تكثر،  
ولكنها تشترك فيما بينها في صفات محددة، تميزها عن غيرها .

### ثانياً . الفِرَق :

لغةً : جمع فرقة، وهي الجماعة من الناس، جاء في المصباح المنير:  
الفِرْقَةُ بالكسر من الناس وغيرهم والجمع (فِرَقٌ) (1) .

وقال صاحب مختار الصحاح: "والفرقة الطائفة من الناس" وتجمع  
على أفاريق، وأفراق (2)، والأصل فَرَقَ وَفَرَّقَ بالتشديد، وهو ضد التماسك  
والاجتماع، وقد جاء ذكر التفرق في القرآن الكريم على سبيل الذم  
والتحذير منه، في ثمانية مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ  
جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (3) .

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي  
شَيْءٍ﴾ (4) .

وفي الحديث المشهور "افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة،  
وافتراق النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث  
وسبعين فرقة، وأن الناجية منها واحدة، وهي التي كانت على ما كان

1 - أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي المصباح المنير في غريب الشرح الكبير

للالرافعي، المكتبة العلمية، بيروت، (بدون تاريخ طباعة)، كتاب الفاء، ج 2 ص 471.

2 - مختار الصحاح، ص 501 وانظر: الطاهر الزاوي، مختار القاموس، ص 475.

3 - سورة آل عمران الآية 103 .

4 - سورة الأنعام الآية 159 .

عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه" <sup>(1)</sup>، وعلى هذا فكلمة فرقة، تعني أيضاً الجماعة من الناس، وقد تقلُّ، وقد تكثُر، وكثر استعمال كلمة فرق عند العلماء، للدلالة على الفرق الضالة والمنحرفة عن الدين .

### المطلب الثاني . نبذه عن ظهور الفرق والطوائف:

إن علماء الشريعة، استخدموا مصطلح الطوائف، والفرق الإسلامية، للدلالة على الفرق الإسلامية التي ظهرت بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبعد ظهور الفتنة بمقتل عثمان - رضي الله عنه -، وأثناء خلافة عليٍّ أمير المؤمنين - رضي الله عنه - قال ابن كثير: "واختلف الناس

1 - أضواء البيان، للشنقيطي، ج7 ص179، الحديث في سنن الترمذي وغيره، ورواية الترمذي عن أبي هريرة، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"، باب ما جاء في افتراق الأمة، حديث رقم/2564، ورواه أيضاً ابن ماجه، في باب افتراق الأمم، عن أبي هريرة، حديث رقم/3981، وفي نفس الباب، حديث رقم/3982، ونصه: "عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافتترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فأحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة والذي نفس محمد بيده لتتفرقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وشتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله من هم قال الجماعة" ورواه في نفس الباب أيضاً، حديث رقم/3983، عن أنس ابن مالك، وله روايات في سنن البيهقي، ومسنند الإمام أحمد، عن أنس ابن مالك، وكذلك رواه الطبراني في الأوسط والكبير، عن جمع من الصحابة .

بين مباحٍ لعلِّي على السمع والطاعة، وبين خارجٍ عليه مشترطٍ الثأر لأمير المؤمنين عثمان، المقتول ظلماً<sup>(1)</sup>.

وفي بادئ الأمر انقسم الناس إلى فريقين، كلٌّ يرى أن الصواب معه، فمعاوية رأى ألا يُبايع علياً حتى يثأر من قتلة عثمان أولاً، وعليٌّ يرى أن يدخلوا في الطاعة أولاً، ثم بعد ذلك تأتي المطالبة بدم عثمان عن طريق ولاة دمه أولاً، حيث كان يرى رضي الله عنه: "أن القصاص لا يكون إلا بإقامة الدعوى، ولا تكون الدعوى إلا بينة، وهذا هو ما أمر به الكتابة والسنة"<sup>(2)</sup>، وما يعتقد أنه صوابٌ.

وهذا ما كان عليه الحال في الزمن الأول، فلم يكن اختلافهم عن هوى متَّبِعٍ، ولا إعجابٍ برأي، والخلاف الذي دار بينهم كما يذكر أهل السير، إنما كان في مسألة الثأر من قتلة عثمان الذين خرجوا على أمير المؤمنين، وناصروه العداً بغير وجه حقٍّ، والمسألة كما ذكرها شيخ الإسلام بن تيمية حيث قال: "وما جرى بين معاوية وعليٍّ رضي الله عنهما - إنما صدر عن اجتهادٍ وتأويلٍ، ولا شك أن الصواب مع عليٍّ، ودليل ذلك حديث: "ويح عمّار تقتله الفئة الباغية"<sup>(3)</sup>.

1 - ابن كثير، البداية والنهاية، ج7 ص207 .

2 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار الجيل بيروت، ومكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة عشر، 1991م، ص280.

3 - صحيح البخاري، وبوب له البخاري باباً سماه، باب التعاون في بناء المسجد، والحديث رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه: يحدث يوماً حتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال: كنا نحمل لبنةً، لبنةً، وعمار لبنتين، لبنتين، فرآه النبي - صلى الله عليه وسلم -، فجعل ينفض التراب عنه، ويقول ويح =

فكان الذي قتله أصحاب معاوية، ولكنهم متأولون، والله تعالى لا يعاقب مجتهداً على اجتهاده، لحديث: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر" (1).

= - بمعنى الترحم، والتوجع - عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، قال: يقول عمار أعوذ بالله من الفتن، حديث رقم/428، وباب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله، حديث رقم/2601، مسند الإمام أحمد، باب حديث أبي سعيد الخدري، حديث رقم/11429، مستدرک الحاكم، باب ويح عمار تقتله الفئة الباغية، حديث رقم/2605، ورواه البيهقي في دلائل النبوة، باب ويح عمار تقتله الفئة الباغية، حديث رقم/802، وفيه أيضاً، باب يا عمار ألا تحمل كما يحمل، حديث رقم/803، وفي صحيح ابن حبان، باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن عكرمة لم يسمع هذا الخبر من أبي سعيد الخدري، حديث رقم/7204، ونصه: "عن عكرمة، أن ابن عباس، قال لي ولعلي بن عبد الله بن عباس: انطلقا إلى أبي سعيد الخدري، فاسمعا من حديثه، فأتيناها، فإذا هو في حائط له، فلما رأنا جاء، فأخذ رداءه، ثم قعد فأنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد، قال: كنا نحمل لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي - صلى الله عليه وسلم - فجعل ينفذ التراب عن رأسه ويقول: "يا عمار، ألا تحمل ما يحمل أصحابك؟"، قال: إني أريد الأجر من الله، فجعل ينفذ التراب عنه، ويقول: "ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار"، فقال عمار: أعوذ بالله من الفتن.

1 - سنن أبي داود، باب في القاضي يخطئ، حديث رقم/3103، ونصه: "عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر"، وروا الترمذي في سننه، عن أبي هريرة، باب ما جاء في القاضي يصيب ويخطئ، حديث رقم/1248، والنسائي كذلك عن أبي هريرة، باب الإصابة في الحكم، حديث رقم/5286، وفي سنن ابن ماجه عن عمرو بن العاص، باب =



والصواب مع عليٍّ إما قطعاً وإمّا ظناً<sup>(1)</sup>، والخلافات التي ظهرت زمن الصحابة كانت عن اجتهادٍ، وكلهم إنما قصد الخير والنصح لدين الله، والصحابة كلهم عدول، كما هو مقررٌ عند جماهير علماء الأمة .  
أمّا ما ظهر من طوائف بعد ذلك، فكلُّ يتبع هواه، ويسير وراء تأويلات باطلة، وأفكار منحرفة، ليس أدل على بطلانها من مخالفتها لمنهج السلف الصالح، ومناقضتها لأصول الدين التي بني عليها، وزيفها في فهم النصوص عما كان عليه أول هذه الأمة، في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومن بعده عهد الشيخين الإمامين الجليلين - أبي بكرٍ وعمر - رضي الله عنهما - الذين كانا كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: "أما أبو بكرٍ فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا فلم يردّها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن"<sup>(2)</sup>.

وقد اقتضى أثرهما، الخليفةُ الذي جاء بعدهما، عثمان ذي النورين رضي الله عنه، ثم عليٌّ زوج البتول، وابن عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنهم، وعلى من تبعهم بإحسانٍ، إلى يوم الدين .

= الحاكم يجتهد فيصيب الحق، حديث رقم/2305، مسند الإمام أحمد، باب حديث عمرو بن العاص، حديث رقم/17106، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، ج10 ص118، وفي الإبانة الكبرى لابن بطة، عن أي هريرة، باب إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجر واحد، حديث رقم/702، والبيهقي كذلك في دلائل النبوة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، باب جماع مرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث رقم/3109 .

1 - شيخ الإسلام ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: ابن عثيمين، ج2 ص264 .

2 - ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج4 ص247، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج7 ص109 .

وقد ظهرت هذه الطوائف، ونمت، وترعرعت، بحكم الخلافات الحاصلة في الآراء ومن هو الأحق بالخلافة والإمارة، وقامت المنازعات وتوالى المحن في تاريخ الأمة الإسلامية، بظهور ولاةٍ يطلبون الدنيا ويبحثون عن الجاه والمنصب .

ويعزو بعض العلماء ظهور الطوائف لظهور الفتن بعد مقتل الخليفين الثالث والرابع في الإسلام، عثمان وعلي رضي الله عنهما، وكان من تلك الفرق التي ظهرت في هذه الفترة، وفي عصر الإمام مالك بحكم كثرة الخلافات والافتتان بالدنيا، بعد فتوح البلدان، ودخول أمصار بعيدة في دولة الإسلام لم يكن لها عهدٌ قبل بالإسلام، وتغيرت الطباع وماجت الأرض بالفتن، وصارت الحاجة ملحةً إلى الرجوع إلى النبع الصافي والمعين الذي لا ينضب، من سنة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، وقد كان بطبيعة الحال المكان الذي ظلَّ محافظاً على الجذور، متمسكاً بالأغصان الزاخرة، والظلال الوارفة - هو - مدينة المصطفى، ومهاجره، المكان الذي شاع منه النور، وسطعت منه أنوار الحقيقة - دار الهجرة - المدينة المنورة، على ساكنها الصلاة والسلام .

ولقد ظهرت فرق ضالةٌ احترفت بدعة الكلام زمن الإمام مالك - رحمه الله - ولا يخفى موقف مالك من هذه الفرق، فموقفه كما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتابه الاستقامة، معروفٌ عند أهل العلم، حيث قال ابن تيمية: إن كلام مالك في ذم أهل البدع والأهواء، والتبرؤ منهم كثيرٌ، ومن أخطرهم عنده الجهمية، الذين يقولون إن الله ليس فوق العرش، وإن الله لم يتكلم بالقرآن، وينفون نحو ذلك من الصفات لله تعالى" (1).

1 - شيخ الإسلام ابن تيمية، الاستقامة، 2002، ص 14 .

ومن المناسب هنا أن نأخذ لمحة بسيطة عن علم الكلام ونشأته، ورأي أئمة السلف في المتكلمين، مع الوقوف على رأي الإمام مالك، بشكّل خاص .

### المطلب الثالث . نشأة علم الكلام:

لكي ندرس علم الكلام بشيءٍ من التفصيل، لا بد أن نتعرف أولاً على أصل هذه الكلمة، وماذا تعني في اللغة العربية، ومتى كان أول ظهور لهذا المصطلح، فنقول :

**الكلام لغة:** هو القول المعبر عنه باللفظ، وقيل: ما كان مكتفياً بنفسه، قال سيبويه: اعلم إن قلت: إنما وقعت في الكلام، على أن يُحكى بها ما كان كلاماً لا قولاً، ومن أدلّ الدليل على الفرق بين الكلام والقول، إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله، ولا يقولوا: القرآن قول الله، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبّر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نعرف الكلام مما سبق على أنه ما دل على معناه اللغوي، أي يدل على كل لفظ تم معناه، وكان دالاً عليه بنفسه .

**وفي الاصطلاح:** فإن علم الكلام له عدة تعريفات، منها تعريف الإمام الإيجي حيث قال: والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد

1 - لسان العرب، ابن منظور، طبعة جديدة منقحة، دار صادر بيروت، 2000م، مادة (كلم)، ج 7 ص 290 .

الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ... إلى أن قال: والمراد بالعقائد: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية: المنسوبة إلى دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام<sup>(1)</sup>.

فقد اعتبر علم الكلام من الأدلة، حيث يستدل به على إثبات العقائد الدينية بالمنطق والحجة، وبعضهم يسمي هذا العلم علم الأسماء والصفات، لأن هذا المبحث يعتبر من أهم المباحث التي كثرت فيها الاختلافات، وتعددت فيها الآراء، وانقسمت فيها فرق المتكلمين.

وبعضهم يسميه علم المنطق، قال الشهرستاني: إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها، وتقاتلوا عليها، هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان<sup>(2)</sup>.

وقد سماه الإمام أبو حنيفة بالفقه الأكبر في كتاب له، كل مباحثه جعلها في المسائل الاعتقادية، ويمكن أن نعبر عن هذه التعريفات وهذه المسميات بمصطلحي: (الحوار والنقاش)، وذلك بمناقشة الأدلة النقلية، ومحاولة الاستدلال عليها بواسطة العقل، وإن كان أكثر السلف يعتبرونه من البدع، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

#### فأدته:

ذكر الإيجي جملة من الفوائد يمكن أن يحصلها المشتغل بهذا العلم فجعلها في خمس فوائد وأهداف:

1 - المواقف في علم الكلام، الإيجي، دار الكتب، بيروت، (بدون تاريخ طباعة) ص 7.

2 - الملل والنحل، للشهرستاني، ج 1 ص 29.

• الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (1).

- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجّة، وإلزام المعاندين بإقامة الحجّة.
- حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين.
- علمٌ تنبني عليه العلوم الشرعية، فهو يعتبر أساس العلوم الشرعية، وإليه يؤول أخذها، واقتباسها.
- صحة النية والاعتقاد، إذ بها يرجى قبول العمل، وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين (2).

### نشأته:

مر علينا أن الطوائف والفرق نشأة بعد ظهور الفتن ومقتل عثمان رضي الله عنه وانقسام الناس فريقين بعد مؤيد للثأر من قتلة عثمان وبين مرجح بقيام الأمر لعلي رضي الله عنه، ثم بعد ذلك يرى ما يكون في قتلة عثمان، ويذكر الشيخ الحوالي وجهة نظر أخرى لبعض المؤرخين حيث يقول: يذكر بعض المؤرخين أن بوادر ظهور هذا العلم كان بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه، حيث انقسم المسلمون إلى طوائف وفرق هذه أصولها: الخوارج، الشيعة، المرجئة، القدرية (3).

1 - سورة المجادلة الآية 11.

2 - المواقف في علم الكلام للإيجي، ص7.

3 - ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، مطبعة المعارف، الرياض، 2002م، ص22.

وراحت كل فرقة تبرر اتجاهها السياسي بإضفاء الصبغة الأصولية على توجهها وتمذهبها أما الشهرستاني، فيرى أن تطور هذا العلم كان خاصة أيام الخلفاء العباسيين، حيث يقول: "أما رونق الكلام فابتداؤه من الخلفاء العباسيين، هارون، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، وانتهاؤه من الصاحب بن عباد، وجماعة من الديلمة"<sup>(1)</sup>.

أما ازدهار هذا العلم على يد شيخ المتكلمين وصاحب الكلمة القاطعة والحجة الدامغة، الإمام أبي الحسن الأشعري، وخلفه من بعده تلامذته الذين هذبوا أصوله وقعدوا قواعده، حيث استوى على سوقه وترعرع في أحضانهم، كالباقلائي (ت403هـ) والإمام الجويني (ت478هـ)، والفخر الرازي (ت606هـ)، وقد كان علم الكلام عند المتقدمين خاليا من الفلسفة، لكنه تطور بعد ذلك فأدخلت بعض مباحث الفلسفة إلى مسائله، لأجل هذا قال العلامة ابن خلدون، واصفا تطور تناول علم الكلام بين السلف والخلف: "وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد ومن حذا حذوه، ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم"<sup>(2)</sup>.

ويمثل ابن الجوزي حال علماء السلف مع علم الكلام بقوله: "زعم أرباب الكلام أنه لا يتم الإيمان إلا بمعرفة من رتبوه، وهؤلاء على خطأ!

1 - الملل والنحل، ص30.

2 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: د.علي عبد الواحد وايفي، نهضة مصر، ج3 ص973.

لأن الرسول صَلَّى - اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمر بالإيمان، ولم يأمر ببحث المتكلمين، ودرجة الصحابة الذين شهد لهم الشارع بأنهم خير الناس على ذلك، وقد ورد ذم الكلام على ما قد أشرنا إليه، وقد نقل إلينا أقلاع منطقي المتكلمين عما كانوا عليه لما رأوا من قبح غوائله<sup>(1)</sup>.

### أقوال الأئمة الأربعة في حكم الاشتغال بعلم الكلام:

لقد ذكر العلامة السيوطي رأي الأئمة الأربعة في علم الكلام، وسنكتفي بسرد أقوالهم في هذا الباب، ففيها الغنى، لأنهم شيوخ أهل السنة وأئمة المذاهب الأربعة المعتمدة، ولنعرف كيف كان رأيهم في هذه المسألة الحساسة التي مازالت تثير جدالاً واسعاً بين أوساط المثقفين إلى زماننا اليوم .

### أولاً . الإمام أبو حنيفة النعمان:

روى عنه محمد بن الحسن تلميذه قال: "قال أبو حنيفة: "لعن الله عمرو بن عبيد"<sup>(2)</sup>، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيه من

1 - ابن الجوزي، تلبيس إبليس، باب ذكر تلبيس إبليس على أمتنا في العقائد والديانات، ص 76 .

2 - هو أبو عثمان عمرو بن عبيد من باب، ولد في بلخ، سنة 80 هـ، وكان جده من سببي فارس، تتلمذ أول الأمر على الحسن البصري، ثم انفصل هو وواصل بن عطاء، ويعتبر هذان الرجلان مؤسسي مذهب الاعتزال، يقول المزي في التهذيب: "قال الحميدي عن سفيان بن عيينة، رأى الحسن عمرو بن عبيد يوماً فقال هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدث! وقال فهد بن حيان عن سعيد بن أبي راشد المازني سمعت الحسن يقول: نعم الفتى عمرو بن عبيد إن لم يحدث، قال فأحدث =

= والله أعظم الحدث، وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي عن معاذ بن معاذ سمعت عمرو بن عبيد يقول: إن كان تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما لله على بن آدم حجة! وقال إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد عن قريش بن أنس، سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة فأقام بين يدي الله عز وجل فيقول لي: لم قلت إن القاتل في النار؟ فأقول أنت قتله، ثم تلا هذه الآية "ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم... حتى فرغ من الآية، قال: فقلت له: وما في القوم أصغر مني! رأيت إن قال لك: إني قد قلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، من أين علمت أنني لا أشاء أن أغفر لهذا؟ قال فما رد علي شيئا، والروايات عنه في ذلك كثيرة جدا، قال الحافظ أبو بكر الخطيب: عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان وباب من سبي فارس، مولى لآل عرادة قوم من بلعدوية، ثم من حنظلة تميم كان عمرو يسكن البصرة وجالس الحسن البصري، وحفظ عنه واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة، فقال بالقدر ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن، وكان له سمت وإظهار زهد، وقيل إن عمرا وواصل بن عطاء ولدا جميعا في سنة ثمانين، وقال البخاري قال لي محمد بن المثنى عن قريش ابن أنس، مات سنة ثلاث أو اثنتين وأربعين ومئة، في طريق مكة، وروي عن القعنبى رأيت الحسن بن أبي جعفر في المنام بعد ما مات بعبادان فقال لي أيوب ويونس وابن عون في الجنة، فقلت فعمرو بن عبيد؟ قال: في النار قال إسماعيل: ثم رأيت الحسن ابن أبي جعفر ثانية في المنام، فقال أيوب ويونس وابن عون في الجنة، قال إسماعيل: فعمرو بن عبيد؟ قال: في النار، كم أقول لك؟! رواه جعفر بن محمد ابن الفضيل الرسعني عن إسماعيل بن مسلمة نحوه وذكر الرؤيا ثلاث مرات، مات عمرو بن عبيد سنة 144هـ. انظر: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزني، تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: دبشار عواد معروف، باب من اسمه عمرو، ج 22 ص 125، وانظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، 1900م، باب عمرو بن عبيد، ج 2 ص 460.



الكلام<sup>(1)</sup>.

والظاهر من خلال كلام الإمام أبي حنيفة أنه يقصد بالكلام المذموم هنا كلام القدرية المعطلة، وعمرو بن عبيد (ت144هـ) من مؤسسي هذا الاتجاه، ولهذا ألف أبو حنيفة كتابه الفقه الأكبر، وهو كتاب خاص بالعقائد للرد على أمثال هؤلاء .

## ثانياً. أقوال الإمام مالك:

أخرج الهروي، عن عبد الرحمن بن مهدي قال: "دخلت على مالك وعنده رجل يسأله، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرو ابن عبيد، فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع"<sup>(2)</sup>.  
 وفي كلام الإمام مالك أيضاً ترجيحاً لما قاله الإمام أبي حنيفة، وذلك من خلال موقفه من عمرو بن عبيد المبتدع المارق، الذي تكلم في أشياء لم ترد عن الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يكن للسلف الصالح فيها قدم سبق .

1 - صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص100-101. وانظر: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة الثانية 1982م، ج1 ص109.

2 - الكلام، الهروي، تحقيق: الدكتور سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، بدون تاريخ طباعة، ص172، وانظر: صون المنطق والكلام، للسيوطي، ص32-33.

## ثالثاً . موقف الإمام الشافعي:

ذكر عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي في كتابه (ذم الكلام) كثيرا من الآثار التي يذم فيها الإمام علم الكلام المتطرف، منها قوله: "لأن يبتلي الله امرءاً بكل ما نهى عنه خلا الشرك، خير من أن يبتليه بالكلام"<sup>(1)</sup>.

ومن استعراضنا لكلام الشافعي، يبدو أن الإمام الشافعي كان قد اتخذ موقفاً متشدداً جداً من علم الكلام، وقد قصد أن يرمي كلاماً على أولئك المبتدعة، الذين يخوضون في الكلام المذموم، الذي يجر إلى التعطيل، ويشكك العامة في دينهم، ويدعوا إلى الزيغ عن الحق وعن الصراط المستقيم .

## رابعاً . أقوال الإمام أحمد بن حنبل:

كان يقول: "أئمة الكلام زنادقة"<sup>(2)</sup>. وهو حتماً يقصد بهذا أهل الكلام المتطعنين الذين لا يوافقون الكتاب والسنة، ومما يدل على هذا - موقفه المشهور من قضية، خلق القرآن حيث امتحن فيه، وأنى له ذلك لو لم يخض في مسائل هذا العلم الشريف، ليرد على أولئك الذين يقولون بخلق القرآن .

ومن هنا يتبين لنا وبشكل واضح تماماً أن الأئمة المتبوعين قد

1 - ذم الكلام، الهروي، تحقيق: الدكتور سميح دغيم، ص255 .

2 - أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، فصول من كتاب الانتصار لأصحاب الحديث، تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، مكتبة أضواء المنار، المدينة المنورة، ط1، 1996م، ص9، وتبليس إبليس، ص75، وانظر: صون المنطق، السيوطي، ص84.

اتخذوا موقفاً موحداً من علم الكلام، حيث اعتبروه بدعةً منكراً لم تكن زمن الصحابة والتابعين، لكن لما صارت هذه البدعة قائمةً، وهذا البلاء - كما سماه الإمام الشافعي - قد ظهر كان لابد لعلماء السنة وأهل الحديث أن يردوا على الشبهات التي أثارها هؤلاء المبتدعة، كالجهمية، والمعتزلة، والخوارج، وغيرهم.

مع كراهته للعامة واتخاذها ديدناً في المجالس، فالعامي قد تفتته هذه المسائل، قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في هذه المسألة: ولهذا نهى الإمام مالك - رحمه الله - لما حدث عنده بحديث الصورة نهى المتحدث بذلك؛ لأن العامة لا يحسنون فهم مثل هذه المباحث، وهكذا في بعض المسائل في الأسماء والصفات لا تناسب العامة، فقد يكون سبب الجحد تحديت الرجل ببحث لا يعقله، فيؤول به ذلك إلى أن يجحد شيئاً من العلم بالله - جل وعلا - أو يجحد شيئاً من الأسماء والصفات<sup>(1)</sup>.

أما العالم الذي يرد على هؤلاء المثيرين للشبهات في العقيدة فهو أمر مشروع له بل مطلوب، ويثاب عليه إذا ابتغى به وجه الله تعالى وليس أدل على ذلك من احتراف كثيرين من علماء السنة لهذا، كأمثال الإمام أبي الحسن الأشعري، والباقلاني، والغزالي، مع رجوعهم عنه وتوبيتهم منه، حين أدركوا أنه يحمد للرد على أهل الأهواء، ودحض حججهم، وتبيين زيف شبهاتهم، وأن الإسراف فيه من الفضول المذموم، وأن الحجة إنما تقوم بكلام الله وكلام رسوله، على نور وهدي، واتباع واقتداء لمن سلف من خيرة هذه الأمة.

1 - التمهيد لشرح كتاب التوحيد، محاضرات للشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار التوحيد، الطبعة الأولى، 2003م، ص375.

## أمثلة لاعتزال بعض الأئمة لعلم الكلام:

كان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جلت أهل الإسلام جولة، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق، وهربا من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز<sup>(1)</sup>.

ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، ذاكراً الكلام، واصفاً له بأنه بدعة مستحدثة، محرمة بالأدلة الشرعية، فيقول: المقام الخامس أن نقول: "الاشتغال بعلم الكلام بدعة، والدليل عليه القرآن، والخبر، والإجماع، وقول السلف، من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾<sup>(2)</sup>، ومن السنة يستشهداً على منع الخوض في ذات الله، : بقوله عليه السلام (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق)<sup>(3)</sup>، ثم بقوله عليه السلام (عليكم بدين العجائز)<sup>(4)</sup>، ثم يقول: وأما الإجماع فهو أن هذا علم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة، ويكون حراماً... ثم يضيف على هذا بذكر رأيه، ثم يستشهداً بقول الإمام مالك، فيقول: وإذا ثبت هذا ثبت أنه بدعة، وكل بدعة حرام بالاتفاق، أما الأثر: قال مالك بن أنس

1 - ابن الجوزي، تلبيس إبليس، باب ذكر تلبيسه على أمتنا، ص 77 .

2 - سورة الأنعام الآية 68 .

3 - الحديث ضعيف، انظر، محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، حديث رقم/6216 ، ص 622 .

4 - الحديث لا أصل له، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، حديث رقم/53، ج 1 ص 130.

"إياكم والبدع قيل وما البدع يا أبا عبد الله؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون" (1).

وقال الإمام الذهبي: "قال الفقيه أبو عبد الله الرستمي (2)، حكى لنا الإمام أبو الفتح محمد بن علي الفقيه، قال دخلنا علي الإمام أبي المعالي ابن الجويني نعوذه، في مرض موته، فأقعد؛ فقال لنا: "اشهدوا عليّ أني قد رجعت عن كل مقاله قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح، وإني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور" قلت - والكلام للذهبي - : "هذا معنى قول بعض الأئمة عليكم بدين العجائز، يعني أنهم مؤمنات بالله على فطرة الإسلام، لم يدرين ما علم الكلام" (3).

- 1 - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة، ج2 ص88 .
- 2 - الحسن بن العباس بن علي بن الحسن أبو عبد الله الرستمي الفقيه الشافعي، سمع أبا عمرو عبد الوهاب بن أبي عبد الله منده الحافظ، وإبراهيم بن محمد الطيان، وحدث بمسند الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، عن أبي نصر أحمد ابن عمر شبويه عن أبي بكر الحيري سمعه منه عبد العظيم بن عبد اللطيف الشرابي بأصبهان، قال عنه البغدادي: كان فقيها زاهدا ورعا بكاءً، عاش ستة وتسعين سنة، ومات 560هـ، وحضرت موته وخرج الناس إلى قبره أفواجا، انظر: محمد بن عبد الغني البغدادي أبو بكر (سنة الولادة 574 / سنة الوفاة 629)، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ، ص238 .
- 3 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغضار، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، باب إمام الحرمين الجويني، 1995م، ص258. وانظر: نعمان بن محمود =

ويقول أحمد بن علي الرفاعي الحسيني: "صموا أسماعكم عن علم الوحدة وعلم الفلسفة، وما شاكلهما، فإن هذه العلوم مزالِق الأقدام إلى النار، حمانا الله وإياكم، الظاهر الظاهر، اللهم إيماناً عجائز، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلبعون" (1).

وبعد استعراضنا لأمثلة من اعتزال هؤلاء الأعلام لحرفة الكلام، ونأيهم عن الفلسفة، ونصحهم بالبعد عنها، والتدين بدين البسطاء والعجائز، لا يخفى على لبيب أن من أراد السلامة في دينه فعليه بمذهب السلف، وأن من أبين الأدلة على ذلك أن نعلم أنه ما كان لنا أن نهتدي إلى أمثل من هديهم، وخيراً من طريقهم، فالخير في الاتباع والاقتداء، ولهذا يقول الشوكاني حديثاً عن من انجرف وراء كلام الفلاسفة، وانبهر بعقولهم، وسحر بحججهم، فماذا كانت نتيجة من زاول هذه المهنة؟ أنهم كلهم اتفقوا على أن طريق السلف أسلم، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية لطريق الخلف، أن تمنى محققوهم وأذكياءهم في آخر أمرهم، دين العجائز وقالوا هنيئاً للامة (2).

= ابن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الألويسي (المتوفى: 1317هـ)، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، قدم له: علي السيد صبح المدني - رحمه الله - مطبعة المدني، 1981م، ص 158.

- 1 - أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، البرهان المؤيد، دار الكتاب النفيس، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ، باب القول بوحدة الوجود ضلال، ص 88.
- 2 - محمد بن علي الشوكاني، التحف في مذاهب السلف، تحقيق: طارق السعود، دار الهجرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، ص 59.

ويقول الطحاوي: "وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز ، فيقر بما أقرؤا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك"<sup>(1)</sup>.

### المطلب الرابع . بين يدي فرق المتكلمين:

سيكون حديثنا عن الطوائف والفرق التي ظهرت زمن الإمام مالك وقبله ، والتي احترفت علم الكلام وقد انحرفت كلياً عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وسنذكر هذه الفرق والطوائف ، وهي كثيرة ولكن الفرق الأساسية المعروفة منها والتي عدها العلماء ومنهم ابن حزم وغيره خمس فرق<sup>(2)</sup> ، ومنها التي كان ظهورها قبل الإمام مالك ، ومنها ما كان في عصره ، وسنورد الحديث عنها فرقة فرقة ، بحسب تاريخ نشأتها والبلدان التي ترعرعت فيها وآراء كل فرقة منها ، أما الأشعرية والماتريدية فقد كان ظهورهما بعد الإمام مالك بأكثر من قرن ، حيث ظهرت الأشعرية على يد الإمام أبي الحسن الأشعري<sup>(3)</sup> ، والماتريدية فعلى يد أبي

1 - صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق: محمد شاكر ، ص486.

2 - حامد فلاح غزالي ، دراسات في الفكر الإسلامي ، ص 50 .

3 - هو علي بن إسماعيل ، بن علي بن أبي بشر الأشعري البصري رحمه الله ، العالم المعروف ، إمام الأشاعرة ، عرف بذبّه عن السنة وقمع البدعة ، وكان شديداً على أهل الطوائف والفرق من أصحاب الأهواء ، له مؤلفات كثيرة ، من أشهرها (الإبانة عن أصول الديانة) ، و(رسالة إلى أهل الثغر) ، كان معتزلياً فأراد الله له الخير فاعتزل الاعتزال ، وذبح عن السنة ، ولقد ذكر ابن كثير أن أبا الحسن مر بثلاثة أطوار: الأول - مرحلة الاعتزال ثم عفاه الله منها وحماه ، الطور الثاني - حالة إثبات الصفات العقلية السبع وهي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر =

منصور الماتريدي<sup>(1)</sup>، في ما وراء النهر، ولا يختلف الماتريدي كثيراً عن أبي الحسن الأشعري، فهو خصم لدود للمعتزلة، وقد خالفهم في المسائل التي اشتهروا بمخالفة أهل السنة فيها مثل مسائل الصفات وخلق القرآن، وإنكار الرؤية لله تعالى في الآخرة للمؤمنين، والقدر، وتخليد أهل الكبائر في النار، والشفاعة وغيرها، وقد ألف في ذلك كتباً مستقلة .  
ومع ذلك فالماتريدي لم ينطلق في ردوده عليهم من منطلق منهج السلف، وإنما كان متأثراً بمنهج أهل الكلام، ولذلك وافقهم في بعض الأصول الكلامية، والتزم لوازمها، فأدى به ذلك إلى بعض المقالات التي لا تتفق مع مذهب السلف، وإنما كان فيها قريباً من مذهب الأشعرية .

= والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه ، واليدين ...) والحالة الثالثة - إثبات جميع الصفات لله عز وجل من غير تكييف ولا تشبيه، جرياً على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها أخيراً ، ولقد خالفه بعض أتباع مذهبه في هذا ولد أبو الحسن الأشعري سنة 260هـ وتوفي رحمه الله سنة 324هـ ( رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق: عبد الله شاكر الجنيدي ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، 2002م ص65 ، 77 ) وانظر: الإبانة عن أصول الديانة ، ص104 - 112 .

1 - الماتريدي هو: محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، وماتريد محلة سمرقند فيما وراء النهر، تتلمذ على عدة شيوخ من أشهرهم: أبو نصر العياضي، وأبوبكر الجوزاني، وغيرهم، وهو حنفي المذهب وشيوخه تتلمذوا على أصحاب أبي حنيفة لذلك اتهمه البعض بأنه من مرجئة الفقهاء وله عدة مصنفات في الفقه وأصوله وفي التفسير وعلم الكلام، وغالب كتبه الكلامية في الرد على المعتزلة والباطنية، ومن أشهر كتبه التأويلات المسمى تأويل أهل السنة، وقد وصلنا كاملاً، وكتاب التوحيد ، وكتاب العقيدة الذي شرحه السبكي، وشرح الفقه الأكبر وقد كانت وفاته سنة 333هـ.



وهما لا يتباعدان، وبهذه المناسبة نذكر رأي كثير من العلماء المعاصرين، حيث يرون أن آراء الأشعرية والماتردية متقاربة في كثير من المسائل، وقد وافقوا أهل السنة في قضايا عقدية كثيرة، ووقفوا للزنادقة من المعتزلة وغيرهم بالمرصاد، غير أنهما اختلفا عن مذهب أهل السنة وأصحاب الحديث في تأويلهم للصفات، كتأويلهم الاستواء بالاستيلاء، واليد بالقدرة، وغيرها من الصفات الواردة، ومع هذا فيعتبران من أقرب المذاهب الكلامية لأهل السنة والجماعة، ويرجع وجه الشبه بين الأشعري والماتريدي إلى أن كلا منهما يميل إلى التوسط بين العقل والنقل<sup>(1)</sup>.

ويدور نقاش كبير وحاد في زماننا اليوم، بين المنتسبين للتيار السلفي؛ المتمسكين بظاهر النصوص في مسائل العقائد المختلفة، وبين من يعتقدون العقيدة الأشعرية على سبيل التقليد، وهذا الصراع الحديث القديم، سببه التباين في وجهات النظر بين كل من الفريقين وكلاهما ينتسب إما بالتمني، أو الادعاء، أو الاتباع لأهل السنة والجماعة، وسنقف على شاطئ هذه الأزمة ونلقي نظرةً متفحصةً لهذا الموضوع، من دون تعصبٍ لوجهة نظرٍ معينة، ليكون الأمر أكثر وضوحاً، ولنتعرف على جذور الأزمة بين كل من التيارين - التيار السلفي من جهة، والمد الأشعري والماتريدي الذي نما وترعرع وصار له أتباع، لهم وزنٌ، وشأنٌ، وتجليّة الموضوع في المطلب التالي:

1 - عبد الرحمن بن صالح المحمود، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة، طبعة مكتبة الآثار الإسلامية، الطبعة الأولى 2006م، ج 2 ص 489، وانظر: شبكة نور الإسلام،

### المطلب الخامس . الأشعرية نشأتها وأسبابها:

كان أهل السنة والجماعة هم المثل الأول والوحيد لعقيدة الإسلام في المجتمع الأول الذي أقامه الرسول - صلى الله عليه وسلم .، وسار على هذا الدرب صحابته من بعده في القرون الفاضلة، قبل ظهور الخلافات والشقاقت المختلفة التي أججت نارها، وأذكت لهيبها الفرق الظلامية التي ظهرت بعد مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، كان من بينها، كما يذكر الحافظ الذهبي: المعتزلة، والجهمية، والكرامية، لكن أهل السنة - مع ذلك - ظلوا ظاهرين يمثلون جمهور الأمة الإسلامية، مقابل هؤلاء الذين انفصلوا عنهم، كالخوارج الشيعة، والمعتزلة، والمجسمة<sup>(1)</sup>.

أما منهجية أهل السنة والجماعة وأصولهم فتأبته معلومة، مدارهما على الكتاب والسنة، والقول بأن العقيدة تمثل القول باللسان، والعمل بالأركان، والاعتقاد بالجنان، وأن الأعمال جزء من الإيمان لا تنفك عنه، وهذا اعتقاد عموم أهل السنة والجماعة .

وهم مع هذا يقدمون النقل على العقل، ويقفون على ما كان عليه الرعيل الأول من لدن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخاصة أصحابه كأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وعائشة، والزيير، وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم، وأنهم عدول كلهم، وأفضلهم على الترتيب الخلفاء الأربعة، ثم الأمثل فالأمثل .

ومن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة - إثبات ما أثبته تعالى لنفسه

1 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، الطبعة التاسعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413هـ،

وما وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكيف، ولا تعطيل .

وأقوال السلف في إثبات الصفات كثيرة جدا، منها : أن الأئمة : سفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، والأوزاعي، كانوا يقولون عن الصفات: أمروها كما جاءت، مع نفي العلم بالكيفية<sup>(1)</sup>، وعلى هذا القول عند عموم السلف، لم يعرف فيه مخالف لهم قال عبد العزيز الماجشون: "إن الصفات تُمر دون التعرض لها، لأن العقول عاجزة عن إدراك صفاته تعالى وتحققها، بدليل عجزها- أي العقول - عن تحقيق صفة أصغر مخلوقاته، ومن جحد صفاته تعالى تعمقا وتكلفا، فقد استهوته الشياطين في الأرض حيران"<sup>(2)</sup>.

وقال شيخ المفسرين الطبري: إن صفات الله تعالى يجب إثباتها على طريقة السلف، بلا نفي ولا تأويل، ولا تشبيه بصفات المخلوقين<sup>(3)</sup>.

أما المتكلم أبو الحسن الأشعري، فقد قرر هذا عندما ذكر قواعد مذهب السلف في الصفات، حيث قال إنها تُمر كما جاءت ولا تُؤوّل<sup>(4)</sup>.

ونقل ابن كثير في تفسيره قول نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر"<sup>(5)</sup>.

1 - أبو بكر الخلال، السنة، الرياض، دار الراية، 1410هـ، ج1 ص259 .

2 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7 ص312 .

3 - المصدر السابق، ج4 ص279-280 .

4 - المصدر السابق، ج15 ص86 .

5 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2 ص427 .

وجاء في العقائد النسفية: "الأدلة القطعية قائمة على التنزيهات، فيجب أن يفوض علم النصوص إلى الله تعالى، على ما هو دأب السلف، إيثاراً للطريق الأسلم، أو تُؤوَّل تأويلات صحيحة على ما اختاره المتأخرون، دفعاً لمطاعن الجاهلين، وجذباً بضُبع<sup>(1)</sup> القاصرين، سلوكاً للسبيل الأحكم"<sup>(2)</sup>.

وهو في هذا إنما يشير إلى ما تناقله جمهور الأشاعرة بعد ذلك من أن مذهبهم هو مذهب السلف، ويسمونهم بأهل الحق، فيقولون: أهل الحق سلفهم طريقتهم أسلم، وخلفهم، طريقتهم أعلم وأحكم، والجميع أهل السنة.

فإذا كان أهل السنة والجماعة أمةً واحدةً، فمتى انقسموا إلى أشعريٍّ وسلفيٍّ، وكيف تسمّوا بالأشاعرة وأهل الحديث؟  
لتبيين هذا سنتكلم أولاً عن نشأة المذهب الأشعري فنقول:

### تأسيس المذهب الأشعري:

يُرجع كثيرٌ من الأشاعرة هذه التسمية إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، غير أن التحقيق في هذه المسألة يثبت أن نشأة هذه الطريقة وأفكارها تعود إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وذلك على يد المتكلم أبي محمد عبدالله بن سعيد بن كلاب البصري المتوفى سنة

1. الضبع: بضم الضاد العضد كلها، مختار القاموس، ص 369.

2. سعد الدين مسعود بن عمر التفتازي، العقائد النسفية، تحقيق: محمد عدنان درويش، مكتبة الغرب، بيروت، 1990م ص 161.

240هـ<sup>(1)</sup>، الذي ظهر بأفكارٍ مخالفة لمذهب أهل السنة، بإثباته الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنة، كالعلو، والنزول، والاستواء على العرش، لكنه خالفهم بإنكاره قيام الأفعال الاختيارية بذات الله تعالى، المتعلقة بمشيئته وقدرته، ونفى الكلام عنه سبحانه وتعالى، ورحمته بعباده، فوافق بذلك الجهمية في نفيهم لها، وخالف السلف في إثباتهم لتلك الأفعال<sup>(2)</sup>.

وعلى كلام ابن كلاب وزعمه، كما نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء، وابن تيمية في مجموع الفتاوى: أن ابن سعيد الكلابي ادعى: أن الله لم يزل متكلمًا، وإن كلامه صفة له قائم به كعلمه وقدرته، وكذلك سائر الصفات التي يثبتها لله تعالى هي عنده قديمة قائمة بالله، غير متعلقة بمشيئته وقدرته، وإن الكلام ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم، ولا يتجزأ، ولا يتبعض ولا تتغاير، وإنه معنى واحد قائم بالله تعالى، وإن الرسم هو الحروف المتغايرة، وهو قراءة القارئ، وإنه خطأ أن

1 - يقول عنه الذهبي: ابن كلاب: رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أبو محمد، عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، أخذ عنه الكلام داود الظاهري، قاله أبو الطاهر الذهلي، وقيل: إن الحارث المحاسبي أخذ علم النظر والجدل عنه أيضا، وكان يلقب كلابا لأنه كان يجز الخضم إلى نفسه ببيانه وبلاغته، وأصحابه هم الكلابية، لحق بعضهم أبو الحسن الأشعري، وكان يرد على الجهمية. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11 ص 174.

2 - ابن تيمية درء التعارض بين العقل والنقل، حققه: رشاد سالم، الرياض، دار الكنوز، 1399هـ، ج 2 ص 18، وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11 ص 174،

يقال إن كلام الله هو هو، أو بعضه أو غيره، وإنما سمي كلام الله عربياً لأن الرسم الذي هو العبارة عنه وهو قراءته عربي فسمي عربياً لعله، إن عُبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عُبر عنه بالعبرية كان تورا، وإن عُبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، كما زعم كذلك أن القرآن المنزل ليس هو بحرف ولا بصوت، وليس هو كلام الله حقيقة، وإنما هو حكاية وعبارة عنه، لا عينه، وزعمه هذا لم يسبقه إليه أحد من المسلمين<sup>(1)</sup>.

وكلام بن كلاب باطلٌ جملةً وتفصيلاً، فالله سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يريد يفعل ما يشاء ويختار، والقرآن لو ترجمت معانيه إلى العبرية، ليس هو التوراة، والتوراة لو ترجمت إلى العربية، ليست هي القرآن، وهذا كلام معلوم، وقد أشار ابن تيمية وغيره إلى هذه الحقيقة .

وإدراكاً ممن عاصر ابن كلاب من علماء السنة، لفساد هذه المعاني، فقد تصدّى له جملةٌ من أهل السنة ممن عاصروه، على رأسهم الإمام العلم - أحمد بن حنبل - وقد حدّر - رحمه الله - منه وممن سار على طريقته، وسبّهم، وذمهم ونفّر الناس من الجلوس إليهم، وأمر بهجر الحارث بن أسد المحاسبي وحدّر منه، ووصفه بأنه جهمي، وقال رداً عليهم: إن القول بأن القرآن حكاية عن الله هو ضلال، وقرّر أن الله تعالى تكلم بحرف وصوت<sup>(2)</sup>.

ومنهم أيضاً الفقيه أبو بكر بن خزيمة، فإنه لما علم بوجود طائفةٍ

1 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق - ابن القاسم، الطبعة الأولى الرياض، 1381هـ، ج6 ص442، ص522. وانظر: ابن حجر فتح الباري، ج13 ص493، وانظر - الذهبي، سير

أعلام النبلاء، ج11 ص174، 517 .

2 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج14 ص378 .

تسبب إلى الكلابي، ومن تأثر بهم ينشرون هذه الأفكار البدعية الكفرية، أنكر عليهم ذلك بشدة وتصدى لهم، وحذر منهم ورد على مقالاتهم المنحرفة، وكذبهم ولعنهم<sup>(1)</sup>.

أما الأشعري فكما يذكر ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ابن كثير وغيرهم، أنه كان معتزلياً<sup>(2)</sup>، ثم أعلن توبته من الاعتزال، ولكنه تأثر بهذه الأفكار الكلابية، فنسبت إليه - غير أنه رجع عن المذهب الكلابي والتزم مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات، وهي طريقته في الإبانة، ورسالة إلى أهل الثغر، وغيرها من الكتب - يقرر فيها التزامه مذهب السلف في الأسماء والصفات<sup>(3)</sup>.

1 - ابن تيمية، درء التعارض، ج2 ص82، وانظر: الذهبي سير أعلام النبلاء، ج 14 ص378.

2 - قال المقرئ: "أخذ الأشعري عن الجبائي مذهب الاعتزال، ثم بدا له فتركه وسلك طريقة عبد الله بن كلاب ونسج على قوانينه في الصفات والقدر فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه وجادلوا فيه، وانتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق ثم انتقل إلى الشام فلما ملك بنو أيوب عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحملوا الناس على التزامه فانتشر في أمصار الإسلام، مات الأشعري سنة 324هـ، ومن أهم آراء الأشاعرة نفي الصفات إلا سبعا يثبتونها بالعقل والقول بأن أفعال العباد مخلوقة لله وهي كسب لهم وأشهر علماء الأشاعرة الباقلاني والجويني والأيجي والرازي، انظر: خطط المقرئ، ج2 ص358-359. وشذرات الذهب ج2 ص303.

3 - رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق: عبد الله شاکر الجنيدى، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، 2002م ص65، 67، وانظر: الدكتور علي الصلابي، دولة السلاجقة، ص493.

## الإشكال بين الأشاعرة والسلفية:

يذكر ابن كثير أن أتباع مذهب أبي الحسن الأشعري يخالفونه في مسألة الأسماء والصفات، فبعضهم مازال يجريها على الطريقة الكلايية، ولكنهم ينتسبون إليه، فهم ينتسبون إليه اسماً وهو يبرأ منهم طريقةً، غير أنه بقيت آثار الاعتزال عالقةً بالأشعري ومذهبه كما اعتبره أئمة السلف وأهل الحديث، كما يذكر الأستاذ - خالد علال - حيث ذكر أنه قامت معارضةً سلفيةً كبيرةً للمذهب الأشعري، وآرائه، وآراء تلامذته، ومازال الصراع قائماً بين المذهبين إلى زماننا هذا، وكلهم يستتصر بالمذهب السني ويدعيه<sup>(1)</sup>.

ومن أهم المسائل التي اختلفوا فيها مع أئمة السلف والحديث، تأويل أسماء الله وصفاته، والقول في كلام الله بخلاف ما تعارف عليه السلف الأول، ويذكر بعض المهتمين بالمذهب الأشعري من العلماء المعاصرين، ومن بينهم بعض المفكرين الغربيين من أمثال Richard franck حيث يقول: إن الخلاف القائم بين الحنابلة - ويقصد أهل السنة - والأشاعرة، سببه أن الحنابلة يرون أن العقائد إنما تكون بالاتباع والتقليد، أما الأشاعرة فيقولون: أنه لا بد أن يستدل على المسائل العقدية بالأدلة العقلية<sup>(2)</sup>.

ومما قاله بعض الأشاعرة في القرآن، وكان له آثار سيئة في تعامل بعضهم مع القرآن الكريم، ما قاله أبو جعفر بن المشاط الأشعري بجامع ببغداد، فقد كان يُسأل: هل (ألم ذلك الكتاب) سورة البقرة، كلام

1 - خالد كبير علال، الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين 5 و6.

الهجريين، دار الإمام مالك، البلدة الجزائرية، الطبعة الأولى، 2005م.

2 .. Frank, Richard M. Knowledge and Taqlid, pp.37,45.



الله؟ فيقول: لا، و يقول في القصص القرآني كذلك: هذا كلام موسى، وهذا كلام النملة، وعندما قيل له: (التين والزيتون) قال: التين في الريحانيين، والزيتون يُباع في الأسواق، فأفسد بذلك عقائد الناس (1).

ومما يذكر في هذا الصدد أنه قامت معارضة كبيرة من علماء السنة، للإمام الباقلاني في ذلك الوقت، لتبنيه علم الكلام، والقول في كلام الله تعالى، وعندما صارت جماعة تختلي بالباقلاني، وتحضر مجالسه ودروسه خفية، ليأخذوا عنه مذهبه، كان الإسفراييني شيخ الشافعية في زمانه، يخاف أن يزعموا أنهم تعلموا علم الكلام منه إذا رجعوا إلى بلدانهم، فيعلن أمام الناس أنه بريء من مذهب الباقلاني في كلام الله تعالى، وقد نهى بعض أصحابه عن الدخول على الباقلاني لدراسة علم الكلام، وقال له: إياك، فإنه مبتدع، يدعو الناس إلى الضلالة، وإلا فلا تحضر مجلسي (2).

### السلفية والأشعرية والرد على من يقول بخلق القرآن:

لقد تصدر علماء السنة الأوائل للرد على المعتزلة في قولهم بخلق القرآن، وكان الأشعرية كما السلفية حرباً على هذه الشذمة، ولكنه ثمت فرق كبير في مفهوم القرآن الكريم، وأنه كلام الله تعالى، المنزل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بين كل من الأشاعرة والسلفية .

1 - ابن الجوزي: المنتظم، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1358هـ، ج 10 ص 194، 218.

2 - ابن تيمية، درء التعارض، ج 2 ص 96.

يذكر الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني<sup>(1)</sup>، في كتابه المسمى: (الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار)، ما كان يعانيه علماء السنة من جهل هؤلاء المتكلمة، وتجربتهم بالحديث عن كلام الله تعالى، على نحو لم يعهده السلف الصالح، ثم يضيف قائلاً: وقد وافقنا الأشعرية على أن القرآن غير مخلوق، ومن قال بخلقه فهو كافر، وردوا على قوله المعتزلة والقدرية إنه مخلوق، إلا أن الأشعرية قالوا: كلام الله الحقيقي هو معنى قائم في نفسه لا يفارقه، لا يدخل كلامه النظم والتأليف والتعاقب، ولا يكون بحرف وصوت ولا يتكلم الله بالعربية ولا بغيرها من اللغات، وليس له أول ولا آخر ولا بعض، بل هو شيء واحد لم ينزله الله على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا على أحد من الأنبياء، ولا يتلى ولا يكتب ولم يسمعه أحد إلا موسى عليه السلام، وهذه السور والآيات عبارة وحكاية عن كلام الله وتسمى قرآنا<sup>(2)</sup>.

1 - هو الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني، إمام الشافعية في بلاد اليمن فأقام الحجة وأظهر المحجة ودعا إلى نيل البدعة والكلام والالتزام بالكتاب وسنة سيد الأنام في العقائد وفي الأحكام، فنفع الله به خلقاً كثيراً، توفي العمراني - رحمه الله - في ذي السفال، مبطونا شهيدا قبيل الفجر من ليلة الأحد لست وعشرين من ربيع الآخر سنة 558هـ، وله تسع وستون سنة، وكان نزع ليلتين ويوما بينهما، ولم يترك صلاة في مرضه، يسأل عن وقت كل صلاة بالإيماء لأنه اعتقل لسانه، وكان كثير التهليل يعرف منه بالإشارة بالمسبحة، انظر ترجمته في: طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة الجعدي ص 176 - 182. وقد استفاد منه كل من ترجم للعمراني لقرب عهد ابن سمرة منه وتلمذه على تلاميذه، وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، ج 3 ص 196، والأعلام للزركلي، ج 8 ص 146.

2 - يحيى بن أبي الخير العمراني، المتوفى سنة (558هـ)، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف أضواء السلف، 1999م، ج 2 ص 554.

وفيما يلي أقوال الفريقين بشيءٍ من التفصيل:  
أولاً. أقوال السلفية:

يقول الإمام الحافظ أبو القاسم الطبري اللالكائي<sup>(1)</sup>: في كتابه المسمى: (شرح أصول اعتقاد أهل السنة)، لما ذكر أن أئمة الدين متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة، وأن الله عز وجل كلم موسى تكليماً . وكان يتحدث عن إنكار السلف لمن يقول القرآن مخلوق، وأنهم أجمعوا القول بكفره، ثم قال: "قالوا كلهم القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين، واتباع التابعين والأئمة المرضيين، سوى الصحابة الخيرين، على اختلاف الأعصار ومضى السنين والأعوام، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم، وتدينوا بمذاهبهم، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين، لبلغت أسماؤهم ألوفاً كثيرة، لكنني اختصرت وحذفت

1 - اللالكائي الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الحافظ الفقيه الشافعي محدث بغداد ، سمع جعفر بن عبد الله بن فناكي وأبا القاسم عيسى بن علي الوزير وأبا طاهر المخلص وأبا الحسن بن الجندي وعلي بن محمد القصار والعلاء بن محمد وطبقتهم، وتفقه بأبي حامد الأسفراييني؛ قال الخطيب: كان يفهم ويحفظ، وصنف كتاباً في السنة، وكتاباً في رجال الصحيحين، وكتاباً في السنن، وعاجلته المنية: خرج إلى الدينور فأدركه أجله بها في رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة، انظر: تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة 1998م، ج3 ص189. وانظر: أبا الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ذيل طبقات الحافظ للذهبي، دراسة وتحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، (بدون تاريخ طباعة)، ص289.

الأسانيد للاختصار ونقلت عن هؤلاء عصرا بعد عصر لا ينكر عليهم منكر ومن أنكر قولهم استتابوه، أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه<sup>(1)</sup>.

وروى أبو القاسم الطبري اللالكائي بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين: حكمت رجلين: فقال: ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن<sup>(2)</sup>.

وعن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة فلما وضع الميت في لحدّه قال رجل: اللهم رب القرآن اغفر له. فوثب إليه ابن عباس فقال: مه! القرآن منه<sup>(3)</sup>.

وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: يا ابن رسول الله، ما تقول في القرآن خالق أم مخلوق؟ قال: أقول فيه ما يقول أبي وجدي: ليس بخالق

- 1 - هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، دار طيبة، الرياض، 1402هـ تحقيق: د. أحمد سعد حمدان. وانظر: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي (المتوفى: 1421هـ)، آل رسول الله وأولياؤه، مكتبة ملتقى أهل الحديث، ص16، انظر: <http://www.ahlalhdeth.com>
- 2 - هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، باب سياق ما روي من إجماع الصحابة على أن القرآن غير مخلوق، حديث رقم/370، ج2ص227، وانظر: أبو الحسن الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، ص224، وانظر: أبو الفرج ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص80.
- 3 - البيهقي، الأسماء والصفات، باب ما جاء في إثبات صفة القول، 591، وانظر. هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، باب سياق ما روي من إجماع الصحابة على أن القرآن غير مخلوق، حديث رقم/376، ج2ص230.

ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله عز وجل" (1).

وأخرج الطبراني في الأوسط، بسنده عن صليحة بنت أبي نعيم الفضل بن دكين تقول: سمعت أبي يقول: "القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق" (2).

قال ابن حجر: "والمحفوظ عن جمهور السلف؛ ترك الخوض في ذلك والتعمق فيه، والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله، وأنه غير مخلوق، ثم السكوت عما وراء ذلك" (3).

وهذا هو القول المقدم عند علماء المالكية، قديماً وحديثاً، وإن كان بعضهم ينتسب للأشعرية اسماً، ولكنهم لم يخالفوا المذهب المالكي عقيدةً، وإن تكن التهمة وجهت إلى بعضهم للانحراف في المنهج العقدي، فإن هذا لا ينسحب على المقدمين من علماء المذهب المالكي، وسنحاول تجلية الأمر بشيء من التفصيل في المبحث الثالث، من هذا الفصل إنشاءً لله، عند الحديث عن المذهب المالكي وانتشاره في شمال أفريقيا، وإنما أخذنا مسألة القول بأن القرآن كلام الله مثلاً، ليعلم تطابق قول علماء

1 - البيهقي، الأسماء والصفات، باب ما جاء في إثبات صفة القول، ص 604. وانظر: هبة

الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، باب اجتماع التابعين من الحرمين مكة والمدينة، حديث رقم/388، ج 2 ص 237.

2 - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الروض الداني، المعجم الصغير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الطبعة الأولى، 1985م، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، باب القرآن كلام اله تعالى غير مخلوق، حديث رقم/1194.

3 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 13 ص 455.

المالكية مع أقوال علماء السلف، وإليك بعض أقوالهم في هذه المسألة، وهي كما يلي:

### ذكر أقوال المالكية:

نقل الإمام أحمد بن حنبل الرواية عن الإمام مالكاً أنه قال: "القرآن كلام الله عز وجل وعلا، وهكذا قال عبد الله بن نافع"<sup>(1)</sup>.  
 وذكر ابن عبد البر أن الإمام مالك كان يقول: "القرآن كلام الله، ويقول: من قال القرآن مخلوق؟ يوجع ضرباً ويحبس حتى يتوب"<sup>(2)</sup>.  
 وذكر الإمام الحافظ: أبو القاسم الجوهري، في كتابه المسمى: (مسند الموطأ)، الرواية بسنده عن ابن أبي أويس قال سمعت مالكا يقول: "القرآن كلام الله وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق"<sup>(3)</sup>.  
 وجاء في المنتقى: وقال ابن حبيب، عن مالك: من حلف بالمصحف، وبالقرآن، أو بسورة منه، أو بآية، وإن لم يضيف شيئاً من ذلك إلى الله تعالى، فكفارته كفارة اليمين، ووجه ذلك أن القرآن كلام الله تعالى وصفة من صفات ذاته<sup>(4)</sup>.

1 - عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، السنة، تحقيق: د.محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، 1406هـ، ج 1 ص 140.

2 - ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، ص 35.

3 - الإمام الحافظ أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الجوهري، المتوفى في 381هـ، مسند الموطأ، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ طباعة)، ص 13.

4 - المنتقى في شرح الموطأ، ج 3 ص 93.

ويقول صاحب الفواكه الدواني على شرح رسالة أبي زيد القيرواني: "كلم" الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله "موسى" عليه الصلاة والسلام "بكلامه القديم الذي هو صفة ذاته لا "هو خلق من خلقه" وإنما هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة هو بها أمرناه مخبر"<sup>(1)</sup>.

وقال أبو الحسن المالكي: "مما يجب اعتقاده "أن القرآن كلام الله" القائم بذاته "ليس بمخلوق" فيبيد ولا "صفة لمخلوق" فينفد"<sup>(2)</sup>.

ويقول الآبي الأزهري المالكي، صاحب الثمر الداني: "كلم الله موسى" أي ناجاه وأسمعه كلامه القديم "وأن القرآن كلام الله" أي القائم بذاته، وذاته لا يقوم بها إلا القديم "فيبيد" بالنصب في جواب النفي، وحاصل المعنى أن: القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، أي يفنى، ولا صفة لمخلوق فينفد، أي يذهب"<sup>(3)</sup>.

وقد مثل محمد الأندلسي المالكي، قول المالكية في أن القرآن كلام الله ولا يقول بخلقه إلا كل مبتدع ضال، راداً على كل من يخالف السلف في مفهوم القرآن كلام الله تعالى، فقال في نونيته:

الله فصله وأحكم آيه وتلاه تنزيلاً بلا ألحان

1 - أحمد بن غنيم بن سالم النضراوي (المتوفى 1126هـ)، الفواكه الدواني شرح رسالة أبي زيد القيرواني، ج 1 ص 221.

2 - أبو الحسن المالكي، كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني، تحقيق - يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، 1412هـ، ج 1 ص 80 .

3 - صالح بن عبد السميع الآبي الأزهري (المتوفى : 1335هـ)، الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية، بيروت، (بدون تاريخ طباعة)، باب ما تنطق به الألسنة و تعتقده الأفتدة من واجب أمور الديانات، ص 12.

هو قوله وكلامه وخطابه  
إلى أن قال:  
قصص على خير البرية قصة  
كلماته منظومة وحروفه  
ثم يقول:  
من قال إن الله خالق قوله  
من قال فيه عبارة وحكاية  
من قال إن حروفه مخلوقة  
لا تلق مبتدعا ولا متزندقا  
بفصاحة وبلاغة وبيان  
ربي فأحسن أيما إحسان  
بتمام ألفاظ وحسن معان  
فقد استحل عبادة الأوثان  
فغدا يجرع من حميم آن  
فالعنه ثم اهجره كل أوان  
إلا بعبسة مالك الغضبان<sup>(1)</sup>

### ثانياً . أقوال الأشاعرة:

يقول الأشعري في الإبانة: "إن سأل سائل عن الدليل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق" ومن الأدلة التي ساقها، قول ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(2)</sup>، ثم يتابع الأشعري قائلاً: فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يكون مقولاً له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولو كان الله عز وجل قائلاً للقول: "كن" لكان للقول قولاً وهذا يوجب أحد أمرين :

▪ إما أن يؤول الأمر إلى أن قوله تعالى غير مخلوق .

1 . نونية القحطاني المالكي، محمد الأندلسي، دار الآثار، القاهرة، مصر، 2002م

ص24 .

2 . سورة النحل الآية 40 .



▪ كل قول واقع بقول، لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك صح وثبت أن لله عز و جل قولاً غير مخلوق<sup>(1)</sup>.

ويقول ابن فورك: "أعلم أن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت عندنا، وإنما العبارات عنه تارة تكون بالصوت، والعبارات هي الدالة عليه، وأمارات له تظهر للمخلوق"<sup>(2)</sup>.

ومن هنا نفهم أن الأشاعرة لم يقولوا بخلق القرآن، ولكن بقي تفسيرهم لمعنى كلام الله مبهمًا ومتكلفًا، بما تظهر مخالفته الصريحة لكلام السلف، في تفسيرهم للقول بأن القرآن كلام الله، والواضح أن الأشعرية وقعوا في شبهة التشبيه، بمعنى أنهم لما قالوا كلام الله، والمعروف عندهم أن الكلام يحتاج آله وهي الفم واللسان، ولما كان هذا محال على الله تعالى، قالوا: "نقول هو كلام، ولكن بلا حرف ولا صوت، وأنه المعبر عنه بكلام القارئ"، وهذا مخالف لتفسير السلف لهذه الحقيقة، وهي أن الله متكلم سبحانه، متى شاء وأنى شاء، بغير تكييف، أو تشبيه، أو تمثيل، ولا تعطيل، فكلامه ليس على نحو مما يتكلم به البشر، سبحانه هو الكبير المتعال.

1. أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ص 60.

2. أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، (المتوفى 406هـ)، مشكل الحديث وبيانه، تحقيق موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، 1985م، ص 351.

### بذور الخلاف ، وقضايا الالتقاء بين المذاهب:

وقد كان الحال بين كل من المذاهب في مدّ وجزر، ولما صنف أبو بكر بن فورك الأصبهاني الأشعري (المتوفى 406هـ)، كتاباً في تأويل صفات الله تعالى، على طريقة المؤلّين للصفات والمعطلين لها، جاء القاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي البغدادي (ت 458هـ)، وردّ عليه بكتاب سماه: (إبطال التأويلات لأخبار الصفات) أثبت فيه الصفات التي أولها ابن فورك، وزاد عليها كثيراً، فاتهمه الأشاعرة بتجسيم الله تعالى وتشبيهه بمخلوقاته، وكان ذلك سنة 429هـ<sup>(1)</sup>.

ومن هنا عُرف المذهب الأشعري وصار له أتباعٌ ودعاةٌ من كبار العلماء، بل وصار علماء الأشاعرة يقولون: إن المذهب الأشعري هو الذي يمثل مذهب أهل السنة والجماعة، وإن غيرهم انحرف عنه، كأمثال الصوفي عبد الكريم بن هوازن القشيري، والفقيه أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، الذي عدّ أبا الحسن الأشعري إمام أهل السنة، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي<sup>(2)</sup>.

غير أن المشكلة ماتزال قائمةً بين أتباع التيارين - كما أسلفنا - وكلهم يدعي وصلاً لليلى، حتى إنك تقرّأ من العلماء المعاصرين من يعتبر الأشعرية هي أساس مذهب أهل السنة والجماعة، حيث يذكر مصطفى الشكعة ذلك فيقول: إن لقب أهل السنة أُطلق أول ما أُطلق على جماعة الأشاعرة، ثم اتسعت دائرته لتشمل أصحاب أبي حنيفة، ومالك،

1 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 196م، ج 8 ص 16، 104، 228،

وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 6 ص 54.

2 - خالد علال، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث، ص 75.

والشافعي، وأحمد<sup>(1)</sup>.

وهذا الكلام بعيداً عن التعصب لمذهب معين، دون شكٍ كلام باطل، لأنه وكما هو معلوم أن أهل السنة والجماعة كانوا قبل أن تظهر هذه الطوائف والمسميات، بل إن المذاهب السنية ما هي إلا امتداد لمذهب السلف الصالح، وقد عرفنا سابقاً أن مذهب أهل الحديث والأثر ما قام إلا على أكتاف مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وما ظهرت الأشعرية إلا في منتصف القرن الثالث الهجري، فشتان بين الجيلين، ويا بعد ما بين الفريقين في العلم والفضل.

ولنترك الإقرار الحقيقي بهذا، والقول الفصل في هذه المسألة، لأئمة السنة وكبار علمائها وأساتذتها؛ كأمثال مالك والشافعي، وأحمد بن حنبل، والأوزاعي، والثوري، وابن عيينة، ومن سار على نهج السلف الصالح، من أمثالهم، والقضية برمتها قد حسم الكلام فيها والنقاش حولها من قبل، حسمه هؤلاء الأئمة أنفسهم، فقد وضعوا قاعدة لما هو سنيٌّ محمديٌّ، وما هو بدعيٌّ جهميٌّ، فما كان موافقاً للكتاب والسنة، متمشياً مع فهم السلف الصالح، فهو طريقة أهل السنة والجماعة، وما كان غير ذلك، فهو مخالفٌ عليه الإتيان بالدليل.

ولا أدل على ذلك من رجوع كثيرٍ من علماء الأشعرية عن منهجهم في احترام علم الكلام، والإقرار بأن المذهب الأحوط، والأسلم، والأنقى في المعتقد، هو منهج السلف الأول، منهج أئمة الحديث الذين يبقون النصوص على ظاهرها في مسألة الأسماء والصفات، ومن أول من رجعوا عن هذا

1. الشكعة، إسلام بلا مذاهب، القاهرة، دار القلم، 1961م، ص 269.

الإمام أبو الحسن الأشعري بنفسه، والجويني، والغزالي، وغيرهم<sup>(1)</sup>.  
 وخروجاً من هذا الخلاف يرى الدكتور علّال أنّ كلاً من أصحاب  
 الحديث والأشاعرة - أي السلف والخلف - يدخلون في دائرة أهل السنة  
 والجماعة، اعتماداً على المبادئ الأساسية التي تجمعهم، لكن مواقعهم  
 بداخلها - أي الدائرة - تختلف حسب قريبتهم من مذهب السلف وبعدهم عنه،  
 فأصحاب الحديث يحتلون مركز الدائرة، ثم يليهم الأشاعرة المتقدمون،  
 ثم يليهم الأشاعرة المتأخرون المحتلون للموقع المحصور بين محيط الدائرة  
 والأشاعرة المتقدمين، والله أعلم بالصواب<sup>(2)</sup>.

وقد ذكر كذلك الأستاذ صلاح الدين الأدلبي، بعد مناقشته لعدد  
 من وجهات النظر التي أثّرت حول عقيدة الأشاعرة فقال: أقول إنني لست  
 أشعرياً مقلداً؛ بمعنى أنني لا ألتزم بكل ما في كتب الأشاعرة، وإن كنت  
 أرى أن معظم ما قالوه صواب، ومن ما أخذني على الأشاعرة إجمالاً دخولهم

1 - انظر: ابن الجوزي، تلييس إبليس، باب ذكر تلييسه على أمتنا، ص77، أبو عبد الله  
 محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق: أبو محمد  
 أشرف بن عبدالمقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، باب إمام  
 الحرمين الجويني، 1995م، ص258، وانظر) نعمان بن محمود بن عبد الله،  
 أبوالبركات خير الدين الألوسي (المتوفى: 1317هـ)، جلاء العينين في محاكمة  
 الأحمدين، قدم له: علي السيد صبح المدني - رحمه الله - مطبعة المدني، 1981م،  
 ص158، وانظر: أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، البرهان المؤيد، دار  
 الكتاب النفيس، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ، باب القول بوحدة الوجود  
 ضلال، ص88. وانظر: محمد بن علي الشوكاني، التحف في مذاهب السلف،  
 تحقيق: طارق السعود، دار الهجرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، ص59.

2 خالد علّال، الأزمة العقديّة بين الأشاعرة وأهل الحديث، ص79.

في الفلسفة وتبنيهم طرقها ومناهجها، دون التنبُّه إلى عقم تلك الطرق والمناهج، فنحن أمة أغنانا الله تعالى بالطرق القرآنية في إثبات العقائد، ولا حاجة لنا إلى غيرها<sup>(1)</sup>.

ومن هنا تعلم أخي القارئ الكريم، هداانا الله وإياك إلى الصواب، أن المسألة ما تزال محط نقاش بين أهل العلم، وهذا النقاش والحوار، ينبغي أن يكون على هدى وبصيرة، وطلباً للحقيقة بتجرد، ودون تعصب، وكلُّ مجتهدٍ مصيبٌ، إذا كان الحق مطلبه، ورضا المولى تبارك وتعالى غايته، والقرآن والسنة منهجه ودليله، والاقتداء بمن سلف من خيار هذه الأمة وسيلته ومطيته، والله نسأل أن يهدينا للصواب.

ومما سبق يمكن أن نقسم الأشاعرة إلى عدة أقسام:

1- الأشاعرة المتقدمون أمثال أبي الحسن الأشعري، والباقلاني، والرازي، والغزالي، ومن كان على شاكلتهم، فهؤلاء علماء لهم رأيٌ ونظرٌ، وقد خاضوا في مسائل كان السلف الصالح يتورع عن الخوض فيها، أو البحث في تفاصيلها، أو مناقشة جزئياتها - بل آمنوا بها حقيقةً - وفوضوا علم الكيفية لله وحده، ولكنَّ الأشاعرة المتقدمين على كل حال، قد كان لهم فضلٌ في الردِّ على الجهمية، والمعتزلة، وغيرهم، بالأسلوب الفلسفي الذي يفهمه أولئك، ودحضوا الشُّبه التي أثاروها حول أسماء الله وصفاته، وقد أرادوا الخير فيما نعلم، فالله سبحانه وتعالى

1 - صلاح الدين بن أحمد الأدلبي، عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، دار الآثار الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007.

يجازي كلاً على نيته، فإنما الأعمال بالنيات، وهم في آخر المطاف تابوا، ورجعوا إلى مذهب السلف، ويرؤوا من التأويل .

2- أشعريةً بالتقليد، وظهر التقليد عندما قوي هذا المذهب وصار له أتباع من كبار العلماء، فقلدهم قوم من العامة، ليس لهم درايةٌ بمدلولات الألفاظ، ولم يكن لهم علمٌ بما كان عليه السلف الأول من هذه الأمة، فاعتقدوا العقيدة الأشعرية، أو الماتردية، ولو سألت أي واحدٍ منهم، هل اعتقادك مبنيٌّ على الكتاب والسنة؟ فإنه يجيبك دون أدنى تردُّدٍ؛ نعم أنا لا أعتقد إلا الكتاب والسنة، ومن هؤلاء العوام، متعصبون للأشعرية والماتردية وكأنها هي الدين الذي لا تجوز مخالفته، وأن عقيدة التوحيد إنما هي في (الاعتقاد الأشعري أو الماتريدي) وهؤلاء يعذرون بجهلهم فإنما هم مقلدون لا أكثر، وإنما أرادوا الخير، وهم كذلك إنما يعتقدون أنهم إنما يتلمَّسون عقيدة السلف، ويرون أنهم على عقيدة الأئمة الأربعة، أهل السنة والجماعة .

3- قومٌ على درايةٍ وعلمٍ . لكنهم مازالوا متمسكين بمذهب المتكلمين الأول على تعصبٍ وتحيزٍ ومن دون موضوعية، وهذا يمثل شريحة المتعلمين أو أشباههم، وهؤلاء مقتنعون أن مذهب التأويل هو المذهب الأعم، والأحكم، وهذا مذهب الخلف، وأن مذهب السلف هو الأسلم .

4- نخبةٌ أخرى محسوبة على الأشعرية اسماً، ولكنها على مذهب أهل السنة والجماعة حقيقةً ومضموناً، فهؤلاء على الفطرة السليمة، ولم تتأثر سرائرهم بأحاديث المتكلمين الأوائل، وهؤلاء هم عامة الأشعرية اليوم .

وكذلك فإن ما قيل عن الأشعرية يقال عن الماتريدية، فهما يلتقيان

في المنهج، كما سبق، أما الطوائف والفرق التي ابتدعت علم الكلام، وانحرفت عن مذهب أهل السنة، وجاوزت الحد، فهي على النحو التالي:

### أولاً . الخوارج أو الحرورية:

لابد أن نعرف أنّ الخروج أول ما عرف إنما عرف في عهد عثمان رضي الله عن، حيث خرج عليه الزمرة من المارقين من أهل مصر، والكوفة، وأهل البصرة، وتآمروا على حرب الخليفة عثمان، وزوّرت كتباً ورسائل، بأسماء بعض الصحابة كذباً بالدعوة إلى قتال عثمان وأنه أعظم الجهاد<sup>(1)</sup> وهذا يعتبره بعض علماء السيرة أول ظهور للخوارج .

نقل ابن كثير رواية الطبري وغيره فيما حصل لقتلة عثمان، قال: لما قتل عثمان قال سعد: اللهم أندمهم ثم خذهم، وقد أقسم بعض السلف بالله، إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولا، وفي رواية "إلا جن"<sup>(2)</sup>. وقال ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: "بلغني أن الركب الذين ساروا إلى عثمان عامتهم جنوا"<sup>(3)</sup>.

ولا شك أنها كانت فتنةً عظيمة، تغير بعدها واقع المسلمين،

1 . دراسات في الفكر الإسلامي ، ص 140 .

2 . ابن كثير، البداية والنهاية، ج 7 ص 211 .

3 . شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، 1987م، الطبعة الأولى، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري، ج 3 ص 461، وأخرجه السيوطي في تاريخ الخلفاء عن ابن عساكر، انظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، 1952م، ص 140.

وانحرفت كثيرٌ من الأفكار، وأبيح ما كان يعد قبلها من أكبر الكبائر التي ألفت بظلالها على كلمة المسلمين، ووحدة الصف، واجتماع الأمة، بعد تجرئ هذه الطائفة على حرمة الإمامة، فلم يعد محذوراً في نظر البعض، وأعني بهم أرباب الفتنة، ورؤوس الشقاق، أن يتناولوا على حرمة الخلافة، وسيادة دولة الإسلام .

**الخروج الثاني -** كان زمن خلافة عليّ كرم الله وجهه، ورضي عنه، حيث انشق فريقٌ من الموالين له والمناصرين له رافضين مبدأ التحكيم، وصور حالهم الذهبي فقال: "لما خاف أهل الشام الكسرة، رفعوا المصاحف بإشارة عمرو بن العاص، ودعوا إلى الحكم بما في كتاب الله، فأجاب علي رضي الله عنه إلى تحكيم الحاكمين، فاختلف عليه جيشه، وخرجت الخوارج وقالوا: لا حكم إلا لله. وكفروا علياً فحاربهم" (1).

لذلك سمو بالخوارج، لخروجهم على الإمام، وتكلمهم وتلكئهم<sup>(١)</sup> عن النصر والطاعة لوليّ الأمر، وسميت هذه الطائفة بالحرورية، وهو موضع بالكوفة، وهو أول مكان اجتمعوا فيه حين خالفوا علياً رضي الله عنه، وأعلنوا خروجهم عليه<sup>(2)</sup>، مخالفين بذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

1 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 31. وانظر: حماد فلاح الغزالي، دراسات في الفكر الإسلامي الدار العربية للكتاب، طباعة، مدريد، أسبانيا، 1985م، ص 49 .

• المعنى: الجبن والتقاعص عن اتباع ولاة الأمر وطاعتهم فيما ليس فيه غضب الله عز وجل.

2 - الإبانة، لأبي الحسن الأشعري، ص 42 .



الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوَلِّي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا<sup>(1)</sup>.

وفيهما حديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذي الخويصرة، وهو في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري، وفيه... "آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعته"<sup>(2)</sup>.

ورواه مسلم، في باب ذكر الخوارج وصفاتهم، عن أبي سعيد الخدري... الحديث"<sup>(3)</sup>.

1 - سورة النساء الآية 59 .

2 - صحيح البخاري، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم/3341 .

3 - صحيح مسلم، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم/1765، ونصه: "عن أبي سعيد الخدري، قال: بينا نحن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقسم قسما، أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدل، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل!؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يا رسول الله أئذن لي فيه أضرب عنقه، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه، فلا يوجد فيه شيء، وهو القدح - ثم ينظر إلى قذذه، فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث =

والخوارج فرق، وطرائق متعددة، وجماعات مختلفة، كالأزارقة، والصلتية، والأباضية، وغيرهم .  
وعامة الخوارج يقولون: بتكفير علي، وعثمان، وطلحة والزبير، وعائشة، وجيشيهما، وبتكفير معاوية وغيرهم من الصحابة الأطهار المبرئين، رضوان الله عليهم أجمعين<sup>(1)</sup>، كما، ويكفرون مرتكبي الكبيرة، وأنكروا الشفاعة لهم، وقالوا بتخليدهم في النار<sup>(2)</sup>.  
وبلغ من الطغيان والضلال من طائفة منهم، يقال لها (المحكمة)،

= والدم، آتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تتدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس، قال أبو سعيد فأشهد أنني سمعت هذا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأشهد أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه، على نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي نعت"، مسند الإمام أحمد، باب حديث عمرو بن العاص، حديث رقم/6741، وفيه أيضاً، باب أبي سعيد الخدري، حديث رقم/11195، وذكره مجد الدين ابن الأثير، باب الخوارج، حديث رقم/7553، انظر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، سوريا، الطبعة الأولى، ج 10 ص 83 .

1 - الملل والنحل ، ص 60 .

2 - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ج 2 ص 258، شرح العقيدة الواسطية، للهراس، ص 250، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي النشاء الألويسي (المتوفى: 1342هـ)، صب العذاب على من سب الأصحاب، ص 298، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة الثانية، 1982م، ج 2 ص 22، إبراهيم ابن عامر الرحيلي، التكفير وضوابطه، دار الإمام البخاري، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 2006م، ص 177.

أنهم قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت - رضي الله عنه -، وقاتلهم علي رضي الله عنه، وقد تاب منهم عدد كبير، ورجعوا بعد المناظرة المشهورة معه، ويقال أنه بقي منهم أربعة آلاف، فقاتلهم، وقال، "والذي نفسي بيده لا يقتلون منا عشراً، ولا يبقى منهم عشر"، وكان كما قال رضي الله عنه<sup>(1)</sup>.

ومنهم طائفة يقال لهم: (النجادات)، التي أسقطت حدَّ شرب الخمر، ومنهم فرقة ضالة أخرى، يقال لها: (الصفرية) التي ادعت أن صاحب كل ذنب مشرك<sup>(2)</sup>.

ومنهم من قال بالمنزلة بين المنزلتين، فسموا بالمعتزلة<sup>(3)</sup>. والمعتزلة كما يذكر علماء الطوائف والفرق الإسلامية، فرقة من الخوارج، وصفوا بالاعتزال، لأن شيخهم واصل قد اعتزل أستاذه وشيخه التابعي الكبير الحسن البصري، وأقام حلقة في مسجد البصرة، وكذلك لقولهم المخالف لعموم الأمة بأن مرتكب الكبيرة هو في المنزلة بين المنزلتين، ومن العلماء من أطلق على المعتزلة (مخانيث الخوارج)، ونسبهم إسحاق بن سويد إلى الخوارج في شعره، فقال:

برئت من الخوارج لست منهم      من الغزال منهم وابن باب  
ومن قوم إذا ذكروا علياً      يردون السلام على السحاب<sup>(4)</sup>

- 1 - عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص 96.
- 2 - المصدر السابق، ص 108.
- 3 - انظر: المصدر السابق، ص 39.
- 4 - طاهر بن محمد الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق - كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 68، وانظر: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ص 99.

وقد اختلفت الخوارج إلى فرق متعددة، منها: المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدية، والصفرية، والميمونية، والشيبية، والحمزية، والحازمية، والمعلومية، والمجهولية، والصلتية، والأخنسية، والمعبدية، والشيبانية، والشيدية، والحفصية، واليزيدية، والحارثية، وعد بعضهم الخوارج إلى نحو (عشرين فرقة)<sup>(1)</sup>، وأكثرها شهرة ما يلي:

أ- المحكمة الأولى: وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقتلوه بالنهروان، فهزمهم، وكان من زعمائهم: عبدالله ابن وهب الراسبي، وهو أول من بويع بالإمامة، وحرقوص بن زهير البجلي<sup>(\*)</sup> المعروف بذي الثدية<sup>(2)</sup>.

1 - عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي، الملل والنحل، تحقيق ألبير نصري نادر، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1970م، ص 57 وانظر كتاب: دراسات في الفكر الإسلامي ص 49.

• وقيل حرقوص بن زهير بن زهير بن السعدي، الملقب بذي الخويصرة، انظر: الأعلام للزركلي، ج 2 ص 173.

2 - أقول: قال الزركلي: هو أشد الخوارج، وفي سيرته اضطراب. اهـ. ولهذا يذكر ابن حجر أن اسمه حرقوص - بضم أوله وسكون الراء المهملة - بن زهير السعدي له ذكر في فتوح العراق، وزعم أبو عمر أنه ذو الخويصرة التميمي رأس الخوارج المقتول بالهروان. وذكر الطبري أن عتبة بن غزوان كتب إلى عمر يستمده فأمده بخرقوص بن زهير وكانت له صحبة وأمره على القتال على ما غلب عليه ففتح سوق الأهواز، وذكر الهيثم بن عدي أن الخوارج تزعم أن حرقوص بن زهير كان من أصحاب النبي ﷺ وأنه قتل معهم يوم النهروان، قال: فسألت عن ذلك فلم أجد أحداً يعرفه، وذكر بعض من جمع المعجزات أن النبي ﷺ قال: لا يدخل النار أحد شهد الحديبية إلا واحداً، فكان هو حرقوص بن زهير، فالله أعلم. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ، ج 2 ص 49. وكذلك: الأعلام للزركلي، ج 2 ص 173، ومحمود نادي عبيدات، مالك بن أنس وره في علم الحديث، ص 10.

ب- الأزارقة: وهم أصحاب نافع بن الأزرق، وقد كان خروجهم من البصرة، وقد أغاروا على الأهواز، فغلبوا عليهم، ولم تكن للخوارج فرقة أكثر عدداً ولا أقوى شوكة منهم<sup>(1)</sup>.

ج- الصفرية: ومؤسس هذه الفرقة هو زياد بن الأصفر، وهم لا يختلفون عن الأزارقة كثيراً، غير أنهم لم يتشددوا في موقفهم ممن خالفهم كما فعل الأزارقة، فلم يكونوا يقولون بقتل أهالي مخالفهم كما فعل الأزارقة، ويذكر الشهرستاني الفرق بينهم وبين الأزارقة، والنجيدات، والأباضية، في أمور منها: أنهم لم يحكموا بكفر من لم يقاتلهم، إذا وافقوهم في العقيدة، وأيضاً: ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين، ولا بتخليدهم في النار، وقالوا كذلك: بجواز التقيّة في باب الأقوال، لا في الأعمال<sup>(2)</sup>.

وجملة القول فإن جماعات الخوارج بجميع أطياؤها، كلها فرق ضالة لا هم لها إلا تكفير الصحابة، وتكفير مرتكب الكبيرة، والخروج على الولاة والأمراء، إلى غير ذلك من المعتقدات والأباطيل المخالفة للكتاب والسنة، وقد مثلت الجماعات التّكفيرية في ذلك العصر، وهذا لا يعني أنه لم يكن من بينهم مصلّون وعباداً ومجاهدون مخلصون، ولكنهم تأولوا النصوص تأولاً خاطئاً بتكفيرهم المسلمين، واستباحتهم دماءهم، وأعراضهم، وأموالهم، وسنوضح أفكارهم، وسنعرض إلى أقوال الإمام مالك، في الخوارج وغيرهم من الفرق، وكذلك سنذكر أقوال غيره من الأئمة والفقهاء فيهم، عند عرض آرائهم على الكتاب والسنة، والله نسأل أن يرشدنا إلى الصواب .

1. الفرق بين الفرق ، ص 50 .

2. محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، ص 137 .

## ثانياً - الشيعة:

وهي من الفرق والطوائف التي ظهرت في الزمن الأول، وتقوم آراؤهم على موالاته آل البيت، وتقديمهم على سائر الصحابة، وهناك من يعد الشيعة من أقدم الطوائف والفرق الإسلامية، حيث يقولون بظهورها بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -، لأنهم قالوا بأحقية علي رضي الله عنه بالخلافة<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا فإن أول ظهور للشيعة كان بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قالوا بإمامة علي، ويقدمونه على الشيخين الأكبرين "أبي بكر وعمر" كما وأن للشيعة آراء مختلفة خالفت فيها عموم الأمة، وابتعدت فيها عن منهج السلف الصالح، وغالت في موالاتها لآل البيت، وبخاصة بعد وفاة عثمان رضي الله عنه، حيث يذكر أن أول من روج لهذه الفرقة الضالة، هو عبد الله بن سبأ<sup>(2)</sup>.

1 - مذكرة التوحيد والفرق ج1 ص10، وانظر: دراسات في الفكر الإسلامي، ص45.  
 • هو إمام الرافضة، الذين ادّعوا ألوهية علي (رضي الله عنه) فحرق بعضهم، ونفى ابن سبأ إلى المدائن، ثم لما قتل علي، زعم ابن سبأ أن المقتول ليس علي وإنما هو شيطاناً تمثل بصورته، وأن علياً إنما صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم، وابن سبأ هذا يهودي، ادعى الإسلام، ثم راح يضلل على المسلمين من محبي الإمام علي، فضل وأضل، انظر الفرق بين الفرق ص 40، 237. وعقيدة أهل السنة، من أتباع المالكية، وجميع المذاهب رضوان الله عليهم، ينزلون علياً المنزلة التي أنزلها له الله تعالى، ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -، وصدق محمد القحطاني الأندلسي المالكي، الذي قال في أهجوزته، وكان يمدح علياً رضي الله عنه ❖ ولي الخلافة صهر أحمد بعده (يعني بعد عثمان) ❖ أعني علي العالم الرياني ❖ لا تنتقصه ولا تزدد في قدره ❖ فعلية تصلى النار طائفتان ❖ إحداهما لا ترتضيه خليفة ❖ وتنصبه الأخرى إليها ثانياً ❖❖ (نونية القحطاني المالكي، محمد الأندلسي، دار الآثار، القاهرة، مصر، 2002م).

2 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ص322.

والشيعة فرقاً وطوائف متعددة تزيد عن العشر فرق، ومنها: الزيدية، والإمامية، والروافض الصفوية، والسبئية، وغيرها<sup>(1)</sup>.  
ومنهم المتشدد في تشيعه، ومنهم الأقل تشدداً، وغالبية الشيعة حالياً موجودون في: إيران، والعراق، وأجزاء من باكستان، وغالبية هؤلاء يغلب على فكرهم الجمود، والتقليد الأعمى للأئمة، ولم يجد مكانه إلا بالقوة والإرهاب، لا بالفكر والإقناع، ثم نشأ الجيل اللاحق في جو المآثم الحسينية السنوية، التي طورها الصفويون ليمتلئ الناشئ بتأثيرها حقداً وغيظاً<sup>(2)</sup>، وحرناً وكمداً، حتى لا يكاد يستمع بسبب ذلك إلى حجة أو برهان، ولا إلى هدي رباني، فينأون بسبب ذلك عن استخدام العقول، ويضلون عن منهج الرسول، فهل هذا هو الإسلام؟؟.

ومن الأخطاء الجسيمة التي وقعت فيها هذه الطائفة وخالفت فيه عموم الأمة، هي مغالاتها في توقير آل البيت عليهم السلام، مما لم يكن عليه العمل زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -، بل وبلغ الغلو من فرقة منهم أنها قدمت علياً رضي الله عنه على الشيخين الكريمين، صاحبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووزيريه بخلاف من كان يقدمهما من شيعة علي<sup>(3)</sup>.

- 1 - راشد عبد الله فرحان، أديان معاصرة، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، 1985م، ص 8.
- 2 - انظر: ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد، مكتبة المدينة المنورة، 2005م، ج 3 ص 533.
- 3 - الإمام محمد بن عثمان الذهبي تحقيق: محب الدين الخطيب، المنتقى من منهاج الاعتدال، المكتبة المركزية جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ج 2 ص 360.

وقد أثر عنه - رضي الله عنه - أنه كان يقول على المنبر: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكرٍ وعمرٍ إلا جلدته حدَّ المفتري (1).

ولكن غالبية الشيعة قد انحرفت عن المنهج الصحيح، منهج آل البيت، الذين عرفوا مكانة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر الطوائف كذباً (2)، وما قدروا أهل البيت حق قدرهم، إذ تقديرهم هو إنزالهم المنزلة التي أنزلهم الله إياها، وتعتبر هذه الفرقة من الشيعة هم أهم الفرق وتسمى بالشيعة الإمامية، وسموا بذلك لأنهم يقصرون الإمامة على اثني عشر إماماً من آل البيت، وهم عليٌّ واثني عشر من ذريته، على أن لا يزيد عددهم عن اثني عشر إلى قيام الساعة، ويسمونهم: (المعصومون) (3).

ومن الانحرافات المشاهدة عند الشيعة، إحياءهم الليالي الحسينية بالبكاء والوعويل، وضرب الصدور، بالحديد، والسياط، حتى تسيل منها الدماء، مدعين بذلك محبتهم لآل البيت، ومنتدمين ومتحسرين على تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما للخلافة لمعاوية" ولم يكن للشيعة من الأمر غير الحزن والبكاء والعتاب، مما لا يمت للإسلام بصلة، ويعطي فرصة للمشككين والعايئين لينالوا من الإسلام بسبب جهل أتباعه، والإسلام بريء من الجهل وأهله" (4).

1 - الإمام محمد بن عثمان الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال، ص 361.

2 - شيخ الإسلام بن تيمية، صحة أصول مذهب أهل المدينة، ص 31.

3 - راشد عبد الله فرحان، أديان معاصرة، جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الثانية، 1985م، ص 87.

4 - راشد عبد الله فرحان، أديان معاصرة، ص 95.



وهناك فرقةٌ من الشيعة أضل عن سواء السبيل، وهم السبئية الذين اتبعوا المناق الضال ابن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام، وأخذ ينشر دعوته وأفكاره الضالة، ومما كان يقول في هذا الصدد: تبنّيه لمذهب الرجعة، الذي زعم فيه، وافترى دعوته التي كساها برداء الدين، مدعيًا القول برجعة محمدٍ - صلى الله عليه وسلم -، وكان يقول إنّي لأعجب ممن يقول برجوع عيسى ابن مريم، ولا يقول برجوع محمدٍ، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (1).

ومنهم الشيعة "الروافض" وهؤلاء من أخطر طوائف الشيعة وهي فرقة كبيرة جداً، وسموا بذلك لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي امتنع من لعن أبي بكر وعمر، وقال هما وزيراً جدي محمد - صلى الله عليه وسلم - فرفضوا رأيه، وقيل لأنهم رفضوا رأي الصحابة، لأنهم بايعوا أبا بكر وعمر (2).

وهم فرق وجماعات، ومنها: الزيدية، والإمامية، والكيسانية، ومن العجيب أن طائفة منهم زعمت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نص بالخلافة لعليّ بالوصف، وأن الصحابة كفروا بتركهم بيعة عليّ (3)، وعلى هذا المنوال من الافتراءات والادعاءات التي ما أنزل الله بها من

1 - سورة القصص الآية 85.

2 - شيخ الإسلام ابن تيمية، صحة أصول أهل المدينة، تعليق: زكريا علي يوسف، ص21.

3 - الشهرستاني، الملل والنحل، ج1ص192، وانظر: عبد القادر البغدادي، الفرق بين الفرق بين الفرق، ص52.

سلطان، وهي ولا ريب مخالفةً للواقع، ولما كان عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحبه .

وقد عرف قدماء الشيعة بالتجسيم والتشبيه، بما لم تعرف به طائفة من الطوائف من قبل، وأما متأخروهم، فوسموا بالتعطيل، غلواً في النفي والتعطيل وأدخلوا في التوحيد نفي الصفات، والقول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وزعموا أن ذلك تنزيه<sup>(1)</sup>.

وقال الشهرستاني: "وبعضهم يميل في أصوله إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه"<sup>(2)</sup>.

#### ومن أهم طوائفهم ما يلي:

- أ- **الزيدية:** وهم الذين قالوا بإمامة زيد بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ثم قالوا بالإمامة من بعده في ولد فاطمة - رضي الله عنها - ولا يرون بالإمامة في غير أبناء الحسن والحسين - رضي الله عنهما .
- ب- **الإمامية:** وهم الذين قالوا بإمامة علي - رضي الله عنه - بعد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا إنه ليس في الدين من أمرٍ أهمُّ من الإمامة، ونصوا على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عينَ عليا - رضي الله عنه - وأوصى بتعيينه إماماً بعده في أكثر من موضع<sup>(3)</sup>.

1 - محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي (المتوفى: 1421هـ)، آل رسول الله وأولياؤه، المكتبة الوقفية، 2002م، ص 19 .

2 - الملل والنحل، ج 1 ص 147 .

3 - المصدر السابق، ج 1 ص 162.

ج- الغلاة: وهم الذين غالوا في أئمتهم وبالغوا مبالغة فاحشة في رفع قدر الإمام حتى إن بعضهم من يشبه الإمام بالإله، وقد ظهرت هذه الآراء بينهم نظراً للغلو والخطل الذي أصابهم، وتأثرهم بمذاهب التناسخية والحلول، وبعضهم تأثر باليهودية والنصرانية وقد حصر الشهرستاني بدع الغلاة في أربعة: "التشبيه، والبداءة، والرجعة، والتناسخ"<sup>(1)</sup>.

### ثالثاً القدريّة والمعتزلة :

وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال، الذي احترف الاعتزال بانشقاقه عن شيخه الحسن البصري، إمام التابعين، وبمخالفته لعموم رأي الأمة في مرتكب الكبيرة، وآراء أخرى احترفها المعتزلة مخالفة لأهل السنة، ومفارقة لإجماع الأمة، يذكر الدكتور خالد بن القاسم، في معرض حديثه عن المعتزلة أنهم فرقة خرجت بعقائد جديدة محدثة عن إجماع المسلمين، وهم إنما يدافعون عن تلك العقائد الفاسدة، وليس بالضرورة عن الإسلام<sup>(2)</sup>.

وانضمّ لواصل، عمرو بن عبيد بن باب، وتواءم مع واصل في أفكاره، ومتناقضاته التي خالف فيها الشارع، وانحرف عن سواء السبيل، ومن العلماء من يعتبرهم فرقة من القدريّة<sup>(3)</sup>، التي تنقسم بدورها لأكثر

1 - الشهرستاني، الملل والنحل ج1 ص 173، وانظر: عبيدات، مالك وأثره في علم الحديث ص13 .

2 - خالد بن عبد الله قاسم، دراسة بعنوان: المعتزلة في دائرة المعارف الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك اسعود، الرياض، 2003م، ص6 .

3 - الشهرستاني، الملل والنحل، ج1 ص82 .

من عشرين فرقةً وهم: الواصلية، الهذلية، والنظامية، والأسورية، والإسكافية، والجعفرية، والبشرية، والهاشمية، والحايطية، والمعمرية، والثمالية، والكعبية، والجبائية وغيرهم كثير<sup>(1)</sup>.

ويذكر البغدادي أن هذه الفرق العشرين قدرية محضة<sup>(2)</sup>.

وصار الاعتزال يترعرع، ويتنامى بعد وفاة الحسن البصري رحمه الله، ولقد اعتمد المعتزلة والقدرية على عقولهم، فضلوا وأضلوا، والقدرية كذلك، وهي فرقةٌ منهم، قد عميت عن الحق، كما عموا، وضلت عن الهدى كما ضلوا، ومن أقوالهم: أنهم ينفون عن الله تعالى صفاته الأزلية، وأنه سبحانه جَلٌّ وتعالى عما يقولون: "ليس له علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، ولا صفةٌ أزلية"<sup>(3)</sup> وانشغلوا بما لم يكلفهم الله تعالى به، وهو قولهم في الذات العلية، وبكلامهم في كلام الله عز وجل وأنه حادثٌ وأن كلامه مخلوقٌ، ويقولون بأن: "أفعال الناس والحيوان ليس لله عز وجل فيها صنعٌ وتقديرٌ وأنها من قدرة المخلوق ولذلك سماهم المسلمون بالقدرية"<sup>(4)</sup>.

وللمعتزلة خمسة أصول، وهي: نفي الصفات عن البارئ جل وعلا، ويوجبون على الله إثابة المطيع، وعقوبة العاصي، فليس له أن يعفو، ويوجبون على الله إنفاذ وعده ووعيده، ويقولون إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، فلا يسمى مؤمناً ولا كافراً، ويفرضون على كل من

1 - الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1 ص 82 .

2 - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 67 .

3 - المصدر السابق، ص 131 .

4 - المصدر السابق، ص 132 .

يعتقد مذهبهم أن يدعو إليه، ولو بالقوة<sup>(1)</sup>.

ولكونهم يعتبرون مرتكب الكبيرة، بمنزلة بين المنزلتين، فهم لا يكفرونه كما فعلت الخوارج، ولكنهم يقولون بخلوده في النار، لهذا قيل للمعتزلة بأنهم مخانيث الخوارج، لأن الخوارج لما رأوا لمرتكب الكبيرة الخلود في النار سموهم كفاراً، أما المعتزلة فما تجرءوا على تكفيرهم، لكونهم ينطقون بالشهادتين، فقالوا إنهم بمنزلة بين المنزلتين، مخالفين بذلك الكتاب والسنة<sup>(2)</sup>.

وقالوا أيضاً: إن العبد قد يموت بغير أجله، وأن الحوادث التي تؤدي إلى موته فجأة تقطع قدر الله الذي قدره عليه، كمن يأكله سبع، أو يموت غرقاً، أو من حريق ونحوه<sup>(3)</sup>.

ومن أقوالهم، وافتراءاتهم كذلك، سلوكهم طريقة البلخي الذي يقول: إن الله ليس بسميع بصير على الحقيقة، وأن وصفه نفسه بذلك مجاز واتساع، وعلى معنى العلم له، دون أن يكون سميعاً على الحقيقة، أو بصيراً<sup>(4)</sup>.

1 - شيخ الإسلام بن تيمية، صحة أصول مذهب أهل المدينة، تعليق زكريا علي يوسف ص 21.

2 - المصدر السابق، ص 135.

3 - شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، للقاضي عبد الوهاب، ص 257.

4 - الإمام أبي الحسن الأشعري مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990م، ج 1 ص 261.

## رابعاً . الجهمية :

وهم أتباع جهم بن صفوان<sup>(\*)</sup> وتلميذه الجعد بن درهم الزنديق<sup>(\*\*)</sup>، أول من ابتدع القول بخلق القرآن وهو مبتدع ضالٌّ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً<sup>(1)</sup> وأنكر تكليم الله لعبده ورسوله موسى عليه السلام، والجهمية، تقول أيضاً بالإجبار، والاضطرار في الأفعال، وأنكروا اختيار العبد في الأعمال .

ويعدُّ العلماء الجهمية من الفرق الضالة التي قالت بفناء الجنة والنار، ومنهم طائفةٌ كفرت أصحاب الكبائر من الذنوب من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقالوا كذلك أن صاحب الكبيرة عابدٌ للشيطان، ومن

• وصفه الحافظ الذهبي بأنه مبتدع ضال، رأس الجهمية، هلك في زمان التابعين، وما علمته روى شيئاً، انظر تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، على كتاب الفرق، ص221.

• قال في وصفه الحافظ بن حجر: عداؤه في التابعين مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر والقصة مشهورة انتهى. وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة، انظر - ابن حجر، لسان الميزان، وقال عنه الزركلي: الجعد بن درهم، من الموالي: مبتدع، له أخبار في الزندقة. سكن الجزيرة الفراتية. وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، في أيام هشام بن عبد الملك، فنسب إليه. أو كان الجعد مؤدبه في صغره. ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي، نسبة إليه. قال الذهبي: عداؤه في التابعين، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر، انظر: الأعلام، الزركلي، ج2 ص120 .

1 - عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، شارع الجمهورية، القاهرة، مصر، ص221.

العجب قول طائفةٍ منهم في الفقه بتحريم أكل الثوم والبصل، وبوجوب الوضوء من قرقرة البطن<sup>(1)</sup>.

ومنهم فرقةٌ كذلك يقال لهم الضرارية، وهم أتباع ضرار بن عمر، ومن ضلالاتهم، وعماهم عن الحق، أنهم يقولون في أبي بن كعب<sup>(\*)</sup>، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما أنهما ضالآن في مصحفيهما، وأن حروفهما لم ينزلها الله تعالى<sup>(2)</sup>.

وسنعرض أقوالهم على نصوص الكتاب والسنة، وكذلك سنبين أقوال أهل العلم فيهم، وفيما ذهبوا إليه من باطل، مبينين رأي مالك في الجهمية، وفي الطوائف والفرق عموماً.

### خامساً - المرجئة :

المرجئة: جمع، واحده مرجئ، وهو اسم فاعل، للفعل الرباعي أرجأ، ومعناه التمهّل، ومنه أرجأ الأمر أخَّره<sup>(3)</sup> وسموا بذلك لقولهم بالإرجاء في

1 - الملل والنحل لابن طاهر البغدادي ، ص146 .

• هو الصحابي الجليل أبو المنذر أبي بن كعب من بني النجار روي عنه أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي آيةٍ معك في كتاب الله أعظم ؟ قلت : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ سورة البقرة الآية 225 ، قال : فضرب سول الله - صلى الله عليه وسلم - في صدري وقال : ليهنك العلم فو الذي نفسي بيده إن لها للساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش ، توفي في خلافة عمر سنة 22هـ ، وقال عنه عمر يوم مات اليوم مات سيد المسلمين ، وقيل توفي سنة 30هـ في خلافة عثمان رضي الله عنه .

2 - الملل والنحل ، ص148 .

3 - مختار القاموس ، ص18 .

الإيمان، وعموم قولهم: أنه لا تضر مع الإيمان معصية<sup>1</sup>، ومنهم من قال بالجبر في الأعمال<sup>(1)</sup>، وفي زمنهم ظهرت فرقة الجبرية، الذين يقولون: إن الإنسان مجبرٌ على أعماله، ولا اختيار له، وسيأتي بيان آرائهم في الحديث عن آراء الفرق والطوائف الضالة إن شاء الله، وهم ثلاث طوائف، ومنهم من يُعدُّ من أصناف الجهمية ومؤيديهم، ومنشئوها: هم أبو شمّر المرجئي، ومحمد بن شيب البصري، وغيرهما، وسنورد آراءهم إن شاء الله في توضيح آراء هذه الفرق وتبيين ما ذهبوا إليه، مع تحليل أقوالهم، على ضوء الكتاب والسنة .

وللمرجئة آراء متعددة، ومن أهل العلم المعاصرين من يقسم المرجئة إلى أربعة أقسام، بحسب آرائهم من الإرجاء في مسألة الإيمان، كما مرَّ علينا في الفصل الثالث، في مبحث العمل وعلاقته بالإيمان .

ومنهم من يجمع بين الإرجاء والقول بالقدر على مذهب القدرية، فهؤلاء هم مرجئة القدرية، ومنهم من خلط الإرجاء في أعمال الإيمان مع قول جهنم بن صفوان في الأعمال وهؤلاء هم مرجئة الجهمية، والخلص هم المرجئة المحضة من غير قدرية، ولا جبرية، ولا جهمية، وهؤلاء ينقسمون إلى خمسة أقسام وهم: اليونسية، والغسانية، والثوبانية، والتوفية، والمريسية، وتتسب هذه الفرق إلى أسماء رؤسائها وتكفر كل منها الأخرى<sup>(2)</sup>.

**تنبيه :**

لم أعدُّ أهل السنة والجماعة في الفرق والطوائف، على خلاف ما

1. الفرق بين الفرق ، للبغدادى ، ص211.

2. مالك بن أنس وأثره في علم الحديث ، محمود نادي عبيدات ، ص16 .



جرت عليه عادة الباحثين والكتّاب من إدراجها ضمن الفرق، وذلك لأنني لم أعتبرها فرقة، ولا طائفة - بل هم أصل الدين، ومنبته، وقاعدته، ودعامته، وكما هو معلومٌ منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، لم تكن تعرف الفرق والطوائف، لأن الناس كانوا جماعةً واحدةً، هي جماعةُ الإسلام، والجميع على رأي واحدٍ لا اختلاف بينهم، ولا تفرق، بل هم أمةٌ واحدة .

جاء في حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"<sup>(1)</sup>، وهم النَّاجون يوم القيامة، ويوم الفزع الأكبر، وذلك لما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: "إن بني إسرائيل افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة"<sup>(2)</sup>.

- 1 - صحيح البخار، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم/5552، صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم/4685، مسند الإمام أحمد، باب حديث النعمان بن بشير، حديث رقم/17648، ومن نفس الباب حديث رقم/17654.
- 2 - الفرق بين الفرق، ص24، والحديث سبق تخريجه من سنن ابن ماجه، ومسند الإمام أحمد، وغيرهما، وقد ذكر البغدادي كلاماً علمياً في تخريج هذا الحديث، خلاصته، أن هذا الحديث قد ضعفه بعض أهل الحديث، ولكنه علل الاحتجاج به في هذا الباب من حيث الاختلاف في العقيدة هو الاختلاف المقصود في الحديث، وليس اختلاف الحرف والصنائع، أو اختلاف المذاهب الفقهية، فهذا من الاختلاف الذي لا غنى عنه، وإن الاختلاف في الحرف هذا لضرورة العيش، وهو بديهي، وأن اختلاف المذاهب الفقهية هو من قبيل الاختلاف في الآراء الفقهية الذي يجمع الأمة =

والحديث في سنن ابن ماجة، ونصه " عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فأحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: الجماعة" (1) وسنورد ردود الإمام مالك - رحمه الله - على هذه الفرق الضالة بشكْل خاص، وسنركز على آرائهم بمزيد من التوضيح، ثم سنورد آراء الإمام مالك في هذه الفرق، وآراء غيره من أئمة السلف .

ولأن الإمام مالك - رحمه الله - يشكل محوراً من محاور أهل السنة، لا غنى عنه، وهو من كبار علماء الأمة، والمدافعين عن عقيدة السلف الصالح، فسنبكتفي بذكر ردوده على هذه الفرق، وردود بعض تلامذته ورفقائه من علماء السلف، الذين سلكوا المسلك الأول، وساروا في الطريق الأمثل الذي اختطه النبي صلوات ربي وسلامه عليه، والذي لا معيد عنه

= أكثر مما يفرقها، لكن الاختلاف في العقائد، هو الاختلاف القاتل وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأن الناجين، والفائزين، هم الذين ثبتوا على منهج النبوة، وطريقة السلف الصالح. أقول: قد صححه الألباني انظر - صحيح وضعيف ابن ماجة، حديث رقم/3993، والسلسلة الصحيحة، حديث رقم/1492، بما أغنى عن التعليل الذي ذكره البغدادي، وبالله التوفيق .

1 - سنن ابن ماجة، باب افتراق الأمم، حديث رقم/3983، وقد صححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، حديث رقم/3992، وانظر - السلسلة الصحيحة، حديث رقم/1492 .

لمن أراد النجاة .

وكذلك لتحملهم أمانة تبليغ هذا الدين بصورته الصحيحة ، ومحاربة أهل الأهواء والبدع ، أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن عبد الله بن مسعود . رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدكم بیده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (1) .

وستنخذ هذه الآراء الساطعة والردود الواضحة ، نموذجاً يمثل حقيقةً منهج علماء السلف ، وأهل السنة والجماعة . في محاربة أهل الأهواء ودحض آراء المخالفين من الفرق الضالة . وهذه الآراء تمثل ما كانوا عليه من صفاء العقيدة ، ونقاء الفهم لهذا الدين ، ودوام المتابعة والاستقامة على دين الله ومنهاج النبوة .

1 . صحيح مسلم ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، حديث رقم /71 ، السنن الكبرى للبيهقي ، ج 10 ص 90 ، شعب الإيمان للبيهقي ، باب الحديث الحادي والخمسون من شعب الإيمان ، حديث رقم /7298 ، صحيح ابن حبان ، باب فرض الإيمان ، حديث رقم /177 ، وفيه أيضاً باب ذكر البيان بأن الملوك يطلق عليهم اسم الخلفاء في الضرورة أيضاً ، حديث رقم /6784 ، مسند الشاميين للطبراني ، باب سيكون عليكم خلفاء يعملون بما يؤمرون ، ورواه بسنده عن أبي هريرة ، حديث رقم /628 .

## المبحث الثاني - رأي مالك في الفرق :

قد عرفنا حقيقة ما كان عليه إمام دار الهجرة من دوام المتابعة لمنهج الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم محمد عليه الصلاة والسلام، وما هي نظرته للزوم اتباع السنة، وترك البدع والأهواء، فمما لا شك فيه أن نجد أن مالكاً - رحمه الله - قد كان سيفاً مصلاً على هذه الفرق الضالة، ومرجعاً يلتجئ إليه من أراد السلامة في دينه، والنجاة من الانحراف، والانجرار وراء تيارات المتكلمين بالأهواء التي بدأت تبث شُبُهاتها في الأمة، وتضلُّ بآرائها العوام، وتستهوِي المبتدئين من طلبة العلم، فكان مالك - رحمه الله - الحصن الحصين للسنة، والمتجرئ على قهر المبتدعة، وكانت كلمته الفصل، ورؤيته الحل الأمثل، التي لا تشوبها شائبة، ولا تعتربها نائبة، وسيتبين لنا إن شاء الله من خلال هذا المبحث - ما كان لمالك من رأي حكيم، ومنهج سليم، حري بالدعاة إلى الله أن يسلكوه، ليزيلوا الكربة عن المسلمين، ويعيدوا للدين بهاء ورونقه، وليكون الدين كله لله كما أمر الله عز وجل، بعيداً عن الصراعات، والضلَّالات، ومنسجماً مع كل عصرٍ بما تقتضيه ظروفه، ليُعلم أن هذا الدين صالح لكل زمانٍ ومكان، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(1)</sup>.

1 - سورة البقرة الآية 143.

## المطلب الأول . تقييم للفرق على ضوء الكتاب والسنة:

لقد باء المارقون عن طاعة الله، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، بالخسران المبين، فما عرفوا للطريق المستقيم سبيلاً، وظنوا أن العقول وحدها ستهديهم، وتتقدهم من حيرتهم، من دون الرجوع إلى النصوص الشرعية التي لا محيد عنها، فمن اعتمد على عقله ضلّ وأضلّ، ومن اعتمد على ربه اهتدي وهدي .

يقول ابن القيم: الخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله عليهم ومتابعتهم، يتقلبون في عشر ظلمات ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار . وأتباع الرسل صلوات الله عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها . صلى الله عليه وسلم . من النور ما ليس لنبي غيره، فإن لكل نبي منهم نورين، و لنبيّنا - صلى الله عليه وسلم - تحت كل شعرة من رأسه، وجسده، نور تامٌ كذلك صفته، وصفة أمته في الكتب المتقدمة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.

وفي قوله تعالى ﴿تمشون به﴾ إعلامٌ بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم، ولا نافع لهم بل ضرره أكثر من نفعه . إلى أن قال - رحمه الله - ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي وهو أحوج ما يكون

1 - سورة الحديد الآية 28 .

إليه<sup>(1)</sup>. انتهى كلامه .

ومن هنا يمكن أن نجعل كلام ابن القيم منطلقاً لتوضيح ما كانت عليه هذه الفرق من المخالفة، والخروج عن منهج السلف الصالح، فهم بعدما صاروا في طريق التأويل والاجتهادات المتكلفة بغير هدى من الله، صار طريقهم الذي يسلكون أظلم ما يكون، وأوحل، وأوحش، وهم في هذا أشبه بمن يسير في بركة من الطين والوحل، كلما قدم رجلاً غاصت الأخرى، كأبعد ما يكون من الأولى، وهكذا حتى يغرق في الوحل، وكلما أسرع في الرجوع إلى اليابسة وبر الأمان كلما كانت نجاته أضمن، والخروج من مأزقه أيسر وأسهل، وكلما سار في الأوحال كلما غرق وتهاوى، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

قال ابن عبد البرّ إمام المالكية في المغرب: "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على حقيقتها، لا على المجاز، أما أهل البدع الجهمية، والمعتزلة كلها، والخوارج، فكلهم ينكرونها، ولا يحملون شيئاً منها على الحقيقة، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيها ما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله . صلى الله عليه وسلم . وهم أئمة الجماعة"<sup>(3)</sup>.

1 . ابن القيم الجوزية، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعتلة والجهمية، الطبعة الأولى، دار الشريعة، القاهرة، مصر، 2004م، ص14 .

2 . سورة القصص الآية 50 .

3 . التمهيد لابن عبد البر، ج7 ص145، وانظر: شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتوى الحموية الكبرى، تقديم: محمد عبد الرازق حمزة، مطبعة المدني، مصر 1983م، ص89 .

ويمكن بسط ما وقعت فيه الفرق على اختلاف مسمياتها، من المخالفة للكتاب والسنة، فيما يلي :

**1-** لقد خالفت الخوارج صريح النصوص بتكفيرهم مرتكب الكبيرة، ونصبوا أنفسهم حكماً على مراد الله بغير ما شرع على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وهذا في الواقع مخالفٌ لصريح الكتاب والسنة، حيث قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>(1)</sup>.

وحيث إن الله تعالى يغفر كل ذنب عدا الشرك به، يستلزم أن هذا الذنب غير مخرجٍ من ملة الإسلام، بدليل قوله عز وجل: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فما هو أقل من الشرك، فإن الرجاء من الله تعالى أن يغفره . فإذا قبلتم بتوبته، فإن هذا يستلزم أن تقبلوا إسلامه، لأنه لو كان غير مسلم، لما دخل في هذا الوعد من رجاء مغفرة الله تعالى ورحمته، جاء في صحيح مسلم من حديث المعرور بن سويد، قال: "سمعت أبا ذر يحدث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: أتاني جبريل عليه السلام، فبشّرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق"<sup>(2)</sup>، وفي رواية أبي الأسود الدؤلي، أن أبا ذر

1 - سورة النساء الآية 116 .

2 - صحيح مسلم، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، حديث رقم/137، وفي البخاري من حديث زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشي وحده، وليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي مع أحد، قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال: من هذا؟ قلت: أبو ذر، جعلني الله =

حدثه قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو نائم، عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر"، قال، فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر" (1).

وهذا تأكيد من النبي - صلى الله عليه وسلم -، والذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، تأكيد منه عليه الصلاة والسلام، على أن الذي ينطق بالشهادتين، موقنٌ بها قلبه، حتى وإن وقع في المعاصي وكبائر الذنوب، والتي سيحاسب عليها بالطبع، ولكن أصل الإيمان موجوداً في

= فداءك، قال: يا أبا ذر تعال . قال: فمشيت معه ساعة، فقال: إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً، فنضح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً. قال: فمشيت معه ساعة، فقال لي: اجلس ها هنا . قال: فأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال لي: اجلس ها هنا حتى أرجع إليك . قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه. فلبث عني فأطال اللبث، ثم إنني سمعته وهو مقبل وهو يقول: وإن سرق، وإن زنى؟ . قال: فلما جاء لم أصير حتى قلت: يا نبي الله جعلني الله فداءك . من تكلم في جانب الحرة، ما سمعت أحداً يرجع إليك شيئاً؟ قال: ذلك جبريل عليه السلام، عرض لي في جانب الحرة، قال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: يا جبريل، وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم . قال: قلت: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر. صحيح البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً، حديث رقم/5963.

1 - صحيح البخاري، باب الثياب البيض، حديث رقم/5379 .



قلبه وأنه سيدخل الجنة برحمة الله تعالى .

ومن الفتن العظيمة التي وقع فيها الخوارج، وأتوا باباً لم يؤت قبلهم، ولم يكن مقبولاً في المجتمع المسلم، وقابله كل مسلك بالنكار والاستهجان، وقد سعوا إلى ما لم يُسنع إليه قبلهم، وأججوا فتنة عظيمة باستباحتهم دماء المسلمين من أهل الكبائر، وهذا من أعظم الذنوب وأشنعها عند الله .

روى الترمذي في سننه بسنده عن نافع عن ابن عمر، قال: سعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنبر، فنادى بصوت رفيع، فقال: "يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف رحلة قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك" (1).

والخوارج، وللأسف لم يسلم منهم أحد، خرجوا على سيدنا عثمان، فقتلوه، وقاتلوا علياً رضي الله عنه، وجادلهم، وحاورهم، وتاب منهم من تاب ثم قاتل من لم يرجع إلى جادة الصواب، ويرى رضي الله عنه منهم في خطبته المعروفة بالزهراء (2).

2- أما الشيعة فقد خالفوا مخالفة صريحة، وأتبعوا سبيلاً غير سبيل جماعة المسلمين، وما كان عليه السلف الصالح من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث أنزلوا علياً، رضي الله عنه، منزلة لم

1 - سنن الترمذي، باب ما جاء في تعظيم حرمة المؤمن، حديث رقم/1955.

2 - عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 25.

يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أنزله إياها، حيث قدموه على الشيخين الأكبرين أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما .، والمشهور عند عموم الأمة، أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم عدولٌ وقد أتى الله عز وجل عليهم في كتابه، وقد أجمعوا على إمامة أبي بكرٍ رضي الله عنه، وبايعوه، وأقروا له بالفضل، وانقادوا له، وقد بايعه عليٌّ والعباس رضي الله عنهما وأقروا له بالإمامة<sup>(1)</sup>.

وبثبوت إمامة الصديق رضي الله عنه، تثبت إمامة الفاروق عمر رضي الله عنه، لأنه أوصى له، واختاره لها، وفضل الشيخين الأكبرين، لا ينكره إلا منافقٌ، معاندٌ، منكرٌ لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي جاءت بالتواتر على فضلها، منها ما جاء في الصحيحين عن أبي عثمان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة قلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر، فعد رجالاً، فسكتُ مخافة أن يجعلني في آخرهم"<sup>(2)</sup>.

فانظر إلى مكانة، وفضل الشيخين رضي الله عنهما، وعن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجمعين، ثم إن إمامة عثمان رضي الله عنه بعد مقتل عمر رضي الله عنه، لا اختلاف عليها وقد شهدوا له بالفضل والتقوى، ثم إمامة عليٍّ رضي الله عنه، وكان أفضل الصحابة في زمانه، فهذا هو ما ندين الله عز وجل به، وهو معتقد أمة الإسلام، الذين لا

1 - الإبانة لأبي الحسن الأشعري، ص 170.

2 - صحيح البخاري، باب غزوة ذات السلاسل، حديث رقم/4010، صحيح مسلم باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم/4369.

يضرهم من خالفهم، أو افترق عنهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك .  
لكن الشيعة، هداهم الله وأصلحهم، لم يكتفوا بسب الخلفاء من  
الصحابة فقط، بل لا يكاد ينجو منهم إلا قليل، وهؤلاء هم الرافضة  
منهم، الذين استباحوا لعن الصحابة، بل، ويعدون ذلك قربة لله، وبخاصة  
يتقربون بسب الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتبرأ ممن  
يلعنهما<sup>(1)</sup>.

وهم لا يترضون إلا على آل البيت عليهم السلام والرضوان، ونحن  
نؤمن أن محبة آل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - واجبة، ولا يسلم إيمان  
امرئ من دون محبة آل بيت النبي عليه السلام، ولكن لا يوجد مسلم يؤمن  
بالله ورسوله، يرضى أن يسب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،  
بل هذا لا يرضاه آل بيت النبي أنفسهم رضي الله عنهم وأكرمهم وأعزهم"  
قال الإمام النووي: اعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم من فواحش  
المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره، لأنهم مجتهدون في تلك  
الحروب، ومتأولون<sup>(2)</sup>.

وقد قالت طائفة من أهل العلم بكفر الشيعة الرافضة الذين يسبون  
الصحابة<sup>(3)</sup>.

وقد كان موقف الإمام مالك متشددًا من هؤلاء الشيعة الذين

1 - أبو بكر العوفي، الرافضة في سطور، تقرّظ من الشيخ أبو بكر الجزائري،

مكتبة المدينة المنورة، 1410، ص22 .

2 - شرح النووي على صحيح مسلم، ج15 ص158.

3 - تقرّظ للشيخ أبو بكر الجزائري على رسالة الرافضة في سطور، لأبي بكر العوفي،

ص1.

يستحلون سب أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال هشام بن عمار: سمعت مالكاً يقول: من سب أبا بكر وعمر قتل، ومن سب عائشة رضي الله عنها قتل، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(1)</sup>، فمن رماها فقد خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل<sup>(2)</sup>.

3- أما القدرية والمعتزلة، فقد اعتمدوا على عقولهم فضلوا وأضلوا، وقد تبين لنا أن الذي لا يسير في طريق الهدي الرباني، فهو ضالٌّ لا محالة، وقد بلغ الضلال بالمعتزلة إلى أن قالوا: إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها<sup>(3)</sup>.

وهم بهذا يحاولون تأويل بعض النصوص في القرآن والسنة على هواهم، واعتمدوا على حواسهم الظاهرة، زاعمين أنهم سيصلون إلى شيء من كنه الله وصفاته، وبلغ بهم هوسهم بالتكلم في عالم الغيب أن قالوا: إن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أمرٌ لا يوصف الله بالقدرة على دفعه<sup>(4)</sup> وهذا منهج المتكلمين الذين اغتروا بعقولهم، وفسروا القرآن على

1 - سورة النور الآية 17 .

2 - أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله التركي وكامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ج1ص144، وانظر: محمد عبد الله الوهيبي، اعتقاد أهل السنة في الصحابة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1428، ص28 .

3 - ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص95 .

4 - المصدر السابق، ص95.

هواهم، هؤلاء الذين أغوتهم عقولهم فلا يقفون على لفظ الجلالة " الله " في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (1).

مخالفين بذلك موقف أهل السنة والجماعة، أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين يفوضون علم التشابه منه لله عز وجل، فيقفون على اسم الله في الآية، مقررين المعنى الذي ينبغي أن يكون في الآيات المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية، قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله، والراسخون في العلم ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحدٍ فيها إلا تأويل واحد، فانسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح الباطل، ودفع به الكفر، ولذلك قال بعدها: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (2) أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعنى على وجهه أولوا العقول السليمة، والفهوم المستقيمة، وقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عن الراسخين في العلم؟ فقال: من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك

1 - سورة آل عمران الآية 7.

2 - سورة آل عمران الآية 7.

من الراسخين في العلم" (1)، إذا علمنا هذا - فإننا لا نستغرب ما وقع فيه أولئك من التحريف والضلال، بسبب الزيغ في الأهواء، وعدم رد الأمر إلى صاحب الأمر سبحانه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

جاء في شرح عقيدة القيرواني المألوكي، للقاضي عبد الوهاب: إنَّ الله مقدرُّ الآجال، وقد خالف المعتزلة، ومن تبعهم من المبتدعة، فقالوا: إنَّ العبد قد يموت بغير أجله، وأنَّ الله قد يقدر له أجلاً فيُقطع عليه فيموت، مثل أن يقتله أو يأكله سبعٌ، فعندهم أن هذا ميت بغير أجله، وهذا عندنا - أي المألوكية - وعند كافة أهل السنة ضلال وبدعة، وكل ميت بهذا وشبهه فلم يمت إلا بأجله المقدر له، وعمره المؤقت الذي سبق في المعلوم أنه لا يبقى زيادة عليه، وبذلك نطق التنزيل، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (2)، فكل أمرٍ وقت بشيء فهو أجله، وكذلك أجل الإنسان، هو الوقت الذي سبق في علم الباري أنه يموت عنده، لا يتأخر عنه ولا يتقدم (3).

ومن الأحاديث الواردة في القدر، وأنَّ كلَّ شيءٍ عند الله بمقدار، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (4) ما جاء في البخاري عن علي رضي الله عنه قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: (ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا

1 - تفسير ابن كثير، ج 1 ص 361.

2 - سورة الأعراف الآية 34.

3 - شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، للقاضي عبد الوهاب المألوكي، ص 257.

4 - سورة القمر الآية 49.

كتب مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتب: شقية أو سعيدة ) فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: (أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة) ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية<sup>(1)</sup>.

وفيه ردُّ على القدرية الذين يدعون أن - الخير من الله، والشر من الشيطان - ومنهم من قال إن الله عز وجل لا يقدر على شيء من الشر، وإن إبليس يقدر على الخير والشر<sup>(2)</sup>، متناسين قول الله عز وجل ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾<sup>(3)</sup> وقد جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية، كلاماً طيباً كان أغنى أهل القدر من الخوض فيما خاضوا فيه، فقد نقل عن مطرف بن عبد الله قوله: ما تريدون من القدر؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء؟ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ نَفْسِكَ وَاللَّهُ مَا وَكَلُوا إِلَى الْقَدْرِ وَقَدْ أَمَرُوا وَإِلَيْهِ يَصِيرُونَ﴾<sup>(5)</sup> ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا

1 - البخاري كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وعود أصحابه حوله، ج 1

ص 299، حديث رقم 1662.

2 - تلبيس إبليس، للإمام ابن الجوزي، ص 94.

3 - سورة النساء الآية 79.

4 - سورة النساء الآية 78.

5 - تفسير ابن كثير، ج 1 ص 561.

لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا<sup>(1)</sup>.

وتتمة للفائدة نشير إلى الآية في سورة الحديد، رداً على القدرية، الذين يزعمون، أن الإنسان هو الذي يفعل الخير والشر بنفسه، وأن لا إرادة لله تبارك وتعالى في أفعال العباد، تعالى عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾<sup>(2)</sup>.

وقد روي عن منصور بن عبد الرحمن، قال: كنت جالسا مع الحسن فقال رجلٌ: سله عن هذه الآية، فقال سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة، وقال قتادة وبلغنا أنه ليس يصيبه خدش عودٍ، ولا نكبة قدمٍ، ولا خلخال عرقٍ، إلا بذنبٍ وما يعضو الله عنه أكثر" قال ابن كثير رحمه الله وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبهم الله<sup>(3)</sup>.

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "قدر الله المقادير قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة"<sup>(4)</sup>.

وللخلاص من هذه الدوامة التي وضع القدريون أنفسهم فيها، على الإنسان أن يعرف أن الله قد خلق له - قدرة - وإرادة - وتفكيراً - ولكنه لا

1 - سورة النساء الآية 78 .

2 - سورة الحديد الآية 22 .

3 - ورواه سفيان الثوري عن إسماعيل المكي عن الحسن، انظر: تفسير سفيان الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعد بن مسروق الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ، ص 288. وانظر: تفسير ابن كثير، ط 1، ج 4 ص 443، وانظر: مختصر الصابوني لابن كثير، ج 3 ص 454 .

4 - صحيح مسلم بشرح النووي، باب القدر، ج 16 ص 153، سنن الترمذي، ج 4 ص 208.



يقدر إلا على ما أقدره الله عليه، ولا يشاء إلا ما يشاء الله له أن يفعله، فقدره الإنسان تابعة لقدرة الله سبحانه وتعالى، ومشيتته مربوطة بمشيتته وإرادته<sup>(1)</sup>.

4- لقد ضل المرجئة فيما ذهبوا إليه، وخالفوا نصوص الكتاب والسنة، وفي الحقيقة، إن فكرة الإرجاء فكرة خاطئة تضرّ بالمجتمع عامة، وبخاصة الشباب لكونهم سريعي التقبل لهذه الفكرة، لأنها تفتح الباب على مصراعيه لذوي النفوس المريضة، وللذين لم يستضيئوا بنور الإيمان، ولم ينهلوا من النبع الصافي، ولم يسلكوا منهج السلف الأول ولاقتراف الذنوب والانحلال الأخلاقي، والانكباب وراء الشهوات مع كونهم مؤمنين، وكما قال الأستاذ السبحاني: (ولو صحّ ما ادّعتة المرجئة من الإيمان والمعرفة القلبية، والمحبة لإله العالم، لوجب أن تكون لتلك المحبة القلبية مظاهر في الحياة، فإنها رائدة الإنسان ورأسمة حياته، والإنسان أسير الحبّ وسجين العشق، فلو كان عارفاً بالله، محباً له، لاتبّع أوامره ونواهيه، وتجنّب ما يسخطه ويتبع ما يرضيه، فما معنى هذه المحبة للخالق وليس لها أثر في حياة المحب<sup>(2)</sup>).

5- انحرف الجهمية عن الطريق المستقيم، حتى إنهم تجرّءوا وقالوا بخلق القرآن، وهذا زعم باطل، لا يقول به إلا من كان قلبه خالياً من الإيمان، فوقع في حبائل الشيطان، وغرّه هواه فأوقعه وأرداه، والله المستعان.

1 - ابن أحمد الحكمي، مائتي سؤال في العقيدة، تخريج حلمي بن إسماعيل الرشيد، دار العقيدة، الإسكندرية، مصر، 1999م ص157.

2 - جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، دار المعارف بيروت، الطبعة الأولى، 2006م، ص101.

وقد نُقل عن الإمام مالك - رحمه الله - تنكيهه على الذين يقولون بخلق القرآن، فقد كان يقول: كَلَّمَ اللهُ موسى - صلى الله عليه وسلم - تكليماً، ويقول أيضاً: القرآن كلام الله، غير مخلوق، ويستفْظَعُ قول من يقول: القرآن مخلوق، ويقول: من قال القرآن مخلوق، يوجع ضرباً، ويحبس حتى يموت<sup>(1)</sup>.

جاء في الإبانة للإمام أبي الحسن، سأل العباس بن عبد العظيم، أبا عبد الله - أحمد بن حنبلٍ -، فقال: قومٌ هاهنا قد حدّثوا يقولون: القرآن لا مخلوقٌ ولا غير مخلوقٍ، قال: هؤلاء أضُرُّ من الجهمية على الناس، ويلكم فإن لم تقولوا: ليس بمخلوقٍ، فقولوا مخلوق، ثم قال الإمام أحمد: هؤلاء قوم سوء، فقال العباس: فما تقول يا أبا عبد الله! فقال: الذي اعتقده وأذهب إليه، ولا شك فيه، أن القرآن غيرُ مخلوقٍ، ثم قال: سبحان الله، ومن شكَّ في هذا؟!!! .

ثم تكلم مستعظماً الشكَّ في ذلك فقال: سبحان الله أي في هذا شكٌ؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾<sup>(2)</sup> وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾<sup>(3)</sup> ففرق بين الإنسان وبين القرآن، فقال: (عَلَّمَ، خَلَقَ، فجعل يعيدها، عَلَّمَ، خَلَقَ، أي فرَّق بينهما)<sup>(4)</sup>.

1 - الاعتصام للشاطبي ج 1 ص 138، السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل ج 1 ص 107، أما رواية ابن عبد البر: ويحبس "حتى يتوب"، انظر: الانتقاء لابن عبد البر ص 35، وانظر: في العقيدة والمنهج، ص 132 .

2 - سورة الأعراف الآية 54 .

3 - سورة الرحمن الآيات 1 - 3 .

4 - الإبانة عن أصول الديانة ، ص 85 .

ثم أين هؤلاء من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(1)</sup>، ألم يذكر الحق تبارك وتعالى أنه كلامه الذي يقرأ على عباده؟ اسأل أيَّ عربيٍّ عن معنى هذه الآية، وما المقصود بكلام الله، دون الحاجة إلى الخوض فيما يخوض فيه المتكلمون من الجدل، والمرء، والتتطع، والتفهيق، اسأل عوام المسلمين من الذين سلمت فطرتهم، وخلصت سريرتهم، وصفت قلوبهم من ظلمات الشك والشرك - سيقولون لك دون أي تردد، ودون أدنى شك، إنه عنى القرآن الكريم، إنه عنى بذلك كلامه الذي أنزله على عبده ورسوله ومجتابه من خلقه، محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يقل أيُّ واحدٍ من الصحابة غير ذلك، فهي بدعة، قالها من لا بصيرة له ولا دين، وانشغل بمخالفة ما علم من الدين بالضرورة، فضل سواء السبيل، ثم إن القرآن الكريم، فيه أسماء الله عز وجل، فماذا يقولون في أسماء الله؟ هل هي مخلوقة؟ سبحان الله عما يصفون، وتعالى عما يقولون علواً كبيراً " فلا نشك أنه غير مخلوق وأنه كلام الله عز وجل، ولم يزل الله به متكلماً<sup>(2)</sup>.

والقول عند علماء المالكية كما هو مقررٌ عند علماء السلف الأوائل، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، قال ابن أبي زيد القيرواني: ومما يجب اعتقاده أن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد<sup>(3)</sup>.

1 - سورة التوبة الآية 6 .

2 - الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، ص 86 .

3 - العقيدة القيروانية، ص 22 .

وقال العلامة ابن الحاجب المالكى: من زعم أن أصوات القارئ، وحروفه المتقطعة، والأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف، هي نفس كلام الله تعالى القديم، فقد ارتكب بدعة عظيمة، وخالف الضرورة، وسقطت مكالمته في المناظرة فيه، ولا يستقيم أن يقال: إن كلام الله تعالى القديم القائم بذاته، هو الذي جعله الله معجزة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، فإن ذلك يعلم بأدنى نظر، وإذا شاع ذلك، أو سئل عنه العلماء وجب عليهم بيان الحق في ذلك وإظهاره، ويجب على من له الأمر - وفقه الله - أن يأخذ من يعتقد ذلك، ويغري به ضعفاء المسلمين، وزجره، وتأديبه، وحبسه عن مخالطة من يخاف منه إضلاله، إلى أن يظهر توبته عن اعتقاد مثل هذه الخرافات التي تأبها العقول السليمة، والله أعلم (1).

### منهجية مالك في الرد على الفرق :

لقد كان لمالك - رحمه الله - منهجية خاصة في التعامل مع هذه الفرق الضالة، فلم يكن مالك يعدُّ نفسه في المتكلمين، رغم ما كان يتمتع به، من حجة بالغة ورأي سديد، وفطنة لا يختلف عليها اثنان، فلم يكن الإمام بحاجة إلى من يُعرِّفه دوره، في الذود عن حياض الدين، والدفاع عن ثوابت العقيدة، ولكنه - رحمه الله - كانت له سياسة ارتأها في زمنٍ عاشه، هو أدري بظروفه، وما يستقيم أن يكون أنفع للدعوة، وأجدر في إيصال الكلمة، وأولى في تبليغ أحكام الله، وقد علمت أن

1 - محمد عز الدين الغرياني، سلسلة اعتدال التصوف ( الآيات المتشابهة بين التأويل والتفويض والإثبات) مطابع طرابلس، 2001، ص 74 .

مَالِكاً مَرَّ بِخِلَافَتَيْنِ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ وِلَايَاتِ الْإِسْلَامِ، وَدَوْلَتَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ فَتِيَّتَيْنِ، وَكَانَتِ الصَّرَاعَاتُ تَتَوَالَى بَيْنَ الْأَمْرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ، وَقَتْلَ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ مِنْ قَتْلِ، وَنَجَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الدَّخْلِ<sup>(\*)</sup>، فَأَقَامَ دَوْلَتَهُ فِي الْأَنْدَلُسِ، عَلَى مَسْمُوعٍ وَمَرَأَى مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ خَصُومِهِ، وَقَتْلَ مَنْ قَتَلَ بِسَبَبِ هَذِهِ الصَّرَاعَاتِ، وَوَصَلَ الْفَتْكَ وَتَطَاوَلَ الْعَامُ وَالْخَاصُّ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْعَالَمِ مِنْ مَخْرَجٍ وَلَا سَبِيلٍ إِلَّا بِالْحِكْمَةِ الَّتِي يَبْلُغُ بِهَا دَعْوَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فِي حَزْمِ النَّبِيِّ، وَحَنَكَةِ الذِّكْيِ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾<sup>(1)</sup>.

- قال الحميدي: دخل عبدالرحمن الأندلس، فقامت معه اليمانية، وحارب يوسف بن عبدالرحمن الفهري متولي الأندلس، فهزمه، وكان عبدالرحمن من أهل العلم على سيرة جميلة من العدل. وقال أبو المظفر الأبيوردي في أخبار بني أمية: كان الناس يقولون: ملك الأرض ابنا بربريتين يعني: عبدالرحمن والمنصور، وكان المنصور يقول عن عبدالرحمن بن معاوية: ذاك صقر قریش، دخل المغرب وقد قتل قومه، فلم يزل يضرب العدنانية بالقحطانية حتى ملك. وقال سعيد بن عثمان اللغوي المتوفى سنة أربع مئة: كانت بقرطبة جنة اتخذها عبدالرحمن بن معاوية، كان فيها نخلة أدركتها، وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن معاوية: يا نخل أنت غريبة مثلي في الغرب نائية عن الأهل. فابكي وهل تبكي ملمسة عجماء لم تطبع على خبل. لو أنها تبكي إذن لبكت ماء الفرات ومنبت النخل. ولكنها ذهلت وأذهلني بغضي بني العباس عن أهل. وقد ولي على الأندلس عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي في أيام عمر بن عبدالعزيز، فبنى تلك القناطر بقرطبة بقبلي القصر والجامع، وهي ثمانية عشر قوساً، طولها ثمان مئة باع، وعرضها سوى ستائرهما عشرون باعاً، وارتفاعها ستون ذراعاً، وهي من عجائب الدنيا. توفي عبدالرحمن بن معاوية سنة 172 هـ. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج 8 ص 208، والأعلام للزركي ج 3 ص 338، وكذلك: تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم، ج 2 ص 189.
- 1 - سورة البقرة الآية 269.

وقد كان مَالِك - رحمه الله - مضرب الأمثال في هذا، فلم يكن يعطي الدنيَّةَ في دينه، ولم يكن يهادن الأمراء، أو يجامل الوزراء، كما يفعل بعض المرتزقة بالعلم، ولكن مع هذا كانت له الهيبة، وكانت له الحظوة، حتى إنهم يستشيرونه فيما ينزل بهم من ملمات ويستدعونه في المهمَّات، وبلغ الأمر ببعضهم - أن أحالوا إليه - رحمه الله - الفتوى في أمر هذه الفرق وما هو الأنسب في الدين للتعامل مع مثل هؤلاء، وكان مَالِك - رحمه الله - يجيب بالحزم، ولا يقطع أمراً دون أمر الله ورسوله، وكان يحكِّم فيهم القرآن الكريم، ويهتدي في حكمه عليهم بما علِّم من سنة النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ويمكن أن نلخص منهجيته في التعامل مع هذه الفرق بما يلي :

**أولاً: أسلوب الهجر:** والهجر علاجٌ للمبتدع، ولصاحب الهوى لعله يفيق من غيه، وكان الهجر أسلوباً تعامل به مَالِك مع هؤلاء المبتدعة من المتكلمين، الذين يقولون على الله غير الحقِّ، وضلُّوا عن سواء السبيل، فنجد أنه - رحمه الله - استعمله معهم، بأسلوب الاعتزال والتُّرك من باب ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ لعلهم يعودوا إلى رشدهم، ومن ذلك قوله: "أهل الأهواء بسُّ القوم، لا يُسلَّم عليهم - واعتزالهم أحبُّ إليَّ" (1).

فانظر إلى حكمة الإمام مَالِك، وإلى تعبيراته المختصرة، والمعبرة، ذمهم، وحذر منهم، وحثَّ على هجرهم، وذلك بقوله: (واعتزالهم أحبُّ إليَّ)، ولم يبين مَالِك - رحمه الله - أن اعتزال هؤلاء له خاصة، فلم يقل وأني أعتزلهم أحبُّ إليَّ، بل تكلم عن اعتزالهم بالإطلاق، مما يوضِّح أن مَالِكاً

1 - الانتقاء لابن عبد البرِّ، ص 71 .

أراد من الأمة بالكامل أن تعتزلهم وتترك آراءهم، وأن مناقشة هؤلاء من إضاعة الوقت فيما لا طائل منه، لذلك ثبت عنه قوله: "الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر ورأي جهم، وكل ما أشبهه، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في الله فالسكوت عنه، لأنني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين، إلا فيما تحته عمل"<sup>(1)</sup>.

وهذا يفسر ما كان عليه منهجه - رحمه الله - من كثرة التأليف والكتابة، في مسائل العمل، وأمور العبادات، فكثيراً ما نقل عن مالك في هذا، أمّا في الأمور التي تتعلق بالردّ على المتكلمين، والقدرية، فقد كان يمتقّ الحديث في هذا الشأن، لأنه يرى أن هذا مخالفٌ لما كان عليه سلف الأمة، وهذا ما عناه بقوله: (ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر، ورأي جهم) فقد قصد بهذا أهل المدينة، الذين كانوا يكرهون الكلام عن القدرية، والجهمية، الذين يقولون بغير هدى ولا بصيرة، وابتدعوا بدعة الكلام في القدر، وفي أفعال الله، ظانين بذلك أن يحيطوا بها علماً، ولكن هيئات لعقول قاصرة أن تحيط بكنهه وصفاته سبحانه وتعالى، ومن الآثار الدالة على كراهة الإمام مالك للحديث مع الجهمية، والمرجئة، والقدرية وغيرهم، ما رواه معن بن عيسى: "أن مالكاً انصرف يوماً فلحقه رجلٌ يقال له ابن الجويرية، كان يتهم بالإرجاء فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك، وأخبرك برأبي، قال: فإن غلبتني قال: اتبعني، قال: فإن غلبتك قال: أتبعك، قال: فإن جاء رجلٌ فكلمناه فغلبنا، قال: تبغناه، قال أبو عبد الله - يعني مالكاً: بعث الله محمداً بدين واحد،

1 - الانتقاء لابن عبد البر، ص 69 .

وأراك تتنقل . قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التَّنَقُّلُ" (1).

وقصد مالك . رحمه الله .، أن الرجل الذي يدع دينه للمُشَاكَلَاتِ والاحتِجَاجَاتِ، فهذا يحتاج هذا، وذلك ينافع ذلك، وما أن يغلبه بالحجة حتى يترك ما كان عليه من اعتقادٍ في أمورٍ هي من قبيل المسلمات التي يسلم بها للشَّرع، والحجَّة فيها قائمةٌ لله ورسوله، مثل هذا الرجل لا يسلم له دين، ولا يصفوا له معتقد، فالدين لله، ومن صفات المؤمنين أنهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (2) وقال فيهم أيضاً: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (3).

لذلك قال له مالك: " لئن جاء رجلٌ فكلمناه، فغلبنا " وهذا أسلوب تهكُّمي يدلُّ على سذاجة هذا الرجل وخفَّة عقله في التعامل مع أمور الدين، واستهانته بالعقائد التي لم يترك لأحدٍ المجال ليغيِّر فيها ما يشاء، أو يقول ما يوافق هواه، وقد أجاب الإمام عن سؤال الرجل وطلبه، بسؤال بصيغة التَّهكُّم، وقد أراد الإمام أن يجيب الرجل على نفسه . فهذا أمرٌ لم يعتد مالك رحمه الله الخوض فيه . فالدين كله لله والمعنى أنترك ديننا لكل من هبَّ ودبَّ ليغيِّره متى غلبنا بحجته، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (4).

1 . الانتقاء لابن عبد البر، ص 69.

2 . سورة البقرة الآية 3.

3 . سورة البقرة الآية 136.

4 . سورة الأنعام 149.



**ثانياً: أسلوب التحذير:** وقد عُرف عن مَالِك . رحمه الله . تحذيره من أرباب الابتداع الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فأفكارهم المنحرفة أضرت بالأمة، وتطايير شررها ليعمَّ بلاد المسلمين كافةً، فإذا وصل الأمر بالبدعي أنه يريد نشر دعوته وبيث سمومه في الأمة بالدعوة إلى القدرية أو الاعتزال، أو كان من الجهمية أو الخوارج أو غيرهم، ولما رأى الإمام مَالِك . أن أسلوب الهجر لا ينفذ مع بعض هؤلاء المبتدعة . بادر إلى التحذير منهم، أو الاستماع إليهم وإلى آرائهم، بل حتى إنَّه دعا إلى إعادة الصلاة لمن صلى خلف قدريٍّ، أو معتزليٍّ، أو غيره من أهل الأهواء والبدع .

جاء في مدونة سحنون "سئل مَالِك عن الصلاة خلف الإمام القدري ؟ قال إن استيقنت أنه قدريٌّ، فلا تصلِّ خلفه" <sup>(1)</sup> وعلى هذا العمل مع جميع الفرق الضالة التي حرّفت الدين، وغيرته، وقالت على الله بغير هدىً وبصيرة .

وقال ابن رشد الحفيد: "وأما كراهية مالك الصلاة على أهل البدع فذلك لمكان الزجر والعقوبة لهم" <sup>(2)</sup> .

وجاء في مختصر خليل في باب زيارة القبور قوله: ( ولا محكوم بكفره) قال صاحب التاج والإكليل: ( ولا مَحْكُومٌ بِكُفْرِهِ ) قَالَ مَالِك : لا يُصَلَّى على مؤتى القدرية، وقال سحنون: أدباً لهم فإذا خيفَ أن يُضَيَّعُوا غُسلوا وصُلِّيَ عليهم <sup>(3)</sup> .

1 - مدونة مَالِك ، رواية: سحنون، ج1 ص122.

2 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، الملقب بالحفيد، بداية المجتهد، باب فيمن يصلى عليه، ج1 ص240 .

3 - أبو عبد الله محمد بن يوسف المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية بيروت، 1995، ج1 ص397 .

وجاء رجلٌ إلى مالك، فقال يا أبا عبد الله، أسألك عن مسألةٍ أجعلك حجةً فيما بيني وبين الله عز وجل، قال مالك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، سل، قال: من أهل السنة؟ قال: أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يعرفون به، لا جهميٌّ، ولا قدرِيٌّ، ولا رافضيٌّ<sup>(1)</sup>.

فانظر إلى كلام الإمام وتحذيره من هذه المسميات، أو حتى الانتساب لها، وبين رحمه الله أن - أهل السنة والجماعة هم عموم الأمة، من لا اسم له ولا لقب، فالإسلام يجمعهم جميعاً، وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستظلون بظلها الوارف، بعيداً عن الأهواء والضلالات، واتباع الأفكار التي أدت بأهلها إلى المروق من الدين، واتباع غير سبيل المؤمنين، بل، ولقد قال مالك رحمه الله - عن أهل الأهواء ما يعتبر القول الفصل والكلام الواضح الذي يبين مدى تحذيره من زُمر الأهواء والضلالات، فقد قال مالك: "لا يُنكح أهل البدع، ولا يُنكح إليهم، ولا يُسلم عليهم ولا يصلُّ خلفهم، ولا تشهد جنازتهم"<sup>(2)</sup> قولٌ واحدٌ عند مالك لا مجاملة ولا تهاون في مسألة التحذير من هؤلاء، لأنهم كحبة البصل الفاسدة، إن تركت وسط صندوق أفسدته، فكذا أصحاب البدع والأهواء، لو أعطوا فرصةً للاحتكاك بباقي أفراد المجتمع المسلم، وعامة الذين تلتبس عليهم الشبهات، ولا يهتدون بالحجج، لو ترك هؤلاء في أوساط المسلمين يبتشون سُمومهم لأفسدوا وضلُّوا، وأضلُّوا، والله نسأل أن يقي المسلمين الفتن والأهواء.

1. الانتقاء لابن عبد البر، ص 72.

2. مدونة مالك، رواية: سحنون، ج 1 ص 122.

**ثالثاً: أسلوب القصاص :** وهو تبين مَالِك لحكم الله عز وجل في هذه الفرق الضالة ، وهذا غاية ما يستطيعه عالم في مكانة مَالِك ، لتغيير المنكر، في زمانٍ كان يموج بالفتن، وفي بلدٍ يعتبرُ قبلة المسلمين ومنازة السالكون لطلب العلم.

فكان مَالِك يراعي ما للمدينة المنورة من مكانة تتأى بها أن تكون مسرحاً للصراعات بين الطوائف، لذلك كان مَالِك - رحمه الله - عندما يرى أنه ولا بد من تبين حكم الله في هؤلاء الزنادقة، والخوارج المارقين من الدين من القدرية والجهمية وغيرهم، فإنه يبين في الوقت المناسب، حتى تُعلم أحكام الله وتتفد ممن لهم الأمر في ذلك، فكانت له رحمه الله نظرة خاصة في التوقيت المناسب للقضاء على هؤلاء الشراذم بتبين حكم الله فيهم، ولا سيما لولاة الأمر، ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره القاضي عياض: أن رجلاً سأل مَالِكاً - فقال له ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟ قال : زنديق فاقتلوه - فقال يا أبا عبد الله ليس هو كلامي، إنما هو كلام سمعته - قال : لم أسمعته أنا إلا منك<sup>(1)</sup>.

وهذا يدل على فراسة الإمام مَالِك - رحمه الله -، ومقدرته على معرفة الناس من دعاة الفتنة، والنازعين إلى الافتراق، والقول في القرآن بغير ما أنزل الله تعالى، أو أن مَالِكاً، كان يستعمل هذا الأسلوب في الخطاب مع من يسأل في مثل هذه المسائل، مبالغة في التحذير من الخوض فيها، أو حتى السؤال عنها، أو تردادها، فهي بدعة ابتدعت، ولم تكن في الأمة، وأغلب من خاض فيها، ما قالها من نفسه، إنما قيلت له، وأما

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ج 1 ص 94 .

حكمه فيهم فهو قولٌ واحدٌ عند مالك، قد تناقل بصور مختلفة، تارةً يصف أصحاب الفرق الضالة بالكفر، وتارةً يدعوا إلى قتلهم، وكثيراً ما نقل القول عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيهم، ومنه ما نقله الإمام ابن الجوزي<sup>(٩)</sup> في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز، فقد روى عن مالك، عن عمه أبي سهيل، قال سألتني عمر بن عبد العزيز عن القدرية، ما ترى فيها؟ قلت يا أمير المؤمنين، استتبهم فإن تابوا وإلا فاعرضهم على السيف" فقال عمر: ذلك رأيي فيهم<sup>(١٠)</sup>.

• عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله البكري - من ولد الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه - أبو الفرج بن الجوزي البغدادي الحنبلي، الواعظ صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقهاء والوعظ والزهد والتاريخ وغير ذلك. قال الذهبي: كان مبرزاً في التفسير وفي الوعظ وفي التاريخ ومتوسطاً في المذهب، وفي الحديث له اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: تلقيح فهم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار، والأذكياء وأخبارهم ومناقب عمر بن عبد العزيز، وروح الروح، وشدور العقود في تاريخ اليهود، ومؤلفات أخرى كثيرة، ولد سنة 508هـ وقيل: 510هـ وتوفي سنة 597هـ. (انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ص50، والأعلام للزركلي، ج3 ص368).

1 - أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن أبي رمنين المتوفى سنة 399هـ)، رياض الجنة بتخريج أصول السنة، تحقيق: عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، 1415هـ، ص307. وانظر: ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، دار المنار، القاهرة، مصر، ط1، 2000م، ص54.

قال مصعب الزبيري، وابن نافع دخل هارون المسجد، فركع، ثم أتى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أتى مجلس مالك فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته ثم قال لمالك هل لمن سب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الفية حق؟ قال لا، ولا كرامة قال من أين قلت ذلك، قال: قال الله: ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾<sup>(1)</sup> فمن عابهم فهو كافر ولا حق للكافر في الفية واحتج مرة أخرى في ذلك بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾<sup>(2)</sup> الآيات... قال فهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين هاجروا معه، وأنصاره الذين جاءوا من بعده ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا...﴾ الآية، فما عدا هؤلاء فلا حق له فيه<sup>(3)</sup>، قال مالك: أهل الأهواء كلهم كفار، وأسوأهم الروافض<sup>(4)</sup>.

### براءة المالكية من أهل البدع والأهواء :

قد ألصق بعض المتأخرين من المبتدعة، وممن يزعمون أنهم أتباع المذهب المالكي شيئاً من الافتراءات في المذهب المالكي، والتي هي ليست من المالكية في شيء، بل لا تمت للإسلام بصلة، وإنما هي من بدع أهل الأهواء، والمالكية بريئون منها براءة الذئب من دم يوسف، فهي مبتدعات،

1 - سورة محمد الآية 29.

2 - سورة الحشر الآية 8 .

3 - ترتيب المدارك ، ج 1 ص 97 . وانظر: الانتقاء لابن عبد البر ، ص 73 .

4 - ترتيب المدارك ، ج 1 ص 99 .

ومختلفات، وليست من عمل أهل الإسلام، وإنما اخترعها أهل الأهواء ليرضوا شغفهم بالشهوات، ولينتصروا لآرائهم ونحلهم المتزندقة، وهم لا علم لهم بمذهب مالك، وفوق هذا لا أدب لهم ولا أخلاق.

ولقد اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، ومن البدع التي ألصقتها بعض المفتريين على المذهب المالكي، تلك القصائد والشطحات الراقصة التي ينسبها بعض المنتسبين للصوفية كذباً وادعاءً، مما لم يكن عليه العهد بالتصوف في الزمن الأول، والصوفية بريئون منها، فتجدهم ينسبوننا للمذهب المالكي ما برئ منه مالك وتلامذته - رحمهم الله -، وقد مرّ علينا قول مالك في هذه الشطحات، (وأنها ليست من عمل أهل الإسلام)<sup>(1)</sup>.

ومن البدع كذلك التبرك بقبور الأموات والاستغاثة بهم، ودعائهم من دون الله، مما ألفته الشيعة في تعظيم قبور آل البيت، ناهيك عما فيها من مظاهر الشرك، والتوجه لغير الله تعالى، وقد عرف المالكية بشدتهم على البدع وأربابها، وقوتهم في السنة وعدم المهادنة والموادعة، مع المحدثين في الدين ما ليس منه، ومن ذلك ما كان من - جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن جبلة الصديقي، وهو من تلاميذ سحنون وقد عرف - رحمه الله - بشدته على أهل البدع و محاربتة لهم وقوته في ذات الله عز وجل، كان رحمه الله تعالى، لا يماري ولا يداري أحداً في هذا، ولم يرَ أحدٌ أكثر مجاهدة منه للروافض من أهل الأهواء وأشياءهم.

ذكر القاضي عياض أنه - لما ولي ابن عبدون القضاء - وكان عراقي المذهب - جاء إلى القصر الذي فيه جبلة، فخرج إليه أهله فتلقوه إلا أن جبلة

1 - سبق تخريج أقوال مالك في البدعة وأهلها، الفصل الثاني، مبحث: موقف مالك من البدع وأهلها.

لم يخرج لاستقباله ، فقيل له: ابن عبدون يأتيك ليسلم عليك ، فجاءه ابن عبدون حتى وقف على بابه وهو الوالي زمانها فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، وقال له جبلة وهو جالس يخاطب ابن عبدون: ما اسمك؟ قال: محمد ، قال له: يا محمد: إياك إياك أن تقول: القرآن مخلوق<sup>(1)</sup>.

وقد كان موقف مالك والمالكية من بدعة سب الصحابة متشدداً ، يقول محمد بن عبد الحكم من متقدمي الفقهاء المالكية: من سب أبا بكر وعمر أو واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يُصلّى خلفه ، ومن صلى خلفه أعاد أبداً<sup>(2)</sup>.

وممن كان سيفاً مصلتاً في وجوه المبتدعة من الجهمية ، والقدرية ، وغيرهم ، وعرف بزمه الفرق والطوائف المنحرفة - يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن الذي عرف بورعه وعلمه وتمكنه من فقه مالك ، وهو من أشهر من روى الموطأ عنه كان يقول: من قال: (القرآن مخلوق) - فهو كافر، لا يكلم، ولا يجالس، ولا يُناكح، ثم يستشهد بقول سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، بقولهما أن من يقول القرآن مخلوق فهو مبتدع<sup>(3)</sup>.

وتبعهم في هذا الدور العالم البارز، والفارس المقدم، الذي كان له أثر كبير في إحياء السنة، وقمع البدعة، ومحاربة دعاة الفرقة والتشتت في صفوف المسلمين من المعتزلة، والقدرية، والجهمية، وغيرهم، وكان

1 - ترتيب المدارك ، ج3 ص 102 .

2 - أبو عمر ابن عبد البر، اختلاف أقوال مالك وأصحابه ، ج1 ص113.

3 - الانتقاء لابن عبد البر ، ص 112 .

مَالِكِيٌّ<sup>(\*)</sup> المذهب، صنّف لأهل السنة التصانيف العديدة، ولا يختلف على

• أقول: عدّه السبكي في طبقات الشافعية، وذكره في الطبقة الثالثة، غير أن ابن عساكر كان قد أوضح من قبل في كتابه: (تبيين كذب المفتري) فقال: وكان أكثر مناظراته مع الجبائي المعتزلي، وله معه في الظهور عليه مجالس كثيرة، فلما كثرت تواليفه ونصر مذهب السنة وبسطه، تعلق بها أهل السنة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية، فأهل السنة بالمغرب والمشرق بلسانه يتكلمون ويحجته يحتجون، وله من التواليف والتصانيف ما لا يحصى كثرة، وكان ألف في القرآن كتابه الملقب بالمختزن، ذكر لي بعض أصحابنا إنه رأى منه طرفاً وكان بلغ سورة الكهف، وقد انتهى مائة كتاب ولم يترك آية تعلق بها بدعي إلا بطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق وبين المجمل وشرح المشكل ومن وقف على تواليفه رأى أن الله تعالى قد أمده بمواد توفيقه وأقامه لنصرة الحق والذب عن طريقه، وكان في مذهبه مالكيّاً، على مذهب مالك بن أنس - رضي الله عنه - وقد كان ذكر لي بعض من لقيت من الشافعية أنه كان شافعيّاً، حتى لقيت الشيخ الفاضل رافعاً الحمالي الفقيه فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن الأشعري رضي الله عنه كان (مالكيّاً) فنسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتقفه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري لكثرة تواليفه وكثرة قراءة الناس لها ولم يكن هو أول متكلم بلسان أهل السنة إنما جرى على سنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف فزاد المذهب حجةً وبيانا ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة ينسب إلى مالك بن أنس رضي الله عنه ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي، ومالك رضي الله عنه إنما جرى على سنن من كان قبله، وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه زاد المذهب بيانا وبسطاً وحجةً وشرحاً، وألف كتابه الموطأ وما أخذ عنه من الأسمعة والفتاوى فنسب المذهب إليه لكثرة بسطه لها وكلامه فيه، فكذلك أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه لا فرق، وليس له في المذهب أكثر من بسطه. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين ابن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحيد، وعبدالفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1423هـ، ج3 ص347. وكذلك: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1404هـ، ص116.



فضله، الإمام عليُّ أبي الحسن الأشعري، فقد أقام الحجج على إثبات السنن التي نفتها المبتدعة من صفات الله تعالى وقدرته، ورؤيته تعالى للمؤمنين يوم القيامة، وقدم كلامه والرد على من قال أن القرآن مخلوق، وقد كان - رحمه الله - سداً منيعاً وسيفاً مسلولاً في وجه كل بدعي، مقررًا ما أثبتته أهل السنة والجماعة لله تعالى من الصفات التي أثبتها ربنا عز وجل لنفسه، أو وصفها بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - (1).

---

1 - الإبانة عن أصول الديانة ، ص113 - 121. الديباج المذهب لمعرفة أعيان علماء المذهب ص194.

## المبحث الثالث: تأملات في مذهب مالك :

إن المتمعّن في المذهب المالكى ونشأته على يد إمامه، مالك بن أنس الأصبحي، ومن بعده تلامذته الذين اهتموا بكتابة التصانيف المتنوعة، في مختلف العلوم الشرعية، يجد أن - المذهب المالكى كغيره من مذاهب السنة والجماعة في الرجوع إلى النصوص الشرعية، والتلقّي للآراء والفتاوى على طريقة فهم السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين -، ولم يزعم أي واحد من المذاهب السنية، أن له رؤيةً مخالفةً لما عليه سلف هذه الأمة، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، غير أنه من قبيل الإنصاف لعلماء المذاهب السنية - رحمهم الله - وقدس أرواحهم، ومن قبيل الوفاء أيضاً أن نذكر لهم فضلهم في إثراء وإحياء العلوم الإسلامية، فلولا ما متعهم الله به من همّةٍ عاليةٍ ما كان لهذه العلوم أن تقوم - كعلوم الحديث، والأصول، ومصطلحاتها، فقد كانوا هم المحرك لعجلة العلم في القرون الأولى من عهد تطور العلوم الإسلامية، من عهد الخلافة الراشدة وبداية التدوين، وحتى العهد الذي استقرت فيه العلوم ودونت، وصنفت فيه المصنفات، في العهد الأموي، والعباسي - كالمدارس الفقهية التي قامت عليها المذاهب من تتبع للنصوص ورجوع لفهم الصحابة رضوان الله عليهم، واستخلاص للفتاوى، واستنباطها، واستقرائها، وردّها إلى أدلتها<sup>(1)</sup> ومن ثمرات ذلك، هذه العلوم التي نراها اليوم .

ولقد كان للفقه المالكى عظيم الأثر في إذكاء ملكة التأليف، لما

1 - سيد محمد موسى ، الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه ، رسالة دكتوراه في أصول الفقه دار الكتب الحديثة ، مصر ، 1973م ، ص 45 .

تطلّع به من كثرة المريدين والشغوفين بعلم مالك - رحمه الله - ، فمنذ القرن الثاني الهجري والمذهب يتطور ويترقى في مدارس الفقه وعلومه، ولا تكاد تجد عالماً من علوم الشريعة إلا والبصمة المألكية منقوشة على بابه، وكيف لا يكون ذلك، والفقه فقه أهل المدينة، والعلم كانت رئاسته لإمامها - مالك بن أنس رحمه الله - وسنأتي على ذكر بعض المشاهير ممن أنفوا في المذهب المألكي، مع إدراكنا أن الإحاطة بهم أمرٌ صعبٌ جداً لكثرتهم، ولتفرقهم في الأمصار .

ومن أشهر علماء المألكية الذين نرى أنه لزاماً علينا أن نذكرهم بين يدي بحثنا، لما لهم من قدرٍ كبيرٍ وهممةٍ عاليةٍ، وسأكتفي بذكر بعض من لم أتناول الترجمة له من قبل وذلك حتى لا نقع في التكرار. وممن كانت له مكانةٌ في فقه - مالك - ساهمت في إثراء المذهب وانتشاره، ويعتبر من أعلامه وهم :

1- عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة: وكنيته أبو عبد الله، الزاهد العابد الفقيه العلامة، صحب مالكاً عشرين سنةً، ويذكر أنه عمّر بعد مالك اثنتي عشرة سنة، غلب على فقهه الرأي، وكان مقللاً لا يتصدر للفتوى عن تواضع فيه، روايته للموطأ من أصح الروايات، واعتمد عليه سحنون في مدونته، فقد صحح له الأقوال المنقولة عن مالك، وصوّب له المرويّات، والمسائل التي نقلها ابن الفرات عن مالك، سئل عنه أبو زرعة فقال: عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، مصريٌّ ثقةٌ، ولد - رحمه الله - سنة 128هـ، وتوفي بمصر سنة 191هـ فرحمه الله رحمةً واسعةً<sup>(1)</sup>.

1 - الانتقاء ، ص95. وانظر: طبقات الفقهاء ، ص150.

2- علي بن زياد التونسي العبسي: وقيل الطرابلسي، وهو أول من نشر الموطأ في المغرب العربي، ومن تلامذته أسد بن الفرات، والإمام البهلول بن راشد، وكنيته أبو الحسن، وهو من أخص تلاميذ مالك، ومن الطبقة الأولى من أهل أفريقية<sup>(1)</sup> روى عن مالك الموطأ، وبعض الكتب الأخرى، في النكاح، والطلاق، والبيوع، ونقل عن الثوري، والليث بن سعد، ويعتبر بن زياد معلم سحنون الفقه، وكان أهل القيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد، وقال سحنون: ما أنجبت أفريقية مثل علي بن زياد، لما تميز به من علم واسع بفقه مالك، وكيف لا يكون كذلك، وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب الأقصى، توفي - رحمه الله - سنة 183هـ<sup>(2)</sup>.

3- عبد الله بن وهب: من كبار المصنفين في المذهب، ومن أساتذته، أخذ العلم عن مالك، والمغيرة، والليث بن سعد، وقد كانت له الحظوة في تصنيف الموطأ الكبير، والموطأ الصغير، وكان مالك إذا كتب إليه يقول: "إلى أبي محمد المفتي" وقال عنه أيضاً: "عبد الله بن وهب إمام" ومما تناقله أهل السير عنه أنه كان أكبر من عبد الرحمن بن القاسم، وقد نقل الرواية عن الليث بن سعد، وعن ابن الماجشون، وله روايات في صحيح البخاري، وقد روى عنه جماعة منهم سحنون، وأسد بن الفرات،

1 - الطاهر الزاوي، الجواهر الإكليلية في أعيان ليبيا من المالكية، جمع: محمد الشريف، دار البراق، عمان، الأردن، 1999م.

2 - برهان الدين ابن فرحون المالكي، الدباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، طبعة قديمة، بهامشها الابتهاج بتطريز الدباج، للتبكي، ص193. وانظر: شجرة النور الزكية، ص60.

ولد - رحمه الله - سنة 128 هـ وتوفي سنة 191 هـ.<sup>(1)</sup>

4- أشهب بن عبد العزيز الجعدي: ويكنى أبا عمر، تفقه على يد مالك، وعرف عنه نباهته وعلمه، قال الشافعي ما رأيت أفقه من أشهب ولم يكن ينافس ابن القاسم في علمه وفطنته أحد كأشهب، وقد ترأس القضاء بمصر بعد ابن القاسم، وله كتاب في الفقه رواه عنه سعيد بن حسان وغيره، وقد قال عنه الشافعي أيضاً: أفقه أصحاب مالك المصريين أشهب، "وأفقه أصحاب مالك المدنيين ابن دينار"، ولد رحمه الله سنة 150 هـ، وتوفي سنة 204 هـ بعد وفاة الشافعي بثمانية عشر يوماً<sup>(2)</sup>.

5- المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي: كانت روايته لمالك عن أبيه، وصفه ابن أبي حاتم أنه فقيه أهل المدينة، وقال أبو عمر: كان مدار الفتوى في المدينة في آخر أيام مالك، ومن بعده على ثلاثة - على المغيرة، وابن الماجشون، ومحمد بن إبراهيم بن دينار" كما نقل عنه، بن وهب، وابن عمارة المدني، وأبو صعب الزهري، مات - رحمه الله - بعد وفاة مالك بسبع سنين<sup>(3)</sup>.

### تدوين المذهب المالكي :

ابتدأ تدوين المذهب المالكي من مالك نفسه، حيث كتب الموطأ الذي يعتبر هو عمدة أصول المذهب، والموطأ أشهر من أن يعرف، وكان الموطأ في أول الأمر من عشرة آلاف حديث، وهو ما عرف ب(الموطأ

1 - شجرة النور الزكية ، ص58، طبقات الفقهاء ، ص150 .

2 - طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص150. وانظر: الانتقاء ، ص99 .

3 - ترتيب المدارك ، ج2 ص 82. وانظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص 146 .

الكبير)، ثم صار مالك يخفضها وينقحها، حتى وصلت في آخر عمره إلى ألف ونيّف<sup>(1)</sup> ويعتبره بعض أهل العلم من أول مادون في السنّة والحديث<sup>(2)</sup> على الهيئة التي عرفت بها كتب الحديث والمسانيد منذ شرع في التصنيف في الزمان الأول، ثم توالى التصنيف والمؤلفات في المذهب المالكي، ويعتبر - علي بن زياد - أول من كتب في مسائل الفقه والفتاوى التي تكلم بها مالك<sup>(3)</sup>، ثم مدونة الإمام مالك، التي جمعها سحنون بن سعيد من فتاوى مالك - نقلاً عن ابن القاسم - ثم توالى التأليف في المذهب .

### تطور المذهب المالكي في شمال أفريقيا والمغرب :

لقد حظي المذهب المالكي في المغرب العربي، وفي شمال أفريقيا باهتمام بالغ، وقد كان له أثر كبير في المحافظة على السنة، والتمسك بالأصول الإسلامية المبنية على النصوص، ولهذا لم يكن للفرق الضالة في المغرب العربي، وشمال أفريقيا أي تأثير يذكر، وذلك لما للمذهب المالكي من رسوخ قدم في هذه البقعة من بلاد الإسلام، نظراً لشُيوعه وكثرة حفاظه، والمصنّفين فيه، وظهور مدارس فقهية فيه، كمدرسة القيروان في تونس، والأزهر الشريف في مصر، وكلتا المدرستين كانت تعنى بالمذهب المالكي، كما وقد أسهم اتساع الرقعة التي اعتمده حتى شملت أجزاء من وسط القارة، كتشاد، والنيجر، ونيجيريا، ومالي، وموريتانيا،

1 - مالك بن أنس، لعبدالحليم الجندي، ص 187.

2 - مالك حياته وعصره، لابن زهرة، ص 214.

3 - عز الدين بن زغبية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، العدد الرابع

عشر، 1997م، ص 40 .

وغيرها.

ولقد كان لعلماء القيروان الأوائل فضلٌ في إثراء المذهب المالكي . كأمثال (سحنون بن سعيد - صاحب المدونة الشهيرة في الفقه المالكي، وابن أبي زيد القيرواني - الملقب بمالك الصغير، والعلامة خليل بن إسحاق المالكي - صاحب المختصر الذي لم يزل كتابه المعول عليه في الفتوى في المغرب) (1).

ولقد كان لجهود علماء المغرب، والاندلس، وفي مصر كذلك، ثمرتها في نشر المذهب المالكي، ومن أهم المؤلفات في الفقه المالكي وأصوله على أيديهم ما يلي :

#### المختلطة لعبد الرحمن ابن القاسم (128/191هـ):

تعتبر المختلطة من أول ما دُون في المذهب من الكتب، وقصة المختلطة كما ذكرها القاضي عياض، في كتابه ترتيب المدارك، كما يلي:

قال أسد بن الفرات: كنت أكتب الأسئلة بالليل في فنداق (صحيفة) من أسئلة العراقيين، على قياس قول مالك، وأغدو على ابن القاسم فأسأله عنها، فربما اختلفنا فتناظرنا على قياس قول مالك فيها، فأرجع إلى قوله أو يرجع إلى قولي، ومما يؤكد كثرة المناظرات الدائرة بينهما، ما رواه أسد أيضا قال: قال لي ابن القاسم، كنت أختم في اليوم والليله ختمتين، فقد نزلت لك عن واحدة رغبة في إحياء العلم (2).

1 - عز الدين زغبية، ص40.

2 - ترتيب المدارك، ج3 ص297 .

وكان ابن القاسم يجيب أسداً بما حفظه عن مالك، وما شك فيه يجيب بقوله: أخال وأحسب وأظن، فاجتمع من تلك الأجوبة كتاب يسمى - الأسدية - رجع به أسد إلى بلده إفريقية، يُدرّسه وينشره بين الناس، ولكنه كان يميل في تدريسه إلى فقه أهل العراق ويقدمه في ذكر المسائل الفقهية، لهذا كان الطلبة ينبهونه إذا أغفل فقه مالك قائلين: أوقد القنديل الثاني - يقصدون مالكاً<sup>(1)</sup>.

طلب محمد ابن سحنون التتوخي (256/202هـ) من أسد أن يعطيه المختلطة ليقوم بنسخها، وحاول ذلك ابتداءً هو ومحمد بن رشد، فلما سمع بذلك أسد بخل بها، ولم يعطها لهم، وتردد في ذلك، ولكن سحنون تحيّل وألح عليه حتى أتم نسخها.

ويحكى في كتاب - نور البصر - لأحمد بن عبد العزيز الهلالي - أن سحنوناً بات عند أسد في ليلة هو وأصحابه، فلم يبيزغ صباح ذلك اليوم حتى أتموا نسخها، ثم بعد أن فرغ من كتابتها، ذهب بها سحنون إلى ابن القاسم سنة 191هـ، وقد تفقه في علم مالك ومعه الأسدية، فلما عرضها على ابن القاسم، صحح وعدل فيها أشياء كثيرة.

كما أن سحنون، هذبها، وبوبها، بعد أن كانت مختلطة الأبواب، وألحق فيها من آراء أصحاب مالك ما اختاره، وعنون لأبوابها بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، إما من روايته، أو من موطأ ابن وهب، أو غيره، بينما بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فسميت (بالمختلطة)، ثم إن ابن القاسم كتب لأسد بأن يعرض كتابه على ما عند سحنون ليراجع ما روي عنه ويعدل ما تغير، لكن أسد رفض ذلك، قال

1 - ترتيب المدارك، ج 3 ص 298.



الخطاب في مواهب الجليل، فيقال: أن ابن القاسم دعا أن لا يبارك له فيها، فهي مرفوضة إلى اليوم، وهكذا اشتهرت المدونة، وخفي أثر المختلطة، أو الأسدية، ولم يبق لهما ذكر إلا في روايات تدوين كتاب المدونة<sup>(1)</sup>.

والمدونة التي بين أيدينا اليوم ما هي إلا أقوال ابن القاسم في (المختلطة)، بعد أن هدبها سحنون ورتبها وبوب لها<sup>(2)</sup>.

وتعتبر المدونة وهي رواية سحنون بن سعيد التتوخي، عن محمد ابن القاسم، العمدة في المذهب، والمعول عليها بعد الموطأ في استقصاء آراء مالك، حيث أن الأمهات في مذهب مالك أربعة، وهي:

1 - المدونة. 2 - الواضحة. 3 - العتبية. 4 - المؤازية، ويضيفون إلى الأمهات: المختلطة، والمجموعة، والمبسوطة، فيصبح المجموع سبعة<sup>(3)</sup>.  
ويضيف بعض علماء المالكية المعاصرين، فيقول: إن سحنوناً قد عني في جمع الفقه المالكي الذي حصّله من أسد بن الفرات، وعرضه على ابن القاسم فصحّحه، وهدّبه، ثم بدأ في تدوين الفقه، وتوفّي قبل أن يكمل ترتيبها، فما رتبها صار هو المعروف بمدونة سحنون، وما بقي على حاله من كلام ابن القاسم فهو المختلطة<sup>(4)</sup>.

1 - مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ج 1 ص 65 .

2 - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، التتبيكي، أبو القاسم أحمد بن أحمد عرفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 212 .

3 - اصطلاح المذهب عند المالكية محمد إبراهيم أحمد علي دبي 2000م، ص 117 .

4 - محمد المختار محمد المامي، رسالة ماجستير، بعنوان ( المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته - خصائصه وسماته)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1993م، ص 188 .

ولقد اعتمد القيروانيون في المغرب، على المدونة، كما عني بها واتفق عليها أهل الأندلس، فصارت تدرس في مدارس المألكية الثلاثة: (المصرية وهي منشؤها، والقيروانية بلاد سحنون، والأندلس)، حتى أن أهلها كانوا لا يوالون حاكماً إلا بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم، لكونه أصح من يروي عن مالك، وهي قد ضمت جهود ثلاثة من كبار علماء الإسلام، مالك بإجاباته، وابن القاسم بقياساته، وسحنون بتتسيقه، وتهذيبه، وتبويبه، وبعض إضافاته<sup>(1)</sup>.

والمدونة كتاب فقه حاوٍ وشاملٍ على كل ما في المذهب من أحكام، تتعلق بالعبادات والمعاملات، وكل ما ألف من بعدها من كتب في الفقه المألكي إنما هو يستنبط من المدونة، ويرجع إليها، فهي تعتبر بحق عمدة الفقه المألكي .

ضمّت المدونة بين دفتيها حوالي (36000 مسألة)، وقد ألف فيها عدة شروح واختصارات، منها كتاب: (الجامع لمسائل المدونة، والأمهات: لأبي بكر محمد بن عبدالله بن يونس)، وأيضاً (مختصر المدونة: لأبي مروان بن مالك) وكذلك (التعليق على المدونة: لأبن الصائغ أبي محمد بن عبد الحميد القيرواني) وغيرها من الشروح والتعليقات، ولم يحظ كتاب من الدواوين السبعة بالاهتمام وكثرة المؤلفين فيه، بمثل ما حظيت المدونة<sup>(2)</sup>.

1 . اصطلاح المذهب عند المألكية، ص 120 .

2 . الديباج المذهب، ج 2 ص 208 .

**الواضحة: لعبد الملك بن حبيب بن سليمان السُّلمي (174/238هـ)**  
وهي من أهم الكتب التي ألفت في مذهب الإمام مالك وفقهه،  
وتسمى: (الواضحة في الفقه والسُّنن)، وتسمى أيضاً: (الواضحة  
والسَّماع)<sup>(1)</sup>، وهي لعبد الملك بن حبيب السُّلمي، وقد ألف ابن حبيب كتباً  
كثيرةً حسناً وكانت الواضحة من أجلها وأعظمها، وكان منهجه في  
الواضحة أنه يأتي بالترجمة للراوي، ثم يورد الأحاديث بسندها، ثم يقول  
بعد ذلك قال عبد الملك - ويقصد نفسه - فيبتدئ بشرح الألفاظ، الواردة في  
الحديث الذي يورده، كما يذكر مثلاً في سنن الوضوء فيقول: حدثني  
عبد الملك ويورد السند .. قال كنت مع عمر بن يحيى المازني جالساً بفناء  
داره، فدعا بوضوء، وقال لي: احفظ فإنني رأيت رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - توضأ هكذا.. الحديث).

ثم يقول: قال عبد الملك: ومن الوضوء مفروض ومسنون، فمفروضه  
قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ إلى قوله ﴿الْكَعْبِينَ﴾ فهذا  
الوضوء المفروض الذي لا تُجزئ الصلاة إلا به .  
وسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذلك: المضمضة  
والاستنشاق، ومسح الأذنين ... وهكذا).

ويعتبر كتاب الواضحة من أهم الكتب الفقهية في القرنين الثالث،  
والرابع، وقد حضي هذا الكتاب بمزية خاصة في بلاد الأندلس<sup>(2)</sup>.

1 - ميكلوش موراني، جامعة بون (ألمانيا)، دراسات في مصادر الفقه الإسلامي،  
ترجمه للعربية - الدكتور عمر صابر عبد الجليل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة  
الأولى، 1988م، بيروت، ص154 .

2 - محمد إبراهيم أحمد علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث، الإمارات  
2000م، ص115.

ويُعد السُّلَمي مؤلف الواضحة، أحد أكبر من مثَّلوا اتجاه ما يمكن أن نسميه مدنيُّ في داخل المَالِكِيَّة الأندلسية، بمنهج المَالِكِيَّة المصرية، ونعني أن الجيل الأول من المَالِكِيَّة الأندلسية، كانوا يعتمدون في علمهم على شيوخهم المصريين من تلامذة مَالِك بن أنس، من أمثال عبد الرحمن ابن القاسم، وعبد الله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيز، وكذلك كان هذا في الجيل التالي كأمثال: أصبغ بن الفرغ، والحارث بن مسكين، وابن عبد الحكم، وظل هذا هو الاتجاه الغالب على المَالِكِيَّة ليس في الأندلس فحسب، بل حتى على مَالِكِيَّة المغاربة في تونس، ثم كان هنالك ردة فعل من أجل العودة إلى مَالِكِيَّة المدينة، باعتبارهم الأصل<sup>(1)</sup>.

وتتميز الواضحة كذلك بالرجوع إلى آراء مَالِك، إلا أن المؤلف لم يهمل آراء معاصريه فيشير إليها كلما دعت الحاجة لذلك.

والواضحة كذلك علاوة عن أنها تحوي الأقوال المأثورة عند المَالِكِيَّة الأوائل، فهي تحوي أيضاً شروح وآراء المؤلف ابن حبيب السُّلَمي، وهي تعتبر آراء مُكَمَّلة لآراء مَالِك.

ولقد ظلت الواضحة مرجعاً فقهياً لا ينافس في الأندلس، حتى غلبت عليها بعد حين من الدهر العتبية، أو المستخرجة، وبقيت الواضحة مع ذلك من الأصول والأمهات، مثل المدونة لسحنون<sup>(2)</sup>.

1 - محمد إبراهيم أحمد علي، اصطلاح المذهب عند المَالِكِيَّة، ص 116.

2 - ندوة مَالِك إمام دار الهجرة، فاس بالمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

**المَوْأَزِيَّةُ : لمحمد بن إبراهيم بن المَوْأَز (269/180 هـ).**

عُرِفَتِ المَوْأَزِيَّةُ بِأَنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ مَا كَتَبَهُ المَالِكِيَّةُ الأَوَائِلُ، قَالَ عَنْهَا القَاضِي عِيَاضُ: هِيَ أَجْلُ كِتَابِ أَلْفِهِ قَدَمَاءِ المَالِكِيَّةِ، وَأَصْحَاهَا وَأَبْسَطُهَا كَلَامًا، وَأَوْعِبَاهَا، وَذَكَرَهَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، وَرَجَّحَهَا عَلَى الأَمَهَاتِ، وَقَالَ: لِأَنَّ صَاحِبَهَا قَصَدَ إِلَى بِنَاءِ فُرُوعِ المَذْهَبِ فِي تَصْنِيفِهَا، وَغَيْرِهِ إِنَّمَا قَصَدَ جَمْعَ الرِوَايَاتِ، وَنَقَلَ مَقْصُورَ السَّمَاعَاتِ<sup>(1)</sup>.

وَلِلْمَوْأَزِيَّةِ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ، وَمِمَّنْ رَوَى المَوْأَزِيَّةَ - مَحْمُودُ بِنِ الحَكَمِ بِنِ المَنْذَرِ الأَسَدِيِّ المِتُوفَى سَنَةَ 349هـ، الَّذِي كَانَ لَهُ الفَضْلُ فِي نَشْرِ المَوْأَزِيَّةِ فِي الأَنْدَلُسِ، وَقِيلَ إِنَّهُ نَقَلَ المَوْأَزِيَّةَ عَنِ رَجُلٍ يَسْمَى، عَمْرُ بْنُ أَحْمَدَ بِنِ دَاوُودَ، فِي الإسْكَنَدَرِيَّةِ، مَسْقُطَ رَأْسِ ابْنِ المَوْأَزِ<sup>(2)</sup>.

أَصْبَحَتِ المَوْأَزِيَّةُ فِي القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ، أَحَدَ أَشْهُرِ وَأَكْبَرِ كُتُبِ الفِئَةِ فِي شَمَالِ أَفْرِيقِيَا، حَيْثُ ضَمَّتْ كُلَّ المَسَائِلِ العُويصَةِ فِي الفِئَةِ المَالِكِيَّةِ، فَضلاً عَنِ اهْتِمَامِهَا بِفُرُوعِ الفِئَةِ المَالِكِيَّةِ<sup>(3)</sup>.

**الرِسَالَةُ: لِابْنِ أَبِي زَيْدِ القَيْرَوَانِيِّ (386/316هـ)<sup>(4)</sup>**

وَعَرَفَتِ الرِسَالَةُ كَذَلِكَ بِبَاكُورَةِ السَّعْدِ، أَوْ زَيْدَةِ المَذْهَبِ<sup>(5)</sup>

1 - تَرْتِيبُ المَدَارِكِ، ج 2 ص 73-74 .

2 - مِيكَلُوشُ مِورَانِي، دَرَاثَاتٌ فِي مَصَادِرِ الفِئَةِ الإسْلَامِيَّةِ، ص 151 .

3 - المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 154 .

4 - هُوَ عِبْدُ اللّهِ بِنُ عِبْدِ الرَّحْمَنِ، وَقِيلَ عِبْدُ اللّهِ بِنُ بِلَالٍ، وَأَبُو زَيْدٍ لَقِبَ فِي أَبِيهِ، المَلْقَبُ بِمَالِكِ الصَّغِيرِ لِمَهَارَتِهِ فِي المَذْهَبِ، وَلَفَقَهُهُ وَلَعَلَّمَهُ، وَيَعْرِفُ بَعْلُو سَنَدِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَرُوي عَنِ سَحْنُونِ بِنِ الوَاسِطَةِ، وَعَنِ ابْنِ القَاسِمِ بِنِ الوَاسِطَتَيْنِ، وَعَنِ مَالِكِ بِنِ ثَلَاثِ، وَعَرَفَ عَنْهُ دِيانَتَهُ وَوَرَعَهُ وَاشْتَهَرَ كَذَلِكَ بِمَا مِنَ اللّهِ عَلَيْهِ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَبِذَلِكَ الِيدِ وَوُلِدَ سَنَةَ 316 هـ، وَتُوفِيَ سَنَةَ 386هـ، (الفِوَاكِهِ الدُّونِيَّةِ، ج 1 ص 10).

5 - الفِوَاكِهِ الدُّونِيَّةِ، لِأَحْمَدَ غَنِيمِ المَالِكِيِّ الأَزْهَرِيِّ، ج 1 ص 2.

والرسالةُ مذكورةٌ لطيفةٌ جمعت لبَّ المذهب المألّكي على نحو لم تسبق إليه، ويذكر أن العلامة بن أبي زيد كتبها وعمره سبعة عشر سنةً، بطلبٍ من شيخه، للاستعانة بها في تعليم الأولاد، والتلامذة، والمبتدئين<sup>(1)</sup>. وبناءً على ما قرره مشائخنا وعلمائنا فإنه لا يدرس متن خليل في الفقه المألّكي إلا بعد إجادة الرسالة والإمام بها، لما فيها من سهولةٍ وما لمتنها من لطافةٍ<sup>(2)</sup>، وابن أبي زيد، من أعلم أهل زمانه بفقه مألّك، قال أبو إسحاق الشيرازي: وإليه انتهت الرئاسة في الفقه، وكان يسمى بمألّك الصغير<sup>(3)</sup>.

1 - عز الدين بن زغبية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ص41.

2 - دروس للشيخ عيسى بن بلقاسم الفاخري المألّكي الأزهري، ولد الشيخ عيسى سنة 1904م، وكفّ بصره وهو ابن خمس سنين، حفظ القرآن الكريم في الصغر ثم أرسله والده إلى الأزهر الشريف بمصر ليتلقى العلم والفقه فيها وهو ابن سبعة عشر سنة، مكث فيها أكثر من عشرين سنةً، تحصل على الشهادة العالية من كلية الشريعة بالأزهر الشريف - سنة 1940م، كان أستاذاً في الجامعة الإسلامية بالبيضاء، درّس فيها الشاطبية في علم القراءات، وشرح بن عقيل على ألفية بن مألّك في اللغة العربية، ويعتبر الشيخ عيسى الفاخري أحد علماء الفقه المألّكي في ليبيا إلى جانب اللغة العربية وعلم القراءات والأنساب، هذا وقد جلس الشيخ عيسى الفاخري للعلم والفتوى والفض بين المتخصصين، في إجابيا لأكثر من 50 عاماً، توفي 1999م إثر مرض ألمّ به، عن عمر ناهز 95 عاماً، ويوجد في مدينته منارةً باسمه يحفظ فيها القرآن، على طريقة الكتّاب القديمة، رحم الله الشيخ رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيح جنانه، أنظر: نماذج في الظل، علي مصطفى المصراتي، 1978م. (انظر: الشيخ عيسى الفاخري حياته ومنهجه، سالم رحيل).

3 - طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص160.

وللرسالة عدد لا يحصى من النسخ المخطوطة، وقد طبعت عدة مرات في فاس بالمغرب، سنة 1296هـ، وفي القاهرة، في مصر سنة 1338هـ، ثم توالى طباعتها بعد ذلك، وترجمت كذلك للغة الإنجليزية، والفرنسية، وقد عدَّ بعض العلماء والباحثين الشروح التي استخرجت على الرسالة سنة 1847م، بأكثر من ثمانية وعشرين شرحاً<sup>(1)</sup>.

### التبصرة: لأبي الحسن اللخمي المتوفى سنة 478هـ

كتاب التبصرة، للعلامة اللخمي، وصفت بأنها كتابٌ قيم، لخص فيه الإمام اللخمي تعليقاتٍ مفيدةً حسنةً على المدونة، ويوصف الإمام اللخمي - عليه رحمة الله - بالعلم الواسع بحيث توسع في المذهب، وجدد فيه بآراء لم تكن قد عرفت من قبل، ولكنها مع هذا لم تكن مخالفةً لأصول المذهب المالكي، وقد كانت له اختيارات حسنة على مختصر خليل، وصفها الشيخ الشيباني - بأن أكثرها مما هو مشهور في المذهب<sup>(2)</sup>. ومما أخذ به بعض المالكية على اللخمي، على الرغم من سعة ما في التبصرة من العلم، أنه خالف مالكاً في بعض المسائل، حتى إن بعض المالكية أنشد:

لقد مرَّق قلبي سهام جفونها      كما مزق اللخمي مذهب مالك<sup>(3)</sup>

وقد كان بعض علماء إفريقية لا يستجيزون الفتوى من التبصرة، لما فيها من مخالفة للمذهب المالكي، وعلى الرغم مما قيل في اللخمي،

1 - شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، ص 33 .

2 - انظر مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد 1997م، ص 52 .

3 - المذهب المالكي، محمد المامي، ص 207 .

وكتابه التبصرة، إلا أنه كتابٌ مشهور، معتمد عند المالكية<sup>(1)</sup>.  
 مختصر خليل بن إسحاق (ت776هـ): يعتبر العلامة: خليل بن إسحاق  
 الجندي، من المؤلفين المشهورين في فقه مالك، ومن أشهر مصنفاته  
 المختصر، الذي صار يعرف به حيث اشتهر ب(بمختصر خليل) عرض فيه  
 إلى المشهور من المذهب المالكي، في مختلف مسائل الفقه، وقال فيه  
 صاحب: (الديباج المذهب، بن فرحون) قصد فيه إلى بيان المشهور، مجرداً  
 عن الخلاف، وجمع فيه فروعاً كثيرة جداً، مع الإيجاز البليغ<sup>(2)</sup>.  
 ولقد اهتم الناس به مشرقاً ومغرباً، وتركوا ما سواه من كتب  
 الفقه المالكي، ولم تضاهه إلا (الرسالة لابن أبي زيد القيرواني).  
 ولم يحظ كتابٌ بعد الموطأ والمدونة، بمثل ما حظي به مختصر  
 الشيخ خليل، من الاهتمام، والتقدير، والاعتماد، تدريساً وفتوى وقضاءً،  
 منذ ظهوره وانتشاره إلى وقتنا هذا<sup>(3)</sup>.

ومما أكسبه هذه الشهرة تجريده للمسائل الخلافية، واقتصاره  
 على ما اشتهر في المذهب، وكذلك تحريه ودقته حيث يقال أنه أفني في  
 تأليفه خمساً وعشرين سنة، حيث صدر مقدمته بقوله: (سألني جماعة أبان  
 الله لي ولهم معالم التحقيق، مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس  
 رحمه الله تعالى، مبيناً لما به الفتوى...)، وقد اعتمد - رحمه الله - على  
 المدونة ورجع إلى شروحاتها المهمة، وقد اعتمد في ذلك على كبار  
 المالكية، كاللخمي، وابن يونس، وابن رشد، والمازري، وإذا أراد أن يشير

1 - الديباج المذهب، ج2 ص104 - 105 .

2 - المصدر السابق، ج1 ص358 .

3 - اصطلاح المذهب عند المالكية، ص565 .



إلى المدونة فإنه يقول: (فيها) أي في المدونة، فإذا قال بـ(الاختيار) فإنما يريد اللّخمي، لأن هذا ما اختاره هو، أما إذا أراد أن يشير إلى قول ابن يونس فإنه يقول: بـ(الترجيح)، وبـ(الظهور) لابن رشد وبـ(القول) للمازري<sup>(1)</sup>، وقد كان منهجه في المختصر كما ذكره في المقدمة حيث قال: (حيث ذكرت قولين، أو أقوالاً فذلك لعدم اطلاعي في الفروع على أرجحية منصوصة... ثم قال أيضاً، وأشير بـ(التردد) لتردد المتأخرين في النقل، أو لعدم نص المتقدمين، وبـ(لو) إلى خلاف مذهبي<sup>(2)</sup>).

ومما يفسر كثرة شراحه والمهتمين به، سهولته وبلاغته ألفاظه مع لطافته، واحتماله أوجه في المذهب مرجحةً، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تواضع المؤلف - رحمه الله -، وذلك بأن ترك باب الاجتهاد مفتوحاً لتلامذته، وكذلك من طلبة العلم المالكيين، وغيرهم من المذاهب، لتعم الفائدة، وتكثر الاستنباطات والتأويلات، ومن ضمن الشروحات على المختصر، (شفاء الغليل في شرح مختصر خليل، لابن الأزرق محمد بن علي المتوفى سنة 869هـ) ومن أشهرها كذلك: (مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، لمحمد المغربي المعروف بالحطاب، المتوفى سنة 954هـ)، (شرح مختصر خليل للزروق أحمد بن محمد بن أحمد البرنسي المتوفى سنة 899هـ)، وغيرها من الشُّروحات الكثيرة، والمفيدة، التي عنيت بتحليل ألفاظه، واستنباط الأحكام الفقهية من عباراته، التي وصفت بالبليغة والدقيقة<sup>(3)</sup>.

1 - مختصر خليل، 1995م، ص 8.

2 - المصدر السابق، ص 9.

3 - اصطلاح المذهب عند المالكية، ص 446.

هذا وإنه قد ألف في المذهب وفقهه كتب كثيرة أكثر من أن تحصى، وإنما اكتفينا بذكر نماذج مما اشتهر من كتب أعلام المالكية، وهناك مخطوطات لم تنشر إلى يومنا هذا، اشتهرت في المغرب العربي، وفي مصر، وفي الأندلس، مما يدلُّ على ثراء هذا المذهب، وعناية أتباعه بالكتابة والتأليف، جاء في مواهب الجليل على مختصر خليل ما نصه: قال الشيخ زروق في شرح الرسالة: يَكْفِي في أرجحيتِه كونه إمامَ دار الهجرة - يعني الإمام مالك - في خير القرونِ وَمَثْبُوعَ أهلِ المغرب الذين لا يزالونَ ظاهرينَ على الحقِّ إلى قيامِ السَّاعةِ كما صحَّ في الحديث، وإن اختلفت روايته وَعَصَمَ اللهُ مذهبَه من أن يكون فيه ذو هوَى، مَوْسُومًا بالإمامة، وجعله مُقَدِّمًا عندَ الكافَّةِ، حتَّى أنَّ كلَّ ذي مذهبٍ يَخْتَارُه بعدَ مذهبِه، وجعلَ رؤساءَ مذهبِه حُجَّةً<sup>(1)</sup>.

ولقد كان المذهب المالكي على الدوام نقي الأفكار، سلفي الأتباع، حيث لم يثبت أن أتباعه تأثروا بأفكار الضالين من الروافض، والمعتزلة، والجهمية وغيرهم، ونذكر بهذه المناسبة ما نقله ابن سهل عن بعضهم أنه قال: كل من زاغ عن مذهب مالك فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله، فقد رأيت في أقاويل الفقهاء، ورأيت ما صنفت من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم أر مذهباً أنقى ولا أبعد من الزيغ من مذهب مالك، وجل من يعتقد مذهباً من المذاهب فيهم الخارجي والرافضي إلا مذهب مالك، فما سمعت أن أحدا ممن يقلده قال بشيء من هذه البدع

1 - مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ج 1 ص 87.

فالاستمساك به نجاة إن شاء الله<sup>(1)</sup>.

ومما ينبغي أن نشير إليه أنه قد كان للمذهب المالكي عظيم الأثر في تمسك المغاربة، وأهل مصر، وإفريقية، بالإسلام الصحيح، وعلى منهج السلف الصالح، وعدم خلطه بالمعتقدات والأفكار الضالة، لذلك يلاحظ أن المغرب الأقصى، وأهل إفريقية عموماً، من حيث نقائهم من البدع والخرافات، باعتبارهم أقرب المذاهب لأهل السنة والجماعة، وتمسكهم بالأصول السنية، يُعدون من أصح المذاهب الفقهية في العالم الإسلامي اليوم.

1 - المصدر السابق، باب ترجمة الإمام مالك، ج 1 ص 86، ملاحظة: لا يعني هذا أن التهمة تلقى على أرباب المذاهب الأخرى من السادة الأحناف، والشافعية، والحنابلة، فهم علماء سادة لهم سبق وفضل وعلم، وبلاء في الذود عن السنة، وقمع البدعة، ولكن المؤلف إنما قصد أن أهل المغرب إنما عرفوا بولائهم لمذهب مالك، وأن هذا الولاء قد حافظ على اتباعهم لأهل السنة، رغم غلبة بعض التيارات في بعض الأزمنة تبعاً للسلطان، كما حدث زمن الدولة الفاطمية، ولكن تمسك الناس بمذهب مالك جعلهم لا يتأثرون بعقائد الدولة الفاطمية التي تنحو نحو التشيع، فحافظ الناس به على اتباع السنة، ولم يتأثروا بأقوال من خالفه، لثقتهم في علم مالك ومذهبه. والله أعلم.

ورقة بيضاء  
( نهاية الفصل الرابع )

## الخاتمة

في ختام هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى النقاط التالية:

من خلال المنهجية التي اتبعتها في هذا البحث، وذلك باستخدام العرض التاريخي، وبمقارنة الإمام مالك مع غيره من أئمة المذاهب، ومناقشة آرائه مع آراء الفرق والطوائف الكلامية، تحصيلنا على نتائج تمخض عنها تحليل لشخصية مالك، واستبيان آرائه في بعض القضايا التي أثارها الفرق والطوائف التي ظهرت في زمانه، وأيضاً خلال دراستنا لآراء مالك - رحمه الله - في مسألة علاقة العقيدة بالأعمال، خلصنا إلى ما يلي:

إن البيئة التي عاش فيها الإمام مالك، وأسرتة التي تربى في أحضانها، كان لها دورٌ كبيرٌ في تكوين شخصيته، ونبوغه في العلم والفضل، حتى قيل فيه "لا يفتى ومالك في المدينة".

إن مكانة الإمام مالك بين الأئمة جعلته محطاً اهتمام العام والخاص، مما أضاف بعداً جديداً إلى ما ينبغي أن يكون عليه الداعية إلى الله، والعالم، والمفتي الذين يقصدهم القوي والضعيف، والغني والفقير، والعامي وصاحب السلطان.

إن الأسلوب الذي اتبعه مالك في علاقته بالخلفاء والأمراء في عصره كان له عظيم الأثر في نصرة السنة، وقمع البدعة، بل يمكن أن نصف الإمام مالكاً بأنه كان أشبه بمن يحافظ على شعرة معاوية بينه وبين الخلفاء، بحيث أنه لم يكن يناصبهم العدا، وفي نفس الوقت كان لا يتبع معهم أسلوب التملق والتزلف والتقرب الذي يتبعه بعض المرتزقين

بالعلم، بل إنه اعتبر أن السلطان نعمةً يمكن أن يستفاد منها لنصرة الدين، ومحاربة الرذيلة، ونشر الفضيلة، والقضاء على الأهواء وأهلها .

لقد كان للإمام مالك - رحمه الله - علاقات مع علماء عصره، مبنية على الود والاحترام، والنصح لله، وفي الله، دون خوفٍ أو وجل، وكذلك كانت علاقتهم - رحمهم الله - به، مبنية على التراحم والتواضع في الدين.

تميّز الإمام مالك بدور كبير في محاربة البدعة وإماتها، وإحياء السنة وتقويتها، وذلك من خلال تبين زيف ما ذهب إليه أهل البدع والأهواء، والتحذير منهم، ومن مخالطتهم، وبخاصة فيما يتعلّق بمسائل العقيدة، كذلك كان لا يفوت مالكاً أن يبين حكم الله فيهم، وكان لأسلوبه الحكيم وطريقة التدرج التي اتبعها لقمع البدعة، وتنقية السنة وتصفيتها من وضع الوضّاعين وكلام الزنادقة والمفتريين، كل ذلك كان له الأثر البالغ في القضاء على هذه الأهواء في ذلك العصر.

لقد كان رأي مالك موافقاً لرأي غيره من الأئمة في المسائل التي خاض فيها المتكلمون، بل لقد أخذ أئمة المذاهب جميعاً موقفاً واحداً في قضايا الاعتقاد التي خاض فيها المتكلمون، وذلك أنهم رأوا أن الإتيان في مسائل الاعتقاد هو الأولى، ولكن لما ظهرت بدعة الكلام وصارت الحاجة ملحة لتبيين الحق، تصدر الأئمة للتصدّي للحجة بالحجة، وللشبهة بتبيينها، ولم يستحبوا الجدل في قضايا الاعتقاد للعوام، لأن العامي قد تفتته مثل هذه المسائل، ولا يستبين له الحق لعدم درايته بمدلولات الألفاظ، ومقاصد المتكلمين.

لقد كان الإمام مالك من أكثر أئمة المذاهب نأياً عن الجدل في مسائل الكلام، وكان ذلك تورعاً منه والتزاماً بمنهج الصحابة والتابعين، لأن هذا لم يكن من سمت السلف الصالح، فقد كانوا - رحمهم الله - لا يناقشون في مسائل الغيبات التي مردّها لله ورسوله، وكذلك لأن أهل المدينة وفقهائها الذين تتلمذ على أيديهم، كانوا لا يحبون الكلام في أمور الدين إلا فيما تحته عمل، ومن هنا كره مالك الكلام في هذه المسائل، فهي من المسائل والقضايا التي ابتدعها أهل الأهواء، أما إذا اقتضى الأمر وتطلبت الأحوال أن يتكلم لإزالة شبهة أو لتفسير معنى لنص شرعي، فإن الإمام يهب للرد عليها، وتوضيحها، شريطة ألا يكون الكلام فيها من باب التكلف المذموم.

إن المنهج الذي اتبعه مالك في الفتوى، جعله يوازن بين الأدلة بحكمة، ويراعي ظروف الزمان والمكان، بحيث إنه لا يحدث بكل ما يسمع، بل يُظهر من الأدلة ما يتناسب مع الأحوال والظروف، وما يحتاج الناس إليه في أمور الدين والدنيا، ويحجب عن العامة من الآراء والفتاوى ما لا تدعو الحاجة إليه، خشية أن يؤدي بهم سوء الفهم إلى تشويش في المعتقد، أو تلبس بفتنة، لذلك كان يهتم بفقهِ الواقع، ولا يتكلف المسائل الافتراضية.

كان مالك - رحمه الله - ينظر للدين جملةً واحدةً، لا يفرق بين الإيمان الذي هو بمعنى الاعتقاد، والإسلام الذي هو بمعنى العمل، فالإيمان عنده "قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ، وبعضه أفضل من بعض"، ويمكن أن نشبه الإيمان من وجهة نظره كالشجرة المثمرة، فكما أن للشجرة جذوراً، وساقاً، وأغصاناً، وورقاً وثماراً، فالدين كذلك له جذوره متمثلة في شهادة

التوحيد ، وساقه وهي المعتقد القلبي الذي لا تستوي الشهادة من دونه ، والأغصان والأوراق تتمثل في شعائر الدين وفرائضه وسننه ، والثمرة ما يكتسبه الإنسان من أعمال الإيمان بتزكية النفس وطهارة القلب ، والفوز برضوان الله تعالى .

هكذا كان فهم مالك - رحمه الله - للدين ، وشرائعه ، وأنه وحدة متكاملة لا يستغني طرفها عن الآخر ، ولا يستوي الفرع دون الأصل ، نعم قد يحدث عطلٌ هنا ، وقد تتساقط بعض الأوراق هناك ، ولكن لا بد للمحافظة على الدين من التمسك بالأصول والإتيان بالفروع قدر المستطاع .

ثم إنَّ من عقيدة المؤمن ألا يعتمد على نفسه كلياً ، بل لا بد له من الاستعانة بالله تعالى ، وهو ما كان يفعله النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث ثبت عنه قوله: "اللهم يا مُقَلِّبَ القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك" فإذا كان هذا دعاؤه عليه الصلاة والسلام ، فما بالك بعموم الأمة ؟ أليسوا أحوج إلى دعاء الله عز وجل بهذا الدعاء ؟ والموفق من وفقه الله تعالى .

وإذا كانت هذه الدراسة قد سلطت الضوء على شخصية الإمام مالك وعقيدته ، واستعرضت بعض آراء الفرق والطوائف في قضايا الإيمان المختلفة ، وقد جرى فيها مقارنة ، وتحليل لشخصيته ، مقارنة مع غيره من الأئمة ، فإننا مع هذا نعتقد أن شخصية الإمام مالك وعقيدته تحتاج إلى المزيد من البحث والتحليل والدراسة العميقة ، ولعل هذا البحث يكون مقدمةً وفاتحة خيرٍ لتشجيع الباحثين والدارسين في هذا المجال ، خاصة إذا علمنا أن الإمام مالك ، مع شهرته وذيوع صيته ، غير أن الدراسات حول عقيدته تعتبر قليلةً ، إذا ما قورنت بالدراسات التي أجريت عن عقيدة الأئمة



الآخرين، أمثال أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي الحسن الأشعري، وابن تيمية، وغيرهم .

وفي الختام أقر وأعترف لله تعالى بالفضل الجميل، وهذا جهدي المتواضع ولا يخلو عمل من قصور، والكمال لله وحده، فإن أكن أحسنت فبفضله وكرمه، وإن تكن الأخرى، فأسأله أن يتجاوز عنا، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، كما نسأله عز وجل أن يرزقنا الثبات على دينه، والسير على خطا الإمام مالك - رحمه الله - وأن يصلي ويسلم على نبينا، وسيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب ...

ورقة بيضاء  
بعد الخاتمة وقبل المصادر

## قائمة المصادر والمراجع

أولاً - القرآن الكريم.

ثانياً - كتب التفسير:

1. ابن جرير الطبري المُسمَّى ( جامع البيان في تفسير القرآن ) محمد بن جرير الطبري، أعيد طبعها في دار المعرفة، بيروت، لبنان 1980م، الطبعة الأولى في اثني عشر مجلداً، كانت بالمطبعة الأميرية ببولاق، مصر 1329هـ.
2. إسماعيل بن عمر ابن كثير، المُسمَّى ( تفسير القرآن العظيم )، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، مصر 1965م، الطبعة الخامسة، دار الأندلس، بيروت، 1984م .
3. الفخر الرازي المُسمَّى (التفسير الكبير) المطبعة البهية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ، 1938م .
4. حميد لحمر، الإمام مالك مفسراً، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1995.
5. شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألويسي، روح المعاني في تفسير السبع المثاني. دار العلم، بيروت، 1988م .
6. عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المُسمَّى (الجامع لأحكام القرآن )، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان .
7. عفيف عبد الفتاح طيارة، تفسير روح القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م .
8. محمد الأمين بن مختار الشنقيطي رحمه الله، المُسمَّى (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، عالم الكتب بيروت 97م .

9. محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف، مكتبة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، 1966م.
10. محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، دار الحديث، القاهرة رقم الإيداع، 88/2112.
11. محمد علي الصابوني، تفسير آيات الأحكام، دار الصابوني، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، 1999م.
12. محمد محمود حجازي، المسمى (التفسير الواضح)، دار النصر، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة، 1972م.

### ثالثاً - الحديث النبوي الشريف:

1. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، المكتبة الإسلامية عين شمس - رقم الإيداع - 20570/2000.
2. أبو الفرج عبد الرحمان بن شهاب الدين الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م.
3. أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق مجموعة علماء، دار الحديث القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، 2001م.
4. أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي، شرح الأربعين نوية، تقديم علي عبد العالي الطهطاوي، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى 2001م.

5. أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه ، تحقيق (محمد فؤاد عبد الباقي، مصطفى محمد حسين) دار الحديث، القاهرة، مصر الطبعة الأولى 1998م .
6. أبو عمر يوسف بن عبد البرّ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، الناشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2001م .
7. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، تحقيق: مصطفى محمد حسين ، دار الحديث، القاهرة، مصر 1999م .
8. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار الحديث القاهرة، مصر، 1999م.
9. أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، مختصر صحيح البخاري التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة 1989م.
10. عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، مختصر صحيح مسلم، تحقيق: محمد بن عبادي بن عبد الحلیم، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى، 2005م .
11. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري، صحيح البخاري ، طبعة جديدة منقحة، موافقة لترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، عناية: محمود بن الجميل، مكاتبه الصفا، الطبعة الأولى، 2003م .
12. محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (بدون تاريخ نشر).

13. مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث .
14. مالك بن أنس الأصبحي، موطأ مالك، رواية سويد بن سعيد الحدثاني، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1994م .
15. مصطفى محمد عماره، جواهر البخاري وشرح القسطلاني 700 حديث مشروحة، المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ نشر) .
16. موسى شاهين لاشين، فتح المنعم على صحيح مسلم، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة، مصر.

#### رابعاً - كتب العقيدة:

1. ابن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1988.
2. ابن القيم الجوزية، شفاء العليل، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، دار الفكر، بيروت، 1398هـ .
3. ابن القيم الجوزية، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، الطبعة الأولى، دار الشريعة، القاهرة، مصر 2004م .
4. أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 1996م .
5. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990م .

6. أبو الحسين محمد أبي يعلى الحنبلي، الاعتقاد، تحقيق: محمد أبي عبدالرحمن الخميس، المطبعة الإصدار، الرياض، 1422 .
7. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، مكتبة اليمامة، (دمشق - بيروت): الطبعة الأولى 1999م .
8. أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، اعتقاد أئمة الحديث، تحقيق محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة، الرياض، 1412هـ .
9. أبو القاسم إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر دار الراية، 1999م، الرياض السعودية.
10. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الأسماء والصفات، تحقيق: عبدالله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي جدة، الطبعة الأولى، 1993م .
11. أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، دار المنار، 1990م .
12. أبو بكر الخلال، السنّة، الرياض، دار الراية ، 1410هـ .
13. أبو حنيفة النعمان، رسالة أبي حنيفة إلى البتي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مطبعة الأنوار بالقاهرة سنة 1386هـ.
14. أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده، كتاب التوحيد، تحقيق: محمد بن عبدالله الوهيبي ، موسى بن عبدالعزيز الغصن ، دار الهدى النبوي، مصر، 2007م .
15. أبو عبدالله محمد بن يوسف السنوسي المالكي الحسني، شرح صغرى الصغرى في علم التوحيد، مكتبة مصطفى الباني الحلبي، مصر،

- الطبعة الأخيرة، 1953م .
16. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المألقي القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: الدكتور صالح عطية الحطمانى، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 2001م .
17. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قيمان الذهبى، العلو للعلي الغفار، تقديم: حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي، الطبعة الأولى، 1998م .
18. أبو عثمان الصابوني، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، مكتبة الآثار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002م .
19. أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير، العقيدة القيروانية، دار البصائر، الجزائر(بدون تاريخ طبعة) .
20. أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الحنفي السمرقندي، شرح الفقه الأكبر المتن المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان، راجعه: محمد بن إبراهيم الأنصاري، مطبعة مجلس دائرة العلم النظامية، الهند 1321هـ .
21. أحمد بن محمد المألقي الصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، تحقيق وتعليق: عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير (دمشق - بيروت) الطبعة الأولى، 1997م .
22. أحمد بن حنبل، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، تحقيق: عبد الإله بن سليمان الأحمدى: دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1416هـ .



23. أحمد بن حنبل، اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل، رواية أبي الفضل عبدالواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي، المكتبة الأزهرية، 1985 .
24. أحمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، 1992م .
25. الزركشي رسالة ( معنى لا له إلا الله )، دار التراث الإسلامي، القاهرة، 1975 .
26. الصنعاني، تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، تحقيق: السيد محمد سيد، مكتبة الزهراء، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992م .
27. الصادق عبدالرحمن الغرياني، في العقيدة والمنهج، مطابع الثورة العربية، شارع الرشيد، طرابلس، ليبيا، 2002م .
28. القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المالكي الإشبيلي، قانون التأويل، دراسة وتحقيق - محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1990م .
29. القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين ابن محمد بن الفراء، إبطال التأويل لأخبار الصفات، تحقيق ودراسة: أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية للنشر، الكويت، (بدون تاريخ طبعة) .
30. القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبه، مصر، الأولى 1965 .
31. القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي، شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، تحقيق: أ. د. أحمد محمد نور سيف، دار البحوث،

- الإمارات، 2004م .
32. الإيجي، الموقف من علم الكلام، دار الكتب، بيروت، لبنان، (بدون تاريخ طباعة)
33. جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ طباعة).
34. حسن السيد متولي، مذكرة التوحيد والفرق، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، 1998م .
35. حافظ بن أحمد الحكمي، مائتي سؤال في العقيدة، تخريج حلمي بن إسماعيل الرشيد دار العقيدة، الإسكندرية، مصر، 1999م .
36. حمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، 1992م .
37. سعد عبد الله عاشور، منهج السلف في إثبات الصفات الإلهية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر العدد الأول، غزة، فلسطين، 2002م.
38. سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، مطبعة المعارف، الرياض 2002 .
39. سعد الدين مسعود بن عمر التفتازي، العقائد النسفية، تحقيق: محمد عدنان درويش، مكتبة الغرب، بيروت ، 1990م .
40. شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ذم الكلام وأهله، تحقيق عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم، 1998م .

41. شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، كتاب الإيمان، تحقيق: عصام الدين الصبايطي، دار الحديث، القاهرة، 2003.
42. شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة، الاستقامة، علق عليه: أشرف علي حنفي، دار البصيرة، مطابع الإسكندرية، مصر، طبعة مصححة مدققة، 2004م.
43. شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة، الفتوى الحموية الكبرى، تقديم: محمد عبد الرازق حمزة، مطبعة المدني، مصر 1983.
44. شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، العقيدة الواسطية، شرح: صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة دار السلام، الرياض، 1997م.
45. شيخ الإسلام أحمد ابن تیمیة، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، دار عالم الكتب، الطبعة السابعة، 1999م.
46. صالح بن محمد بن حسن الأسمری، إفادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مطابع المدينة المنورة 2002م.
47. صلاح الدين بن أحمد الأدلبي، عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، دار الآثار الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007.
48. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد، عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ، مطابع المدينة المنورة، 1415هـ.
49. عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والأديان المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، 1422هـ.

50. عبد الهادي إدريس أبوصيع، الجوهرة الفريدة في علم التوحيد، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى، 1998م .
51. عبد الغني شيبه، مباحث في أصول العقيدة الإسلامية، ليبيا، سبها، منشورات جامعة سبها الطبعة الأولى 2001م .
52. عبد الرحمن المحمود، القضاء والقدر، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، 1997 .
53. عبد السلام التونجي، العقيدة في القرآن، طرابلس، ليبيا، جمعية الدعوة الإسلامية الطبعة الأولى 1986م .
54. عبد السلام بن إبراهيم اللقاني، شرح جوهرة التوحيد، المسمى إتحاف المرید بشرح جوهرة التوحيد، دار القلم العربي، سورية، حلب، الطبعة الأولى، 1990م.
55. عبد المجيد عزيز الزنداني، كتاب التوحيد، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد سمير الشاوي، دار العصماء، دمشق، الطبعة الأولى 2002م .
56. محمد الأمين الشنقيطي، بحث ودراسات لآيات الأسماء والصفات، مطابع المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1410هـ .
57. محمد صالح العثيمين، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 1998م .
58. محمد صالح العثيمين، رسالة في القضاء والقدر، المكتبة الوقفية، المدينة المنورة، 1422هـ .
59. محمود صالح البغدادي، إرشاد الأنام في عقائد الإسلام، دار البراء، الطبعة الأولى، 1985م .

60. محمد عبد الله الوهيبي، اعتقاد أهل السنة في الصحابة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1428 .
61. محمد عبد الرحمن الخميس، اعتقاد الأئمة الأربعة، دار طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1422هـ .
62. محمد بن عبد الرحمن الخميس، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية، 1425هـ.
63. محمد عز الدين الغرياني، قسم العقائد برسالة بن أبي زيد القيرواني، ELGA فاليتا - مالطا، 1996م .
64. محمد عز الدين الغرياني، سلسلة اعتدال التصوف (الآيات المتشابهة بين التأويل والتفويض والإثبات) مطابع طرابلس، 2001 .
65. محمد مفتاح قريو، شرح لبّ العقائد الصغير، مكتبة الشعب، مصراته، ليبيا، رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بنغازي 95/ 2101 .
66. محمد بن محمد الأمير، تقاييد على شرح عبد السلام على جوهرة اللقاني في علم التوحيد، مطبعة حجازي، القاهرة، ( بدون تاريخ طباعة) .
67. هلموت ريتر مقالات الإسلاميين للأشعري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ( بدون تاريخ طباعة) .

## خامساً - كتب الفقه وأصوله:

1. إبراهيم اليعقوبي الحسني، فقه العبادات، مطابع الشام، دمشق، 1405هـ .
2. إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى : 790هـ)، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفا، الطبعة الأولى، 1997م .
3. ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العلمين، تحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، أمام جامعة الأزهر، مصر ( بدون تاريخ الطباعة ) .
4. أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل للمسائل المستخرجة، حققه: د محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1988م.
5. أبو عبد الله محمد بن يوسف المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية بيروت ، 1995.
6. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ: زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م .
7. أحمد بن غنيم النفراوي المألّكي، الفواكه الدواني، على رسالة أبي زيد القيرواني، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ( بدون تاريخ الطباعة ) .
8. الصادق بن عبد الرحمان الغرياني، مدونة الفقه المألّكي، طرابلس، مكتبة الشعب مصراته ليبيا، لطبعة الثالثة 2005م .

9. حمزة أبوفارس، بحوث ودراسات في بعض مصنفات الفقه المالكي، منشورات، ELGA فاليتا مالطا ، 2001 .
10. سحنون بن سعيد التنوخي، المدونة الكبرى، ضبط وتخرّيج: محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ( بدون تاريخ الطباعة ) .
11. شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت، 1994م.
12. شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلّيم ابن تيمية مجموع الفتاوى، تحقيق: ابن القاسم، الطبعة الأولى، الرياض، 1381هـ .
13. عادل المطيرات، الأئمة الأربعة وأصول مذهبهم، دار الاعتصام، الرياض، الطبعة الأولى ، 1422هـ .
14. عبد المجيد عبد الحميد الديباني، المنهاج الواضح في علم أصول الفقه، جامعة قار يونس ، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى 1995م .
15. عبد الرحمان بن محمد بن عوض الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2005 .
16. عبد الهادي إدريس أبوإصبع، الشرح المبين، شرح متن ابن عاشر في الفقه المالكي، ليبيا، بنغازي، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى 1999م .
17. علي الصعيدي العدوي المالكي، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرياني، دار الفكر، بيروت، 1412هـ .
18. علي بن عبد الصادق الطرابلسي المالكي، إرشاد المرید، تحقيق السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا، 2001م.

19. محمد بن أحمد المعروف بن رشد، المقدمات الممهديات لابن رشد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ( بدون تاريخ الطباعة ) .
20. محمد زكريا الكاندهلوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك للشيخ، تحقيق: أيمن صالح، الطبعة الأولى، القاهرة، 1999 م .
21. محمد بن أحمد المسناوي المالكي، نصرة القبض، والرد على من أنكر مشروعيته، ضبط وتعليق: د. عبد اللطيف بن الإمام بوعزيزي، د. طه بن علي بوسريح التونسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان .
22. محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: 1421هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، الناشر: دار الوطن، دار الثريا، الطبعة: الأخيرة، 1413 هـ.
23. محمد يحيى بن عمر بن مختار الولاتي الشنقيطي، إيصال السالك في أصول مالك، تونس، المطبعة التونسية، 1928 م .
24. مصطفى ديب البغا، التحفة الرضية في فقه السادة المالكية، شرح متن العشماوية، دار ابن كثير، دمشق بيروت، الطبعة الأولى، 1992 م .



## سادساً - معاجم اللغة:

1. القاموس المحيط، للفيروزابادي، جمع الطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة 1980م .
2. لسان العرب، لابن منظور، طبعة جديدة منقحة، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، 2000م .
3. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، ترتيب محمود خاطر، دار المعارف، مصر 1983 .
4. مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1984م .

## سابعاً - كتب السير والتاريخ:

1. ابن الجوزي، المنتظم، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1358هـ .
2. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1965م .
3. أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي، مناقب الإمام الشافعي تحقيق، السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1971م .
4. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، دار الأندلس، المغرب، 1988م .
5. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وايفي، دار نهضة مصر، طبعة 2004م .
6. أبو عمر يوسف بن عبد البر، الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، عناية: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، الطبعة الأولى، 1997م .

7. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م .
8. الذهبي، سير أعلام النبلاء، الطبعة التاسعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413 هـ .
9. إسماعيل بن كثير القرشي، البداية والنهاية، خرَّج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، محمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 2002 .
10. التتبيكي أبو القاسم أحمد بن أحمد عرفه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت ( بدون تاريخ طباعة) .
11. الحجوي محمد بن الحسن، الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، 1396 هـ .
12. القاضي عيَّاض بن موسى بن عيَّاض، ترتيب المدارك، تحقيق: عبدالقادر الصحراوي، وزارة الأوقاف بالمغرب، الطبعة الأولى، 1983م .
13. الهروي، ذم الكلام، تحقيق - الدكتور سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ( بدون تاريخ طباعة )
14. جلال الدين السيوطي، تزيين الممالك بمناقب مالك مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1426 هـ.
15. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار الجيل بيروت، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة عشر، 1991م .
16. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، 1987م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري .

17. صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الجامعة السلفية، طباعة المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل، الإسكندرية، (بدون تاريخ).
18. عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، دار المنار، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2000م.
19. عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، شارع الجمهورية، القاهرة، مصر (بدون تاريخ طباعة).
20. عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي، الملل والنحل، تحقيق ألبير نصري نادر، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1970م.
21. عز الدين ابن الأثري أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر الإسلامي، سوريا، 1988م.
22. علي مصطفى المصراتي، نماذج في الظل، وزارة الإعلام، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1978م.
23. محمد إبراهيم أحمد علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث الإسلامية، الإمارات العربية المتحدة، دبي، الطبعة الأولى، 2000م.
24. محمد أبوزهرة رحمه الله مالك حياته وعصره، دار الثقافة العربية للطباعة بمصر، 1947م.
25. محمد سكال الجزائري، المذهب المالكي، تحقيق ومراجعة: الدكتور بديع السيد اللحام، دار الآثار المصرية، القاهرة، 1988م.

26. محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، تحقيق محمد شحاته إبراهيم، دار المنار الطبعة الأولى 1997م .
27. محمد عبد الغني الباجقني، الوجيز الميسر في أصول الفقه المالكي، الطبعة الأولى، مكتبة الآثار القاهرة، 1968م .
28. محمد بن الحسن الفاسي، الفكر السامي، مطابع الدار البيضاء، المغرب، 1999 .
29. ميكلوش موراني، جامعة بون (ألمانيا)، دراسات في مصادر الفقه الإسلامي، ترجمه للعربية - الدكتور عمر صابر عبد الجليل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988م، بيروت .
30. نبيه عاقل، دراسات من تاريخ العصر الأموي طبعة رابعة جامعة دمشق 1992م.

### ثامناً - كتب تراجم الفقهاء والأعلام:

1. أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1981م .
2. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، 1900م .
3. أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، الجرح والتعديل، المكتبة الوقفية، 2007م .
4. أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ) معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1998م .

5. الإمام الذهبي، تذكرة الحفاظ، مكتبة المدينة، السعودية، 2007 .
6. برهان الدين ابن فرحون المألّكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، طبعة قديمة، بهامشها الابتهاج بتطريز الديباج للتبكي (بدون تاريخ) .
7. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي دمشقي (المتوفى : 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشر، 2002 م .
8. محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية طبقات المألّكية، دار الفكر للطباعة، 1340 هـ.
9. يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة بيروت، تحقيق: د. بشار عواد معروف، باب من اسمه عمرو.

### تاسعاً - رسائل الدكتوراه والماجستير:

1. سعود الدعيجان، منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، سنة 1415هـ .
2. سيد محمد موسى توانا، رسالة دكتوراه مطبوعة، الأزهر الشريف، وهي بعنوان، الاجتهاد ومدى حاجة الناس إليه في هذا العصر، دار الكتب الحديثة، مصر 1972.
3. محمود نادي عبيدات، مالك بن أنس وأثره في الحديث، رسالة دكتوراه، بجامعة الأزهر، بمصر، كلية أصول الدين، سنة 1972م.

4. محمد المختار محمد المامي، رسالة ماجستير، بعنوان ( المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته - خصائصه وسماته) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1993م .
5. ياسر بن عجيل النشمي، إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك، جامعة الكويت، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، رسالة ماجستير، 2002م .

### عاشراً - مراجع باللغة الإنجليزية:

- Al-Tawhid, A Quarterly of Islamic Thought and Culture, London: Sazman-e-Tablight-e-Islami ,1988 .
- Frank, Richard M. Knowledge and Taqlid: The Foundations of Religious Belief In Classical Ash'arism in Journal of the American Oriental Society, vol. 109, no. 1 (1989) .
- Izutsu, Toshihiko, The Concept of Belief in Islamic Theology (reprint), New Hampshire, Salem Ayer Company, publishers, Inc., 1988 .
- 4-J.Meric pessagno,The Murji`a,Iman and Abo Ubayd . Jounral of American, Oriental socaity,vol.95,no.3,1975, pp.382-294 .
- Madelung, Wilferd, Early Sunni Doctrine Concerning Faith as Reflected in the Kitab al-Iman of Abu 'Ubayd al-Qasim B. Sallam (d. 224/438) in Studia Islamica, no. 32 (1970).
- Psychology of personality - Islamic perspectives, eds. Amber Haque and Yasien Mohammed, Gengage learning, Singapore, 2009 .
- Wensinck, A.J., The Muslim Creed: Its Genesis and Historical Development, India: Delhi, Munshiram Manoharlal Publishers Pvt. Ltd. New Delhi, India 1979.

## الحادي عشر - كتب وأبحاث وإنترنت:

1. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، دار الفجر، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2004م .
2. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة الأولى، مصر، 1325هـ .
3. أبو إبراهيم الرئيس الحنفي، أقوال لشيخ الإسلام ابن تيمية وبعض العلماء الأوائل حول عقيدة الإمام أبي حنيفة جمعها: مقالة بعنوان (براءة الحنفية من الفرق المبتدعة، 23 ربيع الثاني/1423، نقلاً عن موقع [www.islamonline.com](http://www.islamonline.com) .
4. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي المالكي، الاعتصام للشاطبي، تحقيق محمد هاني، المكتبة التوفيقية، ( بدون تاريخ طبع )
5. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تقديم وتعليق، طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، طبعة جديدة منقحة ( بدون تاريخ ) .
6. أحمد زروق، عدة المرید الصادق، تحقيق: الصادق الغرياني، الطبعة الأولى، دار الجماهيرية، سبها، ليبيا 1996م .
7. إميل در منغم، حياة محمد، ترجمة محمد عادل زعيتر، بيروت، لبنان، 1991م .
8. الصادق عبد الرحمان الغرياني، الغلو في الدين غلو التطرف وغلو التصوف، المطابع سبها، الطبعة الأولى 2000م .
9. القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002م .

10. حماد فلاح الغزالي، دراسات في الفكر الإسلامي الدار العربية للكتاب، طباعة مدريد، إسبانيا، 1985م .
11. خالد عبد الله قاسم، دراسة بعنوان: المعتزلة في دائرة المعارف الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، 2003م .
12. صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، محاضرات دار التوحيد، الطبعة الأولى، 2003م
13. صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980م .
14. طلعت محمود سقير، الإسلام دين العمل، جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الثانية، 199م .
15. راشد عبد الله فرحان، أديان معاصرة، جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الثانية، 1985م .
16. عبد العظيم شرف الدين، تاريخ التشريع الإسلامي، منشورات جامعة قار يونس بنغازي 1989م .
17. عبد الرحمن بن صالح المحمود ، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة، طبعة مكتبة الآثار الإسلامية، الطبعة الأولى 2006م، نقلاً عن شبكة نور الإسلام : [www.islamlight.net](http://www.islamlight.net) .
18. عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري الشافعي، تحقيق إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، 1997م .
19. عبد السلام التونجي، مؤسسة الإباحة في الشريعة الإسلامية، جمعية الدعوة الإسلامية، 2007م .



20. عبدالله بن عبد الحميد الأثري، الوجيز في عقيدة السلف الصالح، مراجعة وتقديم: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، 1422هـ، نقلاً عن موقع <http://www.al-islam.com>.
21. عز الدين بن زغبية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، العدد الرابع عشر، 1997م.
22. عفيف عبد الفتاح طيارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، 2002.
23. عمر يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، الطبعة الأولى، دار الكتب الإسلامية مصر 2002.
24. عيسى بن بلقاسم الفاخري، دروس ومذكرات، جمع وترتيب مفتاح الفاخري، 2001، لم تنشر.
25. محمد أحمد برانق، عهد الأئمة المجتهدين، إشراف لجنة من الأساتذة، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1978م.
26. محمد بن عثمان الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة المركزية جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا (بدون تاريخ طباعة).
27. محمد محروس المدرس الأعظمي، وشائج الصلة المتميزة بين مذهب الإمامين أبي حنيفة ومالك الجامعة الإسلامية، ماليزيا، كلية معارف الوحي، قسم الفقه والأصول [www.almoodares.net](http://www.almoodares.net) 2008/8/22.
28. [WWW.habous.gov.ma / ar/detail.asp](http://WWW.habous.gov.ma/ar/detail.asp)، نقلاً عن مقالة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية. 2006/6/15م.

ورقة بيضاء

بعد المصادر والمراجع وقبل فهرس الموضوعات

## فهرس الموضوعات

الموضوع.....	الصفحة
الخلاصة .....	8
المقدمة .....	10
تمهيد .....	19
<b>الفصل الأول: مالك بين عصر النبوة وبعده</b>	
المبحث الأول: الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في عصر النبوة	27
المطلب الأول : الحياة الثقافية .....	27
المطلب الثاني : الحياة الاجتماعية .....	32
المطلب الثالث: الحياة السياسية .....	35
المطلب الرابع: الحياة السياسية والثقافية قبيل وأثناء عصر مالك...	41
المبحث الثاني: الحالة الثقافية والاجتماعية والسياسية قبيل وأثناء عصر مالك .....	50
المطلب الأول : الطبيعة العلمية بعد وفاة الرسول ﷺ .....	51
المطلب الثاني: الطبيعة العلمية في عصر مالك .....	55
المبحث الثالث: تعريف بالإمام مالك وسيرته .....	59
المطلب الأول: مالك وطلبه للعلم وانتقاؤه للأشياخ .....	63
المطلب الثاني: منهج الإمام مالك .....	71
المطلب الثالث: مكانة الإمام مالك العلمية .....	76

- المطلب الرابع: سمته وأخلاقه ..... 89
- المطلب الخامس: وفاته ومآثره ..... 95

### الفصل الثاني: العقيدة الإسلامية ومدلولاتها

- المبحث الأول: مفهوم العقيدة الإسلامية ..... 106
- المطلب الأول: الفرق بين العقيدة والدين ..... 111
- المطلب الثاني: خصائص العقيدة الإسلامية ..... 120
- المطلب الثالث: التوحيد ..... 126
- المبحث الثاني: شمولية الدين الإسلامي عند الإمام مالك ..... 191
- المطلب الأول: العلاقة بين الإيمان والإسلام ..... 193
- المطلب الثاني: الشرائع والعقائد في الإسلام ..... 208
- المبحث الثالث: البدعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ..... 215
- المطلب الأول: حكم البدعة ..... 216
- المطلب الثاني: أنواع البدعة ..... 217
- المطلب الثالث: أسباب البدعة ..... 227
- المطلب الرابع: فضل التمسك بالسنة وترك البدعة ..... 228
- المطلب الخامس: موقف مالك من البدع وأهلها ..... 235

### الفصل الثالث: فهم الإمام مالك للعقيدة الإسلامية

#### ممارسةً وتطبيقاً

- المبحث الأول: علاقة العقيدة بالعمل ..... 253
- المطلب الأول: المفهوم العام للعبادة ..... 254
- المطلب الثاني: أقسام العمل من حيث حكمه ..... 259

262	.....	المبحث الثاني: تأثير العمل في الإيمان
268	.....	المطلب الأول: تأثير الذكر في الإيمان
271	.....	المطلب الثاني: تقسيم العمل من حيث ماهيته
273	.....	المطلب الثالث: زيادة العمل في الإيمان ونقصانه
312	.....	المطلب الرابع: تفاوت الأعمال في الأجر والثواب
326	.....	المبحث الثالث: فهم الممارسة وممارسة الفهم
326	.....	المطلب الأول: ارتباط الفهم بالممارسة
329	.....	المطلب الثاني: الفهم والممارسة عند الإمام مالك
343	.....	المطلب الثالث: اجتهاد الإمام مالك في النص

### الفصل الرابع: الطوائف والفرق

365	.....	المبحث الأول: أهم الفرق والطوائف في عصر الإمام مالك
367	.....	المطلب الأول: تعريف بالطوائف والفرق المختلفة
370	.....	المطلب الثاني: أهم الآراء التي ذهبت إليها هذه الفرق
375	.....	المطلب الثالث: نشأة علم الكلام
387	.....	المطلب الرابع: بين يدي فرق المتكلمين
390	.....	المطلب الخامس: الأشعرية نشأتها وأسبابها
432	.....	المبحث الثاني: رأي مالك في الفرق المختلفة
433	.....	المطلب الأول: تقييم للفرق على ضوء الكتاب والسنة
448	.....	المطلب الثاني: منهجية مالك في التعامل مع الفرق
457	.....	المطلب الثالث: براءة المذهب المالكي من أهل الأهواء
462	.....	المبحث الثالث: تأملات في المذهب المالكي
463	.....	المطلب الأول: أعلام المذهب المالكي

- المطلب الثاني: تدوين المذهب المالكي ..... 465
- المطلب الثالث: تطور المذهب المالكي في شمال أفريقيا والمغرب ..... 466
- الخاتمة ..... 481
- قائمة المصادر والمراجع ..... 487
- فهرس الموضوعات ..... 511

صُفِّ هذا الكتاب بطريق الجمع الضوئي  
في مكتب الشحومي ( الصابري - بنغازي )